N O T H I N G

روي سورنسن

العَدَم

تَأريخٌ فَلسَفيٌّ

ترجمة

لؤي خزعل جبر

الناشئ

العَدَم .. تَأريخٌ فَلسَفيٌّ .. روي سورنسن

• ترجمة: لؤي خزعل جبر

• مراجعة وتقديم: حيدر ناظم محمد

• المراجعة اللغوية د. كرار رحيم آل حبيب

الطبعة الأولى 2023

القياس: 17 * 24

عدد الصفحات: 426

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد 2578 لسنة 2023

الترقيم الدولي: (ISBN) : 978-9922-697-29-1

دار ومكتبة عدنان

للطباعة والنشر والتوزيع

العراق - بغداد - شارع المتنبي

فيس بوك: دار ومكتبة عدنان | انستغرام: adnanlilbarary8865 | تويتر: @AdnanPublishing

Email: adnan.publisher97@gmail.com

• ترجم الكتاب عن النص الأصلي:
Nothing A Philosophical History بالاتفاق مع مطبعة جامعة اكسفورد وجميع حقوق الترجمة العربية محفوظة لدى دار ومكتبة عدنان - Oxford University Press 2022©.

• جميع حقوق النشر محفوظة للناشر، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواءً أكانت ألكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والإسترجاع، دون إذن خطي من أصحاب الحقوق.

روي سورنسن

العَدَم تَأريخٌ فَلسَفيٌ

ترجمة

لؤي خزعل جبر

مراجعة وتقديم

حيدر ناظم محمد

2023

دار ومكتبة عدنان

الناشئ

المحتويات

قائمة الأشكال 7
تقديم 11
المقدمة 17
العِرفان 26
أولًا: تمثيل العَدَم 29
1. أسلاف الإنسان في ماكابونسغات: تصوير الغياب 31
2. هرميس تريسمجيتس: كتابة الغيابات 41
ثانيًا: العَدَم النسبي 53
3. لاوتزو: غياب الفعل 55
4. بوذا: غياب الكُلّيّات 72
5. ناجارجونا: غياب الأرضيّة 101
ثالثًا: العَدَم المُطلَق 115
6. بارمينيدس: غياب الغياب 117
7. أناكساجوراس: غياب الغيابات الكليّة 131
8. ليوكيبوس: الغياب المطلق المحلي 144
رابعا: العَدَم الكامِن 161
9. أفلاطون: ظِلال الغياب 163
10. أرسطو: الغياب الكامِن 183
11. لوكريتيوس: الغياب اللامتناهي 199
خامسًا: العَدَم الإلهي 207

12. القديسة كاثرين الإسكندرية: غياب عدم الفيلسوفات 209
13. أوغسطين: شرُّ الغياب غياب الشرِّ 213
14. فريدوجيسوس: التزامُن والغياب 231
15. موسى بن ميمون: ألوهة الغياب 243
سادسًا: العَدَم العلمي 259
16. برادواردين: غياب الحتميَّة 261
17. نيوتن: المكان الآمن للغياب 283
18. لايبنيز: غياب التناقض 297
سابعًا: العَدَم العلماني 315
19. شوبنهاور: غياب المعنى 317
20. بيرغسون: تطور الغياب 339
21. سارتر: الغياب المُدرَك 354
22. برتراند راسل: غياب المراجع 378
المراجع 413

قائمة الأشكال

الشكل1: صورة فوتوغرافية لحصاة ماكابونسغات لباتريك ناجل Patrick Nagel وريموند دارت Raymond Dart.

شكل 2: حلم الفراشة للرسام الصيني لو تشي Lu Zhi (نحو 1550).

الشكل 1.1 نقطة التلاشي.

الشكل 1.2 جوزيف رايت Joseph Wright، تجربة عن طائر في مضخة الهواء.

الشكل 1.3 أسدان أسودان. مؤسسة برادشوBradshw معرض كهف للفنون.

الشكل 1.4 طائر رجل لاسكو. الإسناد Peter80.

الشكل 2.1 تحوت، Thoth Deux fois Grand, le Second Hermès. N372.2A، متحف بروكلين، الإسناد جان فرانسوا شامبليون Jean - Francois Champollion.

الشكل 3.1 وجه الإسكيمو من مؤشر الأوهام.

الشكل 3.2 أنموذج لوح Go 19 × 19 من مقبرة سوي (581 - 618 م). الإسناد Zcm11.

الشكل 3.3 رمز الين واليانغ.

الشكل 3.4 جدول الثنائيات.

الشكل 3.5 صفحة من Jieziyuan Huazhuan ("دليل حديقة بذور الخردل")، دليل رسم صيني من القرن السابع عشر.

الشكل 4.1 تمثال بوذا باميان الأطول وغيابه.

الشكل 4.2 دوائر تتشنر Titchener.

الشكل 4.3 تمثال بوذا بوروبودور غير المكتمل.

الشكل 4.4 الصليب الجنوبي.

الشكل 4.5 الوهم الإشعاعي.

الشكل 6.1 تمثال بارمينيدس.

شكل 7.1 أسطوانة ماء مائلة وغير مائلة.

الشكل 7.2 الخماسي الفيثاغوري.

الشكل 7.3 المستطيل الذهبي.

الشكل 7.4 اللولب الذهبي.

الشكل 8.1 ذرات بارمينيدية.

الشكل 8.2 وجه وظهر العملة المعدنية اليونانية 10 دراخما لعام 1992.

الشكل 8.3 تصوير كبلر Kepler للمواد الصلبة الأفلاطونية.

الشكل 8.4 تفوُّق الكلِّ على الجزء.

الشكل 9.1 تسلسل التظليل في الميتافيزيقيا لأفلاطون.

الشكل 9.2 الظل والانعكاس من حلقة معدنية.

الشكل 9.3 تمثال حقيقي لأفلاطون؟

الشكل 9.4 الظل الممتزج.

الشكل 9.5 نصب ستيفي راي فون التذكاري (النحات رالف هيلميك Ralph Helmick).

الشكل 9.6 وهم شبكة هيرمان.

الشكل 9.7 الصورة الفوتوغرافية السلبية لشاشة متسخة.

الشكل 9.8 أكثر سوادًا من الظل الأسود.

الشكل 10.1 الكأس المتزايد والمتناقص.

الشكل 10.2 تقريب المربع الدائري.

الشكل 10.3 قطعة القديسة فيرونيكا، نقش بواسطة كلود ميلان، Claude Mellan، 1649.

الشكل 10.4 رسم كأس فيثاغورس بواسطة نيفيت ديلمن Nevit Dilmen.

الشكل 10.5 رسم المنفاخ بواسطة بيرسون سكوت فورسمان Pearson Scott Foresman.

الشكل 13.1 الشر فجوة في الخير.

شكل 14.1 ساعة شمسية بشرية في مركز أوستن للطبيعة والعلوم.

الشكل 14.2 مخطط الحركة.

الشكل 15.1 الختم العظيم.

الشكل 15.2 صورة موسى بن ميمون في مجلس النواب الأمريكي.

الشكل 16.1 شكل الكرة الفرعية.

الشكل 16.2 إبادة الخلايا الوسيطة.

الشكل 16. 3 ملء مكان بمكعب مقطوع من عمود طويل لانهائي.

الشكل 16.4 القوس المستحيل.

الشكل 16.5 مكعب مكشوف.

الشكل 17.1 الزورق الفراغي.

الشكل 18.1 خلق الذات لشاول شتاينبرغ Saul Steinberg.

الشكل 18.2 إعادة البناء الأحفوري للايبنيز لحيوان وحيد القرن الأسطوري في بروتاجيا.

الشكل 18.3 رسم تخطيطي أرسله بوفيت Bouvet إلى لايبنيز.

الشكل 18.4 شكل كوفا Cova الثماني.

الشكل 18.5 البلاط غير الدوري في معهد ميتشل للفيزياء الأساسية وعلم الفلك، جامعة تكساس.

الشكل 19.1 لايبنيز السعيد (عكس لرؤية شوبنهاور).

الشكل 19.2 رجل عصامي لبوبي كارلايل Bobbie Carlyle في مركز لاي، جامعة سانت لويس.

الشكل 20.1 جدار شاغر في صالون كاريه في متحف اللوفر بعد سرقة لوحة الموناليزا في عام 1911.

الشكل 20.2 بطاقة بريدية للقديس أنتوني.

الشكل 20.3 معكوس سالب.

الشكل 21.1 الموناليزا المقلوبة.

الشكل 21.2 مجموعة زجاج نبيذ المنزل.

الشكل 21.3 لوحة الموناليزا المخربة لدوشامبDuchamp .

الشكل 21.4 دائرتا تايلور Taylor.

تقديم

(اللاشيء هو شيء ما ... لورانس كراوس)

تسعى هذه المقدمة الى الدخول عبر الحوار مع القاريء الافتراضي الى بناء فهم يسير بمحاذاة الاجراء، و نقصد به التقيد بالوظيفة التي يقوم بها مفهوم ما في سياق تاريخي محدد، و على الرغم من كون هذا المفهوم (الاجراء)، مفهوم ملتبس، لكنه قابل للإنضباط في اطار التحديد السابق، ناهيك عن كون توظيفه ضرورياً في سياق التعاطي مع مفهوم معقد و متشابك و متداخل مثل مفهوم (العدم) و من هنا نستطيع الدخول في الحوار الذي دعونا اليه في مطلع هذه المقدمة، ان العنوان المترجم، (Nothing) يجب ان يكون دون ادنى شك (اللاشيء)، فلماذا كان العدم ؟ وما هو مغزى و غاية و اساس الترادف بين (اللاشيء) و (العدم) ؟ الاجابة عن هذين السؤالين تتطلب فهم و تثبيت مسائل اساسية، و لكن قبل ذلك يجب ان نثبت حقيقة واقعية مفادها ان الحاجة الى قراءة هذا المفهوم، اقصد العدم، اللاشيء، ليس مجرد هواية فكرية او مغامرة ذلك الجالس على اريكته مرتاح البال يحتسي قهوة الثقافة المعاصرة! ، انما هو نوع من المكابدة و السعي و الفرار من عصر وسم بالتفاهة و اللاجدوى، و العدم المحض، الى فسحة أمل يكون فيها العقل فارساً و لو لبرهة من الزمن الذي تتساوى فيها ايامنا و سني حياتنا.

لكي تبدأ الحكاية بشكل سلس يجب ان تكون تلك البداية مع اليونان، و مع امثلة حصرية، ذات علاقة مباشرة، لا بموضوع الكتاب بصورة اجمالية فقط، و انما بفكرة المقدمة حصراً، فعندما انكب الفلاسفة اليونان على فهم العالم، وجدوا انفسهم مرهقين بالسؤال عن أصل هذا العالم و كانت إجاباتهم، رغم اختلافها الواضح، تُرجع هذا

النظام إلى شيء محدد معلوم نفهمه و نستطيع تصوره، فلم يكن اليوناني، كما هو حال اي انسان آخر على وجه البسيطة، قادر على تصور شيء خارج إطار مقدرته الذهنية، فالماء مع طاليس هو اصل للعالم، وفهم هذا العالم يجب ان يتم في اطار علاقته مع هذا الاصل، بل ان كل الاشياء بالتالي، يجب ان تكون واضحة باعتبار وضوح أصلها، يمثل بارمينيدس حالة مميزة في تحديده بين نوعين من الصفات في الوجود، النور الذي يمثل الصفة الإيجابية، وتندرج تحته مجموعة صفات مثل ، النار، الحرارة، المذكر، الفعل. والنوع الاخر من الصفات، هو الظلام الذي يمثل صفة سلبية، لها مجموعة من الصفات مثل الثقل، البرودة، الأنوثة. وبعد تأمل عميق لهذه الصفات، سمى الصفات الإيجابية «الوجود» والصفات السلبية اللاوجود، و بهذا ، فالعالم مقسم إلى الوجود واللاوجود، و وفق ذلك اعتبر أن الوجود موجود واللاوجود غير موجود، فثبات و وحدة الوجود، لا نصل إليها بالمشاهدة الحسية بحسب بارمينيدس، بل من خلال التحليلات العقلية، وبهذا ميز بين العقل والحس، و هي قفزة نوعية واعدة كان لها اثراً حاسماً في تاريخ الفلسفة، و ستبقى لصيقة بمجمل عملية التفلسف خاصة في مبحث الابيستمولوجيا.

كان لـ ديمقريطس رائد المدرسة الذرية، رأي جدير بالاهتمام، و يسير باتجاه جعل من التأصيل لمفهوم الوجود اهمية استثنائية، فالذرات المادية، أو الجزء الذي لا يتجزأ، هي أصل السكون والفساد، أي العالم الكائن. وهي في حالة حركة دائمة. وحركة الذرات هذه ليست موجهة إلى غاية ما. و شكل وحجم هذه الذرات، هو الذي يحدد صفات الأشياء. و ليست حالة الموجودات الا نتاج عن هذا التصادم، ونسبة المسافة الموجودة بينها. فالذرات أجسام لا يمكن أن تنحل. في البدء كانت الذرات متحركة في الخلاء، أي أن الحركة أزلية وأبدية. فلا شيء من لا شيء، ولا شيء يعود إلى اللاشيء.

والحقيقة التي نروم بلوغها هي التالية: أن مفهوم الوجود، حسب مجرى البحث لدى اليونان، ذات بعد اجرائي و بديهي منطقي، في آن واحد، فهو موجود ولا يمكن ألا يكون موجوداً، أما اللاوجود، فتقابل قضية منطقية نابعة من فكرة اثبات وجود الوجود،

فاللاوجود، لا يدرك و لا يتحقق أبدًا ولا يعبر عنه بالقول، و بالتالي هو مسألة لغوية و منطقية متجانسة، اذا لا يتبقى سوى القول ان الوجود موجود. والفكر برمته قائم على الوجود ولولا ذلك لما وجد الفكر، لأن شيئًا لا يوجد ولن يوجد ما خلا الوجود، ولما كان الوجود موجودًا فهو قديم بالضرورة، لأنه يمتنع أن يحدث من اللاوجود، فليس للوجود ماضٍ ولا مستقبل ولكنه في حاضر لا يزول، و تحت هذا المفهوم الاخير (الحاضر) ستبدأ حكايات اخرى كثيرة و مثيرة، من المنطلق السابق، و للتقابل بين مفهوم الوجود و اللاوجود، يمكن اعتبار «اللاشيء» و«العدم» مصطلحين مرادفين لبعضهما البعض الاخر، لكن الفرق انهما ليسا متناقضين، بل متساوقين، مع ملاحظة المفارقة اللغوية بينهما، ولكن ايضا يمكن تفسيرهما بطرق مختلفة، فقد جرت العادة على اعتبار «اللاشيء» عدم وجود أي شيء على الإطلاق، ويمكن استخدامه للإشارة إلى الفراغ الذي لا يحتوي على أي شيء. بمعنى آخر، «اللاشيء» يمثل عدم الوجود.

كما يمكن النظر الى «العدم»، من خلال استخدامه للإشارة إلى الفراغ الذي يحتوي على شيء محدد، ولكن هذا الشيء غير موجود في الوقت الحالي. وبشكل عام، يمكن اعتبار «اللاشيء» و«العدم» مصطلحين ذات معانٍ متشابهة، ولكن يختلف معناهما بشكل طفيف، حيث يشير «اللاشيء» إلى عدم الوجود، في حين يشير «العدم» إلى فراغ يحتمل وجود شيء فيه، ولكن هذا الشيء غير موجود في الوقت الحالي.من الممكن الاستعانة بتحديد معاصر نعتقد اهمية الوقوف عنده، لغرض بلوغ فهم اولاني لمفهوم (اللاشيء - العدم) يشير عالم الفيزياء لورانس كراوس في كتابه (كون من لا شيء) الى هذه المعضلة بالقول "منذ قرن مضى، لو وصف شخص ما « اللاشيء» على أنه إشارة للفضاء الفارغ، الذي لا يمتلك أي كيان مادي حقيقي، لثار جدل صغير. لكن، علمتنا نتائج القرن الماضي أن الفضاء الفارغ في الحقيقة يختلف تماما عن « اللاشيء» الذي لم تنتهك حرمته، والذي افترضناه قبل أن نعلم أكثر عن الكيفية التي تعمل بها الطبيعة. لقد اخبرني النقاد الدينييون أنني لا أستطيع أن أشير الى الفضاء الفارغ بـ« لا شيء» بل

الأفضل ان أقول «الخواء الكمي «quantum vacuum» لكي أميزه عن « اللاشيء» المثالي للفلاسفة واللاهوتيين.»

ان الجهد الذي اضطلعت به دار ومكتبة عدنان للطباعة و النشر لا يمكن اغفاله، يمثل جهداً استثنائياً في حاضرنا اليوم، بظروفه و موانعه، و اشكالاته و الامكانات التي تتطلب فرقاً و تعاوناً من نوع خاص، فيما يتعلق بالتعاطي مع النص الفلسفي و نقله من مجال تداولي ثقافي معين، الى مجال و وسط ثقافي، لا يحفل مثيراً بما تجود به الفلسفة اليوم، فهو جهد جدير بالتقدير و الثناء، سواء في اختيار المترجم، و الذي وقع فيه الاختيار على الدكتور لؤي خزعل، و الذي تعد شهادتنا له مجروحة بكل الاحوال، فالرجل يمثل بحق، المثقف الملتزم المهموم بالموقف و الفهم و تصدير كل ما من شأنه جعل القاريء على مسافة امان من الفهم، لذا نعتقد ان ترجمة هذا الكتاب، هذا النص، جاءت لحاجة ملحة في حاضرنا الى فهم الأسس التي تقف عليها المفاهيم حين اصبحت موضة اليوم، ان جهد هذه الدار و القائمون عليها، متمثلة بالاخ الاستاذ محمد عدنان، هو جهد يصب في صالح اغناء و اثراء الوسط الثقافي بصورة عامة، و الفلسفي بصورة أخص، ان قراءة هذا الكتاب، كما نعتقد حاجة ملحة اليوم لا للاطلاع على اقاويل جاءت في سياقات تاريخية بعيدة، بل لكونها توثق علاقتنا بحاضرنا اليوم.

ينقسم الكتاب لا الى فصول بل محاور عدة متنوعة و متباينة و متداخلة، تبدأ بـ تمثلات العدم مع الانسان الاول، و تصورات الغياب، ثم يتنقل في مناورات شيقة و لافتة و شفيك في آن، عبر محاور العدم من صورته النسبية و المطلقة و الكامنة، الى صورة العدم في شكله الالهي عبر القديسين، مناقشات اقل ما يقال عنها محاورات لاكتشاف قدراتنا على الفهم و مخيلتنا للاستيعاب، و الخروج عن كل ما كنا نأمل، او نألف من قبل، ثم يستقر في العدم بصورته العلمية، عبر مخيلة نيوتن قبالة لايبنتز و العودة الى ديمقريطس في مونودولوجيا حديثة، وانتهاءاً بغياب التناقضات، يختتم الكاتب كما هو السياق التاريخي المعتاد بالعدم العلماني، عبر ابرز ممثليه شوبنهاور و غياب المعنى

العَدَم .. تَأريخٌ فَلسَفيٌّ

و بيرغسون و التدفق اللامحدود للعدم، الى سارتر و الوعي بالعدم و استيعابه عبر قلب المعادلة التقليدية بين الوجود و الماهية و انتهاءاً و اختتاماً ب السير برتراند راسل، و غياب المراجع.

قراءة ماتعة ...

د. حيدر ناظم محمد

المقدِّمة

فِي الْبَدْءِ خَلَقَ الإلهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ. وَكَانَتِ الأَرْضُ خَرِبَةً وَخَالِيَةً، وَعَلَى وَجْهِ الْغَمْرِ ظُلْمَةٌ.

سِفر التكوين (1: 1 - 2)

تُحاول قصص الخلق تفسير كيفيَّة انبثاق كلِّ شيء من العَدَم. ولكن تُغفِلُ أمرًا، فالعَدَم كذلك له تاريخ، وهذا الكتاب يهدُفُ إلى حكايَته.

قد ترجِع الكتب عن العَدَم إلى مليارات السنين، هكذا يقول علماء الفلك الذين يُخمِّنون أنَّ الحضارات تشكَّلت - مباشرةً - بعد أن بَرَدَ الكون ليشكِّل النجوم والكواكب. ما الذي فات مجسَّات هؤلاء المؤرخين بينما يُمسِكُه هذا الكتاب؟

جانب أسلاف الإنسان hominid[1] من العَدَم. أبدأ مع قريب الإنسان العاقلHomo sapiens الذي صنع حصاة ذات ثقوب تبدو كوجهٍ (شكل 1). وبعد استعراض وجوهٍ كثيرةٍ (كل فصل يقرِن فيلسوفًا بنمط من الغياب)، أختمُ بتحليل برتراند راسل الدقيق لكيف يُمكِن أن يَصُحَّ "كاسبر غير موجود" Caspar does not exist (الفصل 22).

(1) الـ Hominidae، أو القردة العُليا أو أسلاف الإنسان: عائلةٌ تصنيفيَّة تضمُّ ثمانية أنواع بأربعة أجناس: البونغو Pongo والغوريلا Gorilla والبان Pan والهومو Homo، والأخيرة لم يبقَ منها سوى البَشر. (المُترجم).

الشكل1: صورة فوتوغرافية لحصاة ماكابونسغات

لباتريك ناجل Patrick Nagel وريموند دارت Raymond Dart.

قرابَة القرن الخامس قبل الميلاد، بدأت ثلاث حضارات بشكلٍ مستقلٍ ومتزامنٍ في التفلسف حول العَدَم: الصين (الفصل 3)، والهند (الفصول 4 و5)، واليونان (الفصول 6 - 10). وقد ركَّز نجومهم - سابقًا - على الحاضر. واجتاحت أشعة بحث الوعي - بشكل مهيب - مجال الكينونة being. ولكن حدث بعد ذلك انقطاع، وانطلقت أصواتٌ من العُتمة لتتحدَّث الآن عمَّا ليس حاضرًا.

لاحِظ! الثقوب في الإسفنج هي غياب الإسفنج! والثقوب هي التي تجعل الإسفنج مفيدًا لامتصاص السائل، والإسفنج يُمكن أن يوجد من دون الثقوب، لكنَّ الثقوب لا يمكن أن "توجد" من دون الإسفنج. فالثقوب هي طفيليَّات تعتمد على مُضيِّفها. ومع ذلك، يتناغِم الاثنان بشكل جيد. ومن دون ثقوب، لن يكون هناك الكثير من الإسفنج في منزلك!

منزلك أكثر راحةً لتضمُّنِه الأبواب والنوافذ. ومع ذلك، فإنَّ هذه المرافق هي برمائيات ميتافيزيقية، فحينما تقف تحت إطار الباب، هل أنت في الداخل أم الخارج؟ هل الباب مفتوح؟ أم أن الباب سدَّادة مستطيلة مثبَّتة على مفصل؟ نعيش التردد نفسه

عند محاولة تحديد ما إذا كانت النوافذ والمناور غياب أو حضور.

ترى الحد الصغير للنقطة التي تُنهي هذه الجملة، هل هذا الحدُّ أسود أم أبيض؟ ليس أسودَ؛ لأنَّ كلَّ أسود هو جزء من النقطة، وليس أبيضَ؛ لأنَّ كلَّ أبيض هو جزء من بيئة النقطة.

الحدود هي طفيليات المُضيِّفات المادية، لكنَّها أيضًا طفيليَّات لمضيِّفات غير مادية مثل ظلِّك، فظلُّك هو الثقب الذي تُحدِثُه في الضوء، إذ يعتمد ظلُّك عليك وعلى الضوء، وأنت والضوء غامضان، وظلُّك يُشارك في كلا الغموضين.

الكينونة مُلغَّزَةٌ باللاكينونَة. لماذا طُرِحَت الألغاز لأول مرة منذ 2600 عام؟ لماذا كلّ ذلك مرةً واحدةً؟ هذا المنعطف السلبي في فلسَفَة العالم هو الصدفة coincidence التي ألهمتني لكتابة العَدَم: تاريخ فلسفي.

كان هدفي هو العثور على عامل مشترك يمكن أن يفسِّر التحوُّل المتزامن والمستقل في المنظور. وأفضل مُرشَّح لدي هو خدعة النَّسخ[1] copying trick. ويمكن أيضًا تفسير أيِّ تجربة لحدث ما من خلال الفرضية الطفيلية parasitical hypothesis القائلة بأنَّ الحدث كان مجرد حلمٍ، إذ ينسخ الطفيلي عواقب "الحدث المُدرَك" فكِّر في فتاة صغيرة أيقظتها أصواتُ والديها وهما يمارسان العلاقة الحميمة، وبسبب شعورهم بالحرج أكدوا لابنتهم أنَّها كانت تحلم، وفي الصباح استمرَّ والداها بالكذب، وتجاوز عملهما إدراك الطفلة، ففرضية الطفيلي حوَّلَت الابنة، فبعد أن استيقظت استنتجت أنَّ أيَّ تجربة واعية يمكن إعادة تفسيرها على أنَّها تجربة حلم. فتعمِّم: يمكن تفسير جميع التجارب الواعية على أنَّها حلم، وتبقى الشكيَّة الحُلميَّة خيارًا حيًّا؛ لأنَّها تحلم كلَّ ليلة.

---

(1) قليل من الناس ذكروا أنَّهم لا يحلمون أبدًا. وهناك الكثير من الحالمين في كلِّ ثقافة. ولا يوافق على ذلك هيرودوتس Herodotus، ففي الكتاب الرابع من التواريخ أشار إلى أنَّه منذ آلاف السنين في شمال إفريقيا لم يحلم الأطلنطيون أبدًا.

تمتلك فرضيات المضيِّف دفاعات ضدَّ التلميح إلى أنَّها أكاذيب ذات عواقب حقيقية. يلاحظ جيلبرت هارمان (Gilbert Harman (1988، 40 أنَّ المضيف يتمتَّع بميزة البساطة، والبديل الطفيلي يتطلَّب تحرير القصة الأصلية التي يرويها المضيف. ومن الميزات الأخرى للمضيف هي تفضيلنا للفرضيات التي تتنبأ بالحقائق بدلًا من مجرد مواءمة اكتشافات المضيف، إذ يمكن لأيِّ طفيلي انتظار نظريَّة المضيف لإجراء الاكتشاف ثمَّ التلاعب بحساباتها لتتوافق مع تنبُّؤات المضيف. وللفوز بالمنافسة مع الطفيليات الأخرى، يحتاج الطفيلي إلى إنشاء تنبؤاته الخاصة. وفي الستينيات عرف اللغويون أنَّ بعض قواعد بنية العبارة phrase structure grammars [1] يمكن أن تستوعبَ تنبؤات القواعد التحويلية، لكنَّهم انشغلوا - بجديَّةٍ - فقط بهذه القواعد بعد أن قدَّمت قواعد بنية العبارة تنبؤاتها الخاصَّة (Harman 1963).

الطفيلي له بساطته الخاصة، فالطفيليات لا تثقلها التزامات مضيفها. وقد ذكر المُسنون في روما القديمة وجود بقع داكنة تطفو في مُقل عيونهم. فقال المشككون إنَّ المسنين كانوا يهلوسون. وتتجنُّب فرضية الهلوسة الالتزام بالبقع، وتتنبَّأ بأنَّه لن يكتشف المراقبون المستقبليون لمقل العيون القديمة أيَّ بقع على الإطلاق، فالطفيليُّ خسر هذا الرهان! لكن على الأقل كان يقوم ببعض التنبؤات الجديدة.

تفترض جميع النظريات الطفيلية آليَّات نفسيَّة تُفسِّر كيف يمكن أن تحدث الإدراكات بغياب الأحداث المُمثَّلَة، فخلال فترة الممالك المتحاربة المتأخرة (476 - 221 قبل الميلاد) حلم السيد زوانغ Zhuang أنَّه فراشة (شكل 2)، ولكن بعد ذلك تساءلَ الحكيم عمَّا إذا كانت فراشة تحلم بأنَّها رجل، وهذا جميل مثل الشعر، لكن الفراشات تفتقر إلى البنية التحتية العصبية والاجتماعية لتحلم بأنَّها رجال. وإذا كنتَ تحلم

---

(1) في النص الأصلي ورد خطأ مطبعي، في المتن والمرجع، إذ وردت كلمة phase والصحيح phrase، وقواعد بنية العبارة مصطلح قدَّمه نوام جومسكي، يُشير إلى قواعد نحويَّة متحسسة للسياق context - sensitive grammars أو متحررة من السياق context - free grammars. (المُترجم)

أنَّك رجل فقد تكون امرأةً. وقد تكون طفلًا تجاوز السنتين، وهو العمر الذي تكتسب فيه الأحلام خطوط الحبكة، لكنَّك لست فراشة.

شكل 2: حلم الفراشة للرسام الصيني لو تشي Lu Zhi (نحو 1550).

تعتمد النظريَّة الطفيلية - عادةً - على بقاء مضيفها، مِمَّا يعني أنَّ المضيف يمكن أن يتخلَّص لاحقًا من الطفيلي. مثلًا، المذهب الذري[1] atomism تعرَّض للتطفُّل لفترة طويلة من الفرضية القائلة بأنَّ العقيدة مفيدةٌ لصناعة المُعتَقَد. وأُجريَت بعض التحسينات الدقيقة على المذهب الذري بواسطة علماء الفيزياء الذين أرادوا ببساطة تحقيق أقصى استفادة من المضيف. وفي بداية القرن العشرين فسَّر ألبرت أينشتاين Albert Einstein الحركةَ العشوائيةَ لحبوب اللقاح في الماء على أنَّها تصادمٌ مع الذرات، ويتطلَّب هذا التفسير ذرات فيزيائية بدلًا من ذرات وهمية، فطُرِدَ الطفيلي، واحتفظ المضيف بالتحسينات التي صمَّمها الطفيلي.

---

(1) فلسفة طبيعيَّة - تعود إلى الفلسفات اليونانيَّة والهنديَّة القديمة - تؤكد أنَّ العالَم المادي مكوَّنٌ من "ذرَّات" atoms أساسيَّة ليست قابلة للتجزئة، إلى جانِب الفراغ. ومنها اشتُقَّ اسم الذرَّة، وذلك حينما وجد الكيميائيون الطبيعيون في أوائِل القرن التاسع عشر مكونات اعتقدوا أنَّها غير قابلة للتجزئة، وأصبحت الآن تُعرَف بالجُسيمات particles. (المترجم)

التحسينات الطفيلية للمضيفين تطوَّرت الآن بشكل متعمَّد. ففي منهجية الفرضية الصفرية يُطلب من العلماء التفكير في فرضية منافسة تُفيد أنَّ السبب الظاهر هو ارتباط وهمي.

يمكن للطفيلي إطالة عمر مضيفه بشكل مصطنع، فحينما تقوم الطفيليات بإخصاء السرطانات، فإنَّ السرطانات تدخل في معارك أقلَّ. وقد قُتل علم الفلك المتمركز حول الأرض؛ بسبب علم الفلك الذي يركز على الشمس. وتدخَّل المساحون، فضمنوا لعلم الفلك المتمركز حول الأرض مستقبلًا طويلًا بوصفه باطلًا يُبسِّط القياس. وبقيت فيزياء نيوتن Newton حالةً مقيِّدةً لفيزياء أينشتاين Einstein، والمنتصر العظيم سيعيش في وئامٍ مع الخصوم المُحيِّدين. ويؤدي هذا الاحتمال إلى قيام الحرس القديم بوضع سيقانهم على بعضٍ بعصبية حينما يبدأ الصغار في مدح نظريَّات الكبار بوصفها حالاتٍ مقيدة لنظريَّة جديدة.

تدين الطفيليات المعاصرة بتعقيدها إلى الواقع الخاصِّ الذي فتحه التأمُّل المسيحي (الفصل 13)، إذ تعامل المفكِّرون السابقون مع قول "يبدو لي أنَّ يسوع بكى على أنَّه امتنع عن ذِكر أيِّ شيءٍ. وتعامل القديس أوغسطينAugustine مع الجملة على أنَّها تقرير عن حقيقة عقلية. ولا يمكن إلَّا للمتحدِّث مُلاحظة هذه الحقيقة الداخلية مباشرة، إذ يتمتَّع بامتياز الوصول إلى الأمور التي لا يمكن للآخرين الاستدلال عليها إلَّا من سلوكه.

تم نسج هذه الخيوط الذاتيَّة في نظام إحداثيَّات عالمي بواسطة رينيه ديكارت René Descartes. ومع زيادة عدد الخيوط، غطَّى حجاب الأفكار الديكارتي العالم المادي في النهاية. وبعد ذلك، في عملية تلاشٍ رائعةٍ سحب جورج بيركلي George Berkeley الأمرَ من تحت الحجاب، فظلَّ الحجاب طافيًا، أين ذهب العالم الخارجي؟ أجاب الساحر: "أن تكون هو أن تُدرَك. لم يكن هناك أيّ عالم خارجي لتبدأ به".

يمكن أن تزدهر لامادية بيركلي فقط من خلال نظام غذائي غني من المضيفين

الماديين، فبفضل النطاق السياسي حقَّقت الصين والهند كتلةً حرجةً من المضيفين نحو 500 قبل الميلاد، وحققت اليونان ذات الكثافة السكانية المنخفضة كتلة حرجة من طريق التجارة بدلًا من خصوبة السكان الأصليين. ووضع الخط الساحلي والجزر المعقَّدة هؤلاء الناس المنتشرين على مفترق طرق بين الحضارات. واقتربت حضارات جارتها الكبيرة من تحقيق الكتلة الحرجة اللازمة للطفيليات لتحمل ثقوبها. وراكم اليونانيون هذه الأخطاء الوشيكة بضربة، فبعد أن غزا الإسكندر Alexander تلميذ أرسطو Aristotl الهند تمكَّن اليونانيون من استيراد بعض الاختراقات الطفيلية التي ابتكرها الهندوس والبوذيون. ومن خلال نسخ النسخ الهنديَّة غزا الإغريق العالمَ بأسره على المستوى الفكري.

في أوروبا، أعاقت المسيحية هذا الغزو في البداية، لكنَّها ساعدته في النهاية. وأركز على المسيحيين؛ بسبب علاقة الحبِّ والكراهية مع المذهب الذري. كان كره الخواء هو الموقف الافتراضي في الغرب منذ بارمينيدس. ولكن احترامًا لما ورد في سفر التكوين 1: 1 - 2 المقتبس في النقوش كان فلاسفة العصور الوسطى مثل توماس برادواردين Thomas Bradwardine قادرين على توفير مكان آمن للفراغ (الفصل 16). وكان هذا هو المكان الذي استغلَّته لاحقًا فيزياء إسحاق نيوتن (الفصل 17).

حينما أنظر خارج نافذتي الشرقية أرى صواريخ سبيس إكس SpaceX rockets لإيلون ماسك[1] Elon Musk وهي تنطلق نحو الشمس. دراما صاروخ بعد صاروخ هي قصَّة أخرى[2]. لم أشاهد صاروخًا مطلقًا قبل الانتقال إلى أوستن، تكساس. والآن أرى عمليات

---

(1) رجل أعمال كندي، المؤسِّس والرئيس التنفيذي وكبير المهندسين في SpaceX (شركة صناعة الطيارات والنقل الفضائي) وTesla (شركة صناعة السيارات الكهربائية) وBoring (شركة بناء الأنفاق) وNeuralink (شركة تقنية عصبية للذكاء الاصطناعي) وTwitter (منصة تواصل اجتماعي)، يُعدُّ أغنى شخص في العالَم، بحسب Bloomberg Billionaires Index وForbes's real - time billionaires list. (المُترجم)

(2) حاليا، السيد ماسك أفضل في الإطلاق من الهبوط. وحينما تم اقتراح الصواريخ القابلة لإعادة الاستعمال لأول مرة في الستينيات كان للفيزيائي الرياضي ستانيسلو أولام Stanislaw M. Ulam تحفظات تقنية.

الإطلاق بشكلٍ أسبوعيٍ، وماسك نفسه مشهد، إذ يتبنَّى فرضية المحاكاة[1] simula-tion hypothesis: الوعي كله تقريبًا هو تأثير برامج الكمبيوتر. وبدلًا من التواجد في موقع الإطلاق بوكا شيكاBoca Chica، تكساس في سنة 2021، فإنَّ إيلون ماسك موجودٌ في المستقبل البعيد. ليس لديه يدٌ ولا قلبٌ ولا رأسٌ. السيد ماسك هو اختراعٌ لمؤرخي المستقبل الذين يدرسون أسلافهم الذين عاشوا في سنة 2021. ويقارن المؤرخون

وبدلًا من ملل جنرالات القوات الجوية بحساباته المتشائمة انزلق أولام إلى اجتماعٍ بقيادة مروج صناعي للقائمين بإعادة تدوير الصواريخ. وفي أثناء خلط المؤامرات والرسوم البيانية همس أولام للجنرال أفنير جاردنر: "يبدو لي هذا وكأنَّه اقتراح باستعمال الواقي نفسه مرتين"، فانفجر الجنرال ضاحكًا. وتكررت المقارنة القضيبية في همسات حول الطاولة. "ربما أنقذت النكتة الولايات المتحدة من إنفاق ملايين الدولارات على ما كان يمكن أن يكون عملًا لا طائل منه وغير عملي في ذلك الوقت" (Ulam 1976, 256).

(1) ترى أنَّ الوجود كلَّه ربما يكون واقعًا محاكاتيًا، كالمحاكاة الحاسوبيَّة. أسسها نيك بوستروم Nick Bostrom، وإن كانت ذات جذور أعمَق من قبيل حلم الفراشة حلم لزوانغ المذكور. ففي 2003 اقترح بوستروم مشكلةً ثلاثيةً سمَّاها "حجة المحاكاة"، تقوم على افتراضات ثلاثة غير محتملة على الرغم من الاسم، فإنَّ «حجة المحاكاة» لبوستروم لا تجادل مباشرة بأنَّنا نعيش في محاكاة. بدلًا من ذلك، تجادل ثلاثية بوستروم بأنَّ أحد الافتراضات الثلاثة غير المحتملة: (1) نسبة الحضارات البشرية التي ستصل إلى مرحلة ما بعد الإنسان (أي القدرة على إجراء محاكاة عالية الدقَّة للأسلاف) قريبة جدًّا من الصفر، أو (2) نسبة الحضارات ما بعد البشرية المهتمة بإجراء عمليات محاكاة لتاريخها التطوري أو أشكال مختلفة منه قريبة جدًّا من الصفر، أو (3) نسبة جميع الأشخاص الذين لديهم هذا النوع من التجارب والذين يعيشون في محاكاة قريبة جدًّا من الواحد. فتشير إلى أنَّ حضارة "ما بعد الإنسان" الناضجة تقنيًا ستكون ذات قوةٍ حاسوبيةٍ هائلةٍ، حتى لو كانت نسبة ضئيلة منهم ستجري "محاكاة أسلاف" (أي محاكاة عالية الدقَّة لحياة الأسلاف التي لا يمكن تمييزها من الواقع الذي كان يعيشه الأسلاف)، والعدد الإجمالي للأسلاف المحاكين في الكون (أو الكون المتعدّد إذا كان موجودًا) سيتجاوز بشكلٍ كبيرٍ العدد الإجمالي للأسلاف الفعليين. ويحاول بوستروم إثبات أنَّه إذا كان الاقتراح الثالث صحيحًا وتقريبا كلُّ الناس مع نوع التجارب التي لدينا يعيشون في محاكاة؛ فنحن من شبه المؤكد نعيش في محاكاة. وإذا كانت (1) صحيحة فمن المؤكد أنَّنا سننقرض قبل أن نصل إلى ما بعد الإنسانية. وإذا كانت (2) صحيحة فيجب أن يكون هناك تقارب قوي بين دورات الحضارات المتقدمة بحيث لا يحتوي أيٌّ منها فعليًا على أيّ أفراد يرغبون في إجراء محاكاة للأسلاف ولديهم الحرية في القيام بذلك. وإذا كانت (3) صحيحةً فمن شبه المؤكّد أنَّنا نعيش في محاكاة. وقد تعرَّضت الفرضيَّة إلى انتقادات فلسفيَّة وعلميَّة كبيرة. (المُترجِم)

ما حدث بالفعل في عام 2021 بما كان سيحدث لو كان هناك رائد أعمال مهمّ في مجال الخدمات المصرفية عبر الإنترنت والسيارات الكهربائية ومهمَّة كوكب المريخ.

لو عِشتُ حياةً غريبةً كحياة إيلون ماسك فقد أميلُ إلى التفكير في أنَّها مجرد حلم، لكنَّ الدعم الأصلي الذي قدَّمه نيك بوستروم (Nick Bostrom 2003) لفرضيته في المحاكاة هو حجةٌ إحصائيةٌ لا تعتمد على الأحداث غير العادية، فبحسب بوستروم يجب على الناس العاديين تعيين احتمال كبير بشكل مدهش لفرضية المحاكاة. وقد أقنع بوستروم الفيلسوف البارز ديفيد تشالمرز (David Chalmers 100 ،2022) بتعيين احتمالٍ لا يقلُّ عن 0.25 لفرضية المحاكاة. ويخصِّص عالم الفيزياء الفلكية نيل ديغراس تايسون Neil deGrasse Tyson احتمالًا أكبر من 0.5. ويأخذ عالِم الأحياء ريتشارد دوكينز Richard Dawkins - الذي يفتخر بنفس القدر بمناعته ضد الفلسَفَة - فرضية المحاكاة على محمل الجدِّ.

هل تبدو مألوفة؟ فرضية المحاكاة هي أحدث نظريَّة طفيلية، تتضمَّن عيّنة القرن الحادي والعشرين هذه المستجدات التقنية والاجتماعية للعصر. خيارٌ حيويٌّ! في حين أنَّ الاستعمالات المتشككة للطفيليات تفرغ تمامًا الماضي والعالم المادي، فإنَّ فرضية المحاكاة تبتكر من خلال الحفاظ على الماضي، وهذا هو السبب في أنَّ دوكينز أحد دعاة التطوُّر الصريح، يمكنه أن يسمح بالقول أنَّ فرضية المحاكاة صحيحة. وتستلزم فرضية المحاكاة صحة نظريَّة دوكينز العلمية التاريخية الكبيرة، وما يبطل هو الحاضر!

سأُصاب بخيبة أمل لمعرفة أنَّ تجاربي الأخيرة لا تتوافق مع الواقع، للأسف، لم أرَ صاروخًا قط! فما هو إلا ترميز. يجد آخرون أنَّ بديلهم غير المجسد ساحرًا كالهندوس القدماء الذين تصوَّروا أنفسهم بوصفهم ما حلمت به الآلهة.

العِرفان

قلت - للمحرِّر الصبور - في وقت متأخر عن الموعد النهائي: "سنعود إليك"، فأجاب: "هناك ثلاث فئات من الناس الذين يستعملون كلمة ضمير الجمع بدل المفرد: الملوك، مرضى الفصام، والرجال المصابون بالديدان الشريطية. أيهم أنت؟" لكنَّني لست من هؤلاء! تشكَّلت الـ "نحن" لديَّ من الأشخاص الذين يقفون وراء هذه المليون سنة من تاريخ العَدَم. جذبني ديفيد وستيفاني لويسDavid and Stephanie Lewis إلى الفراغ بحوارهما الساحر عن "الثقوب". وأعطاني أحد معجبيهم - أخيل فارزي Achille Varzi - جولةً في شقوق الأرصفة والتجاويف والأنفاق في مانهاتن. وعرَّفني روبرتو كاساتي Roberto Casati - المؤلف المشارك في كتاب "ثقوب وسطوح أخرى" - على ظلال باريس. وأيقظ تأريخ روبرتو Roberto المهمّ جدًّا "ظِلال النادي" اهتمامي بتاريخ الغيابات وبمظاهرها المميزة. وعلَّمني تاريخ الفراغ في العصور الوسطى لإدوارد جرانت Edward Grant ما هو مشترك بين العلم والدين: العَدَم! ومن المفارقات أنَّ فراغ الذريين القدماء أصبح حاسمًا بالنسبة إلى المسيحيين أنفسهم الذين أمضوا ألف عامٍ في دفن الملحدين، وساعدتني صِلات غرانت الدقيقة بين الأكاديميين وإسحاق نيوتن على ربط العدم الموضوعي بجانبه الذاتي.

يتغذَّى الجانب الذاتي من خلال سيلٍ من اللقاءات الكوميدية بين الفلاسفة والعَدَم، فليس بالعَدَم عُرِف ديموقريطوسDemocritus بالفيلسوف الضاحك، فالذرات والفراغ يصنعان رفقاء غُرباء. وقد حاول منتقدوه السخرية منه بالإشارة إلى العلاقة المتناقضة بين هذه الأضداد. وعَدَّ ديموقريطوس البهيج النكات على أنَّها تكشف عن توقعاتنا السخيفة. وافتتح تقليدًا لنقل النكات الفلسَفيَّة إلى الطلاب. وأنا سعيدٌ بالبناء على

هذا العلم. وأشكر كثيرًا من الفلاسفة والمؤرخين الذين عاملوني بوصفي مستودعًا لهذه الدعابة العلمية. ومن بين الجهات المانحة الأخيرة للمستودع جيمس دي James Dee، ومات إيفانز Matt Evans، وجون هيل John Heil، وكاثلين هيغينز Kathleen Higgins، وستيفن ريد Stephen Read، وستيفن وايت Stephen White.

أنا ممتنٌّ لجامعة تكساس في أوستن لتقديمها زمالة أبحاث الكلية لسنة 2020 - 2021، إذ كان هذا بالإضافة إلى التمويل البحثي المقدَّم من داريل رويال ريجنت لأستاذية في الأخلاق والمجتمع الأمريكي. وبصفتي أستاذًا زميلًا في جامعة سانت أندروز في اسكتلندا أفَدْتُ أيضًا من مؤسَّسةٍ أُتِيست عام 1413.

يتضمَّن عدد قليل من الفصول موادَّ من مقالات سابقة، فيشتمل الفصل الأوَّل على فقرات افتتاحية من "نقطة التلاشي: نمذجة الذات كغياب"، الوحدانية The Monist 90/3 (2007): 432 - 456. ويتضمَّن الفصل 11 أجزاء من "حجة التناظر" من دليل أكسفورد لفلسَفَة الموت Oxford Handbook of Philosophy of Death، الذي حرَّره بن برادلي Ben Bradley وفريد فيلدمان Fred Feldman وجينز جونانسون-Jens Johnanson (مطبعة جامعة أكسفورد، 2013). ويحتوي الفصل 15 على مادةٍ من "اقتصاد المكان الفارغ"، المجلة الأسترالية للفلسَفَة Australasian Journal of Philosophy 92/2 (2014): 215 - 230. ويضمُّ فصلًا بيرغسون وسارتر أقسامًا من "إدراك العَدَم" التي ظهرت في دليل أكسفورد لفلسَفَة الإدراك The Oxford Handbook of Philosophy of Perception، الذي حرَّره موهان ماتين Mohan Matthen (مطبعة جامعة أكسفورد، 2015). ويتضمَّن الفصل الخاص ببرتراند راسل بعض فِقْرات "إلحاد يونيكورن"، العقل Nous 52/2 (2018): 373 - 388. وأشكر المحررين والمجلات على الإذن باستعمال هذه المواد.

خلال جائحة Covid - 19 في 2020 و2021 لم أتمكَّن من دخول متحف أوستن للطبيعة والعلوم لتصوير مزولة البشر (قدمتها مدينة أوستن وماثابينز). وقد تلقيتُ

مساعدةً داخليةً من منسق المعرض، جوشوا راندوم Joshua Random، إذ صوَّرَ ابنه ألفا راندوم Alpha Random في دور جنومون (الشكل 14.1).

أشكر أيضًا ابني Maxwell Sorensen على الشكل 18.5، وشقيقه Zachary Sorensen على الأشكال 8.4 و19.2، وأشكر زوجتي جوليا درايفر Julia Driver عليهما، وعلى سنوات طويلة من الزواج الفلسفي.

أخيرًا، أشكر المحرِّرَ والمراجعَ والطلابَ الذين يراجعونَ الحقائق لإزالة الأكاذيب بكفاءة المدقّق الإملائي التلقائي، أمَّا الأكاذيب التي نجت؛ فإنّي أتراجع عنها جميعًا. أستمتع بقراءة أول تاريخ للفلسَفَة خاليًا من أيّة تأكيدات كاذبة!

أولًا: تمثيل العَدَم

أولًا: تمثيل العَدَم

1. أسلاف الإنسان في ماكابونسغات: تصوير الغياب

قبل ثلاثة ملايين سنة وجد أسلاف الإنسان حصاةً مثقوبةً بالماء، يمكنك أن تجدها في المقدِّمة (الشكل ١). الثقوب تجعل الحصاة تشبه وجهًا، بل وجوهًا مختلفة عند النظر إليها من اتجاهات مختلفة، وحينما يُنظرُ إليها بالمقلوب يبدو الوجه وكأنَّه رجلٌ عجوزٌ بلا أسنان، يحدِّق بعيون غائرة، وفتحات العين جاحظة.

قد يكون هذا التحوُّل الجشطالتي gestalt switch إلى رجلٍ ذي عيون حشرة بمنزلة قوة الحصاة نفسها (بدلًا من تأثير نظام بصري يتأرجح بين تفسيرين للمثير). وقد نُقلت الحصاة السحرية لمسافة طويلة إلى كهفٍ في ماكابونسغات Makapansgat بجنوب إفريقيا، إذ يحتوي هذا الكهف على بقايا أسترالوبيثكس أفريكانوس[1] Australopithecus africanus.

وبحسب إحدى نظريَّات التقدُّم الفني، تؤدِّي المرحلة الأولى من "الفنِّ الموجود"[2] found art إلى مرحلة تدخُّليَّة ثانية، إذ يرى الفنَّان البدائي الشيء على أنَّه شبه فاقد لشيء يستحقُّ الإدراك لقيمته. "إذا كان هذا النتوء غائبًا، ستشبه الصخرة الوجه". وبإزالة النتوء، يتحوَّل التقدير السلبي إلى التدخُّل الفني. يعلم هذا التدخل الفنان الأولي التعرف على اللحظات التي كانت قريبةً من الأخطاء الوشيكة: "إذا كان هذا النتوء

---

(١) نوع منقرض من أوسترالوبيثيسين australopithecine الذي عاش منذ نحو 3.3 و2.1 مليون سنة في أواخر العصر الجليدي إلى العصر الجليدي المبكِّر في جنوب إفريقيا. والعينة الأولى طفل تونغ Taung child، وصفها عالم التشريح ريموند دارت Raymond Dart في عام 1924، وكانت أول ما اكتُشِفَ من أسلاف الإنسان. (المُترجم)

(2) فنٌّ يُنجز من عناصر أو مُنتجات غير فنيَّة، استعمله بابلو بيكاسو Pablo Picasso لأوَّل مرَّة بإلصاق خيزران كرسي على لوحته "حياة صامتة ذات خيزران كرسي" 1912 (Still Life with Chair Caning)، ليتقنه مارسيل دوشامب Marcel Duchamp لاحقًا، إذ استعمل أشياء يوميَّة ثابتة، من قبيل "المبولَة" Fountain 1917. فالعمل يستمدُّ فنيَّته من توصيف الفنان، وإلَّا فهو لا تجري عليه تغييرات ملحوظة. (المُترجم)

الكبير غائبًا، فستبدو الصخرة مثل الصخرة التي كانت تماثِل صخرة تبدو وكأنَّها رجل" فيطيل الفنَّانون المتدربون سلسلة الأخطاء الوشيكة التي يمرُّ بها أسيادهم. وفي وقت لاحق، رأى النحَّاتون الفلورنسيون كتلةً عملاقةً من الرخام الأبيض تغلف شخصيَّة داوود David. ولكن هل كان داوود مستلقيًا بينما كانت الكتلة موجودة؟ أين رأس جالوت Goliath المقتول؟ قلَّب مايكل أنجلو Michelangelo الكتلةَ المتكونة بقسوة، وحذف جالوت، وصوَّر داوود قبل القتال، تاركًا صخرة مخبأة في يده.

خرج إنسان نياندرتال بعد الاقتطاع، فقد رسم صورًا هندسيةً مثل الخطوط والتكوينات التي تشبه السلم وعلامات التصنيف. وبدلًا من حفر شيء موجود بالفعل صنع شيئًا جديدًا. وإذا كانت علامات التجزئة الخاصَّة بإنسان نياندرتال عبارة عن صور لتجاعيد النخيل فقد اتخذ أيضًا خطوة لإنشاء فنٍّ تمثيلي.

الكثير من حالات الغياب لها مظهر مميز، فالظلام الدامس للكهف يبدو أسودَ بشكل موحَّد، والظِّلال تشبه الأشياء التي تلقيها.

الظِّلال هي ثقوب في الضوء، ومن المفارقات أنَّه يمكن دهنها بخلاف الضوء، إذ أعطى الملون المائي للمناظر الطبيعية جي إم دبليو تيرنر J. M. W. Turner وهم الرسم بالضوء من خلال رسم الظِّلال، فيظهر الضوء على النقيض من الظلام. وحينما اعترض أحد النقَّاد على أنَّ تيرنر رسم الأشرعة باللون الأسود قدر استطاعته أجاب تيرنر: "إذا كان بإمكاني العثور على أيِّ شيء أكثر سوادًا من الأسود كنت سأستعمله"

يتم تصوير حالات الغياب النسبي من طريق حذف الميزات المتوقعة من المضيف، والغياب المطلق أكثر صعوبة. ومع ذلك، غالبًا ما يكون للغياب المطلق مظهر مميز. ونظرًا لأنَّ الظلام الدامس يبدو أسودَ فإنَّ لوحةً قماشيةً سوداء بالكامل تصوِّر الظلام بشكل طبيعي أكثر من لوحة حمراء تمامًا

بعد أن قدَّم فيليبو برونليسكي Filippo Brunelleschi (1377 - 1446) منظورًا خطيًّا لتجسيد انحسار المكان استعمل الفنانون نقطة التلاشي لترميز الألغاز mysteries. وأحد

الألغاز هو ما إذا كان يمكن رؤيته. ضع في اعتبارك كيف تبدو القضبان وكأنَّها تتقارب في المسافة (الشكل 1.1). هذه النقطة في الأفق التي تلتقي عندها الخطوط المتوازية المتراجعة هي نقطة التلاشي. أستطيع أن أرى أنَّه يقع في مركز مجال بصري، لكن هل يمكنني رؤية نقطة التلاشي؟

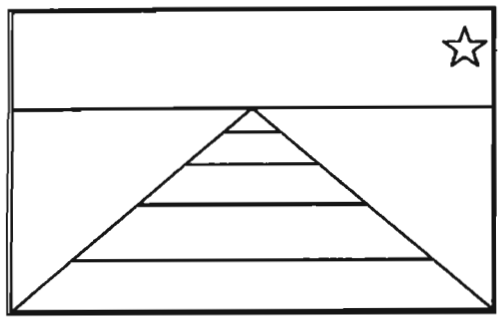

الشكل 1.1 نقطة التلاشي

تبدو نقطة التلاشي - من ناحية - مرئية؛ لأنَّني أستطيع أن أشير إليها مباشرة، ويمكنني وضع إبهامي فوق نقطة التلاشي، ومن ثَمَّ حجب رؤيتي لها.

لا توجد مشكلة خاصة مع كون نقطة التلاشي نقطة، أرى النقاط التي تلتقي عندها روابط السكك الحديد بالسكك الحديد، التي تقود مباشرةً إلى نقطة التلاشي.

النقطة هي مَعلَم وليست شيئًا بحدِّ ذاته. نقطة الخنجر ليست جزءًا من الخنجر كالنصل والمقبض. قد يتمثَّل الفرد إدراك النقاط لإدراك الزوايا، فالزاوية دائمًا هي زاوية لكائن مضيف، إذ يرى الفرد النقطة التي تلتقي عندها الجوانب الثلاثة بالنظر إلى المكعب، من خلال التعرُّف على الطبيعة الطفيلية للنقاط، نتجنَّب مغالطة التجسيد reification[1].

(1) استغلَّ رجل الاستعراض بارنوم P. T. Barnum هذا الافتراض بأنَّ الكلمات تشير إلى الأشياء (الدقة باللاتينية). فلمنع العملاء من البقاء في معرضه للحيوانات الغريبة، وضَعَ لافتةً فوق الباب: "إلى المخرج"

من ناحية أخرى، لا أرى شيئًا إلّا إذا كان يبدو بطريقة معيَّنة، فنقطة التلاشي لا تشبه أيَّ شيء، إذ تفتقر إلى اللون أو الشكل. وفي لوحة العشاء الأخير ليوناردو دافنشي-Leon ardo da Vinci، تتزامن نقطة التلاشي مع العين اليمنى ليسوع. لكن نقطة التلاشي لا تشبه العين!

إذا كان الملاحظون في المشهد يمكنهم الانحناء فوق نقطة يتم فيها ربط سكة حديد بربطة خشبية. ومع ذلك، لا يمكن للملاحظ أن ينحني فوق نقطة التلاشي ويقول بصدق: "هناك نقطة التلاشي". ومهما كانت رحلات الملاحِظ بعيدة، فلن يصل إلى نقطة التلاشي.

نقطة التلاشي مثل حافَّة مجالي البصري، يمكنني تحديد هذه الحدود من خلال الاهتمام بما أراه، لكن لا يمكنني رؤية حافَّة مجالي البصري. فحينما أنظر إلى ثقب في موقع بناء، يمكنني رؤية حافة ثقب الباب والمشهد من خلال الفتحة. لكن الرؤية الطبيعية لا تشبه النظر إلى ثقب الباب، فحافة مجالي البصري هي حدٌّ خارجي، ونقطة التلاشي هي حدٌّ داخلي.

أرى أشياء في مجال الرؤية الخاص بي ولكن ليس المجال البصري نفسه. إذا كان مجال بصري هدفًا للرؤية فسيكون هناك مجال ثانٍ للرؤية يشمل الأول. وإذا كان كلّ مجال بصري هو نفسه موضوع رؤية فسيكون هناك تسلسل هرمي لا نهائي من المجالات المرئية. وسأرى شيئًا مشابهًا للمشهد المضمَّن الذي أنتجه زوج من المرايا التي تعكس انعكاسات كلّ منهما.

إنَّ بساطة المجال البصري ومباشرته يجعله "شفَّافًا" تمامًا. أستطيع أن أرى زجاجًا أماميًّا ضبابيًّا قليلًا، بينما أرى في الوقت نفسه من خلاله الطريق أمامي. ولا أستطيع أن أرى من خلال مجالي البصري بالطريقة نفسها. في "تفنيد المثالية" -The Refuta

---

To the Egress. وكان الباب يقفل خلف الزبون الفضولي الذي يجد نفسه في الشارع.

tion of Idealism حلَّل جي إي مور 1903) G. E. Moore) وعيه باللون الأزرق، فقد وجد شيئًا يتوافق مع اللون الأزرق ولكن لا شيء يقابل الوعي. هذا يجعل الوعي يبدو فارغًا. وبحسب مور، يتفاعل الماديون بإنكار وجود الوعي، ويؤكد جان بول سارتر Jean Paul Sartre في كتابه "الوجود والعدم" وجودَ الوعي ولكنه يصفه بأنَّه العَدَم. قد يقول مور إنَّ سارتر يخطئ في أنَّ غياب التمثيل هو تمثيل للغياب، إذ أرى من خلال نظَّارتي ولكني لا أرى غياب النظَّارات.

نقطة التلاشي لها موقع مركزي في تكوين الصورة. وعلى وفق ذلك، حدَّد الفنَّانون المسيحيون سرَّ القُربان المُقدَّس[1] Eucharist من خلال وضع الاستحالة[2] transub-stantiation في نقطة التلاشي.

تم تكييف هذه التقنية لأغراض علمانية من قبل جوزيف رايت Joseph Wright من ديربي في 1768 "تجربة عن طائر في مضخة الهواء". يضع رايت فراغًا عند نقطة التلاشي (الشكل 1.2). وقد يعكس استعمال رايت لطائر أبيض بدلًا من الفأر المعتاد الاستعمال المسيحي للحمامة بوصفه رمزًا للروح القدس على الوعاء القرباني. ويتم نقل هواء الكتلة السوداء من طريق الإضاءة القوطية والقمر الكامل من خلال النافذة (على الرغم من أنَّه تم بالفعل جدولة الاثباتات العلمية في أثناء اكتمال القمر؛ من أجل السفر الآمن في الظلام).

---

(1) طقس مسيحي يُعدُّ سرًّا كنسيًّا، إذ أقامه المسيح - بحسب العهد الجديد - خلال العِشاء الأخير، فأعطى تلاميذه النبيذ والخبز خلال وجبة عيد الفصح، وأمرهم بفعله لذكره، فالخبز جسده والخمر دمه. (المُترجم)

(2) بحسب تعاليم الكنيسة الكاثوليكية، تغيير جوهر الخبز والنبيذ بالكامل إلى جوهر جسد المسيح ودمه، عبر فعاليَّة كلمة المسيح، وبفعل الروح القُدس. (المُترجم)

الشكل 1.2 جوزيف رايت Joseph Wright، تجربة عن طائر في مضخة الهواء.

في عصر رايت، كان يتم تصوير الفراغ void على أنَّه الخلاء empty التام. وقد ادَّعى التجريبيون أنَّهم قطعوا آلاف السنين من الشكِّ حول الفراغ من خلال خلق خواءvacuum (عكس خلق الإله للمادة من فراغ). واعترض المشكِّكون على أنَّه يجب أن يكون هناك شيء داخل الزجاج "الفارغ"؛ وإلَّا كيف يمكن أن ينتقل الضوء من خلاله؟ وفي اللوياثان ومضخة الهواء يجادل ستيفن شابين Steven Shapin وسيمون شافر Simon Schaffer بأنَّ مضخة الخواء كانت أكثر إبداعًا مِمَّا يعترف العلماء به، وقد زعِمَا أنَّ الخواء كان خلقًا اجتماعيًا، وليس مُلاحظة مجردة.

هذا الكتاب هو تاريخٌ عامٌّ للعَدَم، وليس دراسةً خاصةً للخواء. لكن في تفسيري، يتم اكتشاف الغياب بدلًا من اختراعه. وهذه هي أفضل طريقة لفهم ما يقوله العلماء عن الثقوب والشقوق والظلال والظلام والصمت.

العَدَم .. تَأريخٌ فَلسَفيٌّ

من المسلَّم به أنَّ العلماء يُبدون آراءهم بما يتجاوز خبراتهم، فحينما سُئل عن أول ثقب يتطور عند البشر أجابَ عالمُ الأجنَّة بأنَّنا ثنائيون deuterostomes، بمعنى "الفم الثاني"، إذ أول ثقب يتشكَّل هو فتحة الشرج، وخلُصَ عالم الأجنة إلى أنَّنا جميعًا نبدأ بوصفنا حمقى.

إدراك الغياب يسبق الإنسان، فالصمت هو ما سمعته أول "أذن"، وأوَّل "العيون" رأت الظلال الصغيرة تكبر لتصبح كبيرة، والظلال الكبيرة تصبح ظلامًا دامسًا.

الوعي الحيواني بالغياب يربك السلوكيين، وبحسب قانون التأثير فإنَّ كلَّ استجابة ناتجة من منبه. ومع ذلك، تتفاعل الطيور مع غياب الضوء بإثارة عصبية، وتستجيب القرود الصغيرة لغياب الأم باليأس، وتستجيب الحيوانات الأسيرة للغياب العامِّ للتنبيه من طريق الإيقاع والسلوك التكراري الآخر، فحديقة الحيوانات هي حديقة حيوانات الملل.

تستفيد الحيوانات من الغياب، كالظلام والحفر. ولذلك؛ أصبحت الكهوف موارد متنازع عليها، ويحتوي كهف شوفيه في لاسكو بفرنسا على آثار الكثير من الحيوانات، ويحتوي الكهف أيضًا على أقدم صور الغيابات (شكل 1.3).

الشكل 1.3 أسدان أسودان. مؤسَّسة برادشو Bradshaw معرض كهف للفنون.

يتم تصوير ذكر الأسد الأوروبي - الذي انقرض الآن - على أنَّه يفتقر إلى لبدة الأسد، ونظرًا لأنَّ اللبدات لا تتحجَّر فقد استشهد علماء الأحياء بهذه اللوحة دليلًا على غياب اللبدة.

كيف يعرف علماء الأحياء أنَّ الأسود التي لا لبدة لها هي ذكور؟ بغياب آخر، تمَّ تصوير أنثى الأسود دون كيس الصفن.

إنَّ تصوير شوفيه للغيابات متطور، إذ يتم تمثيل الحيوانات المذبوحة على أنَّها بلا أطراف، لكنَّ اللقطات المقربة لحيوانات أخرى لا تصورها على أنَّها بلا أطراف أو على أنَّها فقط ذات الجانب المواجه للمشاهدة أو أنَّها تمتلك سطحًا فقط. ويتوقَّع فنانو شوفيه أن يميز المشاهد بين تمثيل الغياب وغياب التمثيل.

الصور دينامية أيضًا، إذ تظهر الحيوانات وهي تتحرك، ونحن نفتِر الرأس المزدوج على أنَّه متحرك، يتغيَّر بمرور الوقت مِمَّا يكون إلى ما سيكون. وربما استغلَّ الرسَّامون الأضواء الوامضة للمصابيح الزيتية لتعزيز وهم الحركة، إذ تشير بقع الزيت في الكهوف إلى أنَّ اللوحات قد تم تنظيمها، وربَّما تم إسقاط الظلال عمدًا على اللوحات، وقد تكون الأصوات والأصداء قد حرَّكت الأشكال بشكل أكبر. وكان من شأن وضع الشموع خلف المشاهدين أن يُدخل عنصر مشاركة الجمهور، وأصبح ظِل العارض جزءًا ديناميًّا من المشهد.

إذا فسَّرت حركات ظِلِّك على أنَّها أفعال وليست تأثيرات لأفعالك فستحصل على شبح. وتعزز الأحلام إسناد المعتقدات والرغبات إلى كائنات غير مادية. واللوحة الموجودة في الشكل 1.4 هي تصوير يبلغ من العمر 20000 عام لرجل وطائر ورمح مكسور وثور بيسون منزوع الأحشاء. وقد كان المشهد محلَّ تأويلات كثيرة. كارثة صيد؟ تعويذة سحرية؟ بحسب عالم الأعصاب ميشيل جوفيت Michel Jouvet فإنَّ القضيب هو المفتاح الذي يفتح اللغز: الرجل يحلم. كان جوفيت رائدًا في البحث الذي يُظهر أنَّ الأحلام تحدث في مرحلةٍ متناقضةٍ من النوم يكون فيها الدماغ نشطًا تقريبًا مثل حالة

اليقظة. ومن العلامات الخفية لهذا النشاط حركة العين السريعة تحت الجفون. ولكن في معظم ذكور الحيوانات هناك أيضًا علامة على الانتفاخ (والذي يحدث بشكلٍ مستقلٍ عمَّا إذا كان الحلم مثيرًا للشهوة الجنسية). وكان من الممكن أن يكون هذا الارتباط بين الانتصاب خلال النوم والحلم بارزًا في ظروف النوم المفتوحة في العصر الحجري القديم. والطائر هو استعارة للروح عبر الثقافات المتنوعة، وعقل الحالم يطير إلى أماكن وأزمنة بعيدة. وبفضل الأحلام، نحن ثنائيو المولد بالفطرة، نحن نميّز العقل من الجسد؛ لأنَّ العقل يمكن أن ينفصل عن الجسد، على الأقلِ في الأحلام، وربَّما عند الموت.

الشكل 1.4 طائر رجل لاسكو. الإسناد Peter80.

إذا كنتُ موجودًا بعد الموت (أو قبل الولادة) فإنَّ حقيقة وجودي خلال الفترة الحالية ستكون أقلَّ إثارةً للدهشة (Huemer 2021). إنَّ الكائن الذي قضى معظم وقته في الوجود سيكون لديه فرصة أفضل بكثير ليجد نفسه على قيد الحياة في عام 2021. والكائن الذي يستمرُّ لأقلَّ من قرن يجب أن يَعُدَّ نفسه الفائز في يانصيبٍ بعددٍ لا نهائي من التذاكر، وحتى الملحد قد يجد نفسه يرفع احتمالية التناسخ أو الحياة الآخرة اللانهائية.

أصبحت كثير من الصور رمزية كلَّما اتفق المُفسرون، إذ تصبح بعض هذه الصور الموحدة رسومًا توضيحيةً، ويمكن رسمها بشكلٍ تخطيطيٍ دون فقدان المعنى، وحينما يتم تنظيمها بشكل نحوي فإنَّ الصور التوضيحية تحلُّ محلَّ الكلام.

أنظمة الاتصال البشرية فقط لها رمز النفي، ويمكن للأسد أن يرفض الطعام، لكنَّ الأسد لا يستطيع أن ينكر افتراضًا أو ينسب الباطل أو يخلط بينه وبين التأكيدات المتناقضة، الأسود لا تكذب أبدًا.

الموسيقى أيضًا منحصرة بالبشر وشاملة بعمق فيهم، فمزامير العصر الحجري القديم لها مقياس خماسي، وهذا المقياس شائعٌ ثقافيًّا؛ بسبب الضبط الذاتي. والمزامير ذات الثقوب المتباعدة بشكل متساوٍ غير متوافقة مع نفسها. ويجب أن يكون قدماء الناس قد جرَّبوا بصبر للقضاء على التنافر. ويسمح التباعد بين فترات الغياب لعلماء الآثار بعزف "صوت الصمت" على مزمار عمره 30000 عام.

بدلًا من مجرَّد دفن الجثث، ضمَّنَ سكان الكهوف الآلات الموسيقية والأدوات والمجوهرات في مدافنهم، ويبدو أنَّهم كانوا يأملون بالحياة الآخرة. وربما يرتبط البشر بأجسادهم كما ترتبط أجسادهم بالظلال، وهذا التشبيه الروحي لا معنى له إلَّا على النقيض من البديل الأكثر وضوحًا الذي يكون فيه الموت هو توقف الوجود. ونحن نختار بشكل طبيعي البديل الصارخ للحيوانات، فالوعل هو مجرد الجسم الحي للوعل، والوعل الميت هو وعل سابق.

نظرًا لتشابهنا مع الحيوانات الأخرى وعدم معقولية منح الحيوانات أيَّ حياة أخرى، فإنَّ أمل الإنسان في الحياة الآخرة لا يمكن أن يستمرَّ إلَّا من خلال تمزيق الاستمرارية بين البشر والحيوانات، إذ أدَّى الخوف من الإبادة الدائمة بالبشر إلى ارتجال الأساطير التي تصنع فجوةً وقائيةً بين الناس والحيوانات الأخرى. وفي الفصل التالي ننتقل إلى الحضارة التي قنَّنَت بعض هذه الأساطير.

2. هرميس تريسمجيتس: كتابة الغيابات

تطوَّرت الكتابة المبكرة من الحاجة إلى ختم الحاويات، إذ خلق الحاجز مشكلة تذكر محتويات الحاوية. ونظرًا لأنَّ الأختام مصنوعة من الطين فقد أثار الكتَبَة الأوليون علامةً تشير إلى كمية المحتويات وطبيعتها. وحتى الحاويات الفارغة يجب إغلاقها لمنع التلوث. لذلك؛ كانت هناك علاماتٌ على أوعية فارغة، وتم عكس أصل الكتابة من الخارج إلى الداخل من الخزافين الفيكتوريين الذين نقشوا لغز الحروف -OICUR[1] MT داخل قاع أوانيهم.

لغز كبير: ما أكبر وعاء ممكن؟ الجواب الفلسفي: الكون. يضعنا أنموذج الكون الحاوية في وضع يسمح لنا بطرح سؤال لم يطرحه أيُّ مصري: لماذا يوجد شيء في الكون بدلًا من العَدَم؟

أنت داخل أكبر حاوية، ومن ثَمَّ أنت تعلم أنَّ هناك شيئًا بدلًا من العَدَم، إذ يمكن لأشياء معينة داخل الحاوية أن تشرح أشياء معينة أخرى داخل الحاوية، فيشرح والداك وجودك، ويشرح أجدادك وجود والديك، لكنَّ العَدَم في الكون يمكنه تفسير سبب وجود شيء معيَّن واحد على الأقلِ بدلًا من عدم وجود أشياء معيَّنة في الكون.

قبول العالم الخاوي قدر الإمكان يبدو أبسط من قبول العالم الممتلئ؛ لأنَّ وجود الشيء يتطلَّب تفسيرًا وليس غيابه. "من الذي طلب ذلك؟" سأل الحائز على جائزة نوبل إسحاق رابي Isaac Rabi حينما تم تقديم الميون[2] muon من علماء الفيزياء التجريبية في عام 1936، إذ لم يتوقَّع أيٌّ من المنظِّرين المتنافسين أنَّه القريب الثقيل للإلكترون.

---

(1) اختصار يعني: أوا أراكَ فارِغًا. (المُترجم)

(2) جُسيم أولي مشابه للإلكترون بشحنة كهربائية تبلغ - 1 ودوران 1/2، لكن كتلته أكبر، لا يُعتقد أنَّه يتكوَّن من جسيمات أبسط، فعُدَّ جسيمًا أساسيًا. (المُترجم)

بعد قرنين من الزمان، أدرك كتبة بلاد ما بين النهرين أنَّ العلامات الموجودة على الحاويات يمكن صنعها على ألواح محمولة portable tablets بدلًا من أختام الحاويات. ويمكن تخزين هذه السجلَّات خارج الموقع. وقد جعلت هذه الملائمة الأوصاف أكثر عرضةً للخطأ، ففقَدَ القارئُ إمكانية الوصول بسهولة إلى البنود الأصلية قيد المناقشة.

نمت احتمالية التحريف مع انتشار الكتابة، وكلَّما أمكن قول ذلك زاد ما يقال بشكلٍ خاطئ. وتمثِّلُ أنظمة التمثيل التجميعية - مثل نظام الأرقام الثنائية - عددًا من الاحتمالات اللامحدودة مع مخزون صغير من الرموز وقواعد الجمع، إذ تعمل جميع اللغات الطبيعية بهذه الطريقة العودِيَّة، فتسمح الأبجدية للكتابة بمطابقة القوَّة التعبيرية للكلام.

طوَّر المصريون الأبجدية الأولى نحو عام 3100 قبل الميلاد. وأدَّى التخاطر بالتواصل بصمت مع الفاعلين الغائبين إلى عَدِّ الأبجدية اختراعًا من تحوت Thoth، كاتب الآلهة (الشكل 2.1).

الشكل 2.1 تحوت، Thoth Deux fois Grand, le Second Hermès. N372.2A، متحف بروكلين، الإسناد جان فرانسوا شامبليون Jean - Francois Champollion.

تؤمن الآلهة المصرية بما تقرأه، فيحاولُ كتَّاب المعبد جعل ادعاءاتهم صحيحةً من خلال استغلال بُعد أسيادهم. ولذلك؛ محا الفراعنة أسماء أولئك الذين يرغبون في إهمالهم، وحفروا أسماءهم الخاصة، وانتزعوا الفضل في بناء الآثار التي أقامها أولئك الذين تم محوهم.

كان قدماء المصريين دعائيون غزيرو الإنتاج، وتأثَّر المؤرِّخون العسكريون الذين يراجعون السجلَّات القديمة بالنجاح الموحَّد للجيوش المصرية. وحتى حينما انهارت الإمبراطورية كانت الجيوش المصرية دائمًا منتصرةً، أقرب إلى الوطن.

بقيت الكثير من الكتابات المصرية؛ لأنَّ الصلوات والتعاويذ وأنواع أخرى من سحر الكلمات كانت مخزَّنةً في المقابر. وموضوع الموت يجعل هذه المكتبة الروحية تبدو فلسَفيَّة. ولكن عمل البردي المضبوط هذا لم يكن نظريًّا أكثر من الأعمال الورقية المقدَّمة إلى حرَّاس البوَّابة المعاصرين لجمهورية مصر العربية.

أتفقُ مع علماء المصريَّات الذين يطلبون أن تستند الفلسَفَة إلى حججٍ مفتوحةٍ للبحث العام[1]. هناك كتاباتٌ فلسَفيَّةٌ منسوبةٌ إلى هرميس تريسمجيتس Hermes Trismegistus، الفيلسوف المصري القديم الذي نظَّم الدين في عصره في مجموعة من الكتابات تُسمَّى هيرميتيكا Hermetica. فضلًا عن الفلسَفَة، هناك الكيمياء، والجرعات، والتعاويذ السحرية. ومن شأن وجود هرميس تريسمجيتس أن يملأ الفراغ الذي يشعر به أولئك الذين يعتقدون أنَّ المصريين المتحضِّرين جدًّا يجب أن يكون لديهم فيلسوفٌ لرئاسة أذرع وأرجل الحكومة والهندسة المعمارية والطبِّ. وغياب الفلاسفة الأصليين من شأنه أن يترك مِصْرَ عملاقًا بلا رأس.

البحث عن رأسٍ يفسِّر قدرة هرميس تريسمجيتس على النجاة من سلسلة من عمليَّات قطع الرؤوس العلمية، فبعد كلِّ تفنيدٍ لوجوده بُعث هرميس من جديد، وبعد

(1) لا أتفق مع إيمانويل كانت Immanuel Kant، الذي يتطلَّب أيضًا في "نهاية كلِّ الأشياء" فحص الافتراضات السابقة للفاعلية الأخلاقية، مثل حرية الإرادة. ويخلص إلى أنَّه لم تكن هناك فلسَفَة في الشرق.

الاختفاء في العصور المظلمة ظهر هرميس تريسمجيتس مرةً أخرى في أواخر العصور الوسطى في أوروبـا، ليغمره السكولاستيون مـرةً أخرى في الـلاوجود. وبمجرد أن فقد المشكِّكون المدرسيون نفوذهم عاد هيرميس إلى الظهور خلال عصر النهضة. ويواصل إثـارة فضول مفكِّري العصر الجديد، على الرغم من التحليل الأسلوبي الـذي يـؤرِّخ لهيرميتيكا في 300 بعد الميلاد.

الفلاسفة غير الموثَّقين هم في الجانب الخطأ من التاريخ، فالمؤرِّخون يكتبونهم من سجلات، وهؤلاء الباحثون يستعيضون شخصيَّات ذات مصداقية أفضل. وتؤدِّي مصادفات حفظ الوثائق دورًا غير متناسب في تأنيس الماضي.

يعدُّ هرميس تريسمجيتس أحد الناجين القاسين من تحيُّز النشر هذا، وأنا لا أحسده على دوره في التاريخ، بل في الواقع في هذا الكتاب أواجهُ تعصُّب المؤرخين ضدَّ الفلاسفة غير الموجودين، فحينما يعلم مؤلفون آخرون أنَّ الفيلسوف ربما لم يكن موجودًا على الإطلاق فإنَّهم يمزِّقون صفحته من تاريخ الفلسَفَة، وردُّ فعلي هو التظليل قليلًا في الصفحة التالية، إذ يبعث الاسم من خلال خربشاتي، ويكشف تمييزي المعاكس عن مقدار دخول الفلسَفَة من خلال التفكير الرغبي، وزلات اللسان، والمزاح.

في "الحديث عن العَدَم"، يقلِّب كيث دونيلان (Keith Donnellan 1974) إنكار الوجود إلى افتراضات إيجابية لـ "القوالب المرجعية"، إذ يشبِّه اسم الكوكب إدراك الكوكب، وكما يفسِّر الكوكب النقطة البيضاء المتجوِّلة في المجال البصري للفلكي يفسِّر أيضًا سبب هتافه، "نبتون!". فقد نجح المرجع حينما تسبَّب الكوكب في التمثيل بالطريقة المناسبة.

من حينٍ لآخر، تتعطَّل هذه العملية السببية الطبيعية، ففي علم الفلك تنشأ أقوال "فولكان"[1] Vulcan من سوء فهم أو خطأ أو كذبة. وحينما اكتشف النقَّاد وجود خلل

(1) افترض لو فيرييه Le Verrier أنَّ نبتون هو الكوكب المسؤول عن الاضطرابات في مدار أورانوس، ممَّا أدَّى إلى اكتشاف جالي Galle هذا الكوكب في نهاية المطاف. وافترض أيضًا أن هناك كوكبًا بين عطارد والشمس

في "فولكان" (الذي تم تصميمه لإحالة الكوكب المسؤول عن اضطرابات عطارد) نطقوا الجملة الوجودية السلبية: "فولكان غير موجود". ويبدو أنَّ الجملة تتحدث عمَّا هو غير موجود. لكن دونيلان يقول إنَّه يتحدَّث حقًّا عمَّا هو موجود: مفتاح ربط monkey wrench في مكان ما في آلية التسمية، إذ تعلن عبارة "فولكان غير موجود" اضطرابًا في السلسلة السببية التي تربط عادةً بين الاستعمال الحالي للاسم والاتصال السابق بحامله.

يُوصف سيمون داسيا Simon of Dacia بأنَّه مؤلف كتاب "جسد الفلاسفة الدنماركيين في العصور الوسطى" Corpus Philosophorum Danicorum Medii Aevi . لكنَّ الاسم هو تلفيق أمبلونيوس Amplonius. فهذا المفتون بالكتب قيَّد الكتب بحسب المؤلفين. وحينما لم يكن أمبلونيوس يعرف مؤلف الكتاب ملأ الفراغ باسم وهمي. ويترجم دونيلان "سيمون داسيا غير موجود" على النحو التالي: هناك قالب مرجعي تسبب في نطق سيمون داسيا.

القوالب المرجعية هي عادة أخطاء وليست أكاذيب، مثلًا يستشهد العلماء دون قصدٍ "بالمقالات" التي هي مجرَّد عينات من أسلوب الاقتباس المناسب، وقد تم الاستشهاد بالمقالة الوهمية التالية أكثر من ألف مرة:

Van der Geer, J., Hanraads, J.A.J., Lupton, R.A., 2000. The art of writing a scientific article. J Sci. Commun. 163 (2) 51 - 59.

لا المقال ولا المجلة موجودان، والمؤلفون المشغولون إما يستشهدون بالمقال دون قراءته أو يتركونه دون قصد في المُسوَّدة، والاقتباسات المقلَّدة شائعة. وبما إنَّ الاقتباس المتكرر هو علامة على الجدارة فإنَّ الاستشهادات تتكاثر.

كان من الممكن أن تتبخَّر كرة ثلج الاقتباسات لو سلَّط العلماء عليها نار جحيم كاثرين فروست برونر Katherine Frost Bruner: "بالمناسبة، الخطيئة الأقبح من المرجع

يسبِّب اضطرابات في مدار عطارد، وهذا الكوكب الافتراضي سمَّاه "فولكان"، وفولكان غير موجود في الواقع، ومن ثَمَّ فإنَّ "نبتون" و"فولكان" أمثلةٌ ملموسةٌ على الأسماء الوصفية. (المُترجِم)

غير الكامل هي الإشارة غير الدقيقة، فالأول قد يمسكه المحرر أو الطبّاع، في حين أنَّ الأخير سيثبت في الطباعة كمصدر إزعاج للباحثين المستقبليين وتذكير بإهمال الكاتب" (1942، 68). وقد وافق محرّرو المجلات على تصنيف برونر للاقتباس غير الدقيق بوصفه أسوأ من الاقتباس غير المكتمل، وذكروه في أدلتهم الإرشادية، فالمؤلفون يثلّثون ثنائية المحرر. ومن خلال هذه التثنية والتثليث والتربيع تكرّرَ الجزءُ الأخيرُ من جملة برونر أكثر من عشرة ملايين مرة بتسع لغات مختلفة. "المفارقة هي أن الغالبية العظمى من المؤلفين الذين استلهموا رسالة كاثرين فروست برونر حول أهمية المراجع الكاملة والدقيقة لم يتمكنوا من اقتباسها بدقّة" (Rekdal 2014, 746). والتغيير الأكثر شيوعًا لرسالة برونر هو طرحُ تأكيد أن المحرر سوف يكتشف عدم الدقة. والاقتباس غير المكتمل من المحررين له تأثير نقل كل مسؤولية الاقتباس إلى المؤلف.

من المسؤول عن المشكلات الفلسَفيّة؟ الفلاسفة يتحمَّلون بعض المسؤولية، لكن من الشائع تحميل كلِّ المسؤولية على أكتافهم باتهامهم بخلق المشكلات التي يحاولون حلّها. والخارجيون يصوّرون الفلاسفة كالكلاب المقيدة بالأشجار، في الصباح تدور الكلاب حول أشجارها في دوائر أصغر وأصغر، وكلّما قصرتْ سلسلتها تنبح بصوت أعلى وأعلى، وفي الظهيرة يعود القائمون بالرعاية لفكِّ تشابك الكلاب، وبعد الظهيرة تعود الكلاب المحررة إلى عملها لخلق مشكلات لأنفسها، ويتفق الفلاسفة الذين يقدّمون أنفسهم بوصفهم أصدقاء للحس السليمcommon sense[1] على ذلك. ولذلك؛ يوبّخ جورج بيركلي George Berkeley زملاءَه: "إجمالًا، أنا أميل إلى الاعتقاد بأنَّ الجزء الأكبر - إن لم

(١) فلسفة تطورت في القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر على يد توماس ريد Thomas Reid وآدم فيرغسون Adam Ferguson ودوجالد ستيوارت Dugald Stewart، لتُشير إلى أنَّ الإدراك الفعلي للإنسان العادي يتضمَّن أحاسيس ليست مجرد أفكار وانطباعات ذاتيّة، بل هي اعتقاد بانتماء الصفات المقابلة إلى أشياء خارجيّة، وفي ذلك يتساوى المتعلِّم وغير المتعلِّم، والفيلسوف والعامل اليومي. وقد تطوّرتْ مضادّةً لشكيّة ديفيد هيوم David Hume ومثاليّة جورج بيركلي George Berkeley. (المُترجم)

يكن الكل - من تلك الصعوبات التي كانت تسلي الفلاسفة حتى الآن وتعيق الطريق إلى المعرفة، نحن سببها بالكامل، فقد أثرنا الغبار منذ البداية ثم أخذنا نشكو من أننا لا نستطيع الرؤية" (1948، 2:26). هل يمكن أن تنشأ مشكلات العدم مع الفلاسفة؟

يظهر غياب الفلاسفة المصريين أنَّ الخوف من العدم لم يبدأ من الفلاسفة، فالفلسَفَة بدلًا من ذلك هي نتيجة لذلك الخوف من النسيان. وفي القرن العشرين حاول لودفيج فيتجنشتاين Ludwig Wittgenstein أن يشفينا من الفلسَفَة. وكانت مصر القديمة خاليةً من أيِّ عصاب منذ آلاف السنين، وكانت الحضارة خالية من الفلسَفَة لفترة أطول مِمَّا كانت مرتبطة بالفلسَفَة.

كان الدين المصري عمليًّا، إذ تم تصوُّر السماء على أنَّها ترقية للحياة العادية، وكلُّ شيء أفضل من حيث الدرجة: ملابس أرقى، عدد أكبر من الخدم، طقس أكثر اعتدالًا، ويمكن تمييز اختلاف نوعي واحد من الصور المصرية للسماء: غياب المقابر.

ونظرًا لأنَّ المصريين لم يعرفوا تفاصيل ما هو مطلوب للآخرة، فقد حزموا كلَّ شيء، فهناك أدوات وطعام ومستحضرات تجميل، وقد تمَّ تصغير الكثير من المخبأ cache، بما في ذلك الخدم، وسوف تعيد التعاويذ السحرية بطات توت عنخ آمون المحنطة إلى الحياة (حتى يمكن ذبحها في الحياة الآخرة)، وقد تم تسجيل التعويذات في كتيبات، فقبر المصري يشبه مركبة الهبوط القمرية أبولو11.

وتوجد في القبر أيضًا كتاباتٌ عرضيةٌ تركها بناة القبر وحراسه، مواد القراءة متنوعة: الرياضيات، والطب، والألغاز، والخيال. وتستند الرياضيات إلى وصفات سرية، ولا يوجد تقليد للإثبات.

أقرب تقريب للفلسَفَة في مصر القديمة هو أدب الحكمة، إذ يتميَّز بالحجَّة والحجَّة المضادة: "النزاع بين الإنسان وروحه"[1] Man and His Ba من المملكة الوسطى (2008

(1) نصٌّ مصريٌّ قديمٌ، شكل من أشكال أدب الحكمة، يتخذ صيغة حوار بين رجل - يعاني من صعوبات الحياة - ونفسه Ba. تتألف النسخة الأصلية من 155 عمودًا من الكتابة الهيراطيقية hieratic على بردية

- 1630 قبل الميلاد). والبا ba هو جزء من الروح يحمل الشخصيَّة، ويمثِّله طائرٌ يطير فوق رأسه. وجزء آخر من الروح، الكا ka، هو جسم مزدوج (يشبه الجسد المحنَّط الذي سيتجدَّد لاحقًا). وتسجيل هذا الحوار غير مكتمل، إذ تتحلَّل اللفائف القديمة من الصفحة الخارجية إلى الداخل ومن الصفحة الداخلية إلى الخارج. (تُستعمل الصفحة الأولى غلافًا خارجيًا، وتتعرض للضرب. والصفحة الأخيرة هي أكثر الطيات إحكامًا، وهي تحت ضغط هيكلي أكبر). وهذا الغموض المنهجي للبدايات والنهايات هو استعارةٌ مناسبةٌ للتاريخ.

مهما كانت الأسباب المفصَّلة في البداية المفقودة لـ "النزاع بين الإنسان وروحه"، يجد الإنسان الحياة متعبة، فيتكلَّم بشوقٍ عن الموت، وروحه تعارض الانتحار، فيعرض الإنسان اليائس بناء هيكل جنائزي ويطلب من نسله تقديم القرابين، لكنَّ روحه تردُّ بأنَّه لن يتعاون مع قيامة منتحرة، وهذا التهديد يخيفه، فإذا لم يقم من الموت فإنَّه يواجه مستقبلًا من العدم اللامتناهي.

أرعب النسيانُ المصريين لدرجة أنَّ دينهم لا يحتاج إلى جهنم، ولا يوجد سوى الجنة والعدم. وقد حذَّر الإنسان من أنَّ انقراضه سيضرُّ أيضًا روحَه، لكنَّ روحه لا تزال تخجله لعدم ثباته الكافي. فيغادر روحه مشمئزًّا، ويستمرُّ الإنسان المحبط مهجورًا بفتور في مونولوج بائس ... النهاية؟

يدين "النزاع بين الإنسان وروحه" بالكثير من مظهره الفلسفي لموضوع السؤال: هل يمكن للانتحار أن يكون حكيمًا؟ في أسطورة سيزيف، كتب الوجودي الفرنسي ألبير كاموAlbert Camus، "هناك سؤال فلسفي جادّ حقًّا، وهو الانتحار" (1955، 3).

قرار تقصير العمر يشبه قرار تقصير وجودك في وطنك، كلُّنا مضطرون إلى الهجرة إلى المجهول. وبدلًا من الانتظار يغادر المنتحر قبل الموعد النهائي.

برلين 3024. وبسبب الطبيعة الفلسفية للعمل حظيت باهتمامٍ عالميٍ. (المُترجم).

المقارنة بين الانتحار والهروب إلى أراضٍ أخرى تواجه صعوبة منطقية، فعدم الوجود ليس شبيهًا بهولندا، ولا يمكن أن يكون الانتحار مهربًا؛ لأنَّه لا يوجد "هناك" يهرب المرء إليه.

حينما وُجدت، لم تتطوَّر من كيانٍ غير موجود إلى كيان موجود. الناس غير الموجودين لا وجود لهم! لذلك؛ لم تكن البداية في الوجود خطوةً للأعلى من مستوى منخفض للوجود إلى مستوى أعلى من الوجود، ولا يمكن أن تكون نهاية الوجود انحدارًا إلى وجودٍ أقلَّ، فكونك قليل الوجود يشبه أن تكون قليل الذات.

باختصار، يبدو أنَّ الانتحار العقلاني يتطلب مقارنةً مستحيلةً بين الموجود وغير الموجود. وللاختيار، يجب على المرء أن يقارن كيف ستكون جيدًا في موقف ما بإلى أيِّ مدى ستكون جيدًا في موقف آخر. وتفترض جميع المقارنات الاحترازية أنَّك موجود، هذا ما كان الوجوديون يلحّون عليه.

لاحظ أنَّ الإنسان الذي يتحدَّث مع روحه لا يأخذ بالحسبان الاعتراضات على أنموذج الهجرة المتمثل في الانتحار، فالمصري المرهق لا يريد أن ينتحر بمعنى إنهاء وجوده، إنَّه يريد فقط السفر إلى الجنة مبكرًا، كما تم قياسه بمدى بقاء التجربة الأرضية في المستقبل.

يعترض روح الإنسان على أنَّ الهجرة المبكِّرة ستقلِّل من فرصته في القبول، ويتم الحكم على المهاجرين المحتملين جزئيًّا من خلال مدى وفائهم بالتزاماتهم تجاه أسرهم وأقاربهم وقادتهم. والجبناء والمتهربون تُلقى قلوبهم بعيدًا وتُسقط في طي النسيان.

الهجرة المبكّرة هي قرار بالغ الأهمية، لكنَّه بالنتيجة ليس قرارًا فلسفيًّا. وفي حين أنَّ الأساطير تتطلَّب رسالة، والدين يتطلب الإيمان؛ فإنَّ الفلسَفَة تتطلَّب الصدق validity. الانتحار محير؛ لأنَّ الاستنتاج "حينما لا أوجد أكون أفضل" لا ينبثق من مقدمة أن وجودي سيِّئ. فالسيِّئ غالبًا هو خياري الأفضل، وعدم الوجود ليس خيارًا أبدًا. لذلك؛ لا يمكن أن يتفوَّق عدم الوجود على الوجود.

ولا يمكن أن يكون عدم الوجود الرتبة أدنى من الوجود، أنا سعيد لوجودي، لكن هذا لا يمكن أن يكون؛ لأنَّ عدم الوجود هو حالة أنا فيها أسوأ حالًا. أشعر أنَّني الفائز في يانصيب الغالبية العظمى فيه خاسرون ولا يستمتعون مطلقًا بشروق الشمس، وربما شعر المصريون القدماء بأنَّهم محظوظون بالطريقة نفسها.

الإنسان المرهق في الحوار لا يتصوَّر الانتحار كإجابة لسؤال هاملت، "أكون أو لا أكون؟" مثل غيره من المصريين، يعدُّ الإنسان المنهك من المسلمات أنَّ عدم الوجود هو أسوأ احتمال، ومن ثَمَّ هو شيء لا يمكن اختياره بحكمة.

يشكُّ بعض المترجمين في أنَّ "النزاع بين الإنسان وروحه" يتعلَّق حقًّا بالانتحار، فالطريقة الوحيدة لاستخراج الفلسَفَة من النصوص المصرية هي من خلال التأويل التفصيلي. ويعدُّ علماء المصريَّات المتشكِّكون هذا التأويل بمنزلة إسقاط عِفا عليه الزمن للفلسَفَة على ثقافة لافلسَفيَّة.

من المسلَّم به أنَّ الإغريق القدماء يُرجعون ثقافتهم إلى المصريين القدماء، لكنَّ هؤلاء الوافدين الجُدد المتعطِّشين للمكانة لا يقدِّمون أيَّ تفاصيل عقائدية، فقد سافر الفلاسفة اليونانيون إلى مصر بصفة سيَّاح، وقد رأوا آثارًا وممارساتٍ رائعةً، لكن هناك فرق بين أنَّ يتم إلهامك وأن يتم تعليمك. مصر حضارة رائعة، والفلسَفَة تبدأ بالدهشة، لكن أبسط تفسير لسبب عدم وجود أيِّ فلسَفَة في مصر هو أنَّه لم تكن هناك فلسَفَة.

المفكِّرون القدماء ينخرطون في الانتحال العكسي، يحرِّفون تمثيل عملهم على أنَّه قادم من مصدر أكثر موثوقية، فيعيشون في ثقافات الذاكرة حيث يُدان كلُّ تغيير على أنَّه خطأ نسخ ويُنظر إلى الخيال على أنَّه تخيلات غير موثوقة (أقرب إلى الكذب). وأفضل الأفكار تأتي من العصر الذهبي، فالأقدم هو الأفضل، ولا توجد حضارة في نظرهم أقدم من الحضارة المصرية، فقد تم بناء هرم زوسر خلال الفترة 2630 - 2610 قبل الميلاد خلال الأسرة الثالثة، وكان عمره ألف عام حينما انقرض الماموث (نحو 1650 قبل الميلاد في جزيرة رانجل)، وكليوباترا هي أقرب إلينا في الوقت المناسب مِمَّا كانت عليه للفراعنة الأوائل.

العَدَم .. تَأْريخٌ فَلسَفيٌّ

من المسلَّم به أنَّ المصريين كانوا متكتمين، فمثلًا كانت تعويذاتهم السحرية تقتصر في الأصل على الفراعنة، ولكن بعد أن قرأ لصوص القبور التعاويذ كتبوها على توابيتهم. ونظرًا لأنَّ سطح التابوت محدود كان على الفقراء كتابة تعويذات مسروقة على ورق البردي، وتراكمت هذه المجموعة غير المشروعة في كتاب الموتى[1] The Book of the Dead.

ربما طوَّر كهنتهم الفلسَفَة وعدُّوها معرفةً خاصةً لا يمكن تدوينها. لكن لماذا إذن سمحوا بنشر أدب الحكمة؟ حتى العبرانيون تمكَّنوا من الوصول، وتمَّ اقتباس فِقْرة كاملة من العهد القديم، أمثال 22: 17 - 24:22، من تعليمات أمينيموب Amenemope. فكيف تمكَّن المتآمرون من الحفاظ على سرية فلسفتهم بينما فشلوا في الحفاظ على سرية البدع ومخطَّطات القتل ومواقع المقابر؟

في حالة الفلسَفَة المصرية، فإنَّ غيابَ الدليلِ دليلٌ على الغياب.

---

(1) نص جنائزي مصري قديم مكتوب على ورق البردي، يعود إلى بداية الدولة الحديثة (1550 قبل الميلاد)، يتألَّف من تعاويذ سحرية تهدف إلى مساعدة الميت في رحلته إلى العالم السفلي والحياة الآخرة. (المُترجم)

ثانيًا: العَدَم النسبيُّ

ثانيًا: العَدَم النسبيُّ

3. لاوتزو: غياب الفعل

بعد رؤية الشكل (3.1) كزعيم هندي، تخضع لتحوُّل جشطالتي إلى مشهد حيث يحدق الإسكيمو في الفراغ الأسود. وقد حدث شيء مشابه في القرن الخامس قبل الميلاد، إذ تحوَّل الفلاسفة في الصين والهند وبلاد فارس واليونان من التفكير في ما هو موجود إلى ما هو غير موجود.

الشكل 3.1 وجه الإسكيمو من مؤشر الأوهام.

يُعدُّ لاوتزو Lao - tzu الأنموذج الأكثر اكتمالًا لهذا التحول؛ لأنَّه - على الأرجح - لم يكن موجودًا على الإطلاق.

قوارب فارغة

أتابعُ أولئك الذين يعدُّونَ "لاوتزو" اسمًا مستعارًا للحكماء الذين يعملون وراء الكواليس[1]، إذ امتنع هؤلاء الكتَّاب الأشباح عن أن يصبحوا شخصيات مُستقلة:

(1) تم اختراع نيكولا بورباكيNicolas Bourbaki من مجموعة من علماء الرياضيات الفرنسيين المجهولين في عام 1935 ليكون قوة موازنة لمواطنهم الكاريزمي هنري بوانكاريه Henri Poincaré. وقد رفضوا تأكيد

الطاوية طوّرها مجهولون من أجل مجهولين. وقد كتب شوانغ تزو Chuang Tzu (نحو 360 - 275 قبل الميلاد):

إذا كان رجل يعبر نهرًا واصطدم قارب فارغ بزورقه الصغير، على الرغم من كونه رجلًا سيّئ المزاج فلن يغضب كثيرًا، ولكن إذا رأى رجلًا في القارب فسوف يصرخ في وجهه ليبتعد، وإذا لم يسمع الصراخ فسيصرخ مرةً أخرى، ومرةً أخرى، ويبدأ في الشتم، وكلُّ ذلك بسبب وجود شخصٍ ما على متن القارب. ومع ذلك، إذا كان القارب فارغًا فلن يصرخ ولن يغضب. فإذا استطعت إفراغ قاربك الذي يعبر نهر العالم فلن يعارضك أحدٌ، ولن يسعى أحدٌ إلى إلحاق الأذى بك. ومن يستطيع أن يحرّر نفسه من الإنجاز ومن الشهرة وينزل ويضيع وسط جماهير البشر فسوف يتدفَّق مثل طاوٍ غير مرئي، وسوف يستمرُّ مثل الحياة نفسها دون اسمٍ ولا منزلٍ، وهو بسيط من دون تمييز، يبدو للجميع ساذجًا، خطواته لا تترك أيَّ أثر، ليست لديه قوة، لا يحقِّق شيئًا، وليست له سمعة، وبما إنَّه لا يحكم على أحد فلا أحد يحكم عليه، وهذا هو الرجل الكامل: قاربه فارغ. (Merton 1969, 115)

في أية مسألة عملية فإنَّ الافتراض الطاوي هو أنَّ عدم فعل أيِّ شيء هو الأفضل، وعلى وجه التحديد: حافظْ على طاقتك من خلال مُجاراة القوى الطبيعية.

يمكن للصيَّاد في البحر العودة إلى الشاطئ من طريق التجديف بقوة، أو قد ينجرف ويأمل أن يدفعه المدُّ في النهاية على الشاط.. وأفضل طريقة لعودته هي شيء ما بين النشاط المفرط والخمول الشدي، امسكْ بموجةٍ وارجعْ إلى الشاطئ.

يتطلَّب اتباع مسار الطبيعة مفهومًا ما عن الطبيعة، وتتناسب الصورة الطاوية للواقع مع لعبة Go(شكل 3.2)، يبدأ اللاعبان بلوحة فارغة، وعلى عكس الشطرنج يُعدُّ الفراغ

بوانكاريه على الحدس الحرّ والتشابهات. وأصبح بورباكي المتحدث الأكثر شهرةً وتأثيرًا في العرض الصارم والمجرَّد. وحينما نفى رالف بواس Ralph Boas شخص بورباكي انتشرت شائعةٌ مفادها أنَّ بواس غير موجود. وأقصر المقارنة بين "بورباكي" و"لاوتزو" بحذر في هذه الحاشية.

موقفًا قانونيًّا، وفي لعبة الشطرنج تستعمل اللوحة الفارغة فقط كتجريد - مثلًا - لتوضيح كيفية تحرك القطع، وفي Go يجب أن تبدأ كلُّ لعبة بالفراغ. ونظرًا لأنَّ الحالة الأصلية للطبيعة هي الفراغ والطاوي ينسجم مع الطبيعة فإنَّ الطاوي يدخل بحالةٍ ذهنيةٍ فارغةٍ. يقول شوانغ تزو: "ما زال عقل الحكيم هو مرآة السماء والأرض، زجاج كلِّ شيء، والخلوّ والسكون والهدوء وعدم الطعم والصمت وعدم الفعل هذا هو مستوى السماء والأرض وكمال طاو وخصائصه" (Legge 1891, 13).

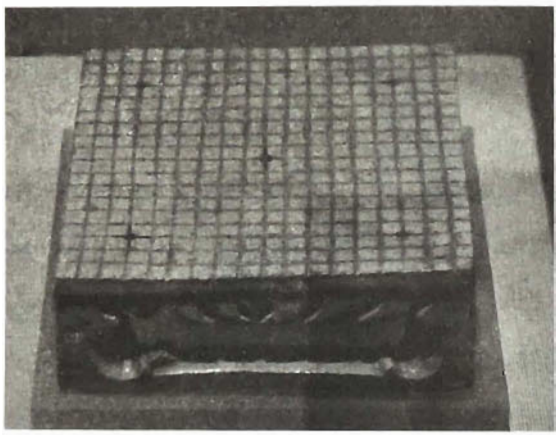

الشكل 3.2 أنموذج لوح Go 19 × 19 من مقبرة سوي (581 - 618 م). الإسناد Zcm11.

تضطرب هذه الحالة الأصلية الهادئة حينما يضع الأسود أحد أحجاره السوداء عند تقاطع شبكة 19 × 19، ويستجيب الأبيض بوضع أحد أحجاره البيضاء عند تقاطعٍ ثانٍ.

حينما يكون عدم الفعل غير ممكن فإنَّ الخيار الثاني هو ردُّ الفعل. ويردّد لاوتزو آداب السلوك الصينية للضيف الذي يتبع قيادة المضيف. ويستشهد بقائد عسكري لعب دور الضيف في أثناء الحرب. حينما تقدَّم "مضيفه" تراجع.

يميل الفعل إلى أن يكون هازمًا لذاته، كما هو الحال حينما يشد المزارع نباتًا لتسريع نموّه، فمن خلال السماح لخصمك بالتصرف فإنَّك تسمح له بهزيمة نفسه.

بدلًا من القتال، يسلِّم الطاوي الأرض، والاستراتيجية هي إغراء خصمك بإفراط في توسيع نفسه، فالعمل يكلف الطاقة، وبذلك يخلق احتياجات جديدة، والمزيد من العمل يصبح مغريًا، وتضيق خطوط التوريد، ولم يعد خصمك قادرًا على إعالة نفسه.

النصر ينقل الإغـراءات من خاسر إلى منتصر، وينصح لاوتزو بالعودة السريعة إلى اللافعل، فعند الانتصار توقَّفوا عن العداء، لا تتفاخروا، كونوا متحمِّسين ذاتيًا، وكونوا مسالمين.

من الأفضل إلى الأسوأ، يصنِّف لاوتزو الإغفال على أنَّه الأفضل، ثمَّ ردّ الفعل، وكملاذٍ أخير، الفعل. وحينما يُجبر المرء على التصرُّف يتصرَّف بأقل قدر ممكن، وبإيجاز قدر الإمكان، وبطريقة تتعاون مع زخم الآخرين، فبدلًا من إيقاف العربة الضالة أعدْ توجيهها.

مع معرفة المسار الصحيح وبعد النظر حول المسارات فإنَّ التنبيه بعيد النظر يحول دون تصحيح أكبر، فخفَّة اللمسة تحافظ على عدم وضوح التدخُّل. ولا يشعر الناس بأيِّ شيء مفروض، ويستنتجون: "نحن من فعل ذلك!"

الهدف من Go هو احتواء المزيد من الأراضي مقارنةً بخصمك، الأبيض يستجيب للأسود بوضع حجر أبيض، فيتناوب الأسود والأبيض. يزيلون الأحجار المحيطة، وحينما لا يبقى هناك احتمال لتحقيق مكاسب إقليمية، يوافق الأسود والأبيض على التوقُّف عن إضافة الأحجار، يقيسون المنطقة، والمهم هو مقدار المكان وليس عدد الحجارة.

ويتم احتساب الكمية النسبية فقط، فحينما تتم المباراة ضد لاعب أدنى فإنَّ المسيطرين في Go يقلِّلون من هامش انتصارهم، والخاسرون الساذجون يأخذون العزاء من تقارب النتيجة.

تشير الأدلَّة الأثرية إلى أنَّ اللوحة بدأت كشبكة 17 × 17 وتوسَّعت إلى شبكة 19 × 19 الحالية، ويمكن للمرء أن يتخيَّل المزيد من التوسُّعات في نظام الإحداثيات التي يمكن أن تنتج تمثيل أي مشهد، بالأحرى مثل فسيفساء بالأبيض والأسود، وإضافة بعد ثالث من شأنه أن يمنح المزيد من القوَّة التمثيلية.

يعتقد بعض المؤرخين أنَّ الحجارة السوداء والبيضاء تمثِّل الين واليانغ (شكل 3.3)، إذ تدلُّ التباينات بين الأسود والأبيض على ازدواجية أساسية تكمن خلف عائلة من الأضداد (شكل 3.4)، وتنعكس الطبيعة المنهجية للتمييز بين الين واليانغ في عمليات الاقتران الإنجليزية، فحينما تستعمل "و" فإنك تؤدّي إلى مفهوم أسهل، فالكلمات الإيجابية أسهل في الفهم والتذكر من الكلمات السلبية، ومن ثَمَّ فإنَّ اليانغ يسبق الين في اقتران: النور والظلام، والسماء والأرض، عالٍ ومنخفض.

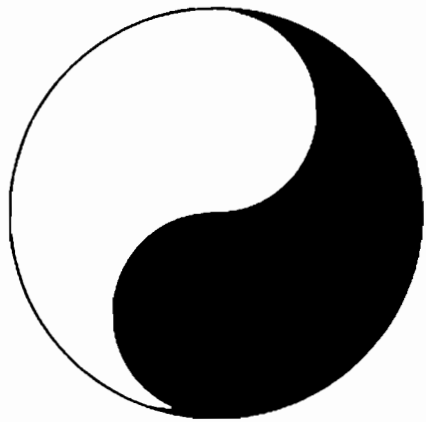

الشكل 3.3 رمز الين واليانغ.

يانغ	+	ضوء	سماء	عالٍ	إبداع	ذكر	كبير	صلب	مشمس
ين		ظلمة	أرض	منخفض	تقبل	أنثى	صغير	ناعم	ظليل

الشكل 3.4 جدول الثنائيَّات.

تشير الدوامة الدائرية في رمز الين - يانغ إلى كيف تؤدي المقاومة إلى حدوث دورات، كلُّ قوة لها نقطة تحوُّل، التي عندها تستسلم للأخرى.

يجب أن يتواجد الين واليانغ معًا، كما يتضح من الحاجة إلى وجود كلٍّ من النساء والرجال للحفاظ على النوع. ويرتبط الين بالأنوثة ومنقول من الرمزية اليونيكية yonic (من السنسكريتية yoni، "المهبل").

في الغرب، الغياب الجنسي أمر مروع، وتستعمل مسرحيَّات شكسبير الصفر 0، وإيماءة اللاشيء (الإبهام المرتبط بالسبابة) للنكات البذيئة، فحينما سأل هاملت أوفيليا: "هل تعتقدين أنَّني قصدت أن تكون البلد مهمة؟" أجابت: "لا أعتقد شيئًا يا مولاي". ويواصل هاملت المضايقة: "فكرة عادلة أن تستلقي بين أرجل الخادمات" أوفيليا: "ما هو مولاي؟" هاملت: "لا شيء"

إنَّ الرمزية اليونيكية في الكتابة الطاوية ليست أخفَّ من المصطلحات الجندرية للموصلات والمثبتات في الحرف الميكانيكية، إذ تنخفض الدغدغة مع وضوح المقارنة مع الأعضاء التناسلية المتشابكة. وحينما يتحدَّث سباك عن تركيبات مواسير من الذكور والإناث فإنَّ الصور تكون علنيةً جدًّا بحيث لا تكون إباحيةً.

في الفلسَفَة الطاوية المستوحاة من لاوتزو ينشأ الين واليانغ معًا من حالةٍ أوليةٍ من الفراغ، ويميلان إلى العودة إلى تلك الحالة. البركة هادئة بشكل طبيعي، وحينما يتم رمي الحجر تتشكَّل القمم والمنخفضات، وتشعُّ الموجات إلى الخارج من نقطة الاضطراب حتى تتساوى الاختلافات، فتعود البركة هادئةً مرَّةً أخرى.

اللافعل

أولئك الذين يكتبون باسم لاوتزو يمتدحون عدم الاختفاء وعدم التدخُّل. "يلتزم الطاو بعدم الفعل، ومع ذلك يُترَك العدم غير متحقق. إذا لاحظ الملوك واللوردات هذا فإنَّ عشرة آلاف شيء سيتطوّر بشكل طبيعي" (Lao - tzu 1974, 43). يتناقض مدح لاوتزو للإغفال والمجهولية مع تركيز كونفوشيوس Confucius الاستبدادي على العمل الصالح وكسب احترام أقرانه وأحفاده.

في كتابه "التعلُّم العظيم" The Great Learning، يقول كونفوشيوس إنَّه يجب علينا تعزيز الخير الأكبر للإنسانية (الحيوانات لا تهم)، فقد تبدو أصغر من أن تحدث فرقًا، لكنَّك جزء من سلسلة من كلِّ أكبر وأكبر: فرد، أسرة، عشيرة، قرية، دولة.

إذا كان في القلب نزاهة فسيكون هناك جمال في الشخصيَّة.

إذا كان هناك جمال في الشخصيَّة فسيكون هناك انسجام في المنزل.

إذا كان هناك انسجام في المنزل فسيكون هناك نظام في الأمة.

إذا كان هناك نظام في الأمة فسيكون هناك سلام في العالم. (Legge 1871, 25)

نحن جميعًا في المنظور الصحيح حينما نكون جميعًا في المنظور الصحيح. وللعمل بهذه المقاييس الكبرى سعى كونفوشيوس إلى الحكم، إن لم يكن حاكمًا فعندئذٍ مستشارًا، وإن لم يكن مستشارًا فعندئذٍ مدرِّسًا.

يشدِّد كونفوشيوس على أهمية الكلام الصحيح؛ لأنَّه يرمز تصنيف الأدوار، فإذا كنتَ تعرف كيف تصف شخصًا ما (الابن، الأب، الجد) فأنتَ تعرف كيف تتصرَّف تجاهه.

لا يمكن أن تكون قد نشأت من أيِّ شخص آخر غير والديك الفعليين، وأنت تعتمد بشكل ميتافيزيقي على كلِّ أسلافك المباشرين، وقد أكدوا أنَّك من بين القلائل المحظوظين في الوجود، أنت مدينٌ لهم بكلِّ شيء، لا يمكن تعويض الأجداد المتوفين إلَّا من خلال احترام رغباتهم الأخيرة والحفاظ على ذكراهم حيَّة لأحفادهم في المستقبل، وأنتَ ملزمٌ بضمان وجود هؤلاء المعجبين في المستقبل.

يوفِّر كونفوشيوس إرشادات معقَّدة حول كيفية التصرُّف، فيجب أن تتوافق مع دورك، إذا كنت ابنًا فتصرَّف كابن، وإذا كنت أبًا فتصرَّف كأب، وإذا كنت قائدًا فتصرَّف كقائد. طور الأخلاق الحميدة، وقم بأداء الطقوس المناسبة لمحطَّتك ومرحلة حياتك، كن ابنًا، تقدَّم لتصبح أبًا، ثمَّ كن جدًّا! وربما حتى الجد الأعظم![1]

(1) أقوال الأنثى تتبع أقوال الذكر كحواشٍ، كوني أولاً ابنةً، ثم أمًّا، ثمَّ جدَّةً.

يجيب كونفوشيوس عن سؤال الأخلاق الأساسي: "ما العمل؟" يفترض هذا السؤال أنه يجب القيام بشيء ما، ويتكوَّن الجانب العملي للطاوية من تحديات لهذا الافتراض المسبق.

يحذِّر الطاويون من الوعظ الأخلاقي كما يحذِّرون من الحرب، فبمجرد أن يكتشف الأخلاقي ما يجب القيام به فإنَّه يبحث عن السلطة، فالأخلاق تولد السياسة، والسياسة تولد الفساد.

يبدأ الفساد بالتسلط، حتى لو كان الناس يسيئون التصرُّف حقًّا، فقد يضر القائد أكثر مِمَّا ينفع من خلال تصحيحهم، وعلى فق ذلك، يدعو لاوتزو إلى الصبر.

بشكلٍ بسيطٍ، يجب علينا أن نتسامح مع ما هو خطأ، فيعدّ لاوتزو أكثر جرأة، ويدافع عن التسامح مع بعض أنواع المخالفات.

هل يمكن للمرء أن يدين الشرَّ بصدق دون أن يكون مستعدًّا لعمل شيء ضدَّه؟ يجيب الطاوي أنَّ الرفض الأخلاقي يلزم المرء بإحباط السلوك السيِّئ فقط حينما تتجاوز فوائد التدخل التكاليف. ونظرًا لأنَّ الأعمال المشاغبة تميل إلى تدمير نفسها فإنَّ الأساس للمقارنة هو دائمًا اللافعل.

الصدى الحديث لهذه الرؤية هو اختبار الفرضية الصفرية، فعند تقييم فعالية علاج الصداع يقارن الإحصائي بشكل روتيني الفرضية القائلة بأنَّ العلاج يعمل مع الفرضية القائلة بأنَّ الدواء لا يحدث فرقًا.

يؤكد الطاوي أيضًا احتمال تدخُّل شخص آخر، ولا ينبغي لأحد أن يُخضِع شخصًا شريرًا يقيده جاره بطريقة أفضل، من يفعل الصالح لا علاقة له بالموضوع.

يفضِّلُ علماء الأخلاق حلَّ المشكلات من خلال دوافع سامية، لكنَّ الطاويين أقلَّ حماسة. إذا كانت المنافسة بدلًا من التعاون تنتج بيضًا أرخص فاجعل المصلحة الذاتية بدلًا من الإيثار. في عام 1985 ردَّد رئيس الحزب الشيوعي دينغ شياو بينغ صدى اللامبالاة الطاوية عند إدخال إصلاحات السوق الحرة: "لا يهم ما إذا كانت القطَّة سوداء

أو بيضاء ما دامت تصطاد الفئران"

يثمِّن الطاويون أمثلة النظام العفوي، لكنَّهم ليسوا طبيعيين لدرجة تأييد كلِّ الانتظامات الطبيعية، فحينما يكون للجَرَاد grasshoppers مكان يتجاهل بعضه الآخر، ويلتزم بالفوضى السلمية. وحينما يتم حشر الجراد بقفص دائري يبدأ في السير بدائرة. وعلى الرغم من أنَّ هذا قد يبدو تغييرًا للأفراد إلى تجمعات فإنَّ الجراد في الواقع مدفوع باحتمالية أكل نوعه، فيتقدَّم لتجنُّب أن يلتهمه الجراد الذي خلفه، وعلى أمل التهام الجراد الذي أمامه.

إنَّ آفات الجراد منظَّمة ولكن ليس لأنَّ الأمر يخدم مصلحة أيِّ شخص، فمع تقدُّم المجتمع تولد أشكال النظام الضارة الذعر والغوغاء ومطاردات الساحرات. وغالبًا ما يكون الحلُّ المناسب أقلّ نظامًا، كزحف أضرار الجسور، والحل الطاوي هو كسر الخطى والمسافة.

الاستسلام الطاوي للعجز

يفترض كونفوشيوس أنَّ جميع المشكلات قابلة للحلِّ، وينصح الطاويين بالاستسلام لقوتنا المحدودة.

لا يجب أن يكون الاعتراف بالعجز محبطًا؛ لأنَّه حينما لا يمكن تغيير الحقائق لتناسب رغباتنا يبقى خيار ملاءمة رغباتنا مع الحقائق.

يُفضل العمل العقلي على الفعل البدني؛ لأنَّه يستهلك طاقةً أقل، وإذا كان يجب على المرء أن يجرب فليجرّب تجربةً فكريةً. وإذا كان على المرء أن يكتب فدع المستمع يقرأ ما بين السطور، ضعْ فلسفتك في الشعر بدلًا من النثر.

يستغل الفنانون الطاوية ميل العقل لملء التفاصيل (شكل 3.5).

يجب أن تبدو الأشكال حتى المرسومة من دون عيون تنظر، ومن دون آذان تستمع. هناك أشياء لا يمكن لمئات من ضربات الفرشاة تصويرها ولكن يمكن التقاطها ببضع

ضربات بسيطة إذا كانت صحيحة. هذا يعبِّر حقًّا عن غير المرئي. (Szi and Hiscox 2015, 174 - 75).

الشكل 3.5 صفحة من (Jieziyuan Huazhuan) "دليل حديقة بذور الخردل"

دليل رسم صيني من القرن السابع عشر.

في كتاب أوسكار ماندل (Oscar Mandel 1964)، تشي بو والساحر Chi Po and the Sorcerer، يعطي الساحر بو فو درسًا في الرسم لتشي بو، إذ يقول: "لا لا! لقد رسمت فقط ما هو. يمكن لأيِّ شخص أن يرسم ما هو! السرُّ الحقيقي هو رسم ما هو ليس كذلك!" أجاب تشي بو في حيرة: "ولكن ما هو الـ ليس كذلك؟".

تم وصف الفن الفيكتوري بأنَّه رهاب الفراغات kenophobic (رهاب الأمكنة الفارغة). وبالمثل، حينما يرسم الأطفال فإنَّهم يملؤون المكان بأكمله، والفنُّ الطاوي يتَّسم برهاب الفرغات.

سياسات العَدَم

ينسب كونفوشيوس التأثيرات الإيجابية إلى الأسباب الفاضلة، والحكّام هم الأسباب الرئيسة، والفضيلة هي الأكثر أهمية للمتفوّقين.

الطاويون فوضويون، وتعود أسطورة أنَّه يجب أن تكون هناك سلطة عليا إلى تحيّزنا لصالح التفسيرات المقصودة، ونهمل التفسيرات المتنافسة التي لا تتضمَّن فاعلين.

إذا تصادف أن تترأس سلطة ما التأثيرات الجيدة فنحن جميعًا حريصون جدًّا على منح الفضل لهذا الفاعل البارز، وإذا كانت الآثار سيئة فنحن متشوّقون جدًّا لإلقاء اللوم على المحكومين، فالسلطات المركزية مسكينة أكثر مِمَّا تبدو.

يدافع الليبراليون Libertarians عن الحرية الفردية بوصفها أسمى غاية سياسية. وتصوُّرهم للحرية سلبيٌّ: غياب التدخُّل القسري من الفاعلين الآخرين حينما يحاول المرء القيام بأشياء. ويمجّدون التحرُّر من الرقابة والضرائب والمحظورات ضدَّ الجرائم التي ليس لها ضحايا، وهذا يتناقض مع الحرية الإيجابية: حرية الأكل والتعلُّم والسفر. وغالبًا ما تتعارض الحقوق الإيجابية بسبب ندرة الموارد. والمكان الشحيح يجعلنا نعيش بالقرب من بعضنا الآخر، فحقُّك في الغناء يتعارض مع حقِّي في الهدوء، والحقوق السلبية تفلت من هذا الصراع؛ لأنَّه يمكن احترامها من خلال عدم القيام بأيِّ شيء.

يقرُّ معظم الليبرتاريين بشرعية جمعيات الحماية التي توفّر الأمن وتفرض حقوق الملكية للأفراد، وتسعى هذه الجمعيات الصغيرة أيضًا إلى الأمان في الأعداد، ومن ثَمَّ يتم دمجها في جمعيات أكبر. وفي النهاية يؤدّي التوحيد إلى الحدِّ الأدنى من المكانة. ويقرُّ الليبرتاريون بأنَّ هؤلاء لديهم سلطة سياسية، على عكس الفوضويين. ومدح لاوتزو لأساليب الحكم المتجاهلة للذات الخفيفة يرشحه كأول ليبرتاري.

ومع ذلك، لا يعدُّ لاوتزو الفرد متميزًا بشدة عن بيئته، وبالنسبة إلى اليبرالتاريين ترسم الذات حدًّا لمطالب الآخرين. ونظرًا لأنَّ لاوتزو أكثر شمولية فإنَّه يركّز بشكل أقلَّ على القادة وأكثر على الظروف المحيطة. فبعض الشرور النازِلَة تآمرية conspiratorial، فينبع

بعض التنازل من الفساد، والكثير من الشرِّ النازِل منحدر من الفشل حسن النية في التنبؤ بالخصائص الناشئة.

نميل إلى تصديق نظريات المؤامرة للأحداث السيِّئة وابتكار متبرعين خياليين للأحداث الجيدة، وحتى حينما لا يكون هناك شيء يحدث أمامنا فإنَّنا نستنتج كلَّ أنواع الأعمال وراء الكواليس.

الطاوية الدينية

جعل الطاويون الأوائل اللاأحد nobodies بدلًا من بعض الأحد somebodies، واللاأحد تحوَّل بدوره إلى عَدَم. وفي القرن الخامس قبل الميلاد حوَّلَ الطاويون المتدينون اللاأشياء nothings إلى لاموجودات nonbeings تحكم الطبيعة، مِمَّا أدى إلى طمس الخطِّ الفاصل بين الطبيعي والخارق للطبيعة.

على نطاق ضيِّق، الغياب يلهم التفكير السحري، ففي النهاية يبدو أن الغياب ينتج آثارًا من دون أسباب. يبقى الماء في أنبوب رفيع ما دام تسده بإصبعك من الأعلى، وترفع الشفاطات الماء من دون جهد، وصفائح الزجاج تلتصق من دون مثبتات، وظلَّ رافع الأثقال يحاكي جهوده بدقة ولكن دون عناء، وعلى نطاق واسع، يلهم الغياب بالرهبة، فالوديان والكهوف والسماء سامية.

يقاوم الطاويون العلمانيون هذا التحوُّل للأشياء إلى لاموجودات، ومن المؤكَّد أنَّ التيَّار المعاكس يُحَسُّ وكأنَّه قوَّة تبتعد عنك في البحر، ويشعر السبَّاح بأنَّه قد ابتلعه وحشٌ، لكن هناك فقط غياب للضغط الناجم عن انهيار جرف رملي، وسوف يتدفَّق الماء حتى يتم معادلة الضغط، والسبَّاح الحكيم يسمح لنفسه بالذهاب معه ثمَّ يسبح مرةً أخرى بعد استعادة التوازن.

هذا اللافعل يتطلب شجاعةً. من المغري أن ننسب نية خبيثة إلى البحر، فالذعر له ميتافيزيقيا روحانية، والانتكاسات غير الشخصيَّة تصبح اعتداءات متعمّدة. وحينما

يفاجئ غصن ساقط كلبًا يفترض الحيوان أنَّه تمت مهاجمته، وهذه هي السياسة الأكثر ملاءمةً لبقاء الكلب، والناس لديهم التحيز نفسه تجاه عزو القدرة الخفية.

يمكن أيضًا تحفيز ميلنا إلى صنع شيء من العَدَم من خلال ميلنا إلى إظهار المشاعر، فحينما تنظر إلى أسفل منحدر يبدو أنَّ الهاوية تسحبك إلى أسفل، ولكنَّك تقوم فقط بإسقاط دوارك على المكان الفارغ.

هذا لا يعني أنَّ الغياب غير ضارٍ، فكما الحمامة في الغرفة المفرغة vacuum[1] chamber لا تواجه أيَّ مقاومة ولكنَّها لا تستطيع الطيران، وسرعان ما تموت، لكن ليس بسبب ما يفعله الفراغ، تموت الحمامة بسبب ما يفشل الفراغ في القيام به (توفير الهواء، والضغط المعاكس، والدفء).

الغياب قوي، يكمن خطأ الطاوية الدينية في إساءة فهم قوَّة الإغفال omission كقوَّة للتكليف commission، فالأقران المتديّنون فوق منحدر ويخطئون في تفسير دوارهم على أنَّه الهاوية التي تسحبهم إلى أسفل.

الدين يضخِّم ما يصغِّره العلماني، وهدف لاوتزو المقتصد المتمثِّل في الحفاظ على الطاقة يعمل على تحقيق هدف زيادة الطاقة، ويركِّز على امتلاك بالونات حياة طويلة في البحث عن الخلود، ويصبح البحث عن هذا الإكسير النهائي أنموذجًا تنظيميًّا في تاريخ الكيمياء والطبِّ الصيني.

الغياب كأسباب

يعتقد القدريون أنَّه ليس لدينا قوَّة، فنحن منجذبون إلى حالة مستقبلية، مصير، بغضِّ النظر عن ماضينا (على عكس الحتمية، التي تجعل الماضي يتحكَّم في

(١) حاوية صُلبة تُفرَّغ من الهواء والغازات الأخرى عبر مضخَّة تفريغ، مِمَّا ينتج بيئةً منخفظة الضغط داخل الحجرة، تُسمَّى الفراغ، تسمح للباحثين بإجراء تجارب فيزيائية أو اختبار الأجهزة الميكانيكية التي يجب أن تعمل في الفضاء على سبيل المِثال. (المُترجم)

المستقبل)، ولاوتزو ليس قدريًا. فالإغفالات هي الأسباب، وحينما يفشل الطباخ في إطفاء حريق صغير يتسبَّب في تدمير المطبخ. وقد يظلُّ البيروقراطي الذي لا يستطيع أن يفعل شيئًا قويًا بفضل ما يمكنه الامتناع عن فعله.

آثار الإغفالات ليست مضافة، ضعْ في اعتبارك طبَّاخةً لديها ما يكفي من الماء لإطفاء حريق واحد فقط من اثنين، وبدلًا من إطفاء أيٍّ من النارين لا تفعل شيئًا. لم يتسبب إغفال الطباخة بحرق مطبخين، فهي مسؤولة فقط عن حرق مطبخ واحد، وليس من المهمّ أي مطبخ هو.

يمكن أن يكون الغياب نتيجة أيضًا، فحينما تصبُّ الخادمة الماء على نار المطبخ تمنع المطبخ من الاحتراق.

يتحوَّل الغياب إلى ألغازٍ أكثر عمومية من الاستباق السببي. ضع في اعتبارك حوضًا به فتحة فيض بالقرب من الأعلى وفتحة تصريف في الأسفل، وبعد أن اكتشف الزوج والزوجة أن شخصًا ما ترك المياه تتدفَّق يشعر الزوج بالراحة: "فتحة التصريف تمنع الماء من الارتفاع فوق حافة الحوض"، وتعترض زوجته على أنَّ "فتحة التصريف لم تمنع الفيضان، إذا لم تكن فتحة التصريف في قاع الحوض فإنَّ فتحة الفيض كانت ستمنع الماء من الانسكاب فوق حافة الحوض". أجاب الزوج: "لكن لم تمر قطرة ماء عبر فتحة الفيض العلوية! هذا الثقب لم يفعل شيئًا ومن ثَمَّ لم يمنع أيَّ شيء". الزوج والزوجة في حيرة: بالتأكيد شيء منع الضررا

يعتقد الطاويون أنَّ مجموعة متنوِّعة من حالات الغياب يمكن أن تكون أسبابًا.

ثلاثون سلكًا تتقاسم محور العجلة؛

الفتحة المركزية تجعلها مفيدة.

تشكيل إناء من الطين؛

المكان الداخلي يجعله مفيدًا.

قطع الأبواب والنوافذ للغرفة؛

الثقوب تجعلها مفيدة.

لذلك يأتي الربح مِمَّا هو موجود؛

الاستفادة مِمَّا ليس موجود. (Lao - tzu 1974, chapter 11)

الاعتراض الأول هو أنَّ احتساب الغياب كأسباب يتعارض مع مبدأ أنَّ السببية تتطلَّب نقل الطاقة، فحينما يصطدم بك الجملَ يتم امتصاص الجاذبية oomph الأمامية، وربما اثنين من الجاذبية لجمال باكتريان!

الاعتراض الثاني هو أنَّ السببية علاقة بين حدثين، وفشل شيءٍ ما في الحدوث هو لا حدث؛ لذا فإنَّ المخطط أ الذي تسبَّب في ب ليس لديه وظيفة ب.

الحفاظ على الطاقة

فضلًا عن إنكاره أنَّه عاجز يتجنَّب لاوتزو القدرية باعترافه بأنَّه يجب علينا الفعل في بعض الأحيان، ففي النهاية يدعو إلى الفعل بكفاءة، وهذا ما تفترضه نصيحته بالحفاظ على الطاقة، فيحذّر لاوتزو من إهدار الموارد في مشاريع غير مجدية، ويفترض بشكل صحيح أنَّ الأفعال لها نواتج.

يفضِّل لاوتزو الأفعال التي تقلِّل من المداولات، ويتم عرض هذا الأنموذج المثالي في قصة كيف قام لاوتزو بتأليف أعظم ما لديه تاو تي تشينغ Tao Te Ching. كان لاوتزو يحاول مغادرة الصين، ومع ذلك، تم اعتقاله من حارس المعبر ين سي. ربما بناءً على عقيدة موزي Mozi القائلة بضرورة الحفاظ على الحكمة، طلب ين من الحكيم تدوين حكمته قبل المغادرة، فأنتج لاوتزو تاو تي تشينغ في غضون أسابيع قليلة، وكان حارس المعبر مسرورًا بالوثيقة وسمح للاوتزو بركوب جاموس والانطلاق إلى الغرب.

بعد اختفاء لاوتزو، يصبح ين سي منعزلًا، وفي وقتٍ لاحقٍ أصبح هو نفسه حكيمًا، ثمَّ يختفي أيضًا في الغرب.

واليوم، يظهر كونفوشيوس من جديد في الشرق بفضل الإعانات المقدّمة من جمهورية

الصين الشعبية. وحينما كنت صبيًّا سمعت لأول مرةٍ عن كونفوشيوس من خلال أفلام تشارلي تشان Charlie Chan البوليسية القديمة. كان المخبر المحترم يقول: "يقول كونفوشيوس: النوم فقط هربٌ من الأمس" (الظلال على الحي الصيني)، "كونفوشيوس يقول: حظ سعيد سلسلة من الحوادث الحمقاء" (الخاتم الصيني). وبصفتي شابًّا مُحبًّا للصين sinophile شعرت بالانزعاج حينما علمتُ أنَّ كونفوشيوس لم يقل أبدًا أيَّ شيء يقتبسه تشارلي تشان، وكلّ الحكمة نشأت من كُتَّاب سيناريو هوليوود في ثلاثينيَّات القرن الماضي[1].

استمر استيائي، يتساءل بعض علماء القرن الحادي والعشرين عمَّا إذا كان كونفوشيوس قد قال شيئًا منسوبًا إليه أو ما إذا كان موجودًا على الإطلاق. وبموجب إحدى النظريات المتشككة كان كونفوشيوس محاربًا يتمتَّع بشخصيَّة كاريزمية وأصبح نقطة جذب لأجيال من الدعاة. ويميز الكلبيون Cynics كونفوشيوس، وبالفعل اسم "كونفوشيوس"، على أنَّه اختراع اليسوعيين في القرن السابع عشر في الصين. واحتاج الضيوف اليسوعيون إلى حكيم صيني متقارب مع المسيحية لصرف الاتهام بأنَّ المبشِّرين كانوا يهدئون الصينيين مقدمةً للغزو الأوروبي (المزيد في الفصل 18 عن لايبنيز). فكونفوشيوس - بحسب الكلبيين - هو اليسوعي المُدَّعي للصينية yellowface.

يقول الكلبيون إنَّ شيئًا مشابهًا يحدث في الصين المعاصرة، إذ تحتاج الحكومة إلى حكيم استبدادي مقبول على نطاق واسع من الغرب، يمكنه التوفيق بين الاستبداد

---

(1) مناهضة العنصرية أمس هي عنصرية اليوم، تم تقديم تشارلي تشان بطلاً لمواجهة العنصرية التي يسبِّبها الشرير فو مانشو. تشان كريم، شريف، وحكيم (وهكذا أصبح المفضل لدى الجماهير الصينية). ولكن لجعل تشان صينيًّا مميزًا تتوافق الشخصيَّة مع الصورة النمطية في 1930 للصينيين كمتحدثين تقليديين، غير عاطفيين، متحدثين تلغرافيين بالإنجليزية. وفي حين أنَّ مناهضي العنصرية بالأمس عدُّوا العرق غير ذي صلة فإنَّ مناهضي العنصرية اليوم يؤكدون على العرق، ومستاؤون أكثر من أن يشجعهم مشهد الممثلين القوقازيين الذين يلعبون أدوارًا آسيوية. هل ستجتاز الجملة الأولى من هذه الحاشية اختبار الزمن؟ ابقوا متابعين!

الشيوعي مع يانغ الفردية الرأسمالية، والحيلة هي جعل الإمبرياليين القدامى يأكلون هراءهم القديم.

الشيوعيون الصينيون ينتظرون بفارغ الصبر تناسخ شخصيَّة الدالاي لاما شمال ملاذه الحالي في الهند، ويخطِّط المسؤولون الشيوعيون للمصادقة على خليفةٍ سيصادق على غزو الصين للتبت، وينتظرون ولادة الدالاي لاما من جديد في التبت. وقلقًا بشأن هذا الاختطاف في المستقبل، يهدِّد الدالاي لاما بعدم التناسخ، ويُنكر الشيوعيون أنَّ الدالاي لاما لديه أيّ سيطرة على ما إذا كان سينبعث من جديد.

"الحقيقة، مثل كرة القدم، تتلقَّى الكثير من الركلات قبل الوصول إلى المرمى" (تشارلي تشان في الأولمبياد).

4. بوذا: غياب الكُلِيَّات

انظروا أيُّها الرهبان. كلُّ الأشياء المركبة عرضة للانحلال. اسعوا للتحرُّر باجتهاد!

آخر كلمات بوذا Buddha

بالقرب من كابول يقع الموقع السابق لبوذا باميان، قبل أن تدمِّره طالبان في عام 2001، كان هناك تمثالان ضخمان لبوذا يقفان على جانب منحدر في وادي باميان منذ القرن السادس (شكل 4.1). وتماثيل بوذا الغائبة مؤثِّرة؛ بسبب احتضان بوذا للعدم.

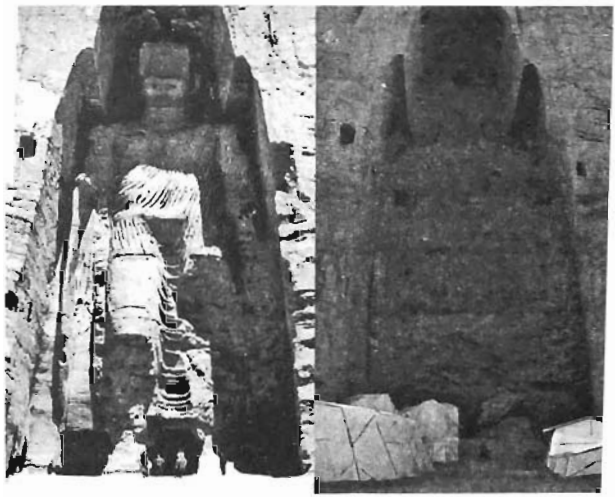

الشكل 4.1 تمثال بوذا باميان الأطول وغيابه.

عبادة الأوثان

انقرضت البوذية في وادي باميان (بوذا نفسه تنبَّأ بأنَّ تعاليمه ستُنسى في النهاية). ونظرًا لعدم وجود خطر من عبادة التماثيل أصدر زعيم طالبان الملا محمد عم، في يوليو 1999 مرسومًا بالحفاظ على التماثيل لتكونَ منطقةَ جذبٍ سياحي.

القانون الديني متشدد، إذ قرَّر اجتماعٌ خاصٌّ ضمَّ 400 من رجال الدين أنَّ تماثيل بوذا في باميان كانت بالفعل أصنامًا.

كان رجال الدين على حقٍ، فعلى الرغم من أنَّ بوذا اشتهر بعقيدته القائلة بأنَّ عدد الأنفس هو صفر فقد تم تصويره من خلال عددٍ هائلٍ من التماثيل الضخمة في جميع أنحاء آسيا. وبوذا الكبير يجعل الحاج يشعر وكأنَّه صفر صغير (0) مقارنة بالصفر الكبير (0).

بالطبع، 0 = 0. لكنَّ البوذيين يضعون الأوهام في خدمة الحقيقة (شكل 4.2). وبغضِّ النظر عن مدى دقَّة قياس الدوائر الوسطى في زوج مجموعات الشكل 4.2 تبدو الدائرةُ الوسطى المحاطة بدوائر صغيرة أكبر من الدائرة الوسطى التي تحيط بها الدوائر الكبيرة.

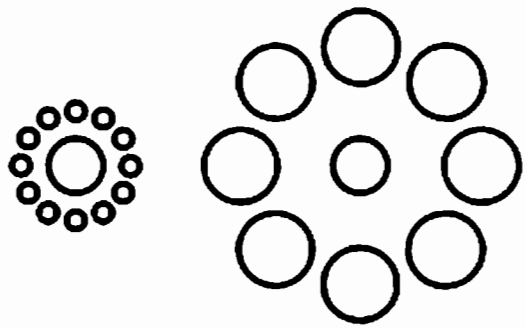

الشكل 4.2 دوائر تتشنر Titchener.

الدائرتان المتوسِّطتان لها الحجم نفسه تمامًا، لكنَّ نظامك الإدراكي معزولٌ عن نظامك المعرفي، هذا هو السبب في أنَّ عينيك تحكمان بعناد على أنَّ الدائرة الوسطى اليسرى أكبر من الدائرة الوسطى اليمنى حتى بعد أن تقوم بالقياس. ويتم تكبير الوهم حينما تنبض الصورة وتنزلق وتدور.

كيف نتعامل مع عدم قابلية اختراق الأوهام المعرفية؟ بوذا يشترك في اختيار- co opts الأوهام. يمكنك "زيادة" البيرة في الكوب من طريق سكب المحتويات في وعاء

رفيع على شكل مخروطي الشكل. ينسب نظامك المرئي مزيدًا من الحجم إلى الحاوية الطويلة. والفعل ليس خداعًا للذات تمامًا؛ لأنَّ البالغين يعرفون - على المستوى الفكري - أن السكب يحفظ الحجم.

كما هو الحال مع محمد، ينكر بوذا أنَّه إله، وينكر بوذا كذلك أنَّه مُلهَم بالوحي الإلهي، فلا تؤدِّي الآلهة دورًا في الخلاص، والذي هو مجرد وقف للمعاناة.

وكما هو الحال مع محمد، أمر بوذا بعدم تصويره، هذا النهي قُدِّم في حكاية محببة، اكتشف الفنَّان بوذا وهو يتأمَّل على ضفاف نهر الغانج في بيناريس، فتأثَّر الفنَّان بالمشهد لدرجة أنَّه أراد تصوير شيء ما، ومع ذلك رغب الفنان أيضًا في احترام حظر بوذا (كما فعل الفنَّانون الآخرون لمدَّة ستة قرون)، ولذلك رسم الفنَّان صورةً لانعكاس بوذا في المياه المتدفِّقة لنهر الغانج.

الفراغ في سيرة بوذا

في حين أنَّ الطاويين يستمدُّون دعمًا خفيفًا من الشكوك حول ما إذا كان لاوتزو موجودًا، فإنَّ البوذيين يدحضون التحديات لتاريخية بوذا. كان بوذا موجودًا، حقًّا!

رسميًّا، "بوذا" هو عنوان عامٌّ لأيِّ شخص يتعلَّم بشكل مستقلٍّ الحقائق حول المعاناة، ولا سيَّما إذا كان الحكيم يُعلِّم هذه الاستبصارات. ولكن في الاستعمال العادي "بوذا" هو اسمٌ لمحمَّد البوذية: سيدهارتا غوتاما Siddhartha Gautama.

تنفي شركة Xerox أنَّ كلمة "xerox" تعني "نسخة مصورة"، وتصرُّ على أنَّ "xerox" هو اسم علامة تجارية محدَّدة لمنتجهم. وإذا كان مصطلح "xerox" مصطلحًا عامًّا فيمكن لمنافسي Xerox أن يصفوا بضائعهم بأنَّها آلات Xerox (تمامًا مثل أيِّ منتج لأقراص acylalicsalic يمكنه الآن وصف حبوبه على أنَّها أسبرين، اسم علامة تجارية سابقًا). ويوبِّخ البوذيون الأتقياء في الاتجاه المعاكس، فبدلًا من محاولة الحفاظ على "بوذا" بوصفه اسمًا محدَّدًا أصرُّوا على أنَّ "بوذا" هو اسمٌ عامٌّ.

العَدَم .. تَأْريخٌ فَلسَفيٌّ

وُلِدَ سيدهارتا في مدينة كابيلافاستو في ما يُعرف الآن بغرب نيبال، بالقرب من حدود الهند. حتى وقت قريب اتفق العلماء على أنَّه وُلد عام 566 قبل الميلاد وتُوفي عام 486 قبل الميلاد في كوشينيجار (قرية متخلِّفة جدًّا لدرجة أنَّ تلاميذ سيدهارتا قد توسَّلوا إليه ليبقى طويلًا بما يكفي ليموتَ في مكانٍ أكثر كرامة). ويوجد الآن دليل على أنَّ سيدهارتا ربَّما مات في وقت متأخر من عام 404 قبل الميلاد (Siderits 2021, 15).

على الرغم من ميوعة هذه المعلومات فإنَّ لها نواتج واقعية، إذ لم يكن كابيلافاستو Kapilavastu نظامًا ملكيًّا في هذا العصر، لذلك لا يمكن أن يكون سيدهارتا أميرًا، كما زُعم لاحقًا بعد قرون. وإذا كان الأمر كذلك فإنَّ جميع القصص التي أُقيمت على أساس الملوك هي حكايات طويلة[1] tall tales.

صنعُ الأساطير هو عنصرٌ أساسيٌّ بين الهندوس، وديانتهم الفيدية الأصلية كانت مبنيةً على شجرة الفاصولياء السماوية من الحكايات الطويلة، إذ يتمُّ تصوُّر الكون على أنَّه ليس له بداية ولا نهاية. وهناك دورات، كلُّ مرحلةٍ يحلم بها إلى الوجود الآلهة الذين يملُّون في النهاية وينامون ويحلمون بالمرحلة التالية، ويوفق هذا الحلم بين أساطير الخلق المتنوِّعة والانعكاسات الموضوعية والتناقضات.

تشجِّع الهندوسية الأنموذج البنائي للعوالم، إذ يتم دمج العناصر في فسيفساء بانورامية، وهذا الأنموذج البنائي يستبعد العالم الفارغ؛ لأنَّه لن يكون هناك بناء، فبالنسبة إلى الهندوس السؤال الفلسفي الكلاسيكي: "لماذا يوجد شيء بدلًا من العَدَم؟" يرتكز على الافتراض الخاطئ بأنَّ العدم المطلق ممكن. وكما هو الحال مع الطاوية والكونفوشيوسية، قد يكون هناك انعدام للشكل (Lieu 2014). ولكن يجب أن يكون هناك شيء للعمل به.

---

(1) الحكايات الطويلة قصص ذات عناصر غير قابلة للتصديق ترتبط كما لو كانت حقيقية وواقعية، وبعضها مبالغات بأحداث حقيقية. (المُترجِم)

الصينيون أيضًا لا يتركون مجالًا للسؤال بسبب شموليتهم، الكلُّ هو أكثر جوهرية من أجزائه، العالم كلٌّ ليس في حدِّ ذاته جزءًا من أيِّ جزءٍ آخر، وسيكون العالم الفارغ مركبًا لا يحتوي على أجزاء، لكن هذا مستحيل كالفأس الذي يفتقد نصله ومقبضه.

غياب المؤسس في الهندوسية هو نتيجة طبيعية لغياب الأصل، فالكون له ماضٍ لا نهائي ومستقبل لا نهائي، وأيُّ تاريخ له بداية ونهاية يتقلَّص إلى التفاهة. والعرضية المحيطية التي تلت ذلك بشأن الحقائق تجعل الهندوسية تبدو وكأنَّها تخيلية أكثر منها إيمانًا.

في البداية، كان من المفترض أن تعمل الطقوس الهندوسية من طريق إقناع الآلهة بالتدخل، لكنَّ البراهمانيين الذين كانوا يديرون الطقوس أخرجوا في النهاية الآلهة. والتفسير المبسَّط هو أنَّ الطقوس تعمل بشكل مباشر، مثل التعاويذ السحرية أكثر من الدعاء الديني إلى فاعل متفوق. فتم إلقاء اللوم على الفشل في تحقيق التأثير العملي في عدم دقَّة المعالجات.

تتراكم الطقوس الهندوسية إلى حدٍّ مذهلٍ، ويمتدُّ البعض على مدى أسابيع، ويجب أداء هذه المارائونات بدقَّة متناهية، فزلَّة لسان واحدة تخرب سنة من التحضير، والمهمُّ هو صوت الآيات لا معناها.

تشبه التعويذات برمجة الكمبيوتر باستثناء أنَّ الصوتيات تؤدِّي دور بناء جملة البرمجة، إذ يعمل الكمبيوتر بحكم العلاقات الرياضية بين الرموز وليس معناها، وتعمل الطقوس بحكم صوت الرموز (كما هو الحال مع التعويذة الموسيقية للساحر الهندي "جانتار مانتار جادو مانتار").

ويمكن أن يتسبَّب حذف بسيط من الفراغ في سوء حساب الخوارزمية بأكملها، فيسعى كلٌّ من الكاهن والمبرمج إلى تحقيق هدف عملي: حصاد جيد، وإيجاد شريك، وعلاج المرضى. ومقدمة الديانة الفيدية هي هذا الدنيوي باستعمال علم الكونيات والفلسَفَة كخلفية أوبرالية.

يعزو علماء الأنثروبولوجيا الوظائف إلى التخيلات، فيقال إنَّ إعادة الولادة لترشيد البنية الطبقية. الكلُّ يعرف مكانه، أمرٌ واضحٌ يمنع المعارك، ويتمُّ تعويض أولئك الذين في القاع من خلال كونهم مستفيدين من المحرّمات التي تُسقط الخصائص غير النقية؛ بسبب عمليَّات مثل الحيض والولادة والموت.

كما يليق بدين ينكر رسميًّا أنَّ له أصلًا، فلا يوجد كتاب مقدَّس مؤسّس مثل القرآن. ومع ذلك، فإنَّ القلق بشأن الأداء الصحيح للطقوس أدَّى في النهاية إلى كتابة المذاهب الهندوسية باللغة السنسكريتية، لغة الآلهة. والهدف من الفيدا هو الإخلاص الصوتي (للتغني والتعاويذ) بدلًا من الحقيقة. ولا يقبل التعليم المسيحي الهندوس، إذ يتَّجه الهندوس نحو تعدُّد الآلهة، لكنَّ الكثير منهم موحِّدون، وبعضهم الآخر لا أدريون أو حتى ملحدون.

جمعت الطبقة الكهنوتية في النهاية مجموعةً من الترانيم الشعرية، الريغ - فيدا Rig Veda -. ويمكن قراءة الاهتمام بالقضايا الميتافيزيقية في ترنيمة الخلق للريغ فيدا:

لم يكن هناك عدم وجود ولا وجود في ذلك الوقت.

لم يكن هناك عالم من المكان ولا السماء التي وراءها. ما الذي تحرَّك؟ أين؟

لكن الشاعر كاتب هذه السطور ربما لم يكن مهتمًّا بالميتافيزيقا أكثر من كتاب الأغاني المعاصرين، فقصيدة القَدري fatalist لأغنية جاي ليفينغستون Jay Livingston وراي إيفانز Ray Evans سنة 1956 Que Sera, Sera ("كل ما سيكون، سيكون") فقط تضع خلفية جويَّة the atmospheric backdrop للحن. وبالنسبة إلى الجمهور الأمريكي، تبدو أغنية Que Sera, Sera مثل حكمة العالم القديم من مكان ما مثل إسبانيا أو البرتغال أو فرنسا أو إيطاليا. لكنَّ العبارة ليس لها تاريخ هناك وهي غير نحوية في جميع اللغات. الترجمة الأصلانية هي اللغة الإنجليزية النحوية، لكن "كل ما سيكون، سيكون" عبارةٌ عن حشو، ولذلك لا يقول شيئًا عن كيف يكون العالم.

نحو 600 قبل الميلاد، كانت هناك ثورة دلالية ضد الديانة الفيدية، أراد المعارضون

معرفة ما يعنيه كلّ هذا، لم يتحدوا الطقوس على أساس عدم الفعالية، فقد تساءلوا عمَّا إذا كانت النواتج مهمَّة.

تتهم الأديان السلوكية بأنَّها ضحلة روحيًّا، والمصلحون يكملون الممارسة الخارجية بالممارسات الداخلية.

كان أحد الحلول الوسط الهندوسية هو طقوس الاستبطان: التأمل، إذ تم إعطاء التمرين هدفًا شخصيًّا: تجريد الأدوار؛ من أجل الكشف عن نفسك الحقيقية.

التأمُّل عرضةٌ للإلهاءات التي تنبع من الجسد، مثلًا، تم نصح أولئك الذين حرفتهم التخيلات الجنسية بالتفكير في أمهاتهم. وكان النهج الأكثر استباقية هو كبح مطالب الجسد من خلال ممارسات الزهد. وأولئك الذين يدينون الهجوم النشط على جسد المرء ما زالوا يرحبون بالتبديد السلبي للرغبات الخاطئة من طريق المرض والشيخوخة.

بالنسبة إلى بعض الباحثين، كان التأمُّل والنسك غير صارمين بما فيه الكفاية، فحينما أصبح سيدهارتا شابًّا أصبح زاهدًا، تاركًا منزله المريح للإجابة عن سؤال: "لماذا هناك معاناة؟"

المرتدّون تسرَّبوا من قاع النظام الطبقي. ومن الغريب أنَّهم ما زالوا يُحسبون كعضو في المجتمع الأخلاقي. وكان يعتقد أنَّ إيذاء المرتدين يعرض قرية الفرد للخطر، وكان يعتقد أنَّ مساعدتهم لتأمين المزايا الروحية، وأدَّت هذه الحماية والدعم إلى ظهور سلسلةٍ من المحتالين والفنَّانين مثل سحرة الثعابين.

سعى المرتدّون إلى التوجيه من المعلمين الموجودين في أماكن بعيدة، وتم تصوير سيدهارتا على أنَّه تلميذٌ متحمِّس ولكنَّه لا يهدأ، ويبهر المعلمين الصارمين والأكثر صرامة. وتكاد تجاوزاته الزهدية أن تكون قاتلةً، فعلى حافة الحياة لدى سيدهارتا عيد الظهور[1] epiphany، ليس كليًّا "الكل واحد" ولكن بالأحرى مناهض للكلية "الكل ليس

(1) تجربة الإدراك المُذهِل المُباغت، ككشف ديني أو علمي أو فلسفي، حيث يسمح الإدراك المُستنير بفهم مشكلة أو موقف بطريقة أجد وأعمق. (المُترجم)

شيئًا"، الكلُّ ليس أكبر من مجموع أجزائه. الأجزاء لا تشكل كلًّا أبدًا.

العدم بوسائل الاختزال الإقصائي

كان من الصعب تدمير تماثيل بوذا في باميان، فإذا تم بناء التمثال بإضافة أجزاء فيمكن تدميره من طريق التفكيك. لكنَّ التمثال تم إنشاؤه من طريق الطرح. تم نحت جزءٍ من جرف من الحجر الرملي. ولتدمير التمثال احتاجت طالبان لتدمير الجزء المتبقي من الجرف.

كان لا بدَّ من استدعاء المهندسين بعد أن أسفر هجومٌ مدفعيٌّ مرتجلٌ عن أضرار سطحية فقط. واستمرَّ الفريق الجديد من أعلى إلى أسفل، حيث أدخلَ بشكل متكرر المتفجرات البلاستيكية في الشقوق التي شكلتها الانفجارات على ارتفاعات عالية. بوم، بوم، بوم! وداعًا بوذا!

كانت حركة طالبان محيرة عبر الرعب الدولي، كانت التماثيل من الحجر الرملي والطين فقط!

سيدهارتا، الذي حرم تماثيله يؤيِّد العدمية بشأن التكوين، وإجابته عن "متى تؤلف الأجزاء الكل؟" هي النفي المطلق. ويرى سيدهارتا أنَّ الحسَّ السليم يتعامل مع التماثيل على أنَّها شيء فوق المواد التي تتكوَّن منها. وبحسب الحسِّ السليم، يمكن أن ينجو التمثال من فقدان الكثير من الأجزاء، وكما يؤيِّد الحس السليم المبدأ العكسي القائل بأنَّ بقاء الأجزاء لا يكفي دائمًا لبقاء الكل، فحينما أكملت طالبان دورات التفجيرات بقيت الأجزاء كالركام، لكنَّ التماثيل اختفت، أو هكذا تتحدَّث ميتافيزيقا الحس السليم.

عقيدة أخرى مرتبطة بالبوذية هي عدم ثبات كلِّ الأشياء المركبة، وقد كانت حركة طالبان تسرع فقط في تفكيك التماثيل الصعبة، فكلُّ شيء مركَّب ينهار.

بالنسبة إلى سيدهارتا فإنَّ إنكار الدوام يحتاج إلى صياغة شرطية: حتى لو كانت

المركبات موجودة فإنَّها ستوجد مؤقَّتًا فقط. وفي الواقع، لا توجد أشياء مركَّبة متاحة للتدمير، إذ لا يمكنك أن تفقد ما لم يكن لديك من قبل. وبالمعنى الدقيق للكلمة، لم تكن تماثيل بوذا في باميان موجودة على الإطلاق، والنتيجة، كان من المستحيل على طالبان تدميرها.

وبالمثل، أنت غير موجود، والنتيجة لا يمكن أن تهلك، الموت وهمٌ، ليس لأنَّك ستبقى إلى الأبد، لكن لأنَّك لم تكن موجودًا أبدًا.

ما هو موجود هو أبسط الأشياء، بعضها مادي مثل الجسيمات الرابطة لبوذا لتكوين "تمثال"، والبساطة الأخرى عقلية مثل الأفكار التي تم تجميعها معًا لتكوين "عقل" بوذا. ولكن بالمعنى الدقيق للكلمة، فإنَّ الأشياء المتعالقة معًا لا تؤلف أبدًا أيَّ شيء جديد.

يفترض بوذا مسبقًا الاسمية: كلُّ شيء له موقع في المكان أو الزمان. لذلك؛ فهو يختلف مع أولئك الذين يعتقدون أنَّه فضلًا عن هذه الكيانات الملموسة، هناك أشياء مجرَّدة. مثلًا، يميل علماء الرياضيات إلى افتراض أنَّ "اثنين" تدلُّ على كيان خالد. ويميِّز علماء الرياضيات بدقة الأرقام مثل "2" و "II" عن العدد الذي يمثلانه. فالأرقام هي كيانات ملموسة لها أشكال وألوان، وما تمثله هذه الأرقام هو كيان واحد عديم الشكل وعديم اللون وليس له كتلة، فالعدد اثنان هو كيان مجرَّد لا يمكن أن يتكرر، ولا يمكن أن يكون هناك اثنان من الاثنين.

هناك أعداد كثيرة لا نهائية، لذلك لا يمكن أن يكون هناك أشياء ملموسة أكثر من الأشياء المجرَّدة. في الواقع، أقنعت حجَّة جورج كانتور Georg Cantor القطرية علماء الرياضيات بأنَّ هناك أعدادًا حقيقيةً أكثر من الأعداد الطبيعية، فإذا تم اختيار كائن ما بشكل عشوائي فمن الأرجح أن يكون مجرَّدًا أكثر من كونه ملموسًا.

سوف يُفاجَأ بوذا بميتافيزيقا عالم الرياضيات للأشياء المجردة، يوافق على وجود أفكار للعدِّ، لكنَّ هذه الأفكار زائلة، فهناك العالم المادي، العالم العقلي، لكن لا يوجد

عالم ثالث تسكنه كيانات ليس لها محلٌّ في المكان أو الزمان. سمح علماء الرياضيات الذين أتوا بعد كانتور باستثناء القاعدة التي تنصُّ على أنَّ المجموعة يجب أن تحتوي على أعضاء، فالمجموعة الصفرية { } ليس لها أعضاء.

تأسَّست جميع الرياضيات على { } من خلال استغلال حالتها بكونها ضروريةً؛ لأنَّها لا تحتوي على محتوى.

أصبحت المجموعة الصفرية سابقةً للفرد الصفري المثير للجدل. وتمامًا كما إنَّ المجموعة الصفرية هي مجموعة فرعية من كلِّ مجموعة، فإنَّ الفرد الصفري هو جزءٌ من كلِّ مجموعة. وهذا الجزء الشامل مفيد في صياغة منطق الأجزاء والكليات (الميريولوجي) mereology.

يرفض بوذا المجموعة الصفرية؛ لأنَّه اسمي، ويرفض الفرد الصفري؛ لأنَّه ميريولوجي عدمي mereological nihilist. فبحسب بوذا، لا تتَّحد الأجزاء أبدًا في مجموعات مناسبة، فالجزء غير المناسب هو الجزء المطابق للكلِّ (تمامًا كما إنَّ المجموعة هي مجموعة فرعية غير مناسبة من نفسها). وبالنسبة إلى الميريولوجي العدمي، كلُّ الأجزاء أجزاء غير مناسبة، إذ ينكر الميريولوجي العدمي العقيدة الصينية القائلة بأنَّ الكلَّ أكبر من مجموع أجزائه.

يؤكِّد الجوهري الميريولوجي mereological essentialist أنَّ الشيء لا يمكن أن ينجو من فقدان جزء منه. نتحدَّث كما لو أنَّ الفيل يمكن أن ينجو من فقدان ذيله، لكن هذا حديث فضفاض تم اعتماده من أجل الراحة، إذ يُعدُّ ذيل الفيل ضروريًّا للفيل مثل دماغه.

يبدو أنَّ العناصر تشكِّل وحدات كاملة مناسبة عند الاتصال أو التعلُّق. ويؤدِّي الجمال أيضًا دورًا في هذا المظهر، فمن الناحية الفنية ننظر إلى [ ] { } [ ] على أنَّها ثلاثة أزواج من الأقواس المتماثلة بدلًا من ستة أقواس فردية.

إليكم لغزًا يلخِّص الميريولوجي العدمي: ما الخشب الذي لا يمكن نشره؟ نشارة

الخشب! بالنسبة إلى بوذا، يتم الإعلان عن الواقع بألوان نشارة على شكل قوالب وألواح حبيبية وعدد لا يُحصى من التفسيرات العملية الأخرى.

لا يوجد الحطاب إلَّا إذا كان مؤلفًا من اليدين والذراعين والرأس، وتوجد الشجرة فقط إذا كانت تتكوَّن من جذور وجذع وأغصان. لكن كلّ هذه المجمعات خيالية، فقطع الخشب والأشجار تشبه الأبراج، والدبُّ الأكبر هو مجرَّد وسيلة لتنظيم سبعة نجوم بحيث يشيرون إلى نجم الشمال، ويشير نجمان خارجيان في مجال الدبِّ الأكبر إلى بولاريس. وعلى الرغم من فائدة الدبِّ الأكبر فإنَّ الكوكبة مجرد وهم مفيد، ففقط الأشياء غير القابلة للتجزئة موجودة.

حينما يبني الولد الأبراج من المكعبات، فإنَّه يرتِّب فقط المكعَّبات على شكل برج. ولا شيء جديد يأتي إلى حيز الوجود. لذلك؛ العَدَم يختفي من الوجود حينما ينهار البرج، ويعدُّ الحدَّاد تدمير البرج طفوليًّا؛ لأنَّ البرج لم يكن هناك أبدًا ليتمَّ تدميره.

"موجود" مشتق من "سابق" (خارج) و"واقف" (تم صنعه على أساس الوقوف). وحينما ينظر إليه على أنَّها محدب، نقول إنَّ البرج موجود. وحينما ينظر إليه على أنَّه مقعر نقول إنَّه لا يوجد سوى ثقب، والثقوب لا تبرز، بل تتراجع. فالميريولوجي العدمي له تأثير تسطيحي، إذ لا يوجد سوى فسيفساء من الذرات، ولا أحد قادر على أن يتمايز من البقية من خلال العمل كفريق واحد في كل. وليس هناك عدم مطلق يمكن أن يكون بمنزلة خلفية، إذ هناك عدد كبير من الذرات، ديمقراطية ميتافيزيقية يكون فيها الكل شخصًا ما ولا أحد هو أحد. ويسمح الحتّ السليم بإمكانية إعادة تجميع البرج، إذ يكشف هذا الحتّ السليم عن السؤال المحرج: "هل يستمرُّ البرج أثناء إعادة تشكيله كحصن؟" يستجيب العدمي باستمرار بإنكار الافتراض بوجود برج.

يعرِّف الميريولوجيون العالم بأنَّه الكل المتكوِّن من كلِّ ذرة، وبصفته ميريولوجيًّا عدميًّا ينكر بوذا وجود عالم، إذ لا يوجد سوى ذرَّات مدرَكَة على مستوى العالم.

لدى الناس دافع نحو الاكتمال، وهو ما يعرفون كيف يستغلونه، المؤلفون المتلاعبون

بالذات (أعرف واحدًا من طريق التأمل) يتحايلون على التسويف بمجرد الالتزام ببدء فصل. والالتزام الكامل بالإنهاء لا لزوم له حينما توفر رغبة المؤلف في الإغلاق دافعًا مفقودًا.

يقودنا الدافع إلى الاكتمال إلى افتراض كليات أكبر وأكبر، مِمَّا يؤدِّي في النهاية إلى تحقيق أقصى قدر من الكلِ، وهو العالم. والدافع نفسه للكمال يدفع بناء الذات. وغريزيًّا، أرسم خطًّا ضدَّ البيئة، كلُّ شيء داخل الخط هو أنا، وبمجرد أن أبدأ أريد أن أنتهي، لكن لا توجد حدود موضوعية لتحديد الإغلاق، ولكره الاعتباطية أحاول التعاقد، وأي حدود منتهية هي غير مبدئية. لذا؛ فإنَّني أرجع إلى نقطة مثبتة بإبهام على خريطة الواقع، ولكن حتى دبوس الورق له أبعاد. ويلعب نحَّات بوذا بوروبودور غير المكتمل على هذا اللاحتمية من خلال ترك النصف الأيمن من التمثال محددًا جزئيًّا فقط (شكل 4.3).

الشكل 4.3 تمثال بوذا بوروبودور غير المكتمل.

حذف الذات

هل يجب أن يحتفظ العدمي بالمدرِك ليكون لديه من يستسلم للوهم؟ بعد ألفي عامٍ من سيدهارتا طوَّر رينيه ديكارت René Descartes هذا الحدَّ للشكِّ في تأملات

في الفلسَفَة الأولى Meditations on First Philosophy: في السابق، كان المشكِّك ذو الحسّ السليم المشوب بالطفيلية مع الفرضية القائلة بأنَّ التجارب الحالية للمفكر هي حلم. وديكارت طَفَّل الطفيلي، فقد وضع فرضيات متشكِّكة تطرح أمورًا مؤكَّدة، وبحسب طريقة الشكِّ التي وضعها ديكارت فإنَّ أيَّ اقتراح نجا من هجوم جميع البدائل الطفيلية كان غير قابل للشكِّ، فهو إذن مؤكد.

تمضي تأملات سيدهارتا بشكل مختلف، إذ لا يتم تصوير الشكِّ أبدًا بوصفه مصدرًا للإضاءة. الشكُّ هو الارتباك غير المريح الذي يسعى المرء للتحرُّر منه. وبحث سيدهارتا عن ذاته الحقيقة ببساطة غير مثمرة. يدعوك سيدهارتا - مثل ديكارت - للبحث عن نفسك، بحسب سيدهارتا، كلُّ ما تجده هو أحاسيس ومشاعر وأفكار معينة.

كيف يمكن أن يخفق ديكارت في "أنا أشك، إذن أنا" في تأمين استنتاجه؟ ربما يكون "أنا" في "أشك" ضميرًا وهميًّا كما هو الحال مع "هو" في "يمطر". ويفسّر الفراغ الدلالي لهذا الـ"هو" الوهمي لماذا لا يمكن التأكيد على الكلمة، تبدو عبارة "أمطرت" غريبة؛ لأنه لا يوجد تباين متاح.

حينما نسمع "يبدو أنَّه وقت الظهيرة" فإنَّنا لا نبحث عن مرجع مشترك لكلِّ "هو"، ولا نبحث عن مراجع مميزة.

النحو يبكي من أجل فاعل، ويهدئه الوهم. وبحسب بعض البوذيين فإنَّ العرض الأكثر دقَّةً لفرضية ديكارت الأولى هو "هناك شك"، ووجود المشكك لا يتبع ذلك.

الاحتمال الانكماشي الآخر هو أنَّ "أنا" تعني "الفاعل المسؤول عن هذا الاستعمال ذاته لكلمة أنا". ثمَّ ستدَّعي "أنا" أنَّها تشير، ولكن لن يكون هناك ضمان للنجاح، ففي ثقافة السحر الأزاندي كلمة "مريض" sick تشبه "ركلة" kick، إذا رُكِلتَ فقد ركلك أحدهم. ويقضي القرويون في زاندي أيامهم في التكهن بمن "أمرض" من. وحينما لم يُظهر المستعمرون البريطانيون المرضى أي اهتمام باكتشاف مهاجمهم أشفق الأزاندي على البريطانيين؛ بسبب عدم انتظامهم غير المنطقي.

"أنا" أكثر مرونة مِمَّا يفترضه ديكارت. إذا تأخَّرت جارتي أعلِّق مُلاحظة على بابها: "سأتأخر"؛ لتحذير الزوَّار من تأخرها. ويمكن للمجرم أن يؤجِّل الإعدام من خلال الإصرار على "تقليديًّا، يحقُّ لي أن أتناول وجبة أخيرة". وحينما يتم تسليم العشاء يمكن للسجين أن يوضِّح الوجبة التي طلبها بـ "أنا كاري هندي" vindaloo.

أحيانًا يتم تصوُّر مقولة ديكارت "أنا أشك، إذن أنا موجود" على أنَّها أداء يحقِّق الذات. وحينما يصرخ عضو الكونجرس "حاضرا" في نداء الأسماء يُثبتُ وجوده من خلال إعلان نفسه حاضرًا، قول ذلك يجعله كذلك.

لكن ما يمكن إعلانه داخل الوجود يمكن إعلانه خارج الوجود، في القرن التاسع عشر كان لأعضاء الكونجرس الأمريكي شرف إعلان أنفسهم "غائبين!" لمنع اكتمال النصاب. وفي عام 1890 أثار رئيس الأغلبية الجمهورية عضو الكونجرس توماس ريد من ولاية ماين، غضبَ الديمقراطيين من خلال تنظيم تغيير القاعدة الذي أنهى هذا الامتياز، مِمَّا استلزم عمليَّات هروب وإخفاء غير كريمة.

ديكارت وسدهارتا ثنائيان، يتفقان على أنَّ هناك أشياء عقلية وأشياء جسدية، ومع ذلك، ينفي سيدهارتا كون الأشياء العقلية تعتمد على العقل في وجودها. وقد يفترض المدافع عن الذات أنَّ العقل هو نوع من الوسادة pincushion التي تربط الأفكار. لكن سيدهارثا يلتزم بمبدأ الخفَّة lightness، مفضِّلًا الفرضيات التي تفترض عددًا أقلَّ من أنواع الأشياء، خاصةً الأشياء التي لا يمكن ملاحظتها بشكل مباشر.

الأخلاق غير الأنانية

فقط الأشياء العقلية لها أهمية جوهرية، الألم يصرخ من أجل فنائه. ولذلك؛ تتوافق أخلاقيات سيدهارتا مع النفعية السلبية: تقليل المعاناة. فعلى الرغم من أنَّ سيدهارتا يوافق على أنَّ السعادة أمر جيد فإنَّه لا يؤيِّد أبدًا مبدأ المنفعة الكلاسيكي القائل بأنَّه يجب علينا أيضًا تعظيم الخير، إذ يقدّم السعي وراء السعادة على أنَّه هزيمة للذات.

فالرغبة سجادة كبيرة جدًّا بالنسبة إلى الغرفة. ومن خلال تغيير السجادة يبدو أنَّك تحرز تقدُّمًا، مِمَّا يجعل إحدى حواف السجادة مناسبة لركن، ثمَّ أخرى وأخرى. لكن حتمًا تتجعَّد أجزاء أخرى من السجادة أو تتسلَّق الجدار، فالإحباط أمرٌ لا مفرَّ منه.

إذا كان الوجود أسوأ من عدم الوجود فلماذا لا تقتل نفسك؟ في وقت لاحق، أجاب المتشائم اليوناني هجسياس Hegesias(من 290 قبل الميلاد) بكونه واصلَ - بشكل إيثاري - في الثمانينيات من عمره تعليم الطلاب مزايا الانتحار. واتفق مع أتباع المتعة على أنَّ هدف الحياة هو السعادة، ولكن في أعقاب فتوحات الإسكندر الأكبر المحبطة رأى هيجسياس أنَّ الهدف مستحيل التحقيق. وربَّما يكون قد تأثَّر بالتعاليم البوذية التي تم نقلها من الهند من طريق الجنود العائدين. ويقود هجسياس النفعية السلبية إلى نهايتها المنطقية: يجب أن نسعى جاهدين للانقراض البشري، فأفضل طريقة لمنع المعاناة هي منع وجود المصابين. ويمكن جعل النفعية السلبية تمنع الانتحار من طريق إضافة افتراض الحياة الآخرة. وبحسب سيدهارثا فإنَّ الانتحار يتبعه تناسخ أسوأ[1]. وإذا كنت تريد إنهاء وجودك فأنتَ بحاجة إلى خطَّة انتحار طويلة المدى. وعلى وجه التحديد يجب أن تتقدَّم عبر الكثير من الحيوات الأفضل، ففقط بعد حياة مثالية تموت حقًّا.

إنَّ توصيف سيدهارتا بوصفه نفعيًّا سلبيًّا مفارقة تاريخية، إذ لم يستعمل سيدهارتا أبدًا مصطلحات التصغير والتعظيم، فقد كانت ابتكارًا للمفكر البريطاني في القرن الثامن عشر جيريمي بنثام Jeremy Bentham، كتب بعد التطبيق الثوري للإحصاء على الأسئلة المجتمعية. وشارك تلميذ بنثام، جيمس ميل James Mill، في حكم الهند من خلال نفوذه المتزايد في شركة الهند الشرقية، في البداية بشكل هامشي كموظف، تم تعيينه بناءً على قوة تاريخ الهند الذي كتبه، ثم بالتدريج مع ترقيات بلغت ذروتها

(1) الجدة: أعتقد أنَّه لا يوجد تناسخ. الحفيد: وأنا كذلك حينما كنت في عمرك.

بتعيينه مديرَ العمليات. ولم تكن ميتافيزيقيا شركة الهند الشرقية مفهومة من القائد الأول الذي نصبته لتحسين مناخ الأعمال في البنغال. أراد الجنرال مير جعفر Mir Jafar لقاء المسؤول عن ارتقائه إلى نواب nawab، ولم يكن هناك أحد للقائه.

كان الاهتمام الوحيد لشركة الهند الشرقية في ماضي الهند هو توجيه الاستثمار المستقبلي، وجعل منظور التعظيم هذا الشركة مناسبة جدًّا لمنفعة النفعية، فالشركة ليس لديها جسد خاضع للشهوة أو الجلد، ليس هناك من المحرمات ضد الشركة التي تختار إنهاء وجودها حينما لا تعود مربحة. والنائب الرئيس لهذا الوكيل غير المتجسّد هو أنَّ مجتمعه الأخلاقي يقتصر على المساهمين، وتم التعاقد مع جيمس ميل للترويج لأرباح القلة وليس الكثرة. وكان المدير الأفضل بالنسبة إلى جيمس ميل هو شركة عالمية، حيث يكون كلُّ إنسان مالكًا للأسهم، وأفضل رئيس هو الذي يوسع المجتمع الأخلاقي ليشمل كلَّ الحياة الواعية.

طبَّق جيمس ميل مذاهب بنثام بتكتم، في محاولة لترجمة النفعية إلى المصطلح الفلسفي للهند. وكذلك فعل النفعيون البريطانيون اللاحقون مثل ابن جيمس ميل، جون ستيوارت ميل (1806 - 1873) John Stuart Mill، الذي ضخَّ الاعتبارات النوعية في النفعية، وكان له تاريخٌ طويلٌ في شركة الهند الشرقية. وتم تنقيح المذهب النفعي بدوره بواسطة البروفيسور هنري سيدجويك (1838 - 1900) Henry Sidgwick، وكان عضوًا في مجلس الشيوخ في مجلس الخدمة المدنية الهندية. واستمرت المشاركة مع الهند مع ديريك بارفيت (1942 - 2017) Derek Parfit، الذي أوضح صراحةً تقارب البوذية مع النفعية في الفصول الأخيرة من الأسباب والأشخاص.

كان الفلاسفة البريطانيون مفتونين بالطريقة الداخلية التي يكسر بها سيدهارتا الحواجز أمام الاستنتاجات النفعية، الحاجز الأول هو العقلانية العليا لمتابعة مصلحتك الذاتيَّة، وهذا المبدأ الأساسي للاقتصاد مقنعٌ بشكل خاص للفردانيين، مثل الحكَّام البريطانيين في الهند. وبالنسبة إليهم، يجب أن تتغلَّب الأخلاق على

الاعتراض بأنَّ التضحية بالنفس غير عقلانية، فكان سؤالهم الأساسي هو: لماذا يجب أن أكون أخلاقيًا؟

يتحدى سيدهارتا الافتراض بأنَّ هناك ذاتًا يمكن تعظيم مصالحها، فالأنانية تفترض وجود ذات. وكذلك يفعل الإيثار (عدُّ الآخرين مهمين مثل الذات). والاعتراف بأنَّ الذات هي وهمٌ يزيل حاجزًا أمام التقليل المحايد من المعاناة. فحينما تتألم القدم تقوم اليد بفرك القدم. ولا تقول اليد: "الألم في القدم وليس من شأني"، كلُّ ما يهمُّ هو أنَّ الألم موجود.

ظاهريًا، الحدُّ من المعاناة غير الأناني يشبه التضحية بالنفس في الإيثار، لكن لا توجد ذات للتضحية بها. البوذي يهتم بمعاناته بقدر اهتمام أي شخص آخر، ونظرًا لأنَّه يتمتَّع بأكبر قدر من السيطرة على حالاته العقلية فسيكون هناك بعض التقريب إلى الحكمة، ونظرًا لأنَّ لديه ثاني أكبر سيطرة على أقاربه وأصدقائه فقد يكون هناك بعض التقريب لتفضيل القريب والعزيز. ومع ذلك، فإنَّ إنكار البوذيين للذات يزيل الأساس لتمييز ألمي عن ألمك، لا يوجد سوى ألمٍ عائمٍ حرٍّ.

كثير من النفعيين معجبون بحيادهم، لكنَّ النفعيين معروفون أيضًا بعدم المبالاة بالعدالة. النفعي لا يهتمُّ بكيفية توزيع المعاناة، يهتمُّ فقط بكميتهاالموجودة. وإذا كان من الممكن تقليل مقدار المعاناة بشكل طفيف من طريق تكديس كلِّ الألم على فرد واحد فإنَّ النفعي سيفضِّل هذا التفاوت.

يتمتَّع كلُّ رجل بأكبر قدر من السيطرة على نفسه، ومن ثَمَّ فإنَّ الكفاءة تملي اهتمامًا خاصًا بحالته. وبدلًا من محاولة حماية أقدام الجميع من طريق نشر الجلد على الأرض يضع الرجل الحكيم الجلد على قدميه.

يعتقد النفعيون البريطانيون أنَّ هناك ذوات، ووجهة نظرهم هي أنَّ التمييز بين الذات أمر بالغ الأهمية من الناحية الاحترازية، ولكنَّه غير ذي صلة أخلاقيًا، فالأنفس مجرَّد أوانٍ يُسكَبُ فيها الخيرُ والشرُّ.

يشير هؤلاء النفعيون الذين يؤكدون أنفسهم إلى أنَّ قانون تناقص المنفعة الحدية

يحاكي بعض تأثيرات التوزيعات العادلة، فالعملة المعدنية تخفِّف المعاناة حينما تكون في جيب الرجل الفقير أكثر من الرجل الغني. لكنَّ هذا التقارب له استثناءات عملية، فبدلًا من إعطاء الأخشاب لأولئك الذين سيكونون قادرين فقط على بناء نصف جسر يجب أن نخصِّص الموارد لأولئك الذين يمتلكون بالفعل نصف جسر. والنفعي الذي يؤكد نفسه بنفسه يوافق على عدم المساواة بالضبط حينما يولد هذا الظلم الرفاه الأكثر شمولًا.

النفعي غير الأناني لا يوافق على الظلم ولا يرفضه، بل يُنكر أنَّ العدل أو الظلم ممكن، فالعدل وهمٌ وليس حقيقةً يجب تجاوزها.

الأخلاق السرية والأكاذيب النبيلة

اللامبالاة بالعدالة تسيء إلى أخلاق الحسِّ السليم، ومن ثَمَّ فإنَّ النفعية تتطلَّبُ ولاءً سريًّا من أتباعها.

لتقليل معاناة الحيوانات يصادر النشطاء النفعيون الحديث عن "حقوق الحيوان"، على الرغم من الاتفاق الصامت مع وصف جيريمي بينثام للحقوق بأنَّها "هراء على ركائز متينة". ولمكافحة النظام الطبقي يستغلُّ النفعيون السخط الأخلاقي على الظلم. وحينما يُعتقد أنَّ الجدية الأخلاقية تتطلَّب تقدير البشر بصفتهم أفرادًا وليس أوعية فإنَّ النفعي يطوِّر شخصيَّة الرجل الذي يهتمُّ بشدَّة بك. وحينما تملي عملية حساب التكلفة والفائدة، فإنَّ النفعيين ملزمون بأن يصبحوا كائنات متلوِّنة أخلاقية. ومن ثَمَّ، يرسل النشطاء النفعيون إشارات متضاربة حول آرائهم الحقيقية.

الغاية تبرِّر الوسيلة. ماذا يمكن أن يكون؟

عادةً ما يكون للكذب عواقب أسوأ من قول الحقيقة، وتقلِّل المعتقدات الخاطئة من الكفاءة في الحصول على المتعة وتجنُّب الألم. لكن هناك الكثير من الاستثناءات

والمقايضات، إذ تعزِّز عمليات الاقتراع السرية التصويت الصادق ولكنَّها تؤدِّي إلى تقارير غير صادقة عن كيفية التصويت. وجادل جيمس ميل بأنَّ صدق الأصوات يهمُّ أكثر من الإخلاص في التقارير المتعلِّقة بكيفية التصويت، ووافق ابنه في البداية، لكن في وقت لاحق تدخَّل الحبُّ، إذ أقنعت السيدة هارييت تايلور جون ستيوارت ميل بأنَّ الاقتراع السري يقلب الميزان نحو التصويت الأناني بدلًا من التصويت الإيثاري، وكان التزامهم بقول الحقيقة تحت ضغطٍ مستمرٍ حتى وفاة السيد تايلور في عام 1849.

قد يكون التزامهم بقول الحقيقة قد تعرَّض للخطر أيضًا من خلال حسابات جون ستيوارت ميل الشخصيَّة والحيوية بأنَّ المرأة يجب أن يُنظر إليها على أنَّها فيلسوفة عظيمة. والاعتقاد بأنَّ المرأة قد تكون فيلسوفةً عظيمةً يسهل الاعتراف المستقبلي بالفلاسفة العظماء. ويتقدَّم التاريخ من خلال تحسينات المؤرخين.

النفعي قد يكون ملزمًا أيضًا بالكذب بشأن آرائه الأخلاقية، فقد زعم الحكَّام البريطانيون في الهند أنَّهم يتصرَّفون بحسب المبادئ التي تتوافق مع السكَّان المحليين الذين يحكمونهم. وكان معظم الهنود قاصرين جدًّا عن استيعاب العقائد النفعية. وإذا تم الكشف عن المبادئ النفعية فيجب أن يأتي الإعلان على مراحل مصمَّمة خصِّيصًا للتحصيل التعليمي. وفضلًا عن القبول الانتهازي للأساطير التي تتزامن مع استنتاجاتهم فإنَّ الحكَّام النفعيين يصوغون أساطير جديدة.

هذه المرونة - سواء كانت جيدةً أم سيئةً - بشأن قول الحقيقة تتناسب تمامًا مع سياسات سيدهارتا، فقد تم تصميم تعاليمه بحسب مستوى فهم الجمهور. وللمبتدئين، هناك قوائم بما يجب وما لا يجب فعله، كالجواهر الثلاث، والحقائق الأربع النبيلة، والمبادئ الخمسة، والعوالم الستة، والعوامل السبعة للتنوير، والمسار الثماني، والوعي التساعي، والكمالات العشرة[1].

---

(1) الجواهر: بوذا (المستنير الكامل)، ودارما (تعاليم بوذا)، وسانا (النظام الرهباني المحافظ على الدارما). والحقائق: المعاناة وسبب المعاناة ونهاية المعاناة والطريق إلى نهاية المعاناة. والمبادئ: الامتناع عن

الكلام الصحيح هو أحد المبادئ الخمسة (قائمة فرعية للمسار الثماني النبيل)، إذ يتم تفسير هذا عمومًا على أنَّه صدق لطيف وموحَّد، ويقاس الكلام بأثره على المستمعين، ويجب أن تعبِّر كلماتك عن المودَّة وتعزِّز التوافق، ويستبعد الكلام الصحيح الكذب والقيل والقال والشكوى والإطالة.

مثل سياسي، وربَّما كسياسي، يعدِّل سيدهارتا ما يقوله للجمهور. وغالبًا ما يتم تبرير ذلك بالتمييز بين الكذب وإغفال الحقيقة، لكنَّ التمييز لا يفسِّر إلى أيِّ مدى يصوغ سيدهارتا ملاحظاته من حيث المعتقدات الشعبية التي لا يشاركها فيها.

يمكن أيضًا تخفيف التحفُّظات حول الكذب من خلال اللجوء إلى معايير الثقافة، فقد كان سيدهارتا يخاطب جمهورًا هندوسيًّا، وكان من المتوقع أن يكون الخطاب الديني غير متَّسق مع الحقائق.

هناك أيضًا سبب منطقي يتجاوز الثقافة، إذ يختلف واجب قول الحقيقة باختلاف أعباء الصدق. اللغة نفسها منحازة ضدَّ رسالة سيدهارثا، ويمكنه فقط الاختيار من بين الأكاذيب، إذ تفرض اللغات الهندو أوروبية أشخاصًا نحويًّا: ضمير المتكلم "أنا"، ضمير المتكلم "أنت"، ضمير المتكلم "هو"، وهكذا دواليك. وإذا كان سيدهارتا حريصًا على عدم تناقض نفسه فقد يستنتج أنَّ الحقيقة غير الأنانية لا يمكن وصفها ineffable ولا تقول شيئًا (كما فعل في البداية بعد عصر التنوير)، أو قد يعطي سيدهارتا تفسيرًا طويلًا يتجنَّب بشكل متحذلق التناقض.

القتل وأخذ ما ليس لك وإساءة استعمال الحواس والكلام الخاطئ والمسكرات. والعوالم: الآلهة وإنصاف الآلهة والبشر والجحيم والحيوانات والأشباح. والعوامل: اليقظة والتحقيق والطاقة والنشوة والهدوء والتركيز والاتزان. والمسار: الرؤية والقصد والكلام والسلوك والمعيشة والجهد والوعي والاستيعاب الصحيح. والوعي: اللمس والذوق والبصر والسمع والشم، وفهم ما أوردته الحواس، والأفكار الداخلية، ومخزن الطاقة الكارمية، وطبيعة بوذا. والكمالات: الكرم والأخلاق والصبر والتأمل والحكمة والإتقان والطموح والقوة الروحية والمعرفة. (المُترجم)

كلٌّ من ردود الفعل هذه تطغى على المشكلة، وجنود سيدهارتا من خلال هذا التناقض السطحي يعتمدون على جمهوره لتفسير ما يقال بإحسان.

يقارن سيدهارتا الحقيقة بالقارب، فبعد وصولك إلى وجهتك يجب ألَّا تحمل القارب على رأسك، تجنَّب التعلُّق، حتى بالحقيقة.

هدف بوذا هو تطبيق الحقائق. لا تدرسوا العقائد لذاتها (مثلي). وكما يؤكد بوذا بشدة، فإن الانفصال عن الحقيقة ليس ترخيصاً لتزييف العقائد التي تنطوي على هذا الانفصال. ومع ذلك، فإنَّ الصورة الهادئة للحكيم قد أسهمت في إساءة اقتباس بوذا بسهولة. ففي النهاية إذا تم تأكيد المقترحات على أساس احتمالات الحدِّ من المعاناة فإنَّ المحقّق سوف يسترشد بالمستقبل بدلًا من الماضي.

الآن أنت مندهشٌ من النكتة. راهب من التبت يرى وجه يسوع في حوض مارجرين، صاح: "لا أستطيع أن أصدِّق أنَّه ليس بوذا!!" هذا هو عنوان موقع ويب مخصَّص بالكامل للاقتباسات الخاطئة لبوذا[1]، يُدار الموقع من بودهيباكسا Bodhipaksa، وهو عضوٌ في نظام تريراتناTriratna البوذي، ويتعامل مع الأخطاء في الاقتباسات بوصفها لحظات قابلة للتعليم، إذ يقارن بودهيباكسا الاقتباسات الخاطئة بالاقتباسات الحقيقية (أو على الأقل بعض الاقتباسات غير المزيفة بوضوح)، ويُثني على بعض الاقتباسات الخاطئة بكونها حكيمةً ومتوافقةً مع بوذا، ويعكس بعضها الآخر اختلاطًا منهجيًّا مع الهندوسية. وهدوء بودهيباكسا يتم اختباره من البوذيين الذين يبشّرون بالتسامح مع الأخطاء في الاقتباس. وكذلك الحال بالنسبة إلى بوذا (على الأقلِّ إذا كان بودهيباكسا قد اقتبس بشكل صحيح من بوذا في الاقتباس الخاطئ).

(1) https://fakebuddhaquotes.com/i - cant - believe - its - not - buddha/.

الروايات المفيدة مقابل الضارَّة

النجوم التي تتكوَّن منها الأبراج ليست قريبةً موضوعيًّا من بعضها الآخر، ولكن من وجهة نظرنا يبدو أنَّ النجوم تشكِّل أشكالًا، ونحن "نربط النقاط" بطرق مختلفة، وبعض الطرق مفيدة بشكل خاص للملاحة. تأمَّل الصليب الجنوبي (شكل 4.4)

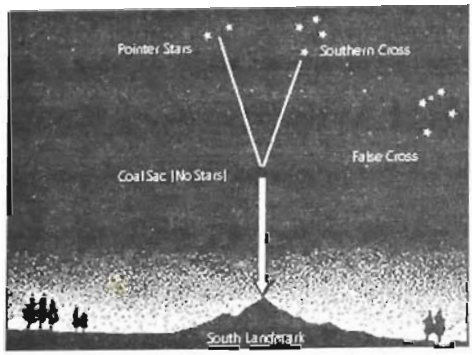

الشكل 4.4 الصليب الجنوبي.

هذا أصغر برج يمكن رؤيته من نصف الكرة الجنوبي، فتساعدك رؤية النجوم على شكل صليب على إيجاد طريقك. وتقوم بإسقاط خطٍّ وهميٍّ على طول المحور الطويل للصليب حتى يتقاطع مع خطٍّ وهميٍّ آخر تم تشكيله على شكل حرف T من نجوم المؤشر. ومن هذا التقاطع، القطب السماوي الجنوبي، تسقطُ خطًّا عموديًّا على الأرض، هذا هو الجنوب.

يحتاج الملَّاحون إلى تجنُّب الالتباس مع التقاطع الزائف والمؤشِّرات الكاذبة، فهذه الأشكال المضللة "تنشأ" من خلال التشابه مع الروايات المفيدة.

تنظم العملية الإدراكية الأجزاء تلقائيًّا في مجموعات، باتباع المبادئ التي أثبتت أنَّها مثمرة في الماضي، وتستمرُّ هذه النزعة المحافظة حتى حينما يعرف المدرِك أنَّ الإدراك وهمٌ خطيرٌ.

العَدَم .. تَأريخٌ فَلسَفيٌّ

إنَّ عدم قابلية النظام الإدراكي للاختراق هو أحد الأسباب التي تجعل البوذية لا تهدف إلى أن تكون فكرية بحتة، البوذية أشبه باتباع نظام غذائي، فالرجل البدين يحتاج إلى أكثر من البصيرة أنَّه يأكل أكثر من اللازم، يحتاج إلى نصائح لتنظيم البصيرة.

بعض هذه النصائح تستغلُّ الأوهام نفسها التي جعلت الرجل سمينًا. ومع ازدهار الناس يمكنهم شراء أطباق أكبر، وهذا يجعل الأجزاء القديمة تبدو أصغر. وتحت تأثير وهم الحجم - التباين (تذكر الشكل 4.2) يزيد الناس من حجم الجزء. ولعكس هذه العملية يتحوَّل أخصائيو الحميَّات إلى أطباق أصغر من أطباقهم الأصلية. وبدلًا من محاربة وهم الحجم المتباين يحوِّل متابع الحمية "المخادع للذات" الوهم إلى حليف.

في خداع الآخر لا يوجد موافقة من الضحية، بينما يتجنَّب خداع الذات هذا الاعتراض.

إذا كنتَ لا تستطيع خداع نفسك لتصبح أنحف فقد تقبل بمظهر أنحف، وتجعلك الملابس السوداء تبدو أنحف، خاصةً على خلفية فاتحة. وبالنسبة إلى النظام المرئي يقدّر الحجم جزئيًّا بمقدار الضوء الذي يعكسه. ويبدو بوذا الأبيض أكبر من بوذا الأسود (شكل 4.5).

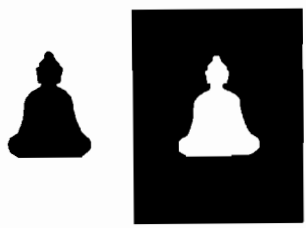

الشكل 4.5 الوهم الإشعاعي.

تؤثر الخدع البصرية حتى في الكتاكيت حديثة الفقس، ففي قفص سفلي الإضاءة تنقر الكتاكيت الجائعة بشكل غير صحيح، إذ تفترض بالفطرة أنَّ المشهد علوي الإضاءة.

ليست كلّ الأوهام لها أساس فطري، فالذين يتعلَّمون قراءة اللغة الإنجليزية يكونون أبطأ في التعرُّف على اللون الأبيض عند كتابته بالحبر الأسود، فقد اكتسبوا قدرةً تلقائيةً على فهم ما تعنيه كلمة "أبيض"، ومن ثَمَّ يواجهون تعارضًا بين الإبلاغ عمَّا تعنيه الكلمة ولون الكلمة.

يمكن للاتفاقية التي كانت مفيدةً أن تدوم فائدتها بقوة العادة، فربَّما كانت الطبقات في وقت ما مفيدة لتقسيم العمل، لكنَّ سيدهارتا نفى أن تكون مفيدة الآن، وأصبحت معارضته للطبقة أداة مفيدة للتجنيد، إذ يمكن لأفراد الطبقة الدنيا الإفلات من العقوبات بأن يصبحوا بوذيين.

يختار سيدهارتا معاركه. كان الإيمان بالبعث متجذِّرًا بعمق. ولذلك؛ فهو لا ينكر عقيدة البعث على الرغم من تعارضها مع عقيدته القائلة بأنَّه لا وجود للذات. وفي الواقع، يتعاون سيدهارتا مع الخرافات من خلال الادِّعاء بتذكُّر كلِّ ولاداته الجديدة السابقة! هذا تسلسل لا نهائي ليس له ولادة أولى (ومن ثَمَّ لا ثانية ولا ثالثة ...)

عبثًا بحثت عن باني بيتي
عبر حيوات لا حصرَ لها.
لم أتمكَّن من العثور عليه ...
كم هو صعب أن تخطو الحياة بعد الحياة!
ولكن الآن أراك أيُّها البنَّاء!
ولن تبني بيتي بعد الآن.
لقد قطعت العوارض الخشبية،
وكسرت العمود الرابط،
وتغلّبت على الرغبة.
والآن عقلي حرّ. (Buddha 1976, 56)

اعترض كوتادانتا Kutadanta رئيس البراهمانيين في قرية داناماتي على أنَّه لا يمكن

للناس أن يولدوا من جديد إلَّا إذا كان هناك أشخاص. ويقارن سيدهارتا الشخص المولود من جديد باللهب المعاد إشعاله، ففي أثناء الاحتراق يستمرُّ اللهب القديم بحكم استمراريته، وعند إعادة إشعالها في المصباح نفسه تكون الشعلة الجديدة مماثلةً للشعلة القديمة؛ لأنَّها من نوع اللهب نفس المستخدم للغرض نفسه.

كان البعث مفترضًا على نطاق واسع من عقيدة الكارما karma: حصن الأخلاق في الهند. وفي الوقت الحاضر نميّز بين القوانين الوصفية للطبيعة والقانون المعياري، واستثناء counterinstance القانون الوصفي يصحّح القانون. ويتطلَّب استثناء القانون المعياري تصحيح المنتهك، وتتخطَّى الكارما هذا التمييز من خلال عدِّ الخصائص الأخلاقية تنبؤية لما سيحدث.

تزعم الكارما أنَّها ضمانة جوهرية وغير شخصيَّة للعدالة. وفي المقابل، تم تعليم المستعمرين البريطانيين أن يؤمنوا بضمانة شخصيَّة متسامية، فالإله - الذي يعمل من خارج الكون الطبيعي - يضمن العدالة في الحياة الآخرة، على عكس الوجود الأرضي جذريًّا.

بالنسبة إلى معاصري سيدهارتا، أجابت كارما عن سلسلة من الأسئلة الأساسية: لماذا يجب أن أكون أخلاقيًّا؟ الجواب: لأنَّ الأخلاق تصبُّ في مصلحتي الشخصيَّة على المدى الطويل. اعتراض: المصلحة الذاتيَّة لا تتطابق مع الأخلاق داخل العمرا الردُّ: هذا يظهر فقط أنَّه يجب أن يكون هناك عدد كافٍ من الأعمار لاستعادة التوازن، فالمصائب غير العادلة في هذه الحياة ناتجة من أخطائي في حياتي الماضية، ويتمُّ تعْويض فشل الأعمال الصالحة في تعزيز اهتمامي بهذه الحياة بالمزايا التي سأتمتَّع بها في الحياة المستقبلية.

لقد أسيءَ فهم الكارما على مستويين بالنظر إلى عقيدة سيدهارتا القائلة بعدم وجود الذات: أولًا، لا يوجد ظلم في تفسير الكارما، فالاهتمامات بشأن من يحصل على ماذا يفترض مسبقًا وجود ذوات. ثانيًا، الحكمة أقلُّ عقلانية من الأخلاق؛ لأنَّ الحكمة ترسم

حدودًا لا أساس لها بين مصلحتي ومصلحة الآخرين. لذلك؛ فإنَّ المشروع الكارمي لتقليل الأخلاق إلى الاهتمام الذاتي هو خطوة إلى الوراء، وليس خطوة إلى الأمام. الكارما هي لا حلَّ للامشكلة.

الانفعالات والتظاهر بالاعتقاد

أي خيال يمكن أن يؤخذ بعيدًا، فالأطفال الذين يتظاهرون بالقتال يتحوَّلون إلى قتال حقيقي، والشفقة التي يجب أن تركز على المتسولين خارج المسرح موجهة إلى المتسولين الذين يتم تصويرهم على خشبة المسرح.

يقوم مديرو المسرح بزراعة التعلُّق الجامح بالخيال من خلال تعتيم الواقع حول الجمهور لتضييق الانتباه على المسرح، والمشاركة في قصة خيالية مماثلة للانحدار، فإذا كان المنحدر لطيفًا فإنَّ الجري يقودنا إلى وجهتنا بشكل أسرع، وإذا كان التلُّ شديد الانحدار فإنَّ كلَّ قوَّة خطوة سريعة ترفع الالتزام بخطوة أكثر نشاطًا. ونجد أنفسنا نركض بشكل أسرع وأسرع لمجرَّد البقاء في وضع مستقيم، فالتشويق الأولي للتسارع ينبث في الرهبة.

يعمل التذكير "هذه مجرد لعبة" على التحقُّق من نزولك، ولكنَّه يقلِّل الاهتمام أيضًا، فاللاعب المتمرّس يعلِّق عدم التصديق بما يكفي فقط للاستمتاع بثمار الخيال.

هناك توترٌ انفعاليٌّ في استغلال التقاليد، فمن ناحية نحتاج إلى التعامل مع الأدب الخيالي على محمل الجدِّ بما يكفي للَّعب بشكل جيد، ومن ناحية أخرى علينا أن نتذكَّر أنَّ أهداف اللعبة تافهة من الناحية الموضوعية، وهذه الفجوة بين الطموح والواقع تشكِّل عبثية. وربَّما تكون الابتسامة الساخرة المستعملة لتصوير بلوغ بوذا للنيرفانا ناشئة من إدراك هذه العبثية.

المشكلات الزائفة

فلسفات العَدَم تُذيب المشكلات بدلًا من حلِّها، إذ تذوب المشكلة حينما يكون لجملة الاستفهام التي تعبِّر عنها واحدة من العيوب التالية: اللامعنى، الغموض، النفاق، التفاهة، الافتراض الخاطئ، توافق الإجابات "المتنافسة"

تتَّضح روح النهج التذويبي من خلال قصة رجل مشغول قادم إلى سيدهارتا ولديه مشكلة، بعد أن ذكر الرجل مشكلته يردُّ سيدهارتا بأنَّه لا يستطيع حلّها، ويعطي الرجل فرصةً ثانيةً لسيدهارتا، بمشكلة أخرى. ومرَّةً أخرى، أفاد سيدهارتا أنَّه لا يستطيع حلَّ هذه المشكلة أيضًا، فيسأل الرجل كيف يمكن لسيدهارتا أن يكون بوذا المستنير تمامًا، ومع ذلك لا يكون قادرًا على حلِّ مشكلاته؟ يقول سيدهارتا للرجل إنَّه سيواجه 83 مشكلةً على الدوام، كلَّما ذهبت واحدة تحلُّ الآخرى مكانها. يقول سيدهارتا إنَّه لا يستطيع المساعدة في هذه المشكلات الـ 83.

"بماذا يمكنك مساعدتي؟" يسأل الرجل.

"أوه، يمكنني المساعدة في حلِّ مشكلتك رقم 84".

"ما المشكلة؟"

"أنَّك تريد حل 83 مشكلة"[1].

فضلًا عن وجود تطبيقات كبيرة على التفكير العملي فإنَّ إنكار سيدهارثا للذات له مضامين نظريَّة. فكِّرْ في مدى شيوع صياغة الفلاسفة لمشكلاتهم بضمير المتكلم. وبحسب إيمانويل كانت هناك ثلاثة أسئلة تجيب عن "كلِّ اهتمام عقلي" All the interest of my reason: ما الذي يمكنني معرفته؟ ماذا يجب عليَّ أن أفعل؟ ماذا قد أتمنَّى؟ ([1781] 1965, B833 = A805). فكلُّ هذه

(1) تم العثور على كتابة في الجزء العلوي من جدارٍ يحتوي على تمثال بوذا باميان الذي يبلغ ارتفاعه 53 مترًا في ثلاثينيَّات القرن العشرين: "إذا كان هناك أيُّ أحمق استكشف هذه الساموت العالية، أعرف أنَّ تشارلز ماسون كان هنا من قبل."

الأسئلة تفترض سابقا حقيقة الذات. لذلك؛ يعتقد سيدهارتا أنَّ هذه الأسئلة لها إجابات تصحيحية فقط.

"أنا" المتسامي

هذا النوع من الاعتراضات التي يقدِّمها سيدهارتا على الذات دفع إيمانويل كانت إلى التوصُّل إلى حلٍّ وسط، إذ يجادل كانت بأنَّ الذات ضرورية لشرح وحدة التجربة، وهذه الوحدة هي أساس مشهد العرض، وإذا لم يكن هناك مدرِك يربط التصورات معًا فلن يكون هناك سوى تعاقب المظاهر بدلًا من مظاهر التعاقب.

عامل الربط هذا لا يعادل جسم الإنسان، أستطيع أن أتخيَّل اشتغال تعاقب الأجساد، ما نحتاجه هو النوع نفسه من الذات الذي يجعل التعاطف ممكنًا. وأستطيع أن أتخيَّل أنَّ سيدهارتا صائم تحت شجرة بودهي، لكنَّ جسدي لا يمكن أن يكون جسد سيدهارتا. فلماذا لا أعارض نفسي حينما أتخيَّل نفسي سيدهارتا؟ لأنَّ هذا النوع من "أنا" هو إطار يحمل صورة.

ينزل "أنا" المتسامي الرأسي (|) ليشكّل عمومية الفراغ الأفقي (ـ). ضعْ في حسبانك: "إذا كان ـ أطول من بالا وبالا أطول من كاند، فهو أطول من كاند". ويعمل الفراغ كمتغير (لكل x، x يساوي x) بدلًا من مجهول (حيث يتم حساب المرجع المخفي 666/6 =ـ) أو كمخطط ("ضع اسمك في المكان المشار إليه: أنا، ـ، بموجب هذا أقسم على الحقيقة"). وعند استعماله كمتغير، لا يعين ـ أي فرد معين ولا يستعمل فقط كمخطط للجملة. فعلى الرغم من أن الجملة المفتوحة "أحلام ـ" 'dreams ' ليست صحيحة ولا خاطئة في حدِّ ذاتها، لكنَّها يمكن أن تكون صحيحةً بالنسبة إلى الفرد أو خاطئة بالنسبة إلى الفرد. وفضلًا عن ذلك، يمكن تحويلها إلى جملة كاملة من طريق إضافة كلمة كمي مثل "لكل ـ، أحلام ـ". ونظرًا لأنَّنا لا نلوِّنُ الفراغات فإنَّنا نستخدم أحرفًا مميّزةً لمتغيرات مميّزة.

استعمل مخرج ومنتج محمد رسول الله مصطفى العقاد "أنا" المتسامية لاستيعاب تحريم المسلمين للتصوير الفوتوغرافي لمؤسس الإسلام، إذ لا يمكن تصوير محمَّد ولا صوته على الشاشة. لذلك؛ صوَّرَ العقَّاد المشاهد من وجهة نظر محمد، والممثلون يتحدَّثون مباشرةً إلى الكاميرا عند مخاطبة محمَّد، وإمالة الكاميرا لأعلى ولأسفل أو تأرجحها من اليسار إلى اليمين يشير إلى إيماءات محمَّد، وحينما يتطلَّب الأمر أكثر من إجابة بنعم أو لا فإنَّ موسيقى الأرغن الخفيفة تحلُّ محلَّ صوت محمَّد ويكرّر المستمعون كلماته، ومن خلال وضع الجمهور في حذاء محمد يحقِّق العقَّاد علاقةً حميمةً آسرة مع الرسول.

وأشاد المؤتمر الإسلامي الأعلى للشيعة في لبنان بالفيلم. وفي الولايات المتحدة فات بعض المسلمين الفروق الدقيقة حول "أنا" المتسامي، ويُظهر ملصق الفيلم بشكل بارز أنتوني كوين، الذي يؤدِّي دور عمِّ محمَّد. واستنتج المسلمون الحنفيون من أصل إفريقي أنَّ كوين كان يؤدِّي دور محمَّد نفسه. فاستولوا على الكثير من المباني المجاورة في واشنطن العاصمة في الفترة من 9 إلى 11 مارس 1977. وحذَّر المتظاهرون من أنَّه إذا لم يتمَّ تدمير الفيلم فسوف يفجِّرون المباني ورهائنهم البالغ عددهم 149 رهينة، وأسفر الحصار عن مقتل حارس أمن وصحفي إذاعي وإصابة عضو المجلس ماريون باري.

تم إنهاء الحصار بمزيج من صبر الشرطة والتدخُّل الشجاع من مبعوث من ثلاثة سفراء من مصر وباكستان وإيران، إذ قرأ الدبلوماسيون آيات من القرآن تؤكِّد الرحمة والعطف، وفي النهاية استسلم المسلَّحون.

5. ناجارجونا: غياب الأرضيَّة

يجب أن يتم تنفيذ التعاويذ بالطريقة نفسها في كلِّ مرَّة، وقد حفَّز تأكيد هذا التكرار المتماثل الدقيق إنشاءَ لغةٍ هنديةٍ مستقرةٍ يمكن أن تنتقل عبر الأجيال. وفي القرن الخامس أو السادس قبل الميلاد أضفى اللغوي بانيني Panini الطابع الرسمي على اللغة السنسكريتية، حيث وحَّدَ لهجة البراهمانية بأكثر من أربعة آلاف قاعدة، وأصبحت لغته المتقنة الوسيلة المفضَّلة للمُنح الدراسية والنشر من 500 قبل الميلاد إلى 1000 بعد الميلاد.

تشير اللغات إلى الأدوار النحوية، إما من طريق وضع علامة على الكلمات نفسها (كما هو الحال في جمع الكلاب dogs) أو من طريق تحديد الدور بترتيب الكلمات (يتم تحليل رجل عض كلب "Man bites dog" بشكل مختلف عن كلبٍ عضَّ رجلًا "Dog bites man" على الرغم من وجود الكلمات نفسها). والكلمات اللاتينية تتميَّز بدقَّة بكون ترتيب الكلمات غير ذي صلة. وفي حين أن الرجل الإنجليزي يحافظ على سرواله بحزام مجزَّأ من ترتيب الكلمات يستعمل المتحدِّث اللاتيني حمَّالات ذات علامات نحوية، وكاتب اللغة السنسكريتية يرتدي الحزام والحمالات، فالسنسكريتية لديها نظَامَا التعريف النحوي كلاهما.

كان على الفلاسفة البريطانيين الاعتراف بأنَّ اللغة السنسكريتية هي لغة تفكير أكثر أمانًا من اللاتينية أو الإنجليزية، ففي اللغة الإنجليزية هناك خطرٌ يتمثَّل في قراءة "العَدَم" في "يعبد البوذيون العَدَم" Buddhists worship nothing كاسم (مثل "شيفا" Shiva) بدلًا من كونه محدِّدًا كميًّا (لا x مشابه لكون البوذيين يعبدون x). وترجمة الجملة إلى لغة ذات إشارات نحوية أقوى تزيل الغموض.

تعمَّق الحرج البريطاني حينما اكتشف أنَّ اللغات الأوروبية نشأت من اللغة نفسها مثل اللغات الهندية. واللغة الإنجليزية إمَّا تراجعت أو فشلت على الأقلِّ في مطابقة تقدُّم اللغة السنسكريتية. واللغة الإنجليزية والسنسكريتية المكتوبة لها ترتيب الكلمات

المتعارف عليه نفسه: فاعل - فعل - مفعول به. وأصبحت القرابة واضحةً للقاضي واللغوي البريطاني ويليام جونز William Jones، إذ اكتشف المستشرق جونز اكتشافًا غريبًا أنَّه يستطيع تخمين الكلمات السنسكريتية من معرفته باليونانية واللاتينية!

اكتشف جونز أيضًا القياسات المنطقية "الأرسطية" المتكوِّنة تمامًا في النصوص السنسكريتية القديمة، وقد سمعها منظمة من فلاسفة البراهميين في مناظرة شفوية، إذ أخبروه أنَّ منطق أرسطو Aristotle القياسي مستورد من الهند. وكان ابن شقيق أرسطو كاليستينيس Callisthenes هو المؤرِّخ الرسمي لغزو الإسكندر الأكبر لشبه القارة الهندية. هل تلقَّى العمُّ أرسطو أكثر من عيِّنات بيولوجية من الهند؟ ربَّما نسي الإغريق من أين حصلوا على منطقهم. في النهاية، نسي الإغريق مكان قبر الإسكندر، وكان الموقع معروفًا بشكلٍ عامّ؛ بسبب الحجِّ من الأباطرة الرومان. وموقع القبر لا يزال لغزًا.

كانت دراسة الهند التاريخية تجعل هيمنة البريطانيين على البراهمة أمرًا غامضًا بالنسبة إلى البريطانيين كما كان الحال لفترة طويلة بالنسبة إلى البراهميين. وتساءل جونز - متحمِّسًا - عمَّا إذا كانت اللغات الأوروبية قد تراجعت بدلًا من أن تتقدَّم، إذ يبدو أنَّ اللاتينية والإنجليزية أصبحت أقلَّ وضوحًا لأغراض التفكير المجرد. وتُعدُّ الارتباكات النحوية خطرًا على الارتفاعات التي لم يعد بإمكان المنظر من خلالها تمييز المناظر الطبيعية المألوفة. "كلُّ شيء له سبب، لذلك، هناك سبب لكلِّ شيء" هو استنتاج أكثر إغراءً من "لكلِّ فرد أمٌّ؛ لذلك، هناك أم للجميع". وفي القرن الثالث عشر لاحظ توما الأكويني Thomas Aquinas أنَّ ترتيب كلمات فاعل - فعل - مفعول به يرتبط بثالوث الفعل: عامل - عمل - معمول agent - action - patient. وفلاسفة العَدَم يتطفَّلون على كلِّ ركنٍ في الثالوث، ويستهلك لاوتزو طاقة الفعل. بوذا يحول العامل إلى زومبي. وناجارجونا يلتصق بالمعمول (ما نتصرف عليه). فيمتص المادة من الأشياء المباشرة للعمل.

إنَّ شكوك بوذا بشأن الكليات أعطت زملاءه المسافرين بدايةً سريعةً. ضع بحسبانك الفأس، المقبض ينكسر فتستبدله، والنصل ينكسر، فتستبدله. هل الاستبدالات تسفر

عن الفأس الأصلي أم الفأس الجديدة؟

يتم توضيح السؤال من خلال افتراض أنّنا نعيد تجميع المقبض القديم والشفرة القديمة، أيٌّ من المحورين هو الفأس الأصلي؟

يردُّ سيدهارتا على هذه الألغاز بإنكار الافتراض بوجود فأس، ويقلِّل رفض التكوين بشكل كبير من مخزونه لما هو موجود، ما تبقَّى هو مجرد أبسط الأشياء: الذرات.

المثالية والمترفات Danglers الميتافيزيقية

لم يكن هذا بسيطًا بما فيه الكفاية، قاد مبدأ الخفة lightness المريدين الثنائيين إلى تقليص القائمة إلى نوعين من الذرات: عقلية وجسدية. وكان اثنان أكثر من اللازم بالنسبة إلى الأحاديين، بل أكَّدوا مبدأ الخفة أكثر وسألوا: هل كلُّ شيء مادي (المادية)؟ أم إنَّ كل شيء عقلي (المثالية)؟

يفوز المادي برمي الحذاء على المثالي، فحينما ينهض المثالي يُفضَح بالإيمان بشيء مادي.

ومع ذلك، يمكن للمثالي أن يبرِّر مراوغته من خلال مناشدة الألم الذي يهدّده مسار الحذاء، فغالبًا ما يتعامل الحسّ السليم مع اللمس كما لو كان علامة أكيدة على الواقع. لكن هناك أوهام ملموسة، وحينما تشعر بالقلق من وجود حشرات في سريرك يقشعر جلدك بإنذارات كاذبة.

تختلف الأحلام عن تجارب اليقظة في كونها أقل تنبؤًا بما سيحدث بعد ذلك. والتمييز بين المظهر والواقع هو مسألة ضبط حسابات، إذ نرغب في التنبُّؤ والتحكُّم في تدفُّق الخبرة، وينجذب انتباهنا إلى العوامل التي تعدُّ أفضل تنبؤات، فإذا تنبَّأ الخيال بالمستقبل فلن يطلق عليه "أحلام اليقظة".

يفضل غالبية الفلاسفة الهنود المثالية على المادية، وجميع بياناتنا الخام هي بيانات عقلية، لذلك نحن بالفعل ملتزمون بالأفكار، فهل يجب أن نضيف أشياء مادية

إلى قائمتنا لما هو موجود؟ فقط إذا شرحت شيئًا لا يمكن تفسيره بالأفكار وحدها.

أوضح علم الفلك مقدار ما يمكن تفسيره بطريقة المُلاحظة البحتة، إذ تتكوَّن البيانات من نقاط ضوء تتغيّر بمرور الوقت، ووظيفة الفلكي هي وصف أنماط الضوء والتنبُّؤ بها، ولا يحتاج إلى التكهن بما إذا كانت الأضواء هي آلهة أم أجسامًا متوهجةً أم ثقوبًا في الكرة السماوية. ويمكن لعالم الفلك تصوُّر النجوم كعلامات في لعبة مثل GO [1].

المثالية تجعل الأشياء العادية تعتمد على الأفكار. ماذا يحدث للسرير حينما لا يوجد أحد ليراقبه؟ هل السرير يومض من الوجود؟ إذا كنت أنا المراقب الوحيد، فهل يمكنني أن أدير رأسي بسرعة وأتفاجأ بالعدم؟

الإجابات المثالية التي تتحدَّث عن السرير هي إجابات افتراضية ضمنيًّا: إذا كانت لديَّ تجربة دخول إلى غرفة النوم فعندئذٍ سأحصل على تجربة سرير.

انتظر! ما الذي يجعل هذا الافتراض صحيحًا؟ لا يمكن للمثالي أن يؤسِّس حقيقته في غرفة مادية وسرير فعلي، سيكون الافتراض حقيقةً عائمةً غير مرتبطة بأيِّ جزء من الواقع.

غياب الأرضيَّة

كان ناجارجونا راهبًا بوذيًّا عاش بين عامي 150 و250 بعد الميلاد في جنوب الهند، وربما كان هو الحكيم يُشير إليه قاضي المحكمة العليا أنطونين سكاليا Antonin Scalia:

يؤكد معلِّم شرقي أنَّ الأرض تقف على ظهر نمر. وحينما سُئل على ماذا يقف النمر، قال إنَّه يقف على فيل، وحينما سُئل على ماذا يقف الفيل قال على سلحفاة عملاقة،

(1) لعبة GO، اختُرعت في الصين قبل 2500 سنة، وهي لعبة لوحيَّة استراتيجيَّة تجريديَّة تتضمَّن لاعبين يستهدف كلٌّ منهما أخذ مساحة أكبر من الخصم. (المُترجِم)

وحينما سُئل أخيرًا على ماذا تقف السلحفاة العملاقة تفاجأ لفترةٍ وجيزةٍ، لكنَّه أجاب بسرعة "آه، بعد ذلك تنزل السلاحف على طول الطريق".(Raponos v. United States. 547 U.S. 715 (2006))

ناجارجونا ينفي أيَّ حاجةٍ لأساس، وهو يعتقد أنَّ الارتدادات اللانهائية الميتافيزيقية حميدة. وقد صدمت هذه الانتكاسات الكثير من معاصريه على أنَّها تنطوي على العدمية حول الأشياء، إذ لن يكون هناك فقط محاور، ولن يكون هناك ذرَّات: العَدَم المطلق؛ لأنَّه إذا كان وجود كلِّ كائن يعتمد على وجود كائن آخر فلن يكون هناك شيءٌ يُؤسِّس سلسلة الوجود بأكملها.

الوحدوي واحد مع الكون، الثنائي مع اثنين، الناجارجوناني مع العَدَم. وناجارجونا ينفي أنَّ العدمية تنجم من غياب الأساس، ويعتقد أنَّ جميع الأشياء يمكن أن تكون اتفاقيَّة: بناءات من أشياء أكثر أساسية.

يعترف خصوم ناجارجونا بأنَّ البناءات يمكن أن تكون ملفَّقةً ببناءات أخرى، ومع ذلك، فقد أصرُّوا على أنَّ سلسلة البناء يجب أن ترتكز في النهاية على أرضيةٍ من الأشياء الأساسية. وبالنظر إلى أنَّ الحقيقة المطلقة تتعلَّق بما يثبت على المستوى الأساسي فلن تكون هناك حقيقة مطلقة. لذلك؛ غالبًا ما يتمُّ تفسير ناجارجونا على أنَّه يقول إنَّ هناك حقيقة اتفاقيَّة conventional فقط.

تدعو عبارة "كل الحقيقة اتفاقيَّة" إلى السؤال "من المتفقون؟" ومع ذلك، لا يجيب ناجارجونا أبدًا عن الكيفية التي يتولَّى بها المتفقون المسؤولية عن الواقع. يقود هذا الصمت النقَّاد إلى وضع الشعار التالي على لسان ناجارجونا: "الحقيقة المطلقة هي أنَّه لا توجد حقيقة مطلقة"

لإنقاذ ناجارجونا، يقول بعض المفسرين إنَّه ينقل نظرة ثاقبة لا توصف. وسيقترح المنطق بدلًا من ذلك أنَّ ناجارجونا يقدم مطالبةً مشروطةً حول ما يتولَّد منطقيًّا من الافتراض. أو بتعبير أدق، يرفض ناجارجونا الشرط الذي يميل الآخرون إلى تأكيده، فبدلًا

من الجدل حول أيِّ شيء جوهري يثير ناجارجونا الاحتمالات فقط.

غالبًا ما يتم وصف الفيلسوف من حيث ما يؤكده: "ها أنا أقف!" ومن المتوقَّع أن يكتب كتبا بعنوان مثل ما الذي أؤمن به لبرتراند راسل. لكنَّ ناجارجونا يعدُّ تصريحات الموقف غير مهنية. ماذا يضيف الفيلسوف إلى الحجَّة حينما يقول: "وأعتقد أنَّ النتيجة"؟ لا شيء من خبرته. فالفلاسفة مدرَّبون على إبداء الأسباب. وعلى حسب ذلك، فإنَّ ناجارجونا يكتفي بإظهار ما هو نتيجة الافتراض وما هو غير ذلك، ولا يتمثَّل دوره في تقييم نقاط النهاية للاستدلال، فقط الجسر بين المقدّمات والاستنتاجات.

اشتهر الفيلسوف جيلبرت رايل Gilbert Ryle في القرن العشرين بأنَّه قال، "إذا لم تمت المينونغية Meinongianism، فهي لا شيء". يبدأ المنطقي غراهام بريست Gra-ham Priest (2016, xvii) دفاعه عن ألكسيس مينونغ Alexius Meinong بالاتفاق مع رايل. وبتعبيرٍ أدقَّ، يوافق بريست على شروط رايل لكنَّه يستنتج بعد ذلك أنَّ العقائد الفلسَفيَّة لا تموت أبدًا. وأولئك الذين يقصرون الفلسَفَة على الشرطية يتعاطفون مع عقل بريست المنفتح، لكنَّهم لن يستنتجوا رسميًّا أسلوبه في الاستدلال: ما لم يُفهم "العَدَم ميت" على أنَّه شرط.

على الأقـلِّ بعض الارتـدادات اللانهائية غير ضـارَّة، فحقيقة "شـيء موجود" تستلزم "حقيقة أنَّ الشيء موجود"، أي عبارة صحيحة S تستلزم بيانًا أطول للشكل "صحيح أن S" لذلك، فإنَّ أيَّ حقيقة تستلزم سلسلةً لا حصر لها من الحقائق الطفيلية. والطفيليات ليست عبئًا، تبدأ المشكلة حينما تثور من هذه الديدان الشريطية المنطقية وتبدّدها بشكل مصطنع، وهذا يخلُّ بآليَّات الدفاع الطبيعية التي استوعبت الطفيليات. ونعاني من النظير العقلي لأمراض المناعة الذاتيَّة.

اشمئزازنا من التسلسلات الطفيلية ليس موحدًا، إذ توفر مناطق التسامح فرصًا لتوسيع الإذعان إلى التراجعات اللانهائية. مثلًا، نحن نقبل المبدأ القائل بأنَّ كلَّ رقم له خليفة ونرحِّب بالتراجع اللانهائي الناتج من ذلك. وإذا قبلنا هذا الانحدار للأعداد الموجبة،

إذن - بالتناظر - يجب أن نقبل أيضًا الانحدار للأرقام السالبة. وإذا قبلنا الأعداد السالبة فلدينا أنموذج رياضي للتراجع إلى الوراء. مثلًا، إذا سمحنا بتمثيل المستقبل بالأرقام الموجبة والحاضر بصفر يمكننا أن نسمح بنمذجة الماضي بالأرقام السالبة. وفتح خط الأعداد يحرّرنا من الالتزام بالأصول، مثل، "أيهما أتى أولًا، الدجاجة أم البيضة؟"

تمت مناقشة الأرقام السالبة بصرامة فقط في الرياضيات الهندية في القرن السابع من خلال براهماجوبتا (598 - 668) Brahmagupta في براهما سفوتا سيدهانتا - Brahma Sphuta - Siddhanta. وهذا هو الوقت الذي يبدأ فيه التعامل مع ناجارجونا على محمل الجد. ومع ذلك، فإنَّ التطوُّر التجاري أكد أنَّ المفكرين الهنود قد فهموا بالفعل تشبيه براهماجوبتا: "الدَّين المنقطع عن العدم يصبح ائتمانًا، وقطع الائتمان عن العدم يصبح دَينًا". فمثلما لا يوجد حدٌّ للائتمان لا يوجد حدٌّ للديون. ويذهب براهماجوبتا إلى ما هو أبعد من القياس، إذ استعمل الأعداد السالبة كحلول للمعادلات التربيعية وصياغة قوانين ضرب وقسمة الأعداد السالبة.

يكافح براهماجوبتا مع الصفر، إذ يقول إنَّ العدد الصحيح مقسومًا على 0 هو كسر n / 0، لكن هذا من شأنه أن يسمح باستنتاج أنَّ 1 = 2. فنظرًا لأنَّ أيَّ رقم مضروب في صفر هو صفر، 0 × 1 = 0 × 2. والقسمة على صفر ينتج 0/0 × 1 = 0/0 × 2، وهو ما يبسط إلى 1 = 2. وفي 830، وصف ماهافيرا Mahavira "القسمة على صفر" على أنَّها فشل في القسمة، وهكذا استنتجn / 0 = n . لكنَّ هذا يجعل القسمة على صفر تعادل القسمة على واحد. واستوعب آخرون "القسمة على صفر" إلى القسمة اللامتناهية في الصغر، لذا فإنَّ n/1 ستكون كمية صغيرة جدًّا، بحيث لا يمكن تقسيمها بشكل أكبر.

يمكننا فقط من خلال نقد جورج بيركلي George Berkeley لحساب إسحاق نيوتن Isaac Newton الحصول على تطبيقٍ واضحٍ للتمييز بين المعنى وغياب المعنى. يطرد بيركلي اللامتناهيات في الصغر على أنَّها "أشباح الكميات الراحلة"، وحظر "n / 0" لأنَّه غير محدَّد بشكل سيئ.

علامات الطريق في كندا تجذِّر من البرد القارس بعلامة " - 0". وبالمعنى الدقيق للكلمة "- 0" هو تناقضٌ في المصطلحات. إنَّها الأقصر والأكثر دولية من تناقضات الألفاظ، فالأرقام السالبة يتم تعريفها على أنَّها تلك التي تقع تحت الصفر، والأرقام الموجبة هي تلك الأكبر من الصفر. لذلك؛ حينما سُئلت عمَّا إذا كان الصفر موجبا أو سالبا، كن دبلوماسيًّا وأجبْ أنَّ صفرًا رقم محايد. الطائر الوطني لسويسرا هو توراكو-Tura co ، ويجب أن يكون الصفر هو الرقم الوطني لهذه الأمَّة المحايدة.

نظرًا لأنَّ الناس يفضّلون الاتساق فسوف يخترعون قراءات متّسقة للألفاظ المتناقضة. يستعمل بعضهم "- 0" لتحديد رقم سالب تم تقريبه إلى الصفر. ويستعمل علماء الكمبيوتر أحيانًا "- 0" للتعبير عن اللانهاية السلبية. ويؤدِّي هذا إلى إنشاء ارتباط بين 0 و∞. ومن الناحية التاريخية، تعدُّ الأرقام السالبة أكثر تناقضًا من العَدَم؛ تقيس كميات أقل من العَدَم! في إحدى الحفلات تخبرك جارتك بتشغيل نظامها الصوتي الجديد. ويسجل جهاز الاستقبال سالب 25 ديسيبل. وتتساءل عمَّا إذا كانت قد تم خداعها لشراء نظام صوتي لا يصدر أيَّ صوت في الواقع، هل يجب أن تتظاهر بسماع الموسيقى؟

بعد أن تركتك تتلوى في رمال متحركة من الأدب، أوضحت أنَّ 0 ديسيبل يشبه 0 درجة مئوية. «0 ديسيبل» يحدِّد مركزية الإنسان، الحدّ الذي يبدأ عنده البشر في سماع الأصوات. وعند هذه النقطة كانت الطيور تسمع بالفعل أصواتًا كثيرةً.

ناجارجونا يتحدَّى الافتراض القائل بأنَّ الميتافيزيقيا تتعلَّق بمستوى أساسي من الواقع، ويعتقد أنَّ الواقع قد يفتقر إلى المستوى الأدنى وقد يفتقر إلى المستوى الأعلى. ولإظهار اتساق هذه الفرضيات، قدم نماذج. ولا يؤكد ناجارجونا أنَّ الواقع لا غطاء أو لا قاع له، بل يضع افتراضات مصمّمة لتوضيح الاحتمالات. وناجارجونا ليست لديه أطروحة ميتافيزيقية، أطروحته الميتافيزيقية: الميتافيزيقا لا يمكن أن تكون دراسة الطبيعة الأساسية للواقع.

كيف يمكن للواقع أن يكون بلا قعر

إذا تم تقسيم كائن وتقسيم أجزائه يؤكد لنا العالم الذري أنَّنا وصلنا إلى مرحلة لا يمكن فيها الانقسام، فكلُّ كائنٍ يتكوَّن في النهاية من ذرات.

يعتقد ناجارجونا أنَّ من الممكن أنْ تستمرَّ عملية التقسيم إلى ما لا نهاية. وفي هذا السيناريو يحتوي كلُّ كائن على أجزاء، لذا فإنَّ كلَّ شيء قابل للقسمة بلا حدود. ويطلق الميتافيزيقيون المعاصرون على هذا النوع من المادة "مادة لزجة" gunk. وتم نقل إيحاءات عن المادة اللزجة في كتاب جوناثان سويفت Jonathan Swift "في الشعر: الملحمية":

لذلك لاحظ علماء الطبيعة، برغوث

لديه براغيث صغيرة تفترسه،

وهناك براغيث أصغر تقضمها،

وهكذا تستمر إلى ما لا نهاية.

تعدُّ المادة اللزجة خبرًا سيئًا لأولئك الذين يعتقدون أنَّ الأجزاء أساسية أكثر من الكل الذي تؤلفه. مثلًا، يعتقدون أن مقبض وشفرة الفأس يسبقان الشيء الذي يؤلفانه. وهم سعداء بإطالة سلسلة الاعتماد. فذرات الحديد قبل النصل، وفكرتهم هي أنَّ التفسيرات تتوسع. ويبدأ الذريون من أصغر الأشياء ويشرحون الكل من حيث هذه الأجزاء. وإذا كان هناك مواد غير مرغوب فيها فإنَّ هذه الاستراتيجية التفسيرية التصاعدية ليس لها قاع، وبالنتيجة لا يمكن البدء.

والمادة اللزجة خبر سار لأولئك الذين لديهم وجهة نظر عكسية بأنَّ الكلَّ يسبق أجزائه، إذ تتدلَّى تفسيراتهم من الواحد إلى الأكثر، ويتألَّف الكون من مكوناته كما نتألَّف الدائرة من أنصاف دوائر، والنصفان مستمدان من دائرة كاملة وليس العكس. وللواقع اتجاه من أعلى إلى أسفل، لهذا السبب يجب فهم الصمامات والعضلات التي يتكوَّن منها القلب من منظور العضو بأكمله. ويشرح هذا الاتجاه من أعلى إلى أسفل

أيضًا سبب وجوب فهم الأعضاء بدورها بالعلاقة مع الكائن الحي بأكمله، وهكذا حتى مستوى الأنواع والشعب وما بعده. كلُّ شيء ينتمي إلى نظام الأجزاء والكليات المتداخلة، والشيء الوحيد الذي لا يعتمد على أيِّ شيء أعلى هو الكون.

تتوافق الوحدوية مع الموضوع الديني القائل بأنَّ الكل واحد، ومع ذلك، فإنَّ الكون هو مجرد نوع آخر من المستويات الأساسية. لذلك؛ قد يقول ناجارجونا إنَّه إذا كانت الوَحْدوية صحيحة، فهي مجرد حقيقة عرضية وليست حقيقة ضرورية، وقد يكون مصادفة أنَّ كلَّ شيء مادي، وحتى لو كان كلٌّ من هذه الأشياء المادية في الأساس شيئًا ماديًّا (لا يمكن أن يكون السرير رقمًا أو ظلًّا)، فقد يكون هناك شيء غير مادي مثل الروح. لذلك؛ لن يقبل ناجارجونا الصيغة التي قدمتها المنطقية روث باركان ماركوز Ruth Barcan Marcus في عام 1949:

$$(x)\,Fx \rightarrow (x)Fx$$

أوصي بمعادلة باركان للطلاب الذين يسعون إلى الحصول على وشمٍ فلسفيٍّ. إنَّها أقلُّ إيلامًا بكثير من الترجمة الإنجليزية التي يبلغ عددها 89 حرفًا: إذا كان لكلِّ شيء خاصية بالضرورة فمن الضروري أن يكون لكلِّ شيء تلك الخاصية.

كيف يمكن للواقع أن يكون بلا غطاء

عكس gunk هو knug (تهجئة معكوسة). كلُّ شيء هو جزء من شيء أكبر.

لشرح كيفية تحرك الدمى المتحركة نتطلَّع إلى حركات سيد الدمى، وإذا كان سيد الدمى هذا هو نفسه دمية متحركة فإنَّنا نبحث عن سيد السيد. والإيمان بالـ knug هو الإيمان بأنَّ هناك دائمًا صورة أكبر، ومن ثَمَّ لا توجد صورة أكبر.

إذا كانت كلُّ مجموعة من الأجزاء تشكِّل شيئًا فإنَّ الجمع بين جميع الكائنات سيشكِّل كائنًا أعلى، وسيكون هذا الكائن الأعلى مثالًا مضادًّا لمبدأ الـ knug القائل بأنَّ كلَّ شيء جزءٌ من كائن آخر.

لمنع الكائن الأسمى، صديق knug يقيد التكوين، ليست كلّ مجموعات الأشياء تؤلّف أشياء أخرى. للتأكد من وجود تسلسل هرمي غير محدود للأشياء يجب أن يقول إنَّ هناك أشياء كثيرة بلا حدود، وعليه أيضًا أن يسمح لهذه الأشياء بالاتحاد في مجموعات متعدِّدة لانهائية.

تتمثَّل إحدى طرق تلبية كلِّ هذه المطالب في القول إنَّ أيَّ مجموعة محدودة من الأشياء تشكِّل كائنًا أكبر، وستكون الكليَّات أكثر شمولًا دون أن يكون هناك أيُّ كلي أقصى.

سيكون هذا المبدأ المحدود للتكوين صحيحًا بشكل عرضي فقط؛ لأنَّنا رأينا بالفعل أنَّ كلَّ كائن في عالم المادة اللزجة سيتكوَّن من أجزاء متعدِّدة لا متناهية.

يُعرِّف بعض الواحديين العالمَ بأنَّه الشيء الوحيد الذي ليس جزءًا من أيِّ شيء آخر، ويشتكون من أنَّ وجود knug يعني أنَّه لا يوجد عالم! ويجيب ناغارجونا بأنَّ هذا يوضِّح فقط خطر تعريف الميتافيزيقيا على أنَّها دراسة العالم، فقد ينتهي الأمر بالميتافيزيقيا إلى كونها موضوعًا فارغًا، كما حدث في علم الملائكة.

كيف يمكن أن يكون الواقع بلا قعر وبلا غطاء

يكمل المنطقي أوغسطوس ديمورغان Augustus DeMorgan مادة جوناثان سويفت gunk بـ knug :

تحتوي البراغيث الكبيرة على براغيث صغيرة على ظهورها لتلدغها، والبراغيث الصغيرة بها براغيث أقل، وهكذا إلى ما لا نهاية.

والبراغيث الكبيرة نفسها - بدورها - لديها براغيث أكبر لتستمرَّ، في حين أنَّ هذه مرةً أخرى لديها عدد أكبر من البراغيث، وأكثر من ذلك، وهلمَّ جرًّا. (1915، 377).

كون knug - gink لديه كلٌّ من gink وknug، افترض أنَّ كلَّ جسيم يتكوَّن من عالم مصغَّر، مثل عالمنا، وهذا العالم المصغَّر له جسيمات هي نفسها عوالم مصغرة.

وبالمثل، فإنَّ عالمنا هو جسيم في عالم أكبر هو نفسه جسيم في عالم أكبر.

التبعية المتماثلة وغير المتكافئة

ضعْ بحسبانك دائرة جلسات التحاضن lap - sitters، كلُّ جليس يعتمد على جليسه الآخر، لكن لا يوجد جليس يعتمد عليه الجميع.

تحذر عقيدة ناجارجونا عن "فراغ الفراغ" من استنتاج أنَّ سلسلة الكائنات التابعة يدعمها الفراغ، وهذا من شأنه أن يخون التعلُّق الضار بالمبدأ القائل بأنَّه يجب أن تكون هناك أرضية، مِمَّا يجعل اللامركزية هي الأساس! هذا الميل إلى جعل العَدَم هو موضوع نكتة بوذية، إذ يُبلغُ تاجرُ متجرٍ فارغٍ المتسوقَ القهري بأنَّ المتجر ليس فيه شيء. ويستجيب المتسوّق المصمم، "في هذه الحالة، من فضلك أعطني بعض هذا العَدَم!"

يتم الحفاظ على دائرة الجالسين المتحاضنين من خلال السببية المتبادلة. ضع بحسبانك لوحين متوازنين مع بعضهما الآخر: إذ كلُّ لوح يعتمد على الآخر للوقوف، ولا أولويةَ لأحدهما على الآخر.

تنشأ تبعية مساوية egalitarian dependency مماثلة بين أرقام العدِّ، كلُّ رقمٍ يحصل على قدميه من خلال الاعتماد على مجاوريه، ولا يوجد رقم يقف من تلقاء نفسه، فالجميع يقفون معًا، ولا أحد يمكنه الخروج لإنشاء وظيفة شاغرة في خطِّ الأعداد. ولا تمنحنا اللامركزية الدائرية أساسًا لإجراء مقارنات جائرة حول كون أحد الأشياء أكثر واقعيةً من الآخر.

تشجع سلاسل التبعية غير المتكافئة Asymmetrical chains of dependency موقفًا مختلفًا، إذ يعتمد مركز كتلة الحلقة على الحلقة وليس العكس. ويدفعنا هذا إلى النظر إلى مركز الكتلة على أنَّه أقلّ واقعية من الحلقة. ولا تكمن المشكلة في أنَّ مركز الكتلة غير مرئي أو لا يمكن التنبُّؤ به، أو أنَّ سلوكه الذي يمكن التنبُّؤ به غريب الأطوار (مثل وجود مركز الكتلة في ثقب الحلقة بدلًا من الحلقة نفسها)؛ لأنَّ لدينا التفضيل نفسه

للحلقة على ظلها، إذ نرى ظلَّ الحلقة ولكنَّنا واثقون من وجود الحلقة أكثر من ظلها.

إذا كان الخاتم مصنوعًا من ذرَّات فهذا يعتمد على الذرات. لذلك؛ أصبحنا أقلَّ ثقة بشأن وجود الخاتم. والولاء ينتقل إلى الذرات؛ كونها الجوهر الحقيقي.

هدف ناجارجونا هو تقويض هذا المصدر الميتافيزيقي لعدم المساواة. لكلِّ ما نعرفه، قد يكون كلُّ شيء كائنًا معتمدًا، ويجب ألَّا يكون هناك أيُّ شيء جوهري على الإطلاق، فكلُّ شيء يمكن أن يكون خاليًا من الأرضيَّة.

حتى الراهب الزميل قد يشعر بأنَّ شيئًا ما مفقود، وقد قارن ناجارجونا الراهب بالفارس الذي يعدُّ قطيعه عند غروب الشمس، إذ يرى الفارس نقصَ واحدٍ عن المجموع في الصباح، ومن ثَمَّ يبحث عن الحصان المفقود في الظلام المتزايد، لكنَّه أغفل الحصان الذي يمتطيه.

ثالثًا: العَدَم المُطلَق

ثالثًا: العَدَم المُطلَق

6. بارمينيدس: غياب الغياب

بعد الصعود إلى جرف الوجود غارَ الصينيون والهنود عبر مشهد العدم، إذ رأوا أفقًا مفتوحًا للفرص. ونظر اليونانيون إلى أسفل الجرف، فعانوا من الدوار.

الأنموذج اليوناني للفهم هو الهندسة، فلفهم الكرة ركّز على خصائصها الجوهرية، مثل إنَّ سطحها من كلِّ مكان على بعد متساوٍ من المركز. وتتجنَّب المقاييس الكرات العادية؛ لأنَّ شكلها يتشوَّه بالسطح الذي ترتكز عليه. ويتم اختراق الكرات من خلال ملامستها للأجسام المجاورة والرياح والحرارة، ومع ذلك، فبمجرَّد عزل الكرة المنفردة عن الطوارئ البيئية فإنَّها تضمن خصائصها الأساسية.

الوقوف على الكرة غير مستقر بطبيعته، وكلَّما كانت الكرة مصقولةً زادت صعوبة عملية الموازنة، فجعل بارمينيدس 450 - 520 (Parmenides قبل الميلاد) أساسه الكرة الكاملة.

إزالة السياق عن الأشياء الهندسية أمرٌ ممكنٌ؛ لأنَّ الشيء يبقى قيد الفحص. ولكن حينما لا يوجد شيء، فقط الفراغ، لا يمكن أن يستمرَّ الفحص. لذلك؛ يشتكي اليونانيون من أنَّ العدم غير مفهوم.

يعتقد فلاسفة شرقي الفرات بالسياق، ويتصوَّرون العدم أنَّه غياب نسبي، مثل غياب الفعل (لاوتزو) أو غياب التراكيب (بوذا) أو غياب الأرضيَّة (ناجارجونا). ويتم تعزيز نسبية الغيابات من خلال التوجُّه العملي للفلاسفة الصينيين والهنود. وللتداول، يجب أن يكون هناك خيار بين البدائل. ومن دون هذا التباين، "ماذا سأفعل؟" لا معنى له.

يُعمِّم مطلب التباين الصيني والهندي على جميع الأسئل، ويصور الباحث على أنَّه نادلة تقدِّم قائمةً من الجمل، ويُطلب من الضيف تحديد جملة صحيحة من القائمة، وفي هذا الأنموذج: "هل يمكن لطيور النحام أن تثني ركبتيها للخلف؟" أمرٌ مقنعٌ يعني "اختر جملةً حقيقيةً من البديلين التاليين: "يمكن لطيور النحام flamingoes ثني

ركبتيها للخلف"، "لا يمكن لطيور النحام ثني ركبتيها للخلف". الإجابة الصحيحة: "لا يمكن لطيور النحام ثني ركبتيها للخلف"، تدفع النادلة إلى طرح سؤال متابعة أكثر تعقيدًا: "لماذا يبدو أنَّ طيور النحام تثني ركبتيها للخلف؟"، تطلب النادلة من الضيف اختيار سبب حقيقي من قائمة التفسيرات، لحسن الحظ، طلبت النادلة من خبيرٍ يمكنه مسح التفسيرات المحتملة بسرعة، ويجد الخبير تفسيرًا صحيحًا: لأنَّ كاحلي طيور النحام تقع على "الركبة عالية" في أرجلها. تطرح النادلة سؤالًا ثالثًا: "لماذا يقف طائر النحام على ساق واحدة؟" وبغضب يجيب الخبير: لأنَّها ستسقط إذا رفعت ساقها الأخرى!

الجواب الأخير إهانة لذكاء النادلة، وجميع الأسباب المحتملة في قائمتها تستبعد استعمال النحام لقدمين، ويلين الخبير ويختار سببًا حقيقيًّا يناسب ملفه الشخصي للأسباب المقبولة: "الوقوف على ساق واحدة بدلًا من ساقين يقلِّل من فقد الحرارة عند الغمر في الماء".

الغياب المطلق يذهب دون اعتبار من الصينيين والهنود، فهم لا يسجِّلون "لا يوجد شيء" كالقواعد النحوية دون النسبية لسؤال ضمني مثل: "ماذا يوجد في الوعاء؟". لم يكن هناك إغراء لطرح سؤال في الفراغ.

وقع الفلاسفة غربي الفرات في إغراء، فالفلاسفة اليونانيون أرستقراطيون يحتقرون التطبيق العملي. وحينما يُسأل ورثة الإرث اليوناني الأسئلة الأبدية فإنَّهم لا يتصوَّرون أنفسهم كخدمٍ يرتبون بدائل لسيدهم ليختار منها.

هذا لا يعني أنَّ الإغريق أحبُّوا الفراغ. في الواقع يبدو أنَّهم يعانون من رهاب الثقوب trypophobia (من اليونانية، τρῦπα، trŷpa، التي تعني "حفرة"، و -φόβος، phó-bos، التي تعني "الخوف"). فالأجسام المُدمَّلَة تولد قشعريرة رهاب الثقوب. ويُعمِّم بارمينيدس هذا الاشمئزاز على الثقوب من جميع الأحجام، فاللاوجود أمر لا يُذكر، ولا يمكن تصوُّره، وغير مفهوم.

يرث معظم الفلاسفة الغربيون نفور آبائهم المؤسسين من العدم. وفي ميتافيزيقيا الأخلاق يصف إيمانوال كانت الأطفال غير الشرعيين بأنَّهم لا كيانات تنسلُّ إلى الوجود (Kant 1785, 109). إنَّهم ليسوا أعضاء في المجتمع الأخلاقي، لا ينبغي محاكمة الأمَّهات غير المتزوجات اللائي يقتلنهم بتهمة القتل.

أولئك في المجتمع الأخلاقي الذين يختارون الباطل على الحقيقة يحولون أنفسهم إلى لا أشخاص (Kant 1785, 182). فالكذاب لا شيء، يفتقر إلى فائدة مجرد أشياء مثل أواني الحجرة. كشخص، أنتَ تستحقُّ علاقة أنا - أنت I - Thou، لكن حينما تكذب فأنتَ لا تستحقُّ حتى علاقة أنا - هو I - It.

هناك عدد قليل من الفلاسفة الذين يحاولون إثارة التعاطف مع غير الكائنات. وتتمثَّل إحدى الاستراتيجيات في زيادة احتمالية كونك من بين أهداف كانت تلك، في كائنات غير موجودة Nonexistent Objects، يسأل تيرانس بيرسونز Terrence Parsons (1980, 218)كيف يمكنك التأكد من أنَّك لست شخصيَّةً خياليةً، أيُّ دليل تقدمه مثل: "أعتقد، إذن، أنا موجود"، يمكن أن يقدِّمه أيضًا نظير خيالي. ويحسب الآخرون المزايا النظريَّة لنمذجة الذات على أنَّها غياب (Sorensen 2007).

على الرغم من ازدراء غير الكائنات لا يمكن لكانت أن يجبر نفسه على إنكار الحركة والوقت والتعدُّدية، إنَّه مفاوض يحاول تعديل الخطِّ المتشدِّد للأب بارمينيدس ضدَّ عدم الوجود[1]. ويعود تاريخ المساومة السابقة إلى أفلاطون، إذ تصف إليزابيث أنسكومب Elizabeth Anscombe (1981, xi) الفلسَفَة الغربية بأنَّها سلسلةٌ من الهوامش على بارمينيدس. ولا يزال الفلاسفة المعاصرون مثل ستيفن مومفورد Stephen Mumford (2021) يحاولون تليين بارمينيدس!

---

(1) تتناسب هذه الحاشية مع الحذاء الزجاجي المرصوف بتعميم ألفريد نورث وايتهيد-Alfred North White head: "إنَّ التوصيف العام الأكثر أمانًا للتقليد الفلسفي الأوروبي هو أنَّه يتكوَّن من سلسلة من الهوامش لأفلاطون" (1929, 39).

كان بارمينيدس يرفض جميع حالات الخروج عن خطِّه المتشدِّد؛ لكونها تنازلات غير متماسكة. مثلًا: إذا تمكَّن بارمنيدس من رفع رأسه من هاديس Hades فإنَّه سينتقد الكتاب الذي تقرأه لكونه متناقضًا (شكل 6.1). أقول: إنَّ هرميس تريسمجيتس لم يكن موجودًا أبدًا، ولكن إلى من يشير "هرميس تريسمجيتس"؟

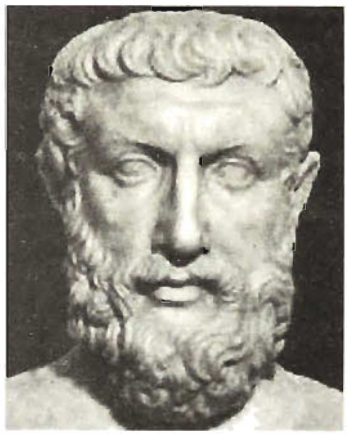

الشكل 6.1 تمثال بارمينيدس.

أنا ملتزمٌ بقول: إنَّ "هرميس تريسمجيتس" يعني شخصًا آخر غير "فياسا" Vyāsa (التي تدَّعي تسمية مؤلف مهابهارتا Mahabharata).

كيف يمكن أن تختلف هذه الأسماء في المعنى إذا لم يكن لها حامل؟ كيف يمكنني المضي قدمًا لتأكيد الهُويَّة الثلاثية: فياسا = فيدا فياسا = كريشنا دفايبايانا Vyāsa = Veda Vyāsa = Krishna Dvaipāyana؟

على عكس ثقتي بأنَّ هؤلاء الرجال غير موجودين أُقرُّ بأنَّ لاوتزو قد يكون موجودًا، لكن هذا تشتت، كيف يمكنني التعرُّف على شخص ما ثمَّ (في حالة فقدان ذاكرة واضحة لبحثي الناجح) أشكُّ في وجود الرجل المكتشف؟

يكون التناقض صارخًا حينما يستعمل إنكار الوجود ضمير إشارة مثل "ذاك" that

أو "هذا" this. لنفترض أنَّني وجّهت نظرك إلى تمثال لاوتزو العملاق عند سفح جبل تشينغيوان، ثم أصرح: "ذلك التمثال غير موجودا"، يا لها من طقوس غريبة! أولًا أؤسِّس دليل "ذلك" التوضيحي الخاص بي من خلال إظهار المرجع لك، ولكن بعد ذلك أنكر أنَّ الدليل كان هناك للإشارة إليه!

هل الاسم "لاوتزو" في "لاوتزو قد لا يكون موجودًا" يشير إلى فكرة لاوتزو؟ هذا الاستبدال العقلي يأتي بنتائج عكسية، إذا كان حامل "لاوتزو" هي فكرة "لاوتزو" فإنَّ عبارة "لاوتزو غير موجود" تصبح خاطئة؛ لأنَّ فكرة لاوتزو موجودة بالتأكيد أكثر من تمثاله!

كان بارمينيدس ينتقد أيضًا وصفي لتدمير تماثيل بوذا في باميان، الدمار والتوليد كلّ منهما يعني الغياب. تضمن الوقت الذي سبق ظهور تماثيل بوذا في باميان غياب تماثيل بوذا. والوقت بعد تدمير تماثيل بوذا في باميان يجدد هذا الغياب. وهكذا يستنتج بارمينيدس أنَّ العَدَم يأتي إلى الوجود والعَدَم يختفي من الوجود. وفي فصلي عن ناجارجونا، افترضتُ أنَّ كلَّ شيء إمَّا يتكوَّن من ذرات أو مصنوع من موادَّ لزجة (أشياء تحتوي أجزائها دائمًا على أجزاء مناسبة). وهذا يفترض إمكانية التعدُّدية، يجب أن يكون هناك شيء واحد بالضبط، وإذا كان هناك اثنان فلن يكون الشيء الآخر هو الآخر، لكن الحديث عن "عدم الوجود" هو هراء.

قصيدة بارمينيدس

على طريقة الطاويين الصينيين يقدم بارمينيدس فلسفته في الشعر. وعلى غرار البوذيين يؤمن بارمينيدس بأنَّه يجب تعليم الحقيقة من خلال تقدم أنصاف الحقيقة. وتبيَّن أنَّ واحدة من أنصاف الحقائق هذه لها تأثير الحقيقة الكاملة نفسه لبارمينيدس، لذا دعونا نقلب نقطة الانطلاق هذه ونرى ما الذي يتولد.

في دوكسا Doxa ("طريقة الظهور") يميز بارمينيدس كلَّ شيء على أنَّه مزيجٌ من الضوء والليل، وهذه صورة مختزلة بالأسود والأبيض للواقع. الفكرة الأساسية متاحة

لمشاهدي التلفزيون بالأبيض والأسود، وكلُّ شكل يتكوَّن من بكسلات pixels، البكسل إمَّا مضاء (منير) أو مطفأ (مظلم)، والتباين في مزيج الضوء والظلمة يقارب درجات اللون الرمادي. وأنموذج الظلمة - الضوء Night - Light للواقع يفتِر الواقع بأنَّه ثنائي.

تخلق شاشة التلفزيون وهمًا بالحركة من خلال تسلسل سريع للصور الثابتة، ويتيح ذلك تفسيرًا حرفيًّا لقول تشوانغ تزو Chuang Tzu المأثور: "ظِل طائر يطير لم يتحرك أبدًا". وعلى حسب مو تزو Mo Tzu (300 قبل الميلاد) لا يمكن لأيِّ ظلٍّ أن يتحرَّك، فالظلال موجودة فقط للحظة، وهي لا تستمرُّ عبر الزمن، يستمر الطائر بمرور الوقت لأنَّ إحدى مراحل الطائر تسبب المرحلة التالية، والظلال تفتقر إلى هذه السببية الجوهرية، فبدلًا من أن تؤدِّي إحدى المراحل إلى تشغيل المرحلة التالية فإنَّ المراحل هي تأثيرات لأشياء أخرى. وعلى وجه التحديد، يفتِر الطائر والشمس تسلسل مراحل الظل، وتفشل دراسة الظل نفسه في الوصول إلى السبب الجذري للحركة الظاهرة. وفي الواقع، التركيز على التاريخ الداخلي للظلِّ سيجعل الظلَّ يبدو بصفة كيان سحري يستمر في الحركة على الرغم من الاصطدام بالجدران.

نميل إلى أن نكون سطحيين في تفسيراتنا، إذ نعتقد أنَّ العيون الزُّرقَ للوالدين تفسر العيون الزرق للأطفال، ولكن إذا تمَّت إزالة عيون الوالدين فسيستمرون في إنجاب الأطفال ذوي العيون الزرق، والعيون الزرق للوالدين هي ظلال للسبب الحقيقي للأطفال ذوي العيون الزرق.

تنبَّأ بارمينيدس بشكِّه المطلق بشأن الحركة من خلال نصف الحقيقة لنموذج الظلمة - الضوء، ونموذجه ليس صورةً ثنائيةً للواقع، حيث يوجد نوعان من الأشياء (مثل الأفكار والأجسام). الظلمة هي مجرد غياب الضوء، وقد يبدو السواد إيجابيًّا مثل الضوء، لكنَّ السواد هو مجرَّد تأثير متباين. وتبدو الأجزاء غير المضاءة من شاشة التلفزيون سوداء؛ بسبب التباين مع الضوء، وعند إيقاف تشغيلها تكون الشاشة رماديةً باهتةً وليست سوداء. ولا تحتاج البكسلات غير المضاءة إلى أن تكون ماصَّةً للضوء مثل

الحبر الأسود.

حينما يتم اختراع تقنية جديدة يتم سكب النبيذ التناظري القديم في زجاجة رقمية جديدة. نتحدَّث الآن عن الكمبيوتر الذي يمثِّل العالم في الآحاد والأصفار. ونظرًا لأنَّ المخطط المفاهيمي غنيٌّ بما يكفي لتمثيل الواقع بالكامل فإنَّنا نتساءل عمَّا إذا كان الواقع نفسه أكثر من آحاد وأصفار (نقاط في المكان إمَّا مشغولة أو فارغة)، وربَّما كلُّ ما نختبره حاليًا هو محاكاة الكمبيوترا

ضاع شيئان في هذه الترجمات الحديثة لأنموذج الظلمة - الضوء: أولًا، الأنموذج اليوناني المبكر روحاني. وثانيًا، الأنموذج المبكر لم يفصل بعد بين الفنِّ والعلم. ولإحياء هذا المنظور القديم نحتاج إلى تنحية شاشات التلفزيون وأجهزة الكمبيوتر جانبًا، ووضع أنفسنا في مكان الأشخاص الذين حاولوا فهم الواقع من حيث التشابه الطبيعي.

النفوس كظِلال

كلُّ صبيٍّ يدهشه الشبه بين جسده وظله، وتشابه ظلِّه يجعل الازدواج المظلم بعيد المنال بشكل منهجي، ولكنَّه حميمي. فظِلُّ الصبي دائمًا ما يلتصق بجسده ومع ذلك يتراجع دائمًا عند ملاحقته. وعلى عكس قوس قزح المنحسِر ظلُّه يمكن لمسه بطريقة بلا إحساسٍ كما يلمس التمثال الأرض التي يقف عليها. ولأنَّه حجم ثلاثي الأبعاد، الظلُّ مرتبط بجسد الصبي، ووجوده طفيلي على وجوده، وإذا ذهب جسده من الوجود فكذلك ظلّ جسده.

على الرغم من هذا الاتصال المستمر لا يمكن للصبي أن يحتضن ظلَّه، فعلى عكس المادَّة الفيزيائية لا يقدِّم ظله مقاومةً للاختراق.

في اليونانية القديمة، يتم تعريف الإيدولون "eidolon" بأنَّه "أيُّ شكل غير مادي؛ الصورة المنعكسة في المرآة أو الماء؛ صورة في العقل، فكرة، شبح العقل، خيال" (Liddell and Scott 1968). ويطبق هومر Homer أيضًا "الإيدولون" على الأشباح مثل

باتروكلس Patroclus الميّت الذي يزور أخيل Achilles النائم، إذ يعيش الموتى في عالم سفلي غامض صامت، يتجولون بلا فتورٍ. بعد انضمام أخيل إلى باتروكلس يقطر أوديسيوس Odysseus الدم القرباني لترطيب شفتي ظل أخيل، ويجيب أخيل:

لا تتكلَّم بسلاسة عن الموت، أتوسَّل يا أوديسيوس الشهير! من الأفضل بكثير أن تبقى على الأرض عبودية للآخر، ... بدلًا من أن يحكم الملك الوحيد في عالم الأشباح عديمة الجسم.(Homer 1911, ll. 488 - 491)

يبقى الموتى على قيد الحياة ولكن في حالة ضعيفة، لدرجة أنَّهم يحسدون الأحياء.

بالنسبة إلى الناس المعاصرين فإنَّ عمومية "eidolon" تثير الدهشة، إذ تُعدُّ الانعكاسات والظلال بالنسبة إلينا ظواهر بصرية، بينما الأحلام والهلوسة نفسية، وبالنسبة إلى القدماء المضاعفة doubling هي الجوهر الذي يجمع الظواهر معًا. والمصطلح اليوناني "skia" يغطِّي الظل، "انعكاس، صورة، ظلّ ميت، شبح" (Liddell and Scott 1968).

يمتدُّ الاعتراف بهذا التأثير المضاعف عبر ثقافات متنوِّعة، حتى بعض ثقافات القرن العشرين. ويفيد عالم الإثنولوجيا الفنلندي أونو هارفا Uno Harva بذلك:

روى شامان لابيش، عند استيقاظه من نشوته، أنَّه "تحت الأرض يوجد شعب يسير بأقدامه ضدَّنا". وإذا اعتقد المرء أنَّ المناظر الطبيعية الجوفية، بغاباتها وجبالها وأنهارها وبحيراتها، تعكس نقطة نقطة في العالم أعلاه؛ فمن الواضح أنَّ العالم الآخر هو بالنتيجة صورةٌ معكوسةٌ للعالم الأرضي. لقد أوضحتُ في إحدى دراساتي أنَّ الخصائص المميزة للعالم السفلي يبدو أنَّها تستند في الأصل إلى تجارب الانعكاس في الماء. من المحتمل أيضًا أنَّ المفهوم القائل بأنَّ عالم الموتى "بالأسفل" وخلف الماء يعتمد على هذا. (Harva 1933/38, 349)

عوالم الروح مقلوبة، الفوق أسفل والأسفل أعلى، اليسار واليمين معكوسان، والصيف شتاء، والأنهار تتدفق في المنبع، ويرث المسرح هذا الانعكاس، ويشار إلى الممثلين

بالظلال. وتتمنى حظ ممثل من خلال تمني له سوء الحظ ("كسر ساقه").

كان الإغريق القدماء على دراية بهذا الانعكاس، وفي الكتاب الثاني من الجمهورية (2.359a - 2.360d)، يتكيَّف أفلاطون مع أسطورة جيج Myth of Gyges لبيندر Pin-der، حيث يجعل الخاتم حامله غير مرئي عند عكسه. وكُتبت ألواح اللعنة في عصر أفلاطون بشكل منعكس. وأدَّت أرقام المقابر في أواخر العصر اليوناني إلى عكس أجزاء من الجسم.

من الغريب أنَّ الإغريق الفضوليين لم يسألوا أبدًا عن الظلِّ المُلقى على الحائط: "لماذا انعكس ظلي من اليسار إلى اليمين ولكن ليس من أعلى إلى أسفل؟" لاحظوا أنَّ الانعكاس في الملعقة المقعرة يفشل في عكس اتجاه اليمين واليسار. لكنَّهم لم يناقشوا الشذوذ الأصلي للانعكاس على سطح مستوٍ. وربما خلقت الحالة الخارقة للظلال والانعكاسات تعليقاً لعدم التصديق.

في جميع الثقافات، الغالبية العظمى من الناس يستعملون اليد اليمنى، يؤدِّي هذا إلى الطابع الثقافي العالمي الذي يَعدُّ استعمال اليد اليمنى أمرًا جيدًا، واستعمال اليد اليسرى يعدُّ أمرًا سيئًا. وإذا كنتَ لا تستطيع التمييز بين اليسار واليمين، فلا يمكنك التمييز بين الصواب والخطأ! ونظرًا لأنَّ ظلال الأشخاص الذين يستعملون اليد اليمنى تبدو عسراء فإنَّ الظلال تكتسب سمعة شريرة. فالأشخاص الذين يشبهون الظلال بكونهم عسرًا يُشتبه في أنَّهم أرواح تتشكَّل من لحم. ويتم وصف اليساريين بعبارات ازدراء غير طبيعية: شرير، غشَّاش، أخرق.

لأنَّ الأرواح مرتبطة بالظلال، فإنَّها تهيمن مع ظلام الموسم. وفي التقويم السلتي يتم تمييز النصف المظلم من العام بليلة 1 نوفمبر (عيد الهالوين) ويمتدُّ حتى يوم مايو. وتم حرق سجلَّات عيد الميلاد في الانقلاب الشتوي لمواجهة الظلام القاتم.

نظرًا لأنَّ أيَّ شيء مادي يلقي بظلاله يمكن أن يكون لأيِّ كائن روح. وكالظلال، تتحرك الأرواح بحماقة غير طبيعية وفي تحدٍّ لقوانين الطبيعة. وتحت القمر الكامل يمكن أن

تجعل الظلال الملقاة من الأشجار في ليلة عاصفة مضطربة الأرض متموجة. والمسافر يفرط في التصحيح ويفقد توازنه.

تنجذب الأرواح إلى أيِّ شيءٍ من الشكل الأصلي نفسه. ثمَّ يتم تحذيرك من إلقاء انعكاسك في جسم مائي. ويمكن احتواء أرواح الموتى والحفاظ عليها بتماثيل شبيهة، وشكل التحنيط شكَّل المنزل الأساسي للروح. ومع ذلك، قدَّم المصريون أيضًا تماثيل احتياطية، ومنذ أن تم إحياء التماثيل من طريق التنفس حطَّمَ لصوص القبور الأنوف "لقتل" التمثال.

باختصار، سكن بارمينيدس ثقافة يكون فيها الظلام نوعًا روحيًّا من اللاوجود، والجانب المظلم هو عالم مزدوج يطارد الواقع الإيجابي، فالهدف النهائي لبارمينيدس هو طرد الأرواح الشريرة الميتافيزيقية.

غياب الوسطاء

على حسب أنموذج الظلمة - الضوء فإنَّ الواقع الأساسي هو ازدواجية الوجود والغياب، وظهور التدرج وعدم التحديد وهم. الشعر الرمادي ليس له شعر رمادي، كلُّ شعرة إمَّا سوداء أو بيضاء.

إذا نظرنا إلى المظهر فلا داعي لعَدِّ الأشياء أي شيء أكثر من مزيج من الضوء والظلام. ومع تغيُّر أنماط الضوء تنسلُّ الأشكال إلى الوجود وتنمو وتتحرَّك عبر المكان وتتقلَّص وتهرب من عالم الوجود. أو - على أيِّ حال - هناك وهم مقنع بأنَّ هناك شخصيات تخوض هذه المغامرات.

وفي الواقع، لا يوجد سوى نمط متغير من الضوء والظلام.
ولكن بما إنَّ كل الأشياء قد سُمِّيت بالضوء والظلمة
وهذه بحسب سلطاتها [تُمنح] لهذه الأشياء وهذه،
ثمَّ الكل مليء بالضوء وغموض الظلمة معًا،

كلاهما متساوٍ، حيث العَدَم لا ينتمي إلى أيّ منهما (Doxa, Fragment B9, in Curd 2002, 142).

تمامًا كما إنَّ كلَّ تمثيل على الشاشة بالأبيض والأسود هو مزيج من الضوء والظلمة فإنَّ كلَّ كائن هو مزيج من الوجود والعدم.

سيقول سبينوزا Spinoza لاحقًا أنَّ كلَّ تحديد هو نفي، فالوردة حمراء؛ لأنَّها لون ليس برتقاليًّا أو أصفر أو أخضر أو أزرق أو نيليًّا أو بنفسجيًّا. وعلى حسب هيجل Hegel: "ليس في السماء ولا على الأرض أي شيء لا يحتوي على كلٍّ من الوجود والعدم" (1929، 97).

يعالج أنموذج الظلمة - الضوء للواقع مشكلتين تتعلَّقان بالتغيير، وعلى حسب "طريقة الظهور" تظهر الأشياء وتخرج إلى الوجود. ومع ذلك فمن المستحيل أن ينشأ شيء من العدم، ومن المستحيل أيضًا أن يختفي شيء ما إلى العَدَم، لا يمكن للأشياء أن تظهر إلى الوجود إلَّا من أشياء أخرى، وقد يكون لهذه المكونات نفسها مكونات، وفي النهاية يجب أن تكون هناك طبقة أساسية من الوجود لا يمكنها الدخول إلى الوجود أو الخروج منه.

يوسِّع بارمينيدس أنموذج الظلمة - الضوء إلى المجال العقلي، فكرُ الرجل هو نسبة الضوء والظلمة في جسده. ومع النوم كما في الموت (والشيخوخة) تتغيَّر هذه النسبة في اتجاه الظلمة.

فبحسب ما تسود السخونة أو البرودة يتفاوت الفهم، فالأفضل والأكثر نقاءً ينبع من السخونة. ولكنَّه [بارمنيدس] ينسب أيضًا الإحساس إلى العنصر المقابل في حدِّ ذاته، وهذا واضح من قوله إنَّ الرجل الميِّت لن يرى الضوء والحرارة والصوت بسبب فقد النار، لكنَّه سيرى البرد والصمت والأضداد الأخرى. وبشكل عامٍ، كلّ كائن لديه حصَّة من الفكر. (Theophrastus, De Sensu 3 - 4, trans. John Mansley Robinson).

يستمرُّ الموتى في الإدراك، بشكلٍ أقلَّ وضوحًا، وإدراك الظلام والبرد والصمت هي تصوُّرات لما هو موجود وليست تجربةً لما هو ليس كذلك، فالغياب هو في نهاية

منخفضة من التسلسل الهرمي للوجود.

يختزل أنموذج الظلمة - الضوء كلَّ شيء إلى الضوء والظلمة، فالظلمة هي غياب الضوء، لكنَّ الغياب ليس هو الحال، ما ليس هو الحال لا يمكن أن يُوجد، وهكذا، فإنَّ الظلمة تقوم على تناقض. أنموذج الظلمة - الضوء هو تعليم متوسط ، تمهيد للحقيقة الكاملة.

يقدم بارمينيدس الأنموذج بشكل أكثر وضوحًا في مقدِّمته (مقدِّمة لقصيدة)، ويصف رحلة الشاب من الظلام إلى النور. فتحت رعاية بنات الشمس، يُحمل الشاب في عربة إلى معبد الآلهة. وتُكمِل القصيدة. تخبره الآلهة أنَّه يجب أن يتعلَّم كلَّ الأشياء، حتى آراء الرجال غير الموثوقة؛ لأنَّها تمثِّل جانبًا من جوانب الحقيقة الكاملة.

الوجود المتقطّع

يقول الجغرافيون إنَّ "الجداول المتقطِّعة" تغذِّي نهر إيفروتاس في جنوب اليونان، وتأتي وتختفي مع المواسم، لكن إلى أين تذهب حينما تخرج من الوجود؟ تتدفَّق بعض مياهها من نهر إيفروتاس إلى البحر الأبيض المتوسط، ويتبخَّر بعضها إلى السحب، ويُدمج بعضها في الكائنات الحيَّة. ولكن إلى أين تذهب التيَّارات سريعة الزوال خلال فترات عدم وجودها؟

لإصلاح الجدار الحجري المائل للسَلَف، يمكنك تفكيكه لإعادة البناء في المستقبل. إذا اختفى الجدار من الوجود فإنَّ ذلك سيعرقل أيَّ جهود لإصلاح جدار السَلَف! أفضل ما يمكنك فعله هو تفكيك بقايا الجدار لإنشاء جدار جديد، فإن توجد يعني أن توجد بشكل مستمرٍ. لذلك؛ لا يمكن أن يكون هناك تناسخ، ولا يمكن أن تكون هناك قيامة.

قد توافق على أنَّه بمجرَّد خروج شيء ما من الوجود يجب أن يبقى خارجًا، لكن بارمينيدس أيضًا يتحدَّى الافتراض القائل بأنَّ شيئًا ما يمكن أن يختفي من الوجود،

فمتى يتم إجراء هذا الانتقال؟ ليس في أثناء وجوده؛ لأنَّه لا يزال موجودًا. وليس حينما لا يكون موجودًا. إذن فقد انتهى الوجود بالفعل، ومن ثَمَّ لا يمكن أن يخضع لأية تغييرات. ونظرًا لعدم وجود نقطة يمكن فيها للشيء أن ينتقل من الوجود إلى اللاوجود فإنَّ التدمير مستحيل.

وينطبق الشيء نفسه على الانتقال من اللاوجود إلى الوجود، إذا كان هناك شيء غير موجود فلا يمكن أن تكون له أية خصائص، ومن ثَمَّ لا يمكن أن يخضع لأيِّ تغيير في الخصائص.

التطبيق على إطار الأشياء

بعد تطبيق مبدئه الثوري على الأشياء في المكان والزمان، وسَّعه بارمينيدس إلى إطار المكان والزمان نفسه. يتكوَّن الوقت من ثلاثة أجزاء: الماضي، والحاضر، والمستقبل. لا يمكن أن تتداخل، بيْدَ أنَّ أيَّ اختلاف من وقتٍ لآخر قد ينطوي على بعض الحالات السابقة التي خرجت من الوجود، وبعض الحالات اللاحقة التي جاءت إلى الوجود. لكن بارمينيدس قد أظهر بالفعل أنَّ مثل هذه التحوُّلات لا يمكن أن تحدث، ومن ثَمَّ فإنَّ الوقت غير واقعي.

التغيير يتطلَّب وقتًا؛ لأنَّه يجب أن يكون هناك قبل وبعد. لذا؛ فإنَّ التغيير هو أيضًا وهم. وهذا يشمل الحركة كحالة خاصَّة تنطوي على تغيير في المكان. ويستمدُّ بارمينيدس بعض الصعوبات الخاصَّة من نتائج عمله حول المكان والزمان، إذ تتطلَّب الحركة أن يخترق المحرِّك مكانًا فارغًا، لكنَّ الفراغ هو نوعٌ من اللاوجود. وتتطلَّب الحركة أيضًا اختلافات زمنية، وقد طمست هذه بالفعل.

تنبع اعتراضات بارمينيدس على الحركة من اكتشافاته حول النفي، إذ كَوَّنَ تلاميذه مجموعةً ثانيةً من الحجج القائمة على اللانهاية، التي تُعرف الآن باسم مفارقات زينو.

ضد التعدُّدية

إنَّ الانتيميم enthymeme هو حجَّة ذات مقدِّمة أو استنتاج غير مذكور، ويبدو أنَّ حجَّة بارمنيدس ضدَّ التعدُّدية هي أنتيميم لا تقدِّم سوى الاستنتاج! إنَّه يشبه جغرافيًّا خجولًا يستنتج ببراعة استنتاجًا ويتركه للقرَّاء لاكتشاف مقدِّماته. والقرائن هي مجموعة متنوِّعة من المقدمات المحتملة. والأطروحات التي ادَّعى بارمينيدس أنَّها منجزة بالفعل واسعة بحيث يمكن توظيف الكثير منها.

مثلًا، قد يستعمل المرء نتيجة استحالة بارمنيدس ضد المكان الفارغ: افترض، من أجل التناقض أنَّ هناك كائنين متميّزين هيلين وكليتمنيسترا، ويجب أن يكون هناك شيء ما يفصل الزوج عن بعضهما الآخر. والشيء الوحيد الذي يمكن أن يفصل بين هيلين وكليتمنسترا هو مكان فارغ، لكنَّ بارمينيدس أثبت بالفعل استحالة وجود مكان فارغ. لذلك؛ يجب أن يتَّحد الكائنان "الاثنان" في كائنٍ واحدٍ.

حجَّة أخرى ضدَّ التعدُّدية تستغلُّ حقيقة أنَّ إنكار الهُويَّة يعني إنكار الوجود. مثلًا، تعني عبارة "سيدهارتا ليس ناجارجونا" أنَّ "حقيقة أنَّ سيدهارتا هو ناجارجونا غير موجود»، لكن بارمينيدس قد أظهر بالفعل أنَّ إنكار الوجود لا يمكن أن يكون صحيحًا. لذلك؛ لا يمكن أن يكون هناك أكثر من شيء واحد.

المنطق نفسه يستبعد الاختلافات في الخصائص. افترض أنَّ هناك فرقًا بين سيدهارتا وناجارجونا، وهذا يعني أنَّه لا بدَّ من وجود بعض الخصائص، مثل الهدوء، بحيث يكون سيدهارتا هادئًا وناجارجونا ليس هادئًا. ولكن حينما تقول إنَّ ناجارجونا ليس هادئًا فأنتَ تقول إنَّ هدوء ناجارجونا غير موجود. وإذا كان صحيحًا أنَّ أيَّة خاصية تمتلكها x تمتلكها y أيضًا فيجب أن تكون x مطابقة لـy . ونظرًا لأنَّ هذا ينطبق على أيِّ x وأيِّ y فإنَّ كلَّ شيء مماثل لـx . وهذا x الوحيد هو كلُّ ما هو موجود. ونظرًا لمهمَّة جرد كلِّ شيء ينتهي بارمينيدس بسرعة: واحد وتم!

7. أناكساجوراس: غياب الغيابات الكليَّة

الإغريق مخطئون في قبولهم القِدَم والهلاك؛ لأنَّه لا يوجد شيء يأتي ولا يهلك، لكنَّهما يختلطان معًا من الأشياء الموجودة ويفصلان عن بعضهما الآخر. ولذا؛ سيكونان على حقٍّ في ادِّعاء الاختلاط معًا، والفناء والانفصال عن بعضهما الآخر.

(Anaxagoras, Fragment 17)

قبل بارمينيدس، وسم طاليس ميليتس Thales of Miletus (المولود في 620 قبل الميلاد) الفلسَفَة اليونانية بكونها اختزالية. فبدلًا من شرح الغريب (الزلازل) بلغة الغريب (بوسيدون الغاضب يختم الأرض)، فسَّر طاليس الغريب من حيث المألوف (اصطدام الأجسام المنجرفة). فالتفسير هو الاختزال، وكلُّ شيءٍ قابل للتفسير، لذلك؛ كلُّ شيء قابل للاختزال إلى شيءٍ ما. وبالنسبة إلى طاليس، هذا الشيء هو الماء.

أناكساجوراس Anaxagoras (وُلد نحو 500 - 480 قبل الميلاد، وتُوفي 428 قبل الميلاد) يواصل برنامج طاليس لإزالة الغموض. ويقول أناكساجوراس - الذي يرفض "تفسيرات" خارقة للطبيعة - إنَّ خسوف القمر ما هو إلَّا حجبٌ للضوء عن الأرض، فضوء القمر ليس سوى ضوء الشمس (يعكسه القمر)، وضوء الشمس ليس سوى ضوء ناري. وبدلًا من أن تكون الشمس إلهية فهي مجرَّد صخرة نارية، والأرض عبارة عن مزيج من الصخور والماء وأشياء أخرى مألوفة. ويُظهر الظلُّ الذي ألقته الأرض في أثناء خسوف القمر أنَّ الأرض مستديرة. ويبدو أنَّ هذا يتناقض مع كون الأرض مسطحة، لكنَّ أناكساجوراس صمَّم مستوطنة: الأرض عبارة عن أسطوانة مقرفصة: قرص.

أُجبِرَ أناكساجوراس على حلٍّ وسط أكثر إبداعًا من خلال اعتراض بارمينيدس على أنَّ "كسوف الشمس ليس سوى قمر مظلل" يربط طاليس بعدم وجوده، إذ يقول طاليس

إنَّ كسوف الشمس ليس الشمس التي أغمق عليها الغضب، وليست الشمس التي تلتهم تنينًا، وليس هذا، وليس ذلك.

فضلًا عن تحدي تماسك الغائب الذي أصبح حاضرًا، جعل بارمينيدس أناكساجوراس حسَّاسًا لاحتمال أن تكون الأحادية الاختزالية خاطئة. "كلُّ شيء يمكن اختزاله إلى شيء" لا يستلزم وجود شيء واحد يمكن اختزال كلّ شيء إليه. وفي النهاية، "كلُّ شخص ينحدر من أب" لا يعني أن هناك أبًا ينحدر منه الجميع.

حلّ وسط أناكساجوراس الرئيس هو أنَّ كلَّ شيء يُختزل في كلِّ شيء، فكلُّ شيء يتكوَّن من كلِّ نوعٍ من الأشياء، وإن كان بكميَّات ضئيلة. والتغيير دائمًا كميٌّ وليس نوعيًّا أبدًا، فالتغيير هو مسألة زيادة حصَّة من شيء كان موجودًا بالفعل، إذ تنمو بلورات الملح من طريق جذب الملح من مياه البحر، ويتقلَّص البلور إلى مياه عذبة من طريق الانحلال، فالتغيير يخضع لقانون نوعي للحفظ. لا توجد أنواع جديدة من الأشياء، ولا أنواع جديدة تخرج من الوجود، والأنواع لا يمكن أن تنقرض!

الهواء والعدم

أسطوانة مملوءة بالماء بالكامل، كيف تفرغ نصف الأسطوانة بالضبط؟ (لا يُسمح بأدوات قياس إضافية)!

حلٌّ هندسي: صب حتى يتلامس سطح الماء مع القاع أولًا، إذ يمثِّل خطّ الماء للأسطوانة المائلة الآن نصف حجم الأسطوانة (الشكل 7.1)

شكل 7.1 أسطوانة ماء مائلة وغير مائلة.

اللغز الثاني: هل نصف الأسطوانة مملوء بالماء أم نصفه فارغ؟

بصفته أحاديًّا بالنسبة إلى المياه يلتزم طاليس بإجابة مفاجئة: الأسطوانة نصف ممتلئة بالماء؛ في الواقع، لا تزال الأسطوانة مليئة بالماء! كان بارمينيدس - على أسس منطقية بحتة - يتحدَّى الافتراض المسبق للغز القائل بوجود فراغ.

تبدو الأطروحة القائلة بأنَّ نصف الكوب الفارغ مليءٌ بالماء خاطئة تمامًا، تستطيع أن ترى الفراغ فوق خط الماء!

يمكن أن يترك أناكساجوراس لبارمينيدس التحدُّث عن هذه النقطة: الرؤية تتطلَّب شيئًا للنظر إليه، وإذا لم يكن هناك شيء فأنت لا ترى، أنتَ تهلوس[1].

ومع ذلك، فإنَّ أناكساجوراس يميل إلى الحسِّ السليم في التفكير في رؤية شيء ما، فعلى الرغم من أنَّ هذا الكائن المرئي لا يمكن أن يكون شيئًا، فإنَّه يمكن أن يكون هواء.

(1) يتفق علماء الفيزياء المعاصرون مع بارمينيدس حول استحالة رؤية أيِّ شيء. وإنَّ «فراغ» الفيزيائي مليء بالجسيمات الافتراضية. وأيُّ تقريب لكلمة «العَدَم» من شأنه أن يخفض الضغط ويجعل الماء يغلي.

يرفض الحسّ السليم حلَّ أناكساجوراس لكونه تمييزًا من دون فرق: الهواء هو العَدَم، فلوزن شيء ما على الميزان يجب أن تضيف شيئًا إلى الكفَّة، وإذا لم يكن هناك شيء في كفَّة الميزان فأنت لا تزن[1].

افترض الفلاسفة الفيثاغوريون أنَّ الهواء ليس شيئًا في قصَّة خلقهم، فكانوا يعتقدون أنَّ العالم قد نشأ من فراغ، وكان عالمنا ينفث من فراغٍ خارج الكون: خزان لا نهائي من الهواء.

قصَّة الخلق غير مكتملة إذا كانت إجابتها "لماذا يوجد شيء بدلًا من العَدَم؟" يتطلَّب شيئًا آخر قبل الخلق. وتكمن المشكلة في شرح كيف أتى شيء ما من العَدَم على الإطلاق. وإذا كان الهواء حقًّا العَدَم وكان الهواء هو واهب الحياة فيمكننا إذن أن نتنفَّس إلى الوجود. والفكرة مدمجة في قصة الخلق التوراتية. وبعد أن خلق العالم من العدم أعطى الإله نسمة الحياة لآدم. ولا يزال صدى الفكرة يتردَّد. فحينما يسقط مسافر شتوي عبر سطح بحيرة متجمدة تكون الجيوب الهوائية المتكوّنة أسفل الجليد مؤثرة، وتحافظ الفقاعات على النفس الأخير للمسافر الغارق، ومع ذوبان الجليد في الربيع تكمل بقايا الحياة هذه العودة إلى العدم.

تجارب أناكساجوراس

مع ذلك، هناك ظواهر لافتة للنظر تشير إلى أنَّ الهواء شيء وليس عدمًا، لكن إذا أغلقت الأنبوب فسيخترق الأنبوبا أحد التفسيرات هو أنَّ الهواء المضغوط يجعل الأنبوب صلبًا.

---

(1) في الواقع، يزن الهواء نحو كيلوغرام واحد لكلِّ مترٍ مكعَّبا ولكنَّ الأمر الأكثر إثارةً للدهشة هو أنَّ الهواء الرطب يزن أقلَّ من الهواء الجافا تزاحم جزيئات الماء الخفيف جزيئات النيتروجين والأكسجين الأثقل التي يتكوَّن منها الهواء.

يروي أناكساجوراس دليلًا آخر على أنَّ الهواء يختلف عن العدم: اقلب كوبًا "فارغًا" في وعاء من الماء، الماء لا يدخل الكوب "الفارغ" حتى حينما يكون الكوب نصف مغمور، والتفسير: الهواء قاوم الماء، والتأكيد: اثقب الكأس المقلوب. يفرز الهواء من خلال الفتحة، ويمكن الشعور بالنسيم الخفيف حينما يتم دفع الهواء للخارج بفعل ارتفاع المياه.

الهواء قوي، الرياح تطيح بالأشجار، اعتقد أناكساجوراس أنَّ الأرض التي على شكل قرص يتم رفعها عاليًا بواسطة الرياح المتصاعدة من تحتها. والزلازل هي عبارة عن رشقات متقطِّعة من الهواء تنبثق من تحت الأرض إلى السطح.

ينكر أناكساجوراس - مثل طاليس - إمكانية إفراغ أي حاوي،. ولا يمكن إلَّا أن يكون هناك استبدال لشيء بآخر.

بالنسبة إلى طاليس، السكب هو تبادل أشكال مختلفة من الماء، وحينما يتم تسخين كوب من الثلج يصبح الزجاج نصف فارغ من الثلج. لكن هذا يعني أنَّ النصف المتبقي من الماء قد تحول من ماء صلب إلى ماء سائل. وحينما يغلي الماء يصبح الماء السائل بخارًا، ويتضح وجود الماء في الهواء من خلال التكثيف.

يعتقد أناكساجوراس أنَّ طاليس يبالغ في مرونة الماء، فعلى الرغم من أنَّ الماء يمكن أن يتحوَّل إلى أشياء كثيرة، لا يمكن أن يتحوَّل الماء إلى نارٍ أو نجوم، فيجب أن يكون هناك أكثر من نوعٍ واحدٍ من الأشياء.

أناكساجوراس يوافق على حظر طاليس للتحويل، والطريقة الوحيدة للحصول على شيء من نوعٍ واحدٍ هي البدء بعيّنة صغيرة من هذا النوع.

يستنتج أناكساجوراس أنَّ كلَّ شيء يحتوي على القليل من كلِّ شيء، فالهواء الموجود في النصف العلوي من الكوب ليس خاليًا من الماء. هناك فقط غلبة منخفضة للمياه، ويحتوي الهواء أيضًا على بعض اللحم، وبعض الذهب، وبعض الشمع، وقليلًا من كلِّ نوعٍ من الأشياء.

الميتافيزيقيا المنوية

قطرة من السائل المنوي تحتوي على جميع المكوّنات اللازمة لتكوين الابن. ويصير هذا الابن رجلًا لديه نطفة. لذلك؛ يجب أن يحتوي السائل المنوي للأب على نطفة ابنه، وحفيده، وهكذا، إلى ما لا نهاية.

يجب أن يكون هناك ما يكفي من السائل المنوي داخل السائل المنوي لتكاثر عددٍ غير محدود من الأجيال، كلُّ رجل يتكوَّن من رجل أصغر، كل رجل رجال.

أناكساجوراس هو والد التفسير التصغيري، كيف ترى؟ هناك رجلٌ صغيرٌ خلف عينك ينظر من خلال عينك، كيف يرى ذلك الرجل الصغير؟ هناك رجل أصغر حجمًا ينظر من عين الرجل الصغير. سيكون هذا التفسير دائريًّا إذا كان هناك عدد محدود من الرجال الصغار، وهذا هو السبب في أنَّ أناكساجوراس يفترض عددًا لا نهائيًّا من الرجال الصغار.

الرجل هو مجرَّد تكوين للأشياء تسود فيه المكونات البشرية، ويحتوي السائل المنوي أيضًا على كلِّ ما يلزم لجعل نقيضه: امرأة.

إذا سقط السائل المنوي للرجل على الأرض يمكن للنبات أن يمتصه. لذلك؛ يجب أن يحتوي السائل المنوي أيضًا على نباتات، أو على الأقل مكوّنات صنع النباتات. السائل المنوي للرجل هو صورة مصغرة، كلُّ قطرة تعكس كلَّ شيء في الكون، الكون، بدوره، هو عالم كبير يعكس كلَّ شيء بداخله.

السائل المنوي هو مجرَّد تفسير واضح بشكلٍ خاصٍ لعبارة "الكلُّ في الكلِّ" ويوضح الحليب أيضًا المبدأ (على الرغم من أنَّ الحليب يفشل في تمثيل جانب المنشأ)، فالطفل لا يدمر الحليب الذي يشربه، ينفصل الحليب إلى مكوّنات تشكّل العظام والجلد والأعضاء الأخرى. العَدَم يمكن تدميره.

اعتقد أناكساجوراس أنَّ كُل واحد منَّا يشارك في شيء غير مادي، النوس "Nous"، وهو ذكاء منظم. وهذا العقل الكوني يجعل كلَّ الأشياء المادية تدور، فالقطع الأخف

وزنًا تدور في المحيط، وتتجمَّع كتل ثقيلة في المركز، ومن ثَمَّ تكون الأرض، هذا هو طريق التدوير.

سيطرة النوس على المادة هي مثل سيطرة عقلك على جسدك، فحينما ترفع قدمك ترتفع قدمك بسبب نيتك. ومع ذلك، فإنَّ العمل هو أكثر من مجرد حركة جسدية داخلية، فحينما تجلس وإحدى ساقيك متقاطعة على الرجل الأخرى فإنَّ قدمك العلوية تتأرجح مع دقات قلبك، وظلّ القدم على القلب هو مجرد سلوك، والنوس لا يحجب أيَّ شيء.

أدَّت حداثة إدخال ذكاء غير مادي في صورة طاليس المادية للكون إلى حصول أناكساجوراس على لقب "سيد العقل". ويهيِّئ النوس علماء الطبيعة إلى حجَّة تصميم الإله، فإذا وجدت صفيحة مستديرة على الشاطئ فمن المحتمل أن تكون قد تشكَّلت بالصدفة مثل صفيحة من الصخر الزيتي، ولكن من المعقول أكثر أنَ نستنتج أنَّ اللوحة قد صُمِّمت. والأمر نفسه ينطبق على المحار الموجود في الرمال. ونظرًا لأنَّ التكوينات الطبيعية تتوسَّع إلى أجلٍ غير مسمَّى فهناك تصميمٌ كبيرٌ لكلِّ شيء.

باختصار، يجب أن يوجه توزيع الأشياء المادية بمعزل عن الكتلة الدوامة للأشياء، والنوس وحده طاهر. كلُّ شيء آخر نجس، ونجس على طول الطريق.

المادة اللزجة اليونانية

داخل العالم المادي، يمكن لأيِّ شيء أن يتحوَّل إلى أيِّ شيء. لذلك؛ يجب أن يكون كلُّ شيء انعكاسًا مصغَّرًا لكلِّ شيء آخر. وقد استمرَّ هذا الانعكاس القديم في الهندسة الكسورية لبينوا ب. ماندلبرويت (1924 - 2010) Benoit B. Mandelbroit، فحينما سُئل عن معنى الحرف الأول الأوسط B أجاب عالم رياضيات: Benoit B. Mandelbroit.

حينما تحلِّل شيئًا إلى أجزاء لا تصل أبدًا إلى عيِّنة نقية من أيِّ شيء، فكلُّ شيء عبارةٌ عن خليط من المخاليط، والتسلسل الهرمي لا قعر له.

فضلًا عن ذلك، التسلسل الهرمي لأناكساجوراس بلا غطاءٍ، لا يوجد شيء أكبر، ومن الناحية البنيوية أناكساجوراس هو ناجارجونا اليوناني.

أناكساجوراس أكثر طموحًا وماديةً من ناجارجونا (الذي لم يرَ أيَّ ميزة تفسيرية في افتراض أيِّ شيء يتجاوز الأفكار). ومثل طاليس، يريد أناكساجوراس شرح كلِّ شيء. وهو أيضًا يشارك طاليس انشغاله بالعالم المادي، على الرغم من أنَّ هذا يخفّف من خلال إدخاله للعقل الكوني.

يعتقد ناجارجونا أنَّ من المستحيل معرفة الفرق بين أن يكون للواقع قاعٌ وكونه بلا قاع. ويعتقد أناكساجوراس أنَّه يستطيع إثبات أنَّه لا قعرَ له ولا غطاء.

تفاصيل هذا الدليل ليست واضحة من الأجزاء الباقية من كتابات أناكساجوراس. وتشير هذه الشظايا إلى أنَّه لا يحسب القطع الأثرية كأجزاء أو كائنات حية، فأنت لست مصنوعًا من الطوب والرماح. ومع ذلك، لا يبدو أنَّه يقصر المكونات على مجموعة مرتبة من الأضداد. بدلًا من ذلك، يقتصر "كلُّ شيء" على المكونات الطبيعية مثل الذهب.

هل يمكن أن يأتي أيُّ شيء من كلِّ شيء؟

خاتمي من الذهب لأنَّ الذهب الخالص هو العنصر الغالب. "كلُّ شيء هو كلُّ شيء" يحول دون هذا التفسير الطبيعي. لا يوجد ذهب نقي، كلُّ شيء مغشوش بكلِّ شيء.

قد يأمل عالم الرياضيات في شرح كيف يمكن أن يكون كلُّ شيء في كلِّ شيء من طريق رسم تشبيه بأرقامٍ مركَّبة. فالرقم المركَّب هو عدد صحيح يمكن تقسيمه على أجزاء تمثِّل أعدادًا صحيحة أخرى، مثلًا: يمكن تقسيم ثماني شرائح من الفطيرة على أربعة عشاءات من خلال تخصيص شريحتين لكلِّ عشاء، ولا يمكن تقسيم سبع شرائح على أجزاء تمثِّل أعدادًا صحيحةً، أيُّ عدد صحيح غير مركَّب هو عدد أولي، والأعداد الأولية أكثر جوهريةً؛ لأنَّ الأعداد المركبة يمكن تقسيمها على أعداد أولية، والأعداد الأولية هي ذرات الأرقام. وبشكل مفاجئ، يمكن وضع الأعداد الأولية في مراسلات فردية

مع الأرقام المركبة:

المركَّبات: 4، 6، 8، 9، 10، 12، 14، 15،.....

الأعداد الأولية: 2، 3، 5، 7، 11، 13، 17، 19،.....

ومع ذلك، تسود الأرقام المركبة، بمعنى أنَّ العيِّنات المحدودة لخطِّ الأعداد تحتوي في الغالب على أرقام مركبة.

سينجح هذا الأنموذج الحسابي لـ "كلِّ شيء هو كلُّ شيء" إذا كان أناكساجوراس يقول فقط إنَّ كلَّ شيء يتكوَّن من عدد لا نهائي من الأجزاء. ومع ذلك، فإنَّ المادة اللزجة تنطوي أيضًا على تداخلٍ لا نهائي للأجزاء داخل الأجزاء.

يجعل هذا التعشيش nesting سلامة المكونات مشكوكًا فيه، إذ يتشابه كلُّ جزء من حيث النوعية في كونه مكوَّنًا من نفس المزيج من المادة. ولا يمكن عزل أيِّ "مكوِّن" لحساب طبيعة تركيبته. لذلك؛ لا يزال يتعيَّن علينا الإجابة عن السؤال: "غلبة ماذا؟"

الخماسي الفيثاغوري

قد تكون عقيدة أناكساجوراس عن "كلِّ شيء في كلِّ شيء" مستوحاة من النجم الخماسي (شكل 7.2). وطبقًا للوسيان الساموساتا Lucian of Samosata (120 - 180 بعد الميلاد)، استعمل الفيثاغوريون هذا الشكل على شكل نجمة كعلامة تقدير:

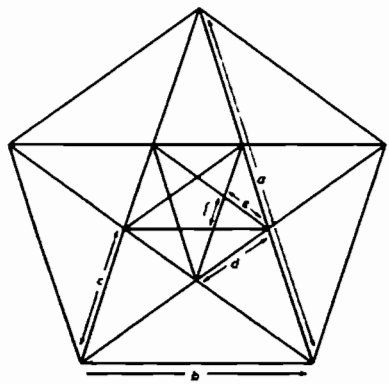

الشكل 7.2 الخماسي الفيثاغوري.

على أيّ حال، بدأت جميع مدرسته [فيثاغورس] بخطابات جادَّة لبعضها الآخر على الفور بقول: "الصحَّة لك" Health to you، بوصفها تحيةً مناسبةً لكلٍّ من الجسد والروح، وتشمل جميع الخيرات البشرية. وفي الواقع، أطلقوا على الخماسي، المثلث المتقاطع الثلاثي الذي يستعملونه رمزًا لطائفتهم، "الصحَّة". (Lucian 1901, 179)

نشأ اهتمام فيثاغورس Pythagoras بالنجمة الخماسية من الأهمية الإنجابية التي ربطها الرهبان الرياضيون بالرقم خمسة، فالأرقام الزوجية من الإناث، والأرقام الفردية من الذكور. ونظرًا لأنَّ الرقم يشير إلى التعدُّدية فإنَّ الرقم الأول هو اثنان، وهذا يجعل رقم اثنين هو أول رقم نسائي وثلاثة هو أول رقم ذكوري، واتحاد هذا آدم وحواء هو خمسة، وأصبح خمسة ممثلًا للحبِّ والزواج. ويمثِّل الإغريق الأرقام هندسيًّا، ويبدو أنَّ هذا يثير إحراجًا للأغنياء. عذرًا، هل يجب تمثيل خمسة بشكل خماسي الأضلاع، أم الشكل الخماسي، أم الشكل الخماسي المدبَّب، أم الشكل الخماسي؟ شعر الفيثاغوريون بالارتياح لاكتشاف أنَّه يمكنهم الحصول على كليهما في الوقت نفسه.

كلُّ خماسي حامل بنجمة خماسية، وكلُّ نجمة خماسية حامل بخماسي.

يوفِّر الخماسي الفيثاغوري أنموذجًا رياضيًّا للتداخل اللانهائي المتشابه ذاتيًّا، ويقترح أيضًا أنَّ الكائنات الحيَّة لديها هذه البنية الخماسية داخل الخماسية. وبشكل إيحائي، فرق الحجم بين الأرقام المتتالية دائمًا يساوي النسبة الذهبية. ركز على مقاطع الخط بترتيب تناقص الطول، تلك التي تم تمييزها بـ a، b، c، d، e، f في الشكل 7.2، كلُّ قطعة أصغر من سابقتها بنسبة 1 إلى (1 + √2) / 2 (تقريبًا 1: 1.618)، وهذه هي النسبة الذهبية.

هناك معيَّنات ومثلَّثات وزوايا ذهبية، ولكن أوضح مثال على النسبة الذهبية هو المستطيل الذهبي (شكل 7.3).

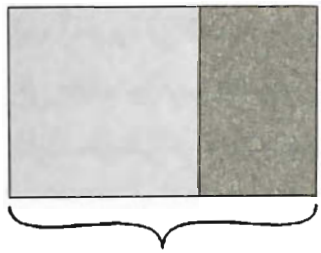

الشكل 7.3 المستطيل الذهبي.

عند إزالة المكوّن المربع يكون الباقي مستطيلًا ذهبيًّا آخر. وتؤدّي إزالة المربع الفرعي من هذا المستطيل الذهبي المصغَّر إلى الحصول على مستطيل ذهبي أصغر حجمًا.

حينما تتكرَّر عمليات إزالة المربعات هذه إلى أجلٍ غير مسمًّى فإنَّ الزوايا المقابلة للمربعات تشكِّل سلسلةً لا نهائية من النقاط، ويؤدي توصيل النقاط إلى الحصول على اللولب الذهبي (الشكل 7.4).

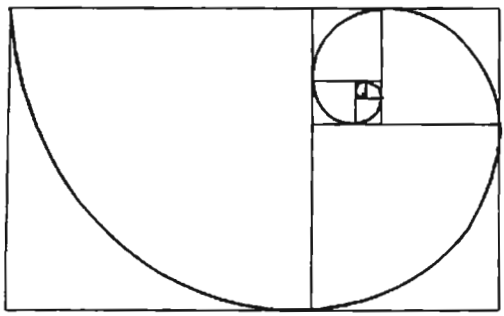

الشكل 7.4 اللولب الذهبي.

يرث اللولب الذهبي التشابه الذاتي للمستطيل الذهبي، مع زيادة حجم اللولب، يبقى شكله كما هو.

من السهل اكتشاف اللولب الذهبي في الطبيعة، على شاطئ البحر يجد صانع الشاطئ النمط اللوغاريتمي في غلاف نوتيلوس الحجري، ويجدها البستاني في عباد الشمس، وفي الجبال يوجد اللولب الذهبي في قرون الكباش، وبالنظر لأعلى في سماء الليل يمكن للفرد تحديد النمط في المجرات الحلزونية العملاقة. ونقش جاكوب برنولي Jakob Bernoulli عبارة عن لولب لوغاريتمي منقوش عليه Eadem mutata resurgo؛ "سأقوم بالشيء نفسه على الرغم من التغيير."

شرح التغيير

في حين أنَّ ناجارجونا يطفو ببساطة على احتمال أن يكون كلُّ شيء مصنوعًا من مواد لزجة، فإنَّ أناكساجوراس ملتزم بمبدأ أنَّ كلَّ شيء هو مادة لزجة، واستنتج أنَّ هذه البنية هي التفسير الوحيد الممكن للتغيير في الحجم والتنمية. ومثلما أوضح بارمينيدس سابقًا، لا يمكن أن يتغير الشيء مِمَّا هو عليه إلى ما هو ليس كذلك. ومع ذلك، يمكن لأيِّ شيء أن يتحوَّل إلى أيِّ شيء. لذلك؛ يجب أن يحتوي كلُّ شيء على بذور كلِّ شيء آخر.

يجب أن تتنقل نظريَّة التغيير عبر معضلة بين الدمار والبقاء كمجرد مجموع، فسوكوتاش Succotash هو خليط من الفاصوليا والذرة، لكن لا شيء جديد يأتي إلى الوجود؛ لأنَّ الفاصوليا والذرة على اتصال مع بعضهما الآخر. من أجل تغيير الفاصوليا والذرة إلى شيء ما يجب أن تُسهم بشيء في الخليط، ولكن لا يتم تدميرها في هذه العملية.

أناكساجوراس والموت

هناك عدَّة إشارات إلى تخلي أناكساجوراس عن ممتلكات واسعة النطاق في بلدته الأصلية كلازومياناي في آسيا الصغرى، فعلى حسب المؤرخ الروماني فاليريوس

ماكسيموسValerius Maximus، قال أناكساجوراس وهو عائدٌ إلى المنزل من رحلة طويلة ووجد ممتلكاته في حالة خراب: "لو لم يكن هذا قد هلك، لأهلكته". يقول فاليريوس: "هذه جملة تدلُّ على الحكمة الأكثر كمالًا".

هل كانت هذه الحكمة متوافقةً مع ميتافيزيقيا أناكساجوراس؟ إذا كان الدمار مستحيلًا فكيف يكون الموت؟ مثلما لا يمكن أن يظهر شيء جديد فالعَدَم قديمٌ يمكن أن يخرج منه. هل كانت الميتافيزيقيا الخاصَّة به مجرد مثال على آلية الدفاع النفسي للإنكار؟

ديوجينيس لايرتيوس Diogenes Laertius يصوِّر أناكساجوراس على أنَّه شديد الوعي بالموت. وفي مواجهة إنسان كان حزينًا على موته في أرض أجنبية يواسي أناكساجوراس الإنسان بمُلاحظة أنَّ النزول إلى الجحيم هو نفسه من كلِّ مكان.

كان أناكساجوراس أول فيلسوف استقرَّ في أثينا، لكن الأثينيين اتهموه بعلم الفلك غير الشرعي. ألم ينكر كتابةً ألوهية الشمس باختزالها إلى صخرة ساخنة؟ هرب أناكساجوراس لتجنُّب العقوبة التي لا يمكن للمؤلف مراجعتها.

أصبح حكم الإعدام لاحقًا الكلمة الأخيرة لتلميذه سقراط Socrates. وبعد وفاة تلميذ أرسطو وحاميه - الإسكندر الأكبر - هرب أرسطو، فأرسطو "لم يرغب في أن تخطئ أثينا مرتين ضدَّ الفلسَفَة". وقد تضررت صحته بسبب الهروب الضيق، وسرعان ما مات.

بعد أن علم أن الأثينيين حكموا عليه بالإعدام غيابيًّا، أجاب أناكساجوراس: "منذ فترة طويلة أدانتهم الطبيعة وأدانتني". وحينما علم بوفاة ولديه قال: "علمت أنَّني أصبحت أبًا للميتين".

بالنسبة إلى أناكساجوراس، الموت هو تجديد. ربَّما هذا هو أساس قصَّة موتي المفضَّلة عن أناكساجوراس. وتقديرًا له في مدينة لامبساكوس، المدينة التي منحته ملجأ، طلب أناكساجوراس خدمةً أخيرةً أن يُمنح أطفال المدينة عطلةً سنويةً في ذكراه. وأفاد ديوجينيس لايرتيوس أنَّ رغبة المحتضر هذه قد لُبِّيَت. واستمرت العطلة حتى يوم كتابة ديوجينيس.

8. ليوكيبوس: الغياب المطلق المحلي

يقلص ليوكيبوس Leucippus الواحد عند بارمينيدس إلى آحاد (ذرات) (شكل 8.1). وتستمرُّ الميتافيزيقيا التصاعدية هذه في بحث طاليس عن تفسير مختزل لكلِّ شيء. وتتوافق الذرية جزئيًّا مع تقييد بارمنيدس ضدَّ التغيير الأساسي، فالذرات لا تغيِّر أبدًا طبيعتها الجوهرية، فهي تتحرَّك ولكن ليس لديها أجزاء متحركة، إذ يقتصر النموُّ والدمار على المركبات التي تختزل إلى الذرات.

الشكل 8.1 ذرات بارمينيدية.

يُقال إنَّ أصول ليوكيبوس من ميليتس Miletus وإيليا Elea من أبديرا Abdera. ولا يستطيع ديوجينيس لايرتيوس أن يحسم أمره (Diels and Kranz 1951, 67A1)! وعلى الرغم من الأصول المتعدِّدة لم يتم ذكر ليوكيبوس من معاصريه. ويبدو أنَّ اقتباسنا المباشر الوحيد من ليوكيبوس "أنَّ العَدَم يحدث عبثًا"، يتعارض مع عشوائية الذريَّة. وتتطابق جميع المذاهب الذريَّة الثابتة المنسوبة إلى ليوكيبوس مع نظريَّات تلميذه ديموقريطوس (دلايملا لبة 370 - دلايملا لبة 460 وحذ Democritus) .

اتفاقهم الكامل يثير الشكوك حول الانتحال العكسي، فربَّما تم اختراع ليوكيبوس لتأمين سلسلةٍ من التلمذة مع بارمينيدس (الذي علَّم زينو Zeno الذي علَّم ليوكيبوس الذي علَّم ديموقريطس). وأثار هذا الشكُّ تقرير ديوجينيس لايرتيوس أنَّ أبيقور Epicurus نفى وجود ليوكيبوس (Diels and Kranz 1951, 67A2).

يفترض مصدرنا الرئيس لفلسَفَة ما قبل سقراط: أرسطو، وجود ليوكيبوس. ويقول بعض العلماء إنَّنا مضطرُّون إلى التوافق مع افتراض أرسطو. وإذا كان أرسطو غير جدير بالثقة فلدينا وثائق قليلة جدًّا لدعم أيِّ ادعاء بمعرفته عن أيِّ فيلسوف سبق سقراط.

وسنكون مثل الجمهور الذي لن يقبل ما يقوله المؤلف بعد "ذات مرّة"

التناقضات والانزلاقات الداخلية في تاريخ أرسطو تمنعنا من تشريع قصّته على أنّها صحيحة تمامًا، فأرسطو راوٍ غير موثوق به، إذ يخطئ في عَدِّ الفلاسفةِ غير الموجودين فلاسفةً حقيقيينَ. وفي مناقشة أرسطو لمرور الوقت أعرب عن موافقةٍ نادرةٍ على الفيلسوف الفيثاغوري: بارون Paron. و"بارون" هو في الواقع اسم فاعل ("حاضر")، وليس اسمًا. وكانت عبارة "الحضور في الغياب"(parōn apōn) عبارةٌ شائعةٌ لنقل الطريقة المتناقضة للحالات العقلية التي تجعل الأشياء الغائبة "حاضرةً". وأصبحت العبارة في النهاية عنوانًا لإحدى قصائد جون دون (John Donne (1573 - 1631 الميتافيزيقية. المقطع الأوّل:

الغياب، اسمع احتجاجي

ضدَّ قوّتك،

المسافة، والطول،

افعل ما تستطيع للتغيير:

لقلوب الهمَّة الحقيقية

الغياب ينضمُّ، والوقت يستقرُّ.

تمنحنا التذكارات Mementos موطئ قدمٍ لندلي ساقًا واحدةً فوق هاوية العدم، فمن خلال تسمية ابنك على اسم والدك الذي لم يعد موجودًا فإنّك توازن بين الماضي والمستقبل، وينقل الاسم المشترك أكثر من حامله الحالي.

تم صنع تذكارات أكبر، الأسماء تؤلّف الجمل، الجمل تؤلّف الفِقْرات، الفِقْرات تؤلّف سجلّات، الجندي المتقاعد الذي تحوّل إلى مؤرخ يحفظ أسماء رفاقه القتلى على لسان الأحياء. أما بالنسبة إلى الأعداء؛ فقد ينتقم الجندي العجوز من عدم ذكر الأوغاد.

المؤرّخون السابقون مذنبون بأكثر من خطايا الإغفال، إذ يزورون الوثائق، فكان لا بدَّ من تحديد مثل هذه الكتابات المشكوكة apocrypha وفصلها عن السجلّات الأصلية.

ومع تحسُّن طرق الكشف عن التزوير تم الكشف عن بعض المستندات التي كانت مخصَّصةً في الأصل للحماية على أنَّها غير أصلية. وفي العصور الوسطى ظهرت شائعاتٌ عن كتاب "المنتحلون الثلاثة" The Three Imposters، الذي زعم أنَّ موسى وعيسى ومحمَّدًا لم يكونوا موجودين على الإطلاق. وكان الطلب على هذا الكتاب غير الموجود، مِمَّا أدى إلى إنتاج الكثير من "النسخ"

في عام 1440 أثبت لورنزو فالا Lorenzo Valla أنَّ منحة قسطنطين Donation of Constantine يمكن أن يكون قد كتب في القرن الرابع، واستعملت الوثيقة كلمات غير معروفة لقسطنطين مثل "ساتروب". ولم يفكر أحدٌ من قبل في البحث في الوثائق عن مفارقات تاريخية! لأنَّ هذا التأخير ينطبق أيضًا على المزورين، فقد ظهر أن الكثير من الوثائق تدحض نفسها بنفس اللغة المستعملة في أكاذيبها.

لم يتعلَّم المزوِّرون عدم استعمال "القسطنطينية" في وثيقة تسبق المدينة، لكنَّهم لم يستطيعوا توقُّع التطوُّرات في الكيمياء، وكلُّ اختراق كشف المزيد من الاحتيال. وبحلول القرن التاسع عشر شعرَ العلماء بالخداع الشديد، وما اعتقدوا أنَّه تاريخ كان أكاذيب، وما اعتقدوا أنَّه أكاذيب كان من التاريخ، وقد أصابهم الغثيان بمدى انحياز التاريخ وقذره وخداعه، فبدأ الأساتذة رشفاتهم الجافَّة، وطُرِدَ ليوكيبوس، وهو" يناسب صورة شكل مستحضر للدعاية"

وكذلك فعل يسوع، لم يكن هناك دليلٌ مستقلٌّ على هذا النبيِّ المثير للجدل المزعوم، باستثناء المبشرين. وربَّما كان ليسوع قرابة مع الملك المسيحي الأسطوري لجزر الإنديز، بريست جون Prester John. في العام 1177 ردَّ البابا ألكسندر الثالث Pope Alexander III على رسالةٍ تفيد برغبة يوحنا في طرد المسلمين واستعادة القبر المقدَّس، واستُعملت المراسلات لتبرير قرون من الاستكشاف لتوحيد العالم المسيحي.

تعافى مؤرِّخو القرن الحادي والعشرين من صدمة الخداع، وبدلًا من رفض المستندات المزوَّرة يتم التنقيب عنهم بحثًا عن شذرات من الحقيقة. وقد ساعد التقدُّم في تحليل

الوثائق العلماء على استخراج الخام من أكوام الخبث من الأساطير والأكاذيب، وقد عكسوا بحذرٍ شديدٍ حكم القرن التاسع عشر بأنَّ عدم وجود ليوكيبوس أكثر احتمالًا من وجوده.

لم يعطِ علماء الذريَّة المعاصرون سوى القليل من الاهتمام لهذا التحصُّن في ادِّعاء ليوكيبوس بوجوده، فمذهبهم لا يُعطي أيَّ وزن لشهادة المؤسّسين. وفي المقابل، الاحتمال المتزايد لوجود يسوع هو مصدر ارتياح للمسيحيين، إذ يعتمدون على شهادة يسوع.

الذريون - مثل ديموقريطوس - ملتزمون بإنكار وجود الذريين: "من المعروف أنَّ الحلوَ حلوٌ، والمرَّ مرٌّ، والساخنَ ساخنٌ، والباردَ باردٌ، واللونَ لونٌ؛ لكن في الحقيقة لا يوجد سوى الذرات والفراغ" (Diels and Kranz 1951, 68B9, trans. Taylor 1999, 142). فالذري ليس سوى مزيج من الذرات. ومثلما لا يتم زيادة مخزون العالم من خلال التحدُّث عن ليوكيبوس Leukippos وكذلك ليوكيبوس Leucippus فإنَّ المفردات الإضافية لمركَّبات الذرات لا تضيف إلى مخزون الأشياء الموجودة.

يرحِّب الذريون بغفلة الطبيعة، ويرفضون ذكاء أناكساجوراس الإرشادي، إذ لانوس هو نوس جيد.

دفاع جورجياس عن العدم

تتضمَّن ميتافيزيقيا ليوكيبوس عنصرًا أكثر إثارةً للجدل من الذرات: الفراغ. وقد جادل بارمينيدس بأنَّ العدم مستحيل.

يردُّ السفسطائي جورجياس Gorgias بأنَّ العدم ضروري. وفي حين حاول الفلاسفة في تقليد طاليس إثبات ما هو الأكثر احتمالًا حاول السفسطائيون إثبات ما هو أقلُّ احتمالًا؛ لأنَّهم أرادوا الإعلان عن قوَّتهم في الإقناع، فالاستنتاج الأكثر احتمالًا هو أنَّه لا يوجد شيء.

يبدأ جورجياس "عن عدم الوجود" On Nonexistence باختزال إعلان عبثي: افترض أنَّ عدم الوجود موجود، عندئذٍ يكون عدم الوجود موجودًا وغير موجود، تناقض. الاختزال الثاني: افترض وجود الوجود، مِمَّا نشأ الوجود؟ ليس من العدم. وقد أثبت جورجياس بالفعل أنَّ عدم الوجود الموجود أمرٌ متناقض. ولكن إذا كان الوجود ليس له أصل، فلا حدود له. ولن يكون الوجود منفصلًا عمَّا هو غير موجود، أي عدم الوجود. لذلك؛ الوجود لا يمكن أن يوجد.

حتى لو كان الوجود موجودًا - يواصل جورجياس - فإنَّ الوجود لن يكون نوعًا من الأشياء التي يمكن معرفتها؛ لأنَّك تعرف فقط تمثيلاتك للواقع، أي تمثيل لشيء موجود يتوافق معه غير موجود.

وحتى لو عرفت أنَّ الوجود موجود، فلا يمكنك إيصال هذا إلى شخص آخر، أنتَ فقط من يستطيع التفكير في أفكارك. لذلك؛ حتى لو كنت تعلم أنَّ هناك شيئًا ما فلا يمكن نقل هذه المعرفة الخاصَّة إلى شخصٍ آخر من طريق الشهادة.

للتلخيص، العَدَم موجود، وحتى في حالة وجود شيء ما فلا يمكن معرفة أيِّ شيء عنه. وحتى لو أمكن معرفة شيء ما فلا يمكن إيصاله للآخرين.

سفاح ليوكيبوس

ليوكيبوس ينشر الكائنات في اللاكائنات، ويفيد أرسطو بأنَّ الذريين يعتقدون:

أنَّ الممتلئ والفارغ عنصران، ويدعون أحدهما الكائن والآخر اللاكائن، الكائن الكامل والصلب، واللاكائن الفارغ (حيث يقولون إنَّ الوجود ليس أكثر من عدم الوجود؛ لأنَّه الصلب ليس أكثر من فارغ)؛ ويجعلون هذه الأسباب المادية للأشياء. (Metaphysics, 1.4.985b5 - 10)

يتَّفق ليوكيبوس مع المبدأ الإيليتي Eleatic القائل بأنَّ الأسباب فقط هي الحقيقة. ونظرًا لأنَّ الذرات والفراغ فعَّالان بشكل متساوٍ فإنَّ الوجود وعدم الوجود حقيقيَّان

على حدٍّ سواء. وإذا تم إلقاؤك في الفراغ فسوف تموت بسرعة، فالفراغ مميت؛ بسبب ما يفشل في القيام به (توفير الحرارة والهواء والضغط) وليس لما يفعله. والسببية لا تتطلَّب نقل الطاقة لرمي سهم، يريح الرامي قبضته على الوتر المرسوم، وتوقف عن منع السهم من الطيران.

أيُّهما أكثر انتشارًا، الكائن أم اللاكائن؟ لم يكن ليوكيبوس متأكدًا من كثافة الذرات في الكون، وكان على يقين أنَّ عدد الذرات ثابت. ولا يمكن للذرات أن تظهر أو تختفي من الوجود، إنَّها تفتقر إلى الأجزاء؛ ومن ثَمَّ لا يمكن تجميعها من أشياء أخرى، فضلًا عن أنَّ غياب الأجزاء يمنعها من التفكُّك.

نمذج ليوكيبوس كلَّ ذرة على واحد بارمينيدس، فالذرَّات لا تخضع لتغييرات داخلية. وتبعًا لبارمنيدس يربط ليوكيبوس الحقيقي بالدائم، فالذرات أبدية. لذلك؛ يتعارض أنموذج الذرات الذي وضعه ليوكيبوس بشكلٍ أساسيٍ مع أنموذج النظام الشمسي للذرة الموضَّح على ظهر العملة المعدنية المكوَّنة من 10 دراخما لإحياء ذكرى تلميذه ديموقريطوس (شكل 8.2). ما هو حقيقي هو دائم، والأشياء المعقَّدة سريعة الزوال، ومن ثَمَّ لا يمكن أن تكون حقيقيةً مثل مكوناتها الخالدة.

الشكل 8.2 وجه وظهر العملة المعدنية اليونانية 10 دراخما لعام 1992.

لا يتطلَّب ديموقريطس أن تكون الذرات صغيرة، فإذا كان يعلم أنَّ نجوم الشهاب صغيرة مثل حبة الرمل فقد يكون أكثر تفاؤلًا بشأن مراقبة الذرة بشكلٍ مباشرٍ مثل

التفاحة. لكن تفسيرات الذريين لكيفية رؤية الأشياء تفترض مسبقًا أنَّ الذرات تجعل أشياء أخرى مرئية دون أن تكون كبيرة بما يكفي للرؤية. وبالنظر إلى أنَّ جميع الذرات الفعلية صغيرة فإنَّ الواقع سيكون واقعًا دقيقًا.

لا تقتصر الفراغات على المصغرات miniature، يمكن أن تكون الفراغات كبيرة؛ لأنَّها لا تختزل إلى ذرات. وحينما ترى الفراغ الكوني ترى شيئًا شاسعًا.

يصوّر ليوكيبوس الذرات والفراغ على أنَّهما متنافيان، ففي النهاية هما موجودان وغير موجودين، فكلَّما أضفت المزيد من الماء إلى نصف الكوب قلَّ الفراغ. لكنَّ الماء كان لا بدَّ أن يأتي من مكان ما. لذا؛ لا بدَّ أنَّ الفراغ قد زاد في مكان آخر.

لا تختلف كمية الذرات غير الموجودة أبدًا، فالوجود والعدم في توازن ديناميكي مثالي.

من الناحية المنهجية يجب أن نفترض فقط أكبر عددٍ ممكنٍ من الذرات لشرح هذه الظاهرة، وهذا يعني أنَّه يجب علينا تعظيم ما يمكن تفسيره بالفراغ.

لم يفكِّر الذريون أبدًا في احتمال أن تكون الفراغات آثارًا جانبيةً عديمة الفائدة للذرات التي تفشل في ملء الفراغ. بدلًا من ذلك، يتوقَّعون الفراغات للقيام بعمل. وقد أظهر اناكسماندر Anaximander بالفعل كيف يمكن للفراغ الكوني أن يمنع الأرض من السقوط (من طريق إزالة أيِّ سببٍ لتحرُّك الأرض في اتجاهٍ واحدٍ بدلًا من اتجاه آخر). وهذه الخدمة الكبيرة مهَّدت الطريق لخدمات أصغر. ويُظهر الإسفنج كيف يمكن للفراغات الصغيرة أن ترفع المياه من الحصى الرطب، وتفرزُ الفراغات الصغيرة في الإسفنج السائل من المواد الصلبة. واللاكائن يحاكي الكائن، ثم يتولَّى الوظيفة نفسها بأجرٍ أقلَّ. مثلًا: بدلًا من العزل من طريق إضافة مادة بين الأسطح الداخلية والخارجية للجدار قد يقوم النجَّار بطرح مادةٍ لعزل الجدار الداخلي عن الجدار الخارجي، والفراغ الذي يفصل جدران الحاوية يمنع تدفُّق الطاقة من الداخل إلى الخارج، وكلَّما كان المكان فارغًا كان العزل أفضل.

حينما تعلَّم الذريون المزيد من التقنيات لاستبدال اللاكائن بالكائن، تضاءل كونهم. ففي القرن الأول الميلادي كان بطل الإسكندرية يعتقد أنَّ العالم مهم في الغالب، كومة تحتوي على فراغات صغيرة بين حبات الرمل. وبحلول القرن الرابع تصوَّر الشاعر الروماني للذرية لوكريتيوس Lucretius العالمَ بأنَّه فارغ في الغالب. الذرات عبارة عن ذرات من الغبار في شعاع من الضوء. ورأى الذريون اللاحقون أنَّ لوكريتيوس يبالغ في تقدير نسبة المادة إلى الفراغ، وقد حدَّدوا النسبة لتكون أقرب إلى نسبة النجوم إلى المكان الكوني.

بحلول القرن الثامن عشر كان الكون فارغًا لدرجة أنَّ صموئيل كلارك Samuel Clarke أنكر أنَّ فيزياء إسحاق نيوتن مادية. وتم تسريع تفكيك الذرات من خلال النظرية الميدانية لروبرت جوزيف بوسكوفيتش(1711 - 1787) Robert Joseph Boscovich. ولتجنُّب العمل المخيف على المسافة التي تنطوي عليها جاذبية نيوتن، وصف بوسكوفيتش الذرات بأنَّها نقاط قوة هندسية ليس لها حجم، واقترح أنَّ هذه القوى يجب أن تكون جوانب قوة عالمية واحدة.

جذبت إزالة الطابع المادي المفكرين الدينيين، وقد تعمَّقوا في التشبيه بين الإله والمكان، كلاهما موجود في كلِّ مكان، وأبدي، ولا حدود له، وغير مادي، وموجَّد تمامًا. ويعرِّف مؤيدو الوجود الإيجابي الإله بكلِّ ما هو موجود. ويعرِّف مؤيدو الوجود السلبيون الإله بكلِّ ما لا يوجد.

تاريخ العَدَم فيه تقلبات مزاجية، فمستقبل العَدَم تنبَّأ به اللاهوتي المهووس بالاكتئاب: أنا لست أحدًا. لا أحد كامل، الكمال للإله وحده، لذلك أنا الإله!

لا يوجد لاهوتي يكمل عرافة المكان. ولم يؤكد أيُّ لاهوتي بشكل قاطع أنَّ الإله مطابق للمكان. ومع ذلك، كرَّر الكثير استنتاج إسحاق نيوتن بأنَّ المكان هو صفة من صفات الإله أو أنَّ المكان هو حسي sensorium الإله.

سيكون القضاء على الذرات مناسبًا لمبدأ ليوكيبوس القائل إنَّنا نفترض فقط عدد الذرات بحسب الحاجة لتفسير الظاهرة. وحتى بالنسبة إلى الذريَّة، فإنَّ العدد الأمثل

للذرات هو بالنتيجة صفر.

الانزلاق من خلال شقوق الكائن

الذريَّة لا يترَّتب عليها الفراغ. ومع ذلك، فإنَّ الهندسة تضغط على الذريين للاعتراف بالفراغات الصغيرة microvoids. وللتوضيح، يقدِّم إفلاطون في تيموس Timaeus نسخةً من الذرية مصمَّمة لمنع الفراغ، ويخمِّن أنَّ الكون مليءٌ بالكامل بخمسة أنواع من الذرات. وتستند أشكالها إلى خمسة متعددات الوجوه المنتظمة. ويصوِّر يوهانس كيبلر Johannes Kepler هذه "المواد الصلبة الأفلاطونية" في كتابه "الغموض الكوني" Mysterium Cosmographicum (شكل 8.3)، إذ يربط أفلاطون أربعة من المواد الصلبة solids الأفلاطونية بالعناصر الأربعة. والمادة الصلبة الأفلاطونية الخامسة، الاثني عشرية الوجوه، تتكوَّن من الجنَّات. ويصف أفلاطون بشكل متواضع نظرته الذرية التعددية بأنَّها "قصة محتملة"، وليست مؤكدة.

الشكل 8.3 تصوير كبلر Kepler للمواد الصلبة الأفلاطونية (الهواء، الماء، الكون، النار، الأرض).

في «الجنَّات» The Heavens احتجَّ أرسطو على أنَّ قصة أفلاطون أسوأ من عدم اليقين، مستحيلة: لا يمكن تعبئة مزيج من جميع المواد الصلبة الأفلاطونية الخمسة بشكل مريح مثل المكعبات. ويجب أن تكون هناك خواءات بينية مثل الفجوات التي تتشكَّل حتمًا إذا كانت الذرات عبارة عن كرات.

أرسطو محقٌّ، ولكن بعد ذلك استمرَّ في الادِّعاء كذبًا أنَّ رباعي الأسطح يمكنه إكمال المكان. وهي شهادة على سلطة أرسطو أنَّ هذا الادِّعاء تم قبوله لمدة سبعمئة عام من علماء الرياضيات. ويمكن دحض «رباعي الأسطح يمكن أن يكمل المكان» بسهولة من طريق أخذ رباعي الأسطح ومحاولة ملاءمتهما معًا، فهذه التجارب تسفر دائمًا عن فجوات. رباعي الأسطح لا يتناسب حتى حول نقطة واحدة!

تقريبًا جميع مجموعات الأشكال البسيطة لها خواءات بينية كأثر جانبي، وحينما يصبح الذري أكثر استسلامًا لهذه الغيابات يبدأ في البحث عن طرق لتوظيفها. مثلًا: استعملها المنظِّرون لشرح الإخفاقات المفاجئة في الحفاظ على الحجم، فإضافة لترٍ من الكحول إلى لترٍ من الماء ينتج خليطًا أقلَّ من 2 لتر. وإذا كان أحد السوائل يحتوي على خواءات بينية كبيرة بما يكفي لإدخال أجزاء من سائل آخر فقد تنزلق هذه الأجزاء إلى تلك الفجوات.

نظرًا لأنَّ ليوكيبوس كان يعتقد أنَّ الفجوات الخلالية كانت مصدرًا وليس عائقًا liability لم يقصر الأشكال الذرية على تلك التي يمكن أن تكمل المكان. وفي الواقع، نظرًا لعدم وجود سبب آخر لأن يكون للذرة شكل دون آخر فإنَّ الذرات التي استنتجها ليوكيبوس تأتي في كلِّ شكل ممكن. ومن حيث المبدأ، يمكن لهذه الذرات أن تملأ الفراغ، لكن جميع الترتيبات الممكنة تقريبًا ستترك فجوات. والصنف غير المرئي اللامحدود يصل إلى تنوُّع مرئي لا نهاية له.

الفراغات متوسطة الحجم

لا تقتصر الفراغات الخلالية على العالم الذري، إذ يمكن استعمال الفجوات الخلالية لشرح الفرز التلقائي، فحينما تهتزُّ سلةٌ من التفاح في أثناء الركوب من البستان تنزلق التفاحاتُ الصغيرةُ بين الفجوات، والتفاح الأكبر يرتفع إلى الأعلى. ويفسر المبدأ نفسه سببَ ارتفاع الصخور الكبيرة إلى قمة التربة مع الربيع (إلى الانزعاج الدائم للمزارعين).

ويهز التجميد والذوبان الأرض بحركة بطيئة.

الخدمة التفسيرية الرئيسة للفراغ هي شرح الحركة، فإذا كانت هناك ذرات فقط فإنَّ الذرات تحجب بعضها الآخر. فكِّرْ في عالم مليء بإحكام بمكعبات صغيرة، لا يمكن لأيِّ مكعبٍ أن يتحرك؛ لأنَّه لا يوجد مجال للمناورة.

عالج أناكسيمين Anaximines حالة الجمود من خلال افتراض إمكانية ضغط المكعبات. وبالنسبة إلى ليوكيبوس يثير هذا فقط السؤال عن كيفية ضغط المادة. يمكن ضغط الإسفنج؛ لأنَّه يحتوي على فراغات داخلية، إذ يمكن أن يتوسَّع؛ لأنَّ أجزاءه يمكن أن تنتشر بحيث تصبح الأمكنة الداخلية أكبر.

نظرًا لأنَّ الأمكنة الداخلية لا تزن شيئًا فإنَّها تفسِّر أيضًا لماذا يمكن أن يكون لكائنين الوزن نفسه، ومع ذلك يختلفان في الحجم. ويتم شرح العكس أيضًا: يمكن أن يكون للأجسام ذات الحجم المتساوي وزن غير متساوٍ. فكرة نشارة الخشب أخف من كرة الخشب الصلبة؛ لأنَّ الكرة الصلبة بها مكان فارغ أقلّ.

تعبئة الخواء

يصوِّر ليوكيبوس الفراغ بصفته نوعًا من المواد السلبية. وإذا كانت الفراغات هي المكان الفارغ نفسن تمامًا فستكون الفراغات ثابتةً، فمناطق المكان لا يمكن أن تتحرَّك.

نحن لا نبلغ عن حركة الثقوب، يتحرك الثقب الموجود في خاتمي بينما تتدحرج الحلقة على الأرض، ويعني هذا التغيير في المكان أنَّ الثقب ليس حجمًا من المكان.

يمكن تقديم النقطة نفسها للخواء. تخيَّلْ خواءً في كرة يتم رميها من A إلى Z، فيبدأ الفراغ من A ثم ينتقل إلى الموضع المتوسط B ثم C ثم ... ثم Y ثم Z.

يمكن أن يستمرَّ مانع حركة الخواء في الإصرار على أنَّ الفراغ هو مجرد حجمٍ من المكان من طريق إعادة وصف الكرة المقذوفة على أنَّها تحتوي على سلسلة من ستة وعشرين فراغًا مميزًا. ويتم استبدال الفراغ الموجود في A بالفراغ الموجود في B، والذي

يتم استبداله بدوره بالفراغ الموجود في المكان C، وهكذا وصولًا إلى Z. وسيتطلَّب مانع الحركة حركةً أكثر من التحوُّل في الموقع. يجب أن تتسبَّب مرحلة مبكرة من الكائن في مرحلته التالية ("السببية الجوهرية")، وتفتقر الفراغات إلى السلامة اللازمة للحفاظ على هُويتها بمرور الوقت.

يعزِّز مانع الحركة قضيته من خلال تدوير الكرة (Lewis and Lewis 1970)، فالفراغ داخل الكرة لا يدور، وإذا كنتَ تعتقد أنَّه يدور ففكر في كرة معلقة داخل كرة أكبر، الكرة الخارجية تدور في اتجاه عقارب الساعة، والكرة الداخلية تدور عكس اتجاه عقارب الساعة، هل الفراغات الداخلية والخارجية تدور في اتجاهين متعاكسين؟ لا! لذا فإنَّ الفراغ غير قادر على الحركة الدورانية، ولكن إذا كان الفراغ قادرًا على الحركة الانتقالية من A إلى Z فيجب أن يكون أيضًا قادرًا على الحركة الدورانية. لذا؛ فإنَّ الفراغات ثابتة تمامًا كما تنبَّأت الفرضية القائلة بأنَّ الفراغ هو مجرد منطقة فارغة من المكان، فالفراغ هو "جسم" ثابت يمكنه مقاومة أية قوَّة تحاول إزاحته.

الفراغ الكوني

إذا كانت كمية المادة محدودة فإنَّ محيطًا لا نهائيًّا من اللالكائن سيحيط بالكائن، وسيكون هذا المحيط فراغًا كونيًّا عالميًّا يحيط بجزيرة الكائن.

بدا هذا غير مرجح بالنسبة إلى ليوكيبوس. لا يقدِّم الفراغ أية مقاومة للحركة. لذلك؛ فإنَّ الذرات الموجودة في جزيرة الكائن سوف تتشتَّت في محيط العدم. وفي الواقع، بما إنَّ الفراغ لا يقدم أية مقاومة فإنَّ معدَّل التشتُّت سيكون بسرعة غير محدودة، وسوف تصبح الذرات على الفور مخففةً لدرجة أنَّها لا يمكن أن تتجمَّع في أشياء معقَّدة.

اقترح أولئك الذين يكرهون عددًا لا نهائيًّا من الذرات أنَّ الذرات يمكن أن تتماسك معًا من طريق الجذب المتبادل، وهذا سوف يتطلَّب العمل عن بعد. ويؤدي التجاذب المتبادل أيضًا إلى حلِّ مشكلة تشجيع الذرات على التكتل معًا. وفي الوقت الحالي

ستتجمَّع كلُّ الذرات في كرة ضخمة كثيفة.

لتجنُّب هذا الانهيار، قد يحتاج المرء إلى افتراض عددٍ لا نهائي من الذرات التي - في المتوسط - موزَّعة بالتساوي عبر الكون، ثم تُلغى عوامل الجذب المتبادلة.

كان الخلود الضروري للذرات ضروريًّا أيضًا لشرح سبب بقاء الكون. لنفترض أنَّ كلَّ ذرة لديها فرصة ضئيلة للخروج من الوجود، بالنظر إلى الماضي اللامتناهي فإنَّ هذا الاحتمال الضئيل كان سيصبح حقيقيًّا، وكلُّ ذرة كانت ستختفي منذ زمن بعيد. لكن ها نحن ذا. ومن ثَمَّ يجب أن تكون كلُّ ذرة كائنًا ضروريًّا ليس له فرصة للهلاك، وخلود الذرات أمر مؤكد.

تم استكمال هذا اليقين التجريبي بحجة تعريفية. «أتوم" Atom مشتقٌّ من اليونانية «غير قابل للتقطيع». ما يتبقى بعد كلِّ قطع ممكن. ولا يمكن تدمير هذه الوحدات الصغيرة بالطريقة التي يتم بها تدمير الأشياء العادية من طريق تفكيكها.

لا يتطرق الذريون إلى خلود الفراغ، إذا كان الفراغ مجرد مكان فيمكن أن يتعايش مع الكائن الذي يشغله، وعندئذٍ يكون الفراغ غير قابل للتدمير. ومع ذلك، إذا تم تعريف الفراغ على أنَّه مكان فارغ فإنَّ أيَّ كائن يتحرك في الفراغ يقاطع وجوده. فبمرور الوقت، ستغزو بعض الذرات المتعدية كلَّ بقعة في المكان. وبالنظر إلى الماضي اللامتناهي سيتم محو الفراغ وإعادة محوه مرات متعدِّدة.

عكس المسارات إلى الفراغ خارج الكون

الطريقة المنهجية للدفاع عن الفراغ هي من أسفل الفراغات الصغيرة. أولًا، أظهر أنَّ الفراغات الخلالية يتم إجبارها تقريبًا بواسطة أيِّ اختيار لشكل الذرة. ونظرًا لأنَّ الفراغات الصغيرة أمرٌ لا مفرَّ منه تقريبًا يجب أن تكون الفراغات متوسطة الحجم ممكنة. وإذا كان من الممكن وجود فراغات متوسطة الحجم فإنَّ الفراغات الكبيرة تكون كذلك.

هذا النهج التصاعدي للفراغ خارج الكون يفترض الذرية. ومثل أناكساجوراس رفض

الرواقيون الذرات، وكان أيُّ فراغٍ داخل الكون غير مقبول للرواقيين؛ لأنَّ الفجوات كانت تهدِّد نظرتهم للكون ككائن حي موحَّد. مثلًا: إذا كان هناك فراغ يحيط بالأرض فإنَّ الشمس ستفتقر إلى وسيط يمكن بواسطته نقل الضوء والحرارة إلى الأرض. كلُّ السببية من طريق الاتصال، سواء بشكل مباشر أم غير مباشر. قد يعمل الفراغ الموجود حول الأرض مثل الفراغ الموجود بين البطانة المزدوجة لزجاجة الترمس المثالية، مِمَّا يؤدي إلى عزل الأرض تمامًا عن دفء الشمس. وسيكون الفراغ المغلف وحشًا عملاقًا يجمِّد أبناء الأرض.

في المقابل، عَدَّ الرواقيون الفراغ خارج الكون ضارًّا؛ لأنَّ الفراغ خارج الكون لا يعزل الكون عن أيِّ شيء. وعلى الرغم من أنَّ الفراغ الكوني لا يخدم أية وظيفة للرواقيين، فإنَّ هناك تجربة فكرية مشهورة تلزمهم به، فإذا كان المكان محدودًا فستكون هناك ميزة له. ويمكن للمتطرِّف على الحدود أن يمرِّر يده من خلاله، وهذا سخيف. لذلك؛ يجب أن يكون المكان غير محدود.

لم يعتقد الرواقيون أنَّ الفراغات الصغيرة ممكنة، وهذه الاستحالة تفسِّر الالتصاق بين الألواح المسطحة، فبمجرد أن تتلامس الأقراص سيتطلب فصلها تكوين فراغ، وسوف تكون اللوحات عالقة بشكل دائم!

اللوحات العادية قابلة للفصل، ومن ثَمَّ لا يمكن ملامستها. وقد افترض بعض المفكرين أنَّ فيلمًا رقيقًا يخزن الصفائح، لكن إذا كان الفيلم موجودًا فهو في كلِّ مكان. وهذا الفيلم بين كلِّ زوج من الأسطح له آثار مدهشة، لا أحد يمشي على الأرض! بدلًا من ذلك، يسير جميع الرجال في الفيلم، الجميع لا يمكن المساس به، كلُّنا في فيلم!

إذا كان الصينيون قد علموا بالتأثيرات العملية للذرات فربما اتخذوا هذا المسار التصاعدي نحو العدم، لكنَّ الصينيين قرأوا الكون من أعلى لأسفل (شكل 8.4).

تفتقد إلى فائض OF في الشكل 8.4؛ لأنَّ الجملة لها الأسبقية على كلماتها، وفي المقابل الكلمات لها الأسبقية على حروفها. وفي الخطِّ «الصيني»، لا يمكن تمييز H

في WHOLE عن الحرف A في PART، وحينما يكون H و A جزءًا من كلمات كاملة يمكن تمييزهما.

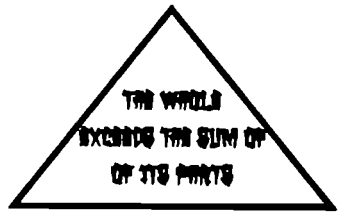

الشكل 8.4 تفوُّق الكلِّ على الجزء.

تتيح لنا أولوية الكلمات على الأحرف استعمال الحروف الهجائية التي تحتوي على أحرف أقلَّ من الصوتيات. ويلاحظ السياح الإنجليز ذلك من المباني التي تحتوي على نقوش على الآثار الرومانية، إذ تبدو النقوش بها أخطاء إملائية؛ لأنَّ اللاتينية تستعمل نفس الحرف لـ V وU. وهنا TRVTH موازية: تظهر النقوش الإنجليزية بها أخطاء إملائية للمتحدثين الأسبان؛ لأنَّ اللغة الإنجليزية تفتقر إلى الحرف ñ .

احتكرت الكليَّة Holism في الصين، وهذا هو السبب في عدم وجود ذرية صينية أصلية. وفي الهند كان التفكير الاندماجي شائعًا. والسنسكريتية لديها أبجدية، فالحروف تصنع الكلمات، والكلمات تصنع الجمل، فيتعرف القارئ السنسكريتي على الحرف بسرعة أكبر في سياق الكلمة. لكنَّ نهجه التصاعدي سيجعله يقاوم الاستنتاج القائل بأنَّ الكلمة على مستوى أساسي من الواقع أكثر من الحرف. وتجعل اللغة السنسكريتية الهنود يقرؤون في بنية اندماجية مع الواقع. ويرحِّب الذريون اللغويون بكيمياء الجدول الدوري وبيولوجيا الجينات.

الكليَّة هي الاعتقاد بأنَّ الكلَّ أكثر جوهرية من الجزء، وقد جعلت هذه النظرة الذرات غريبةً عن الثقافة الصينية. تم استيراد الذرية في النهاية إلى الصين من الهند، ويتكهن بعضهم أنَّ المذهب الذري تم استيراده أيضًا من الهند إلى اليونان. وبحسب ديوجينس

لايرتيوس ذهب ديموقريطس إلى الهند للتعلُّم من الجيمنوسوفست [1] gymnosophists.

يعتقد بوذا - الذي ربما عاش في الوقت نفسه الذي عاش فيه ليوكيبوس - أن هناك ذرات عقلية وذرات فيزيائية. ويهتم بوذا أكثر بكثير بالذرات العقلية منذ أن كانت مهمته الأساسية هي تقليل المحنة. ويعتقد ليوكيبوس أنه لا يوجد سوى ذرات فيزيائية وفراغ، واهتمامه الرئيس هو الظواهر، مثل الامتصاص، والخلط، والالتصاق، والشفط.

لا يستدعي مذهب بوذا الذري اللاشيء المطلق للفراغ، ولا يوجد سوى غياب نسبي. وفي الواقع يبدو أنَّ بوذا امتلائي، إذ تملأ الذرات الفراغ، دون ترك فجوات مطلقة، فقط فجوات نسبية.

عودة لانهائية

اعتقد الذريون الأوائل أنَّ الماضي اللامتناهي يعني ضمنًا عودةً لا نهائية، فكلُّ ما حدث حدث من قبل. وفي الماضي قرأتُ نسخةً مكررةً منك نسخة مكررة من هذا الكتاب في بيئة مكررة. وهذا التكرار سبقته نسخة مكررة سابقة. وفي المستقبل، ستقرأ نسخة مكررة من هذا الكتاب. وسوف تفكر نسختك المكررة فيك وبنَسَبِكَ اللانهائي من التكرارات.

سوف يكرر نسلك تفكيرك: لا يوجد سوى أشياء كثيرة وممتلكات كثيرة بشكل محدود، والحالة هي التقليب لهذه الأشياء والممتلكات، إذ يمكن أن يكون هناك فقط الكثير من شؤون الحالة بشكل محدود. لذلك؛ يجب أن تعود. وإذا كرروا مرة واحدة فعليهم التكرار مرةً أخرى. فسَّر بعض الذريين هذه التكرارات بأنَّها تظهر أنَّ الأشياء المعقدة هي أيضًا خالدة. وقد يؤمن المؤمنون بالتناسخ على الحجة الاندماجية كآلية.

---

(١) بعض فلاسفة الهند القُدامى الزاهدون. (المُترجِم)

لكنَّ معظم الذريين ميَّزوا بينهم وبين نسخهم المكررة. وعلى أي حال، فإنَّ الذريين لا يقصدون الخلود كعزاء ضدَّ الخوف من الموت، ليس هناك حاجة، الخوف من الموت غير منطقي، وكما سنرى في الفصل الخاص بلوكريتيوس الروماني Roman Lucretius يجب القضاء على الخوف من الموت بفضح مغالطاته.

هل تواجه صعوبة في تذكر الفرق بين ليوكيبوس ولوكريتيوس؟ كذلك فعل علماء القرن التاسع عشر. ربما أسهمَ هذا التنافس اللفظي في اقتراب موت «ليوكيبوس».

رابعاً: العَدَم الكامِن

رابعاً: العَدَم الكامِن

9. أفلاطون: ظِلال الغياب

رأى الإغريق أنَّ الظلَّ شيء وضيع. يتجسَّد موقفهم في قصة رويت عن الخطيب اليوناني ديموستينيس (322 - 384) Demosthenes قبل الميلاد:

حينما كان في اجتماعٍ مع الأثينيين لم يجبروه على الكلام، أخبرهم أنَّ لديه قصةً قصيرةً يخبرهم بها. وبعد أن صمت الجميع، بدأ فقال: استأجر شاب معيَّن حمارًا في الصيف، للانتقال من هنا إلى ميغارا، وفي الظهيرة تقريبًا، حينما كانت الشمس شديدة الحرارة، وكان كلٌّ من الذي استأجر الحمار والمالك راغبين في الجلوس في ظل الحمار، دفع كلٌّ منهما الآخر بعيدًا، وقال المالك إنَّه لم يؤجِّره إلا ظهره وليس الظل، وأجاب الآخر أنَّه بما إنَّه استأجر الحمار فإنَّ كلَّ ما يخصُّه تحت تصرفه. وبعد أن قال ذلك همَّ بالرحيل. لكن الأثينيين كانوا يريدون سماع تكملة قصته، واستدعوه مرةً أخرى، وطلبوا منه المتابعة. فأجاب: كيف يحدث أنَّك ترغب في سماع قصة ظلِّ حمار، وترفض أن تستمع إلى الأمور الأكثر أهميةً؟ (Plutarch 1914, 5:viii, 52).

«ظل الحمار» كان تمثيلًا لشيء تافه الأهمية. استعمله أريستوفانيس Aristophanes (نحو 446 - 386 قبل الميلاد) في الدبابير (Wasps 191). ولمح له أفلاطون (429 - 347 قبل الميلاد) في فايدروس Phaedrus 260 بعد الميلاد).

كانت الظلال رمزًا للخداع. وفي حكاية إيسوب Aesop (620 - 56 قبل الميلاد) «الكلب والظل»، يعبر كلب جسرًا بقطعة من اللحم في فمه. ويرى ظله في الماء ويخطئ في كونه كلبًا آخر بقطعة لحم ضعف الحجم، فيفتح الكلب الذي يحسد نفسه فمه ليخرج الوجبة الأكبر ويندفع للظل. ولحمه الحقيقي يسقط في التيار ويجرف بعيدًا. فكانت نصيحة إيسوب هي «احذر من أن تفقد الجوهر من خلال الإمساك بالظل».

كما يتضح من القتال على ظل الحمار، يمكن أن تكون الظلال أشياء حقيقية

للرغبة[1]. وليس فقط من الناس، فالسمك يرغب بالظل، ويظلِّلُ مالك الحزين ذو الألوان الثلاثة الماءَ بأجنحته لجذب الفريسة.

يستغلُّ محرِّكو الدمى التشابه بين الأشياء وظلالها، ويوفر مسرح الظل البنية التحتية لرمز الكهف:

وقلت الآن، دعوني أوضح بشكل شخصي إلى أيِّ مدى تكون طبيعتنا مستنيرةً أو غير مستنيرة: انظروا بشر مقيمون في كهف تحت الأرض، له مدخل طويل مفتوح باتجاه الضوء وباتساع داخل الكهف، ها هم منذ طفولتهم، وقد تم تقييد أرجلهم وأعناقهم بالسلاسل، بحيث لا يستطيعون الحركة ولا يرون إلا أمامهم، وتمنعهم السلاسل من الالتفاف برؤوسهم، من فوقهم ومن خلفهم نارٌ مشتعلةٌ من بعيد، وبين النار والسجناء طريق مرتفع. وسترى - إذا نظرت - جدارًا منخفضًا مبنيًّا على طول الطريق، مثل الشاشة التي أمام لاعبي الدمية، التي يعرضون عليها الدمى. (Republic 7.514b – 520a)

منذ أن نشأ السجناء في الكهف فهم يخطئون في الظلال ويعدُّونها حقيقةً. والسجناء «الأكثر حكمة» هم أولئك الأكثر مهارةً في تذكر وتوقُّع مسار الظل. وخلافاتهم تشبه تلك التي يرويها ديموسثينيس بين مالك الحمار ومستأجره.

بصفته كاتبًا مسرحيًّا، كان أفلاطون على دراية بالتشابه بين الظلال والشخصيات الخيالية. الشخصيات نسخ من الناس، وفي بعض الأحيان يكون للنسخ دقة عالية، لكن في حالات أخرى، تكون الشخصيات رسومًا كاريكاتوريةً، يتم تشويهها عن عمد.

بعد لقاء سقراط، اقتنع أفلاطون أنَّ العالم المادي هو نفسه مرحلة، وتمنَّى أفلاطون اكتشاف ما يكمن وراء الكواليس.

---

(1) ثقوب الحمار مرغوبة أيضًا (Lundgren et. al. 2021). في البيئات القاحلة، تحفر الحمير البرية مترين للوصول إلى المياه تحت مجاري الجداول الفارغة. وأصبحت الآبار من هذه الحمير الذكية موارد متنازع عليها بين 57 نوعًا.

علاقة الظل هي دعامة كون أفلاطون (بتعبير أدق: كون العالمين الذي يفضِّله قبل كتابة تيماوس). والأشكال هي الحقيقة المجردة والخفية التي يجب على الفلاسفة أن يجاهدوا لفهمها. وقد كان علماء الفلك اليونانيون استنتجوا بالفعل الشكل الثلاثي الأبعاد للأرض من الظل ثنائي الأبعاد الذي يلقيه على القمر في أثناء خسوف القمر. وأعاد علماء الفيزياء الحيوية إحياء هذا النهج في الخمسينيات من القرن الماضي؛ لاستنتاج البنية ثلاثية الأبعاد للجزيئات من ظلال الأشعة السينية الملقاة على لوحات التصوير. وسمح الجمع بين اللقطات بصبر لعلماء الفيزياء الحيوية باستنتاج أنَّ الحلزون المزدوج يجب أن يلقي الظلال الدقيقة.

الأمثلة الملموسة للشكل تؤدي إلى التعرُّف على هذا الشكل. وإذا بدأت عقولنا مثل الألواح الفارغة فسيكون البحث ميؤوسًا منه. وحتى لو تمت الإجابة عن سؤالنا بشكل صحيح فلن نتمكَّن أبدًا من معرفة إن كانت الإجابة صحيحة. وبدلًا من ذلك فإنَّ عقولنا مثل الألواح التي تم محوها بطريقة قذرة، إذ لا يزال هناك ما يكفي من المعلومات المتبقية من الماضي للسماح بإعادة بناء الحقائق التي تم محوها بشكل غير كامل.

إنَّ ما يمرُّ بالتعليم يشبه الحنين إلى الماضي الذي صوَّره مارسيل بروست Marcel Proust في تذكُّر الأشياء الماضية Remembrance of Things Past . بالنسبة إلى سقراط، تحيي رائحة كعكة مادلين الحقائق المنسية حول الكيك، والاستدارة، والبُنى، والجذع. «التعلم» يشبه العودة إلى مدرسة طفولتك، وسقراط هو البوَّاب الكبير الودود الذي يسمح لك بالدخول، يرشدك خلال المبنى، وحينما تتخذ منعطفًا خاطئًا يترك سقراط الذكريات تتبخَّر، وعند إعادة توجيهك تمرر يدك على الجدران، تسمع أصداء الصالة الرياضية، تشم عروض الكافتيريا، وتضيء جولة سقراط ذكرياتك من خلال تعريضك للتذكيرات بشكل منهجي، لكن البوَّاب ليس مدرسًا.

كلُّ واحد منَّا يعرف كلَّ شيء بشكل خفي، ومن ثَمَّ فهو غير قابل للتعلم. وكلُّ ما يستطيع سقراط فعله هو استنباط هذه المعرفة من شركائه في المحادثة. وفي

المحاكمة، يشرح سقراط فقره، لم يقبل التعليم أبدًا؛ لأنَّ التدريس مستحيل، ففي رأي سقراط «أسلوب التدريس السقراطي» هو تناقض في المصطلحات.

التظليل هو النظير الملموس لعلاقة «المشاركة» المجردة. ولفهم العلاقة الدقيقة بين المسلمات وأمثلتها يبني أفلاطون على العلاقة بين الأشياء وظلالها. فمن المتفق عليه على نطاق واسع أنَّ الأشياء أكثر واقعيةً من الظلال التي تعتمد عليها. ويمكن الحصول على فهم للأشكال من خلال استقراء علاقة الظل.

تأمل العلاقة بين أهرامات مصر والهرميَّة pyramidhood. فبعد بناء «هرم» من ثمانية مستويات جنوب سقارة أصبح الفرعون سنفرو Snefru (نحو 2600 قبل الميلاد) مهتمًّا ببناء هرم حقيقي، هرم ذي جوانب مسطحة، كانت محاولته الأولى في دهشور عبارة عن هرم متساوي الأضلاع ذي قاعدة مربعة، ومع ذلك، ثبت أنَّ وضع الجدران بزاوية 60 درجة شديد الانحدار، وبدأ المبنى ينهار على نفسه. اضطر سنفرو إلى تغيير زاوية النصف العلوي من الصرح، فنتج عن هذا الحل الوسط «هرم بنت».

بذكاء من خطئه، بنى سنفرو الهرم الأحمر العشوائي إلى الشمال فقط. ونظرًا لعدم ثني الجوانب فإنَّه أقرب إلى الهرم المثالي. ويُوصف هرم سنفرو الأحمر بأنَّه «أول هرم حقيقي»، لكنَّ جوانبه ليست مستقيمةً مثل جوانب الهرم الكبير الذي بناه ابنه خوفو Khufu في الجيزة.

بالمعنى الدقيق للكلمة: لا يتوافق أيٌّ من أهرامات مصر مع التعريف الرياضي لـ«الهرم»، يجب أن تقصر جميع الأهرامات المادية عن المستوى المثالي الذي يُوجه بناءَها، وهذا أمرٌ لا مفرَّ منه؛ لأنَّ الأشياء المادية غير مستقرة. ولا يستطيع سنفرو محاذاة الكتل تمامًا، وحتى لو استطاع فلن تظل على الخطِّ نفسه. وشيئًا فشيئًا، تتكسر الأهرامات وتنهار. وفي المقابل، أشكال أفلاطون دائمة، إذ ستستمر الهرميَّة بعد زوال الأهرامات.

يربط أفلاطون الواقع بالديمومة، وبما إنَّ الديمومة تأتي بدرجات فهناك درجات من الواقع. فظلُّ الهرم موجود ليوم واحد ثمَّ ينطفئ عند غروب الشمس، والظلُّ هو خاصٌّ

تابعٌ، اعتمادًا على الكائن الذي يلقي به. ويمكن أن يكون هناك هرم من دون ظله، ولكن لا يمكن أن يكون هناك ظلّ من دون الهرم، فالهرم pyramid بدوره يعتمد على الهرميَّة. لو لم يفكِّر سنفرو في الشكل الهندسي لما أقيم الهرم. ويمكن أن تكون هناك هرميَّة من دون أهرام، ولكن لا يمكن أن يكون هناك هرم من دون هرميَّة.

دفع أفلاطون تشبيه الظلِّ إلى أبعد من ذلك بالتمييز بين الأشكال الدنيا والعليا. فكّر في كيف يستنتج الجيولوجي مساحة سطح غسالة المعادن. أولًا، أضفى الطابع المثالي على الغسالة كحلقة: زوج من الدوائر متحدة المركز (شكل 9.1).

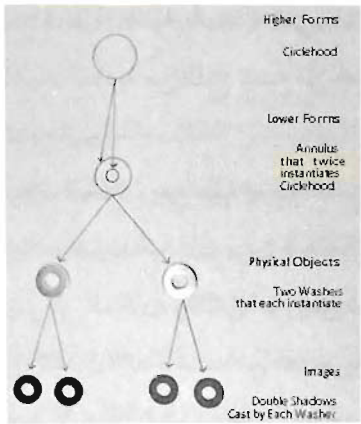

الشكل 9.1 تسلسل التظليل في الميتافيزيقيا لأفلاطون.

حسب مكان الدائرة الكبيرة وطرح مكان الدائرة الصغيرة، والباقي يساوي مكان سطح الغسالة، والحلقة هي شكل سفلي يحكمها الشكل الأعلى، الدائريَّة circlehood. وتمامًا كما يمكن للغسالة أن تلقي بظلالها المزدوجة فإنَّ الدائريَّة تلقي بظل مزدوج للحلقة، دائرة داخل دائرة. والأشكال العليا تحكم الأشكال الدنيا، والعلاقة واحدة من علاقات عدة، وعلامة كونها نسخة هي وجود نسخ أخرى. ونظرًا لأنَّ النسخ نفسها يتم نسخها فإنَّ حالات الدائرة تتدرَّج أسفل سلسلة الوجود.

النسخ غير متماثل، فالدائريَّة تحدِّد الحلقة، والحلقة لا تحدِّد الدائريَّة، الحلقة بدورها تحدِّد الغسالة، والغسالة تحدِّد ظلالها.

بينما نحدق في سلسلة الوجود، فإنَّ التكرار المتواصل يجعل النسخ أكثر خفوتًا، وبينما ننظر للأعلى تصبح الأشياء محدَّدة بشكل أفضل. والتعريفات - مع ذلك - يجب أن تنتهي في نهاية المطاف، ففي الجزء العلوي يوجد شكلٌ واحدٌ على الأقلِّ يمكن فهمه دون الاستفادة من التعريف، ومثل هذا الشكل معروف بالحدس العقلاني. وهذا الفهم يخلق أماكن لاستنباط المزيد من المعرفة. ويوجد أسفل هذا العالم الرياضي للمعرفة من طريق الاستنتاج مجال للأشياء المادية التي يتم الوصول إليها من طريق الإدراك. ويتم تخصيص الأشياء المادية من النوع نفسه من خلال عيوبها، إنهما توأمان يسهل تمييزهما من خلال تشوهاتهما.

تحت الأشياء المادية مجال الخيال، وفي هذا العالم السفلي لا يوجد سوى الصور، التحديق في غسالة ذات إضاءة ساطعة يسبِّب صورة لاحقة، إذ يتم تقديم هذا الكيان العقلي في المكان ولكنه ليس في المكان. والظلال هي صور موجودة في المكان ولكن لا يمكن رؤيتها في المكان، إذ تتكوَّن الانعكاسات من الضوء، والظلال تتكوَّن من غياب الضوء، وتفسِّر هذه الازدواجية الإيجابية / السلبية سببَ وجود انعكاس وظل الغسالة المعدنية على جوانب متقابلة من مصدر الضوء (الشكل 9.2).

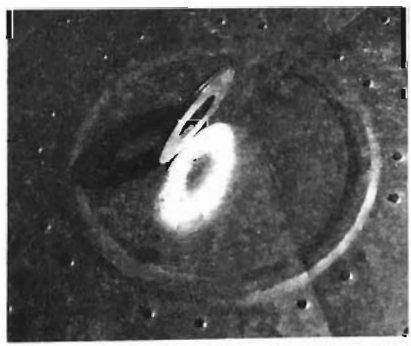

الشكل 9.2 الظل والانعكاس من حلقة معدنية.

يميّز أفلاطون الأشكال الأعلى بأنَّها معروفة بشكل أفضل، وأقل تخيلية، وأقل افتراضية، وأكثر منطقية مِن الأشكال السفلية، ولا يكتفي بأيٍّ من أوصافه، إذ يلمح إلى أنَّ الأشكال العليا لا يمكن وصفها، فقمة الوجود على ارتفاع مذهل، وشكل الخير هو "ما وراء الكائن"

جماليات الغياب

الظلال هي سكان القاع، إنَّها أقلُّ الأشياء واقعية، ومن ثَمَّ فهي أقل الأشياء إثارةً للاهتمام. الظلال لها العزاء في عدم كونها وحيدة، إذ يضمُّ هذا الحي الفقير الميتافيزيقي أيضًا تأملات وأوهامًا و ... فن!

هناك روابط عملية وتاريخية بين الظلال والفنِّ، وكثيرًا ما يتم تصوير الظلِّ على أنَّه تقليد للشيء الذي يلقي به. وفي بورتريه الصور الظلية يمثِّل الفنان الحاضنة من خلال تتبع الخطوط العريضة لظلها. ووصف روَّاد التصوير عملياتهم الكيميائية بأنَّها "إصلاح الظل": تحويل الشبه العابر إلى شكل دائم.

طوَّرَ الفنَّان زيوكسيس Zeuxis (نحو 424 - 380 قبل الميلاد) تقنيةً لرسم الضوء والظل، وتنافس مع فنَّانين آخرين لإنتاج تقليدٍ أفضل للأشياء التي صوَّرها. وكان الرجل الذي يجب التغلُّب عليه هو بارهاسيوس Parrhasius، الذي اشتهر بتأثيراته الخادعة. في مسابقة، حاول زيوكسيس التفوُّق على بارهاسيوس بلوحةٍ لصبيٍّ يحمل طبقًا من العنب، فطارت الطيور إلى الصورة وحاولت أن تأكل العنب. نفد صبره لإعلان الفائز، وطالب زيوكسيس بارهاسيوس الكشف عن لوحته، فتردَّد بارهاسيوس، وبفارغ الصبر، تقدَّم زيوكسيس إلى اللوحة لإزالة الستارة، لكن "الستارة" نفسها كانت رسمًا! خدع زيوكسيس الطيور لكنَّ بارهاسيوس خدعَ زيوكسيس!

حينما تم إخبار رسَّام البورتريه غودفري كنيلر (1646 - 1723) Godfrey Kneller بهذه الأسطورة، استخفَّ بزوكسيس: "لو كان الصبيُّ قد رسم مثل العنب لكانت الطيور

تخشى التدخُّل معه" (Fadiman 1985, 333).

كان لدى أفلاطون نقد أكثر جوهرية لزيوكسيس: تقليد العنب لا يمكن أن يكون جيدًا مثل العنب نفسه، فحينما يمسك المرء شكل العنب، العنبيَّة، يدرك المرء أنَّ لوحة العنب هي مجرَّد ظلٍّ لظلٍّ.

الأفلاطونية كانت سلبيةً تجاه الأعمال الفنية، حينما حثَّ أحد الأصدقاء الأفلاطونيين المحدثين أفلوطين 270 - 205) Plotinus بعد الميلاد) على رسم صورته، رفض أفلوطين: "إنَّه لأمر سيِّئ بما يكفي أن يُحكم عليك بالتجوُّل حول هذه الصورة التي سجنتني فيها الطبيعة. لماذا يجب أن أوافق على إدامة صورة هذه الصورة؟" (1991, 5 .vol).

ومع ذلك، أثار إعلان عالم الآثار ستيفن ميللر Stephen Miller أنَّ تمثالًا نصفيًّا لأفلاطون كان حقيقيًّا بالنسبة إلى المؤرخين. وفي حين أنَّ معظم التماثيل النصفية لأفلاطون كانت مثاليةً فإنَّ التمثال الموجود في متحف هيرست في بيركلي يصوِّر أفلاطون بأذنه اليسرى التالفة، وهو أمرٌ شائعٌ بين المصارعين الذين ضربهم الخصم الأيمن (شكل 9.3). "أفلاطون" هو في الواقع لقب مصارعة يعني "ذا الكتفين العريضين". (كان الاسم المعتاد لأفلاطون هو Aristocles، بمعنى "حسن السمعة").

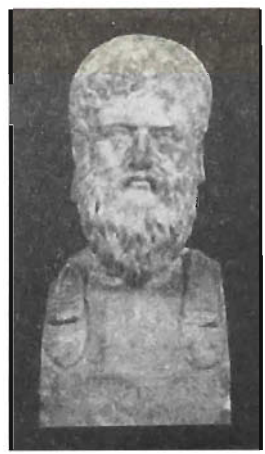

الشكل 9.3 تمثال حقيقي لأفلاطون؟

يستغلُّ الفنَّانون البارعون الفرص التي تتيحها جماليَّات أفلاطون الغامضة. ويختتم ويليام شكسبير (William Shakespeare 1564 - 1616) حلم ليلة منتصف صيف (الفصل 5، المشهد 1) بدعوةٍ غير متوقَّعة للتسامح:

إذا كُنَّا نحن الظِّلال قد أسأنا،
فليتخيَّل كلّ منكم، وسيكون كلُّ شيء بخير،
إنَّه كان هنا ولكن غلبَهُ النوم،
ورأى ما شاهد في الأحلام،
فالموضوع ضعيف فارغ،
لم يُثِر إلَّا حلمًا.

عالم الأحلام ملاذ من الأخلاق. نحن لا نخطئ في ظلم شخص ما في المنام. لا نعاني من أيِّ ضرر لكوننا ضحايا في الحلم. لذا؛ إذا كانت الصور مثل الأحلام فليس لدينا أيُّ سبب لانتقاد الممثلين والكتَّاب المسرحيين، إنَّهم محميون بعدم ارتباط الخيال بالواقع.

يستعمل فنَّانون آخرون نظريَّة أفلاطون لترتيب هذا النوع على الأنواع المنافسة. مثلًا: يصنِّف النحَّاتون التماثيل أعلى من اللوحات؛ لأنَّ أبعادها الثلاثية تجعلها أكثر واقعية، ويمكنك التجوُّل حولها ورؤيتها من جميع الجوانب وحتى الشعور بخطوطها.

يصوِّر هنري وادزورث لونجفيلو (Wadsworth Longfellow 1807 - 1882) مايكل أنجلو على أنَّه يقول بتفوُّق الرسَّامين والنحَّاتين:

آه، للبناء، للبناء!
هذا هو أنبل فنٍّ في كلِّ الفنون.
الرسم والنحت ما هي إلَّا صور،
هي مجرَّد ظلال تلقيها أشياء خارجية
على الحجر أو القماش، ليس لها في حدِّ ذاتها

وجود منفصل. العمارة،
موجودة في حدِّ ذاتها، وليست في الظهور
كشيء ليس كذلك، تتفوّق عليها
كجوهر الظل. (Longfellow 1922, 542)

في الواقع، تنطبق واحدة من أكثر ملاحظات أفلاطون القاطعة بقوّة خاصّة ضدَّ الهندسة المعمارية، فالهياكل الشاهقة معرَّضة بشكل خاصٍ للوهم المتقادم. لذلك؛ يشوِّه المعماريون اليونانيون الأبعاد؛ لخلقِ مظهرٍ يتناسب بشكل جيد. مثلًا: أعمدة البارثينين مائلة ومدبَّبة لجعلها تبدو مباشرة من منظور المراقبين على الأرض. ويشكو أفلاطون من أنَّ المهندسين المعماريين مذنبون بنسخ مظهر المظهر:

إذا قدَّم الفنَّانون النسب الحقيقية لأعمالهم العادلة فإنَّ الجزء العلوي الأبعد سيبدو غير متناسب مقارنةً بالجزء الأدنى الأقرب. ولذا؛ فإنَّهم يتخلّون عن الحقيقة في صورهم ويصنعون فقط النسب التي تبدو جميلةً، متجاهلين النسبَ الحقيقية. (Sophist 236, trans. Benjamin Jowett).

يعرِّض أفلاطون نفسه لإثبات أنَّ سلسلة الوجود العظيمة ليس لها قاع: فرسمة العنب درجة أقلّ من واقع العنب، رسم لوحة من العنب سيكون أقلَّ درجةً من الواقع، وأقلُّ من ذلك سيكون لوحة من لوحة من لوحة العنب. وهلمَّ جرًّا أسفل حفرة ناجارجونا التي لا قعرَ لها.

إنَّ خطر السقوط الحرِّ الميتافيزيقي ناتج من اختلافٍ منطقيٍ بين الظلال واللوحات، وكلُّ شيء آخر يضعه أفلاطون في القاع (الخاطئ)، مثل الانعكاسات والأوهام. ويمكن أن تكون هناك لوحات للوحات، لكن لا يمكن أن يكون هناك ظلال لظلال. توفِّر الظلال فقط قاعًا ثابتًا لميتافيزيقيا أفلاطون.

ومع ذلك، يحتاج أفلاطون أيضًا إلى أن تكون علاقة الظل علاقة انتقالية transitive مثل علاقة السلالة، ويفترضُ تشبيهه المعقَّد الذي يمثِّله الخط المقسم أنَّه إذا كان A هو

ظل B وB هو ظل C، فإنَّ A هو ظل C.

هناك حاجة أيضًا إلى الانتقال في قصة الكهف. يرى السجناء ظلَّ تمثال حصان بدلًا من ظلِّ الحصان نفسه. إذا كانت علاقة الظل ليست انتقاليةً فإنَّ الظلَّ على الحائط لا يحمل العلاقة مع الحصان الذي يدَّعي أفلاطون أنَّه يحمله بين الحصان والحصانيَّة horsehood. ويزداد إرباك القصة الرمزية من حقيقة أنَّ السجناء يمكنهم رؤية ظلالهم وربَّما ظلال سلاسلهم. هذه ظلال للأشياء وليست ظلال تمثيلات للأشياء، فيكمن نوعان من الظلال في الكهف.

هل يستطيع أفلاطون إعادة صياغة الميتافيزيقيا الخاصَّة به مع علاقة التقليد؟ التقليد انتقالي: إذا قمتُ بتقليدكَ وأنتَ تقلدُ كَنغرًا فأنا أقلد الكنغر. ومشكلة جعل التقليد بدلًا من الظلال هي أنَّ التقليد مصطنع، وهذا يعتمد على هدف المقلد، فحينما تقلِّد الكنغر فإنك تنوي أن تشبهَ الكنغر. (حينما كان أفلاطون يجهل حيوان الكنغر لم يستطع تقليد الكنغر). وظلُّك لا يقصد شيئًا، وبالنتيجة لا يقلدك. الظلال في مسرح الظلِّ هي تقليد؛ لأنَّ محرِّك الدمى يقصد منها أن تشبه الأشياء.

يمكن أن تتضمَّن مسرحيات الظلِّ بعض الظلال غير التمثيلية، فأحيانًا يصنع محرك الدمى الظلال؛ من أجل جمالها الجوهري، وليس بهدف تمثيل أيِّ شيء.

يصوِّر أفلاطون كلَّ الشعر على أنَّه تجريبي، لكنَّ الشعر البدائي ممكن. وبالنسبة إليَّ جعلته فعليًّا:

قصيدة لفيثاغورس

الأربعة

هي ثلاثة

زائد واحد.

الثلاثة

هي ثلاثة

أو واحد زائد اثنين

الاثنان

هي واحد

وواحد

هو واحد

القصائد الهندسية ملطَّخة بصور الأشكال، فمن خلال التمسُّك بالأرقام تأكَّدتُ من أنَّ قصيدتي تعبِّر عن حقائق حرفية وليس أكاذيب.

معظم الأشياء المادية لا تقلد؛ لأنَّ التقليد يتطلَّب النية، أو على الأقل التصميم. إذ تحاكي طيور الوقواق مكالمات الأنواع المضيفة. وتقلِّد فراشات فيسروي فراشات الملك السامَّة حتى لا تأكلها الطيور ولكن حتى في هذا المجال المحدود من الذكاء يميِّز علماء الأحياء بين التقليد والتشابه العرضي، فالعلامات الموجودة على أجنحة بعض الفراشات تشبه الوجه، ولكنَّها فقط تشبه وجهًا بطريقة عرضية كما يشبه القمر وجهًا.

يمكن أن يحاول أفلاطون تعميم التقليد من خلال افتراض مصمم رئيسٍ وفي كتاب تيماوس يتكهَّن أفلاطون حول خالق الكون المادي demiurgeالذي ينظِّم الكون من فوضى أولية من العناصر البدائية، وربَّما يصوِّر خالق الكون المادي كلّ الأشياء الدنيا لتقليد العليا.

يستدعي أفلاطون خالق الكون المادي بوصفه "قصةً محتملةً" لشرح الظواهر الطبيعية. ويشاركه الكثيرون في شكوكه حول ما إذا كان موجودًا، وهم أيضًا غير راغبين في عَدِّ التقليد بمنزلة دعامةٍ للكون (بالأحرى علاقة أكثر عمومية مثل السببية). ومثلما يتَّضح من حوارات أفلاطون حول المعتقد الخاطئ، أراد أفلاطون أن يشرح كيف يكون التمثيل ممكنًا، فالتقليد يفترض التمثيل، ومن ثَمَّ لا يمكن تفسيره.

ابستمولوجية الضوء والظلام

حينما تنزل من سلسلة كينونة أفلاطون هناك المزيد والمزيد من التغيير، فالمعرفة تتطلَّب الاستقرار. لذلك؛ تقتصر المعرفة على الأشكال. وبمجرد أن ننخفض إلى مستوى الأشياء المادية يجب أن نلجأ إلى حواسنا. والإدراك يمكن أن يعطي الرأي فقط. ويستعمل أفلاطون تشبيهًا بصريًّا لشرح سبب كون الرؤية أدنى من العقل:

والنفس مثل العين: حينما تستقرُّ على ما يضيء الحقّ والوجود، تدرك النفس وتفهم وتشعُّ بالذكاء، ولكن حينما تتحوَّل نحو شفق الصيرورة والموت، يكون لها رأي فقط، وتلمح، وهي أولًا رأي ثمَّ رأي آخر، ويبدو أنَّها لا تملك أيَّ ذكاء. (Republic 7.88).

تفوُّق العين يطغى على نية أفلاطون لتشويه سمعة المعرفة الإدراكية، فالنور معرفة، والظلام جهل. ولا يستطيع أفلاطون مقاومة تصوير المعرفة من منظور بصري. وهذا يضمن أنَّ الظلال سوف ترتبط بالمجهول، وستكون دراسة الظلال مشروعًا مستحيلًا: محاولة لمعرفة ما هو غير معروف في جوهره.

تتجسَّد هذه الشكوك حول دراسة الظلال في قصة الكهف، فالسجناء الأذكياء يصبحون بارعين في التنبُّؤ بالظلال، لكنَّ الظلال ليست موضوعًا للمعرفة.

حينما يدرك الفرد الأشكال لأول مرة فإنَّه يشبه سجينًا في الكهف تمَّ فكُّ قيوده ولديه الحرية في توجيه رأسه نحو الأشياء التي تلقي بظلالها، فيرى الآن أنَّ هناك واقعًا أكثر من الظلال. والصعود من الكهف ليس سلسًا؛ لأنَّه ليس على دراية بالأشياء الجديدة. وحينما يصل إلى السطح، لا يزال غير قادر على الرؤية؛ الضوء القوي يبهره.

بينما يتكيَّف السجين المفرج عنهم مع العالم العلوي، فإنَّه مندهش مِمَّا يتمُّ الكشف عنه في وضح النهار. وفي النهاية، سيكون قادرًا على التفكير في مصدر كلِّ إضاءة، الشمس. وفي أسطورة الشمس، يقارن أفلاطون شكل الخير بالشمس، فشكل الخير هو أصل كلِّ شيء ويدعم كلَّ شيء. فمثلما ينير ضوء الشمس كلَّ شيء للعين فإنَّ شكل الخير هو مصدر كلِّ المعرفة.

إذا كانت الظلال من بين الأشياء المجهولة، فلماذا يكون أفلاطون واثقًا جدًّا من ادعاءاته حول طبيعتها؟ يمكن أن يكون لدى أفلاطون معرفة بالظلال فقط إذا كان هناك شكل للظلال. ومع ذلك، يتردَّد أفلاطون في الإقرار بوجود أشكال للأشياء المتواضعة مثل الطين. وإذا لم يكن لدى أفلاطون معرفة بالظلال فلن يعرف أنَّ الميتافيزيقيا الخاصَّة به تستعمل علاقة الظلِّ بشكل صحيح لتنظيم الكون. ولا يمكنه أن يعرف أنَّ الظلال أقلُّ واقعيةً من الأشياء التي تلقيها.

التمييز بين المظهر والواقع للظلال

يتَّفق الكثير من الناس مع توصيف أفلاطون للظلال على أنَّها أوهام. لكن في الممارسة العملية هم يرسمون تمييزًا بين المظهر والواقع داخل عالم الظلال، إذ يمكن الكشف عن البقعة الداكنة التي تشبه الظل على أنَّها بقعة، والعكس صحيح. ويميل الناس إلى تسمية البقعة الداكنة بالظل إذا كانت تشبه شيئًا ما، وهذا يقود بعضهم إلى إنكار أنَّ الظل غير المتمايز هو الظل.

صحيح أنَّه يتم تحديد الأشكال ذات المعنى بسهولة أكبر من الأشكال التي لا معنى لها، إذ يتم تفسير الأشكال التي لا معنى لها على أنَّها المسافة بين الكائنات بدلًا من الكائنات. ونظرًا لأنَّ الخبرة السابقة تؤثِّر في تنظيم الشكل، يختلف المراقبون أحيانًا في ما إذا كانوا يعدُّونَ البقعةَ ثعبانًا أسود.

ومع ذلك، لا يمكن أن تعتمد الظلال حقًّا على قدرتنا على تصنيفها إلى شكل مألوف، فإمكانية التعرُّف تختلف مع التوجُّه، فالبقعة الداكنة التي تبدو غير محدَّدة من منظور أحدهم يمكن أن تبدو وكأنَّها وحيد القرن من منظور آخر، فظلُّ الأرض، الليل، يبدو مخروطيًّا فقط من منظور رائد الفضاء.

يرفض المشاهدون تصوير الظلال التي تمزج عجلات الظل مع ظلالها (شكل 9.4)، إذ يُنظر إلى هجين الظل والكائن بحقٍّ على أنَّه كائن مستحيل.

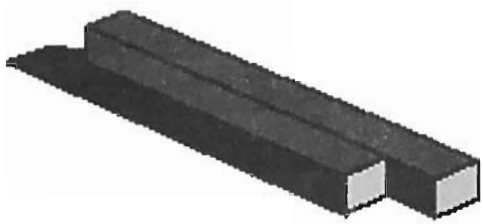

الشكل 9.4 الظل الممتزج.

يتضمَّن نصب ستيفي راي فون Stevie Ray Vaughn ظلَّه (شكل 9.5)، لكنَّ هذا المركَّب ليس تمثالًا لستيفي راي فون وظله.

الشكل 9.5 نصب ستيفي راي فون التذكاري (النحَّات رالف هيلميك Ralph Helmick).

الظلُّ هو وسيلة مساعدة بصرية وليس جزءًا من الكائن الجمالي. ولا يلاحظ المشاهدون عادةً البركة البرونزية التي تشكِّل "الظلَّ"، فالنظام البصري يقمع الوعي بالظلال، وهذا يمنع الظلال من أن تكون مخطئةً ككائنات. وتحتوي الظلال على معلومات مفيدة حول كيفية وضع أجزاء الكائنات بخصوص بعضها الآخر، وكيفية وضع الكائن في المشهد.

مثلًا: يمكنك حساب موضع مقبض فنجان القهوة من طريق استغلال الظلِّ الذي يلقيه المقبض على السطح الأسطواني، بالإضافة إلى ظلِّ الكوب المصبوب على المنضدة، بالإضافة إلى ظلِّ يدك التي تقترب. فالحساب محفوظ من الوعي، وتحرير الظلال يجعلك تركز على ما هو مهمٌّ عمليًّا: الشيء المادي. ويستغل النحات حقيقة أنَّ الظلَّ المزيَّف يمكنه أداء نفس خدمة الظل الحقيقي.

يمكن تغطية الظل المزيف بمنشفة بيضاء، إذ يتفاجأ أطفال ما قبل المدرسة من عدم إمكانية تغطية الظل الحقيقي بمنشفة بيضاء (Casati 2018, 158)، فيعاود الظل الظهور بشكل أغمق على الخلفية البيضاء. وتخرج الظلال الأصيلة "من المدرسة العسكرية للحياة: كل ما لا يقتلني يجعلني أقوى" (Nietzsche [1889] 1998, 58).

هل يستطيع سجناء أفلاطون رسم تمييز بين المظهر والواقع داخل عالم الظلال؟ في الواقع هناك أناس لا يرون سوى الظلال. ويغمي إعتام عدسة العين على العين بحيث يمكن فقط إدراك الضوء والظلام. وقد وُلد بعض الأطفال بهذه الطريقة، وعلى الرغم من أنَّهم يرون الظلال فقط فإنَّهم يرون ثلاثي الأبعاد.

يتمتَّع مرضى الإعتام الخلقي Congenital cataract بميزة القرائن اللمسية والخطابية حول كيفية تفسير ما يرونه، وقد شعروا بالأشياء المرتبطة بالظلال، وأخبرهم آباؤهم كيف يفسرون ما يرونه. وشجِّع هذا الذين يعانون من إعتام عدسة العين على التمييز بين المظهر والواقع وتصور الواقع ثلاثي الأبعاد. هل يمكن تحقيق ذلك من دون أدلَّة

ملموسة وخطابية؟

يمكن الإجابة عن هذا السؤال من طريق تعديل كهف أفلاطون، فبدلًا من محاولة خداع السجناء نحاول الآن تثقيفهم، فنحن نعمل تحت قيدين، لا يمكننا تثقيفهم من خلال حاسة اللمس، ولا يمكننا أن نروي ما يرونه، فيجب أن تدرس الدروس بيانيًّا.

يجب أن نأخذ المشورة من علماء النفس الإدراكي. كيف يمكنهم حثُّ السجناء على رسم التمييز بين المظهر والواقع للظلال فقط من خلال توفير عينة من الظلال؟ ما العينات التي سيختارها الخبراء؟

أحد المرشَّحين هو جزءٌ من وهم شبكة هيرمان Hermann - Grid. وهي مجموعة من الظلال تلقيها شبكة من الرقع المستطيلة (شكل 9.6).

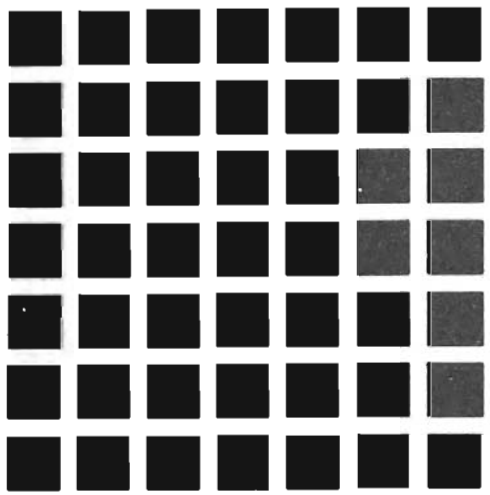

الشكل 9.6 وهم شبكة هيرمان.

تبدو مستطيلات الظلِّ سوداء جدًّا؛ بسبب التباين مع الضوء الأبيض. وعند التقاطعات يكون هناك المزيد من الضوء، وبالنتيجة يكون التباين أقلَّ، ومن ثَمَّ "يرى" السجناء نقاطًا رماديةً شبحيةً تظهر بشكل متقطع، ويتم إنشاء النقاط الرمادية المسقطة بالاختلافات في التباين، فالظلال هي أشياء حقيقية تم إنشاؤها بواسطة التباين.

في صورة فوتوغرافية سلبية لشاشة الشرفة المتسخة يواجه المشاهد صعوبةً في تمييز النقاط المسقطة من نقاط الأوساخ الفعلية (الشكل 9.7). فحينما تتزامن النقطة

المسقطة مع نقطة حقيقية يعاني المشاهد من "هلوسة حقيقية"[1]. ويتطابق محتوى النقطة المسقطة مع النقطة ولكن بطريقة عرضية. ويتطلَّب الإدراك وجود علاقة شبيهة بالقانون بين المحتوى والمشهد. ومباراة الحظِّ لا تكفي لرؤية النقطة.

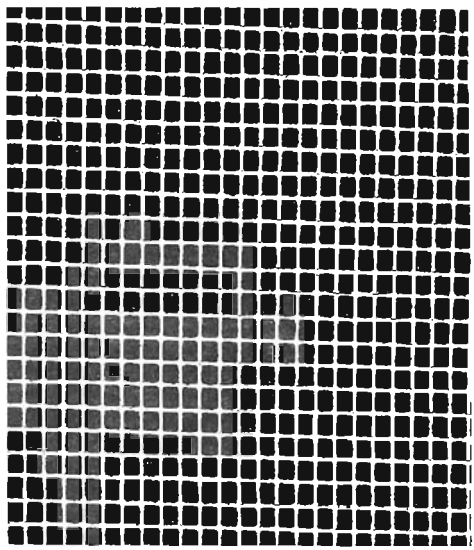

الشكل 9.7 الصورة الفوتوغرافية السلبية لشاشة متّسخة.

يمكن لعلماء النفس بعد ذلك أن يُظهروا للسجناء ظلًّا مربَّعًا به أربعة ثقوب على شكل باك مان. وحينما يسطع الضوء من خلالها يبدو أنَّنا نحصل على ظلٍّ "أغمق من الأسود" في الظلِّ (شكل 9.8).

(1) يعرِّف الفلاسفةُ "الوهم" بأنَّه تصوُّر يشوِّه خاصية شيء أو علاقة. "الهلوسة" مخصَّصة للتشويه الذي يقدم شيئًا غير موجود. ووهم شبكة هيرمان لا يتناسب مع هذه التعريفات؛ لأنَّ النقاط المسقطة لا تتوافق مع النقاط في المشهد، فنادرًا ما تتوافق المهلوسات نفسها مع التعريف، وتعاني من تشوُّهات في طبيعة ما هو حاضر. ونادرًا ما تعرض شيئًا مثل الأرنب العملاق في كوميديا هارفي عام 1950. عادةً ما يدرك المهلوسون أنَّهم يهلوسون، وليسوا موهومين.

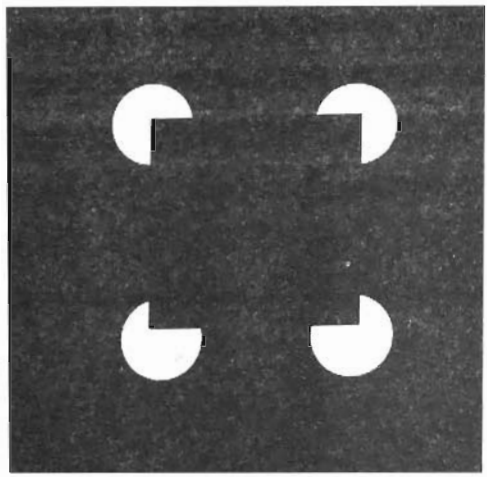

الشكل 9.8 أكثر سوادًا من الظلِّ الأسود.

لا يوجد فرقٌ بين مستوى ظلمة "المربَّع" الصغير والمربَّع الكبير، لكنَّها في الحقيقة مجرَّد كفاف ذاتي.

ميزة أخرى مثيرة للاهتمام من "الظل" الداخلي هو أنه يبدو أنه يطفو فوق ظل الخلفية. ونميل إلى تصوير سجناء أفلاطون على أنَّهم محصورون في عالم ثنائي الأبعاد. لكنَّ منبِّهًا ثنائي الأبعاد يمكن أن ينتج تمثيلًا ثلاثي الأبعاد. وقد أظهر والاش Wallach وأوكونيل 1953) O'Connell) هذا الأمر بشكلٍ كبيرٍ من خلال الظلِّ المصبوب بواسطة سلك منحنٍ عشوائيًا، إذ تم تثبيت السلك الصلب على قرص دوَّار بحيث يمكنه الدوران على محوره العمودي. وحينما ينظر الشخص إلى الظلِّ الذي يلقيه السلك يبدو الظلُّ ثنائي الأبعاد. وحينما يتم تدوير السلك ببطء يظهر الظلُّ على الفور في شكل ثلاثي الأبعاد (ويحقِّق العارض مزيدًا من التقدُّم في تمييز شكل السلك). وحينما يتوقَّف السلك عن الدوران يستأنف الظلّ على الحائط مظهره ثنائي الأبعاد. ويُعرف هذا بتأثير العمق الحركي.

تجعلنا الحركة البيولوجية نربط الظلال التي تبدو غير مرتبطة عند رؤيتها في حالة السكون، إذ يعرض علماء النفس للمشاركين ستَّ نقاط سُود تبدو وكأنَّها مجموعة عشوائية. وفي الواقع، إنَّها تتوافق مع المواقع المشتركة للقط. ويصبح هذا واضحًا حينما يقوم علماء النفس بتحريك العرض؛ يقوم الأشخاص على الفور بتوصيل النقاط كقط.

الظلال أكثر موضوعيةً من الصور اللاحقة. فبعد أن ترى الفلاش من الكاميرا ترى فقاعةً "تطفو" بشكل متقطع حول الغرفة. وعلى الرغم من أنَّ الصورة معروضة في المكان، فإنَّها ليست موجودةً بالفعل. وفي المقابل، فإنَّ ظلَّ الشجرة موجود في المراعي المشمسة. ويمكنك قياس أبعادها الدقيقة وتصويرها حتى الوصول إلى الظلِّ لتشعر ببرودة، لكنَّ ظلَّ الشجرة لا يمتصُّ الضوء ولا يحجب الضوء، فالظلال هي غياب الضوء.

إذا عُرض على سجناء أفلاطون ظلال من النوع أعلاه، فسيكون لديهم سبب لرسم تمييز المظهر/ الواقع داخل عالم الظلال. لذلك؛ لا يستطيع أفلاطون تحديد الظلال بالمظاهر والأوهام.

يرفض معظم الفلاسفة المعاصرين وجهة نظر أفلاطون القائلة بأنَّ هناك درجات من الواقع، إذ لا يمكن أن يوجد شيء في منتصف الطريق، إذا كانت هناك لقياس وجودها فهي موجودة هناك. الوجود أبيض وأسود، وبالنتيجة، الظلال إمَّا موجودة أو لا! يمكنني أن أستمرَّ في الحديث عن أفلاطون، لكنني أخبرتك بالفعل أكثر مِمَّا أعرف.

10. أرسطو: الغياب الكامِن

ضع بحسبانك كأسين: الكأس المتزايد في الوقت الحالي في منتصف الطريق نحو الامتلاء (الشكل 10.1). والكأس المتناقص في الوقت الحالي في منتصف الطريق نحو الفراغ. وفي الوقت الحاضر، هل أي من الكؤوس نصف ممتلئة أم نصف فارغة؟

a

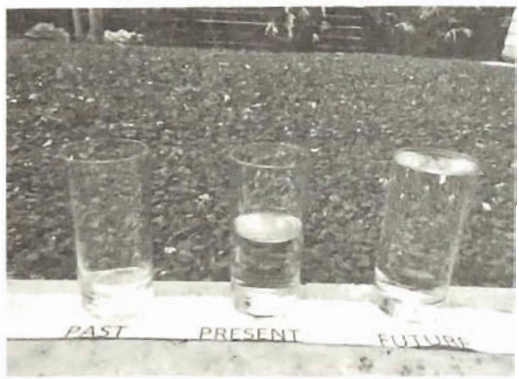

b

الشكل 10.1 الكأس المُزايد والمتناقص.

يشعر الكثيرون بأنَّهم مضطرون إلى الإجابة بشكل موحَّد؛ لأنَّ الكأسين متطابقان نوعيًّا؛ إمَّا كلاهما نصف ممتلئ أو كلاهما نصف فارغ. ويفضِّل أرسطو Aristotle الاستجابة الديناميكية: تعتمد الإجابة على ما إذا كنتَ تقوم بالملء أو التفريغ، فالكأس المتزايد نصف ممتلئ؛ لأنَّه في عملية تعبئة. والكأس المتناقص نصف فارغ؛ لأنَّه في عملية إفراغ. ويجب ألَّا نقصر الانتباه على الحالة الفعلية والحالية لمحتوى الكأس، فكصفة "نصف فارغ" يشير إلى حالة، وكفعل "نصف فارغ" يشير إلى عملية، وهذه صفات أفعال أرسطو.

كلُّ شيء يتكوَّن من تاريخه وإمكانياته، أنتَ أكثر مِمَّا أنت عليه الآن، وأنتَ أيضًا ماكنت عليه وما ستكون وما كان يمكن أن تكون عليه. وفي حين أنَّ المؤرِّخ مقيَّد بما كان عليه الحال فإنَّ الشاعر يتخطَّى الاحتمالات، فالخيال يحرِّر الشاعر من الخصوصية. وهذه الشمولية تجعل الشعر أكثر فلسَفَيَّةً من التاريخ.

يشحذ آرثر شوبنهاور Arthur Schopenhauer تناقض أرسطو مع نقطة شريرة: "تختلف فصول تاريخ الطبيعة من الأسفل فقط عبر الأسماء والتواريخ؛ المحتوى الأساسي حقًّا هو نفسه في كلِّ مكان" (1819، 2: 442)، والمؤرِّخ يتحرَّك على جلد البشرية، والشاعر يصل إلى القلب.

يجب ألَّا تكون متمركزًا حول الذات بشأن التغيير، إذ يتطلَّب التغيير علاقةً متبادلةً بين المغير والمتغير. تمتلك الشجرة الموجودة على منحدر قوة سلبية للسقوط في اتجاه المنحدر، ويؤدي تقطيع الشجرة بشكل نشط إلى ظهور مظهر من مظاهر هذا التصرُّف للأصل الموجَّه. فافترض أنَّك لست من مدرسة الحطابين الطاوية، بدلًا من العمل مع الطبيعة، تريد أن تسقط الشجرة في الاتجاه المعاكس للمنحدر. الآن يجب عليك تغيير المسار الكامن للشجرة من طريق حزِّ الجذع. ويعمل التقطيع النشط على تشغيل هذا المفصل.

"كن كل ما يمكنك أن تكون" أمرٌ مستحيل، فإمكاناتك ليست قابلةً للتحقيق. ومع

تحقيق بعض الإمكانات يصبح بعضها الآخر غير صالح. "يولد كلُّ رجل عددًا كبيرًا من الرجال ويموت كرجل واحد". كان بإمكان مارتن هايدجر Martin Heidegger قول ذلك. لكنَّه لم يفعل.

من ناحية الوقت، الاحتمالية تسبق الواقع: يجب أن يكون الرجل صبيًّا أولًا. ومن ناحية التعريف، الواقعية تسبق الاحتمالية، فيجب الاستشهاد بالفعلي في توصيف الإمكانات. وأن تكون طفلًا يعني أن تكون قادرًا على التطوُّر إلى رجل. وأن تكون مرئيًّا يعني أن تكون قادرًا على أن تكون مرئيًّا. و"قابل للبناء" تعني "قابلًا لأن تكون مبنيًّا".

الخلافات حول ما إذا كان الكوب نصف ممتلئ أو نصف فارغ تكون ملتبسةً عند افتراض أهداف مختلفة. وإذا كانت الأهداف المختلفة عبارة عن معرفة مشتركة بين المتنازعين فإنَّ السؤال يكون منطقيًّا فقط لكونه خلافًا حول الأهداف التي يجب السعي وراءها.

الغياب النسبي

إذا لم يكن هناك أحد في مكتبة مخزنة بالكامل، فهل المكتبة فارغة؟ نجيب بنسبية: المكتبة خالية من الناس ولكنَّها مليئة بالكتب. ومعظم الحجج السفسطائية حول الغياب تراوغ بين المترابطات المختلفة.

أنت لست في ستاجيرا.

ومن ثمَّ، فأنت في مكان آخر.

إذا كنت في مكان آخر، فأنتَ لست هنا.

لذلك، أنتَ لست هنا.

حلُّ مفارقة الغياب هو أنَّ "هنا" نسبي للمكان، فيكون الاستنتاج خاطئًا حينما يتم ربط "هنا" بالمكان الذي تم فيه تأكيد الاستنتاج، ولكنَّه يكون صحيحًا بالنسبة إلى أيٍّ من الأماكن التي يغطِّيها "مكان آخر". وتسمح نسبية الغياب لأرسطو بتمييز الغيابات

بدلًا من تجميعها في كرة متشابكة من العدم.

هناك الكثير من طرق عدم الوجود أكثر من الوجود؛ لأنَّه لا يوجد سوى نتيجة فعلية واحدة ولكن الكثير من النتائج المحتملة. وهذا يفسِّر سبب كون الأوصاف الإيجابية أكثر تحديدًا من الأوصاف السلبية، ولماذا يكون النجاح أكثر صعوبةً من الفشل، ولماذا تكون الفضيلة أضيق من الرذيلة (Nicomachean Ethics, Book 2).

ليس الوجود كتلةً متراصةً، لا يزال أقلَّ من ذلك. ويقبل أرسطو بأنَّ الإغفالات يمكن أن تكون أسبابًا. ومثاله هو حطام السفينة الناجم من غياب الربان، لكنَّ السببية من طريق الغياب يجب أن تتمَّ دائمًا في إطار الوجود، فـ"الغياب" هو نوعٌ من العنصر النائب لشيء إيجابي.

الغياب الفعلي مقابل الغياب الكامن

أرسطو يناقض أناكساجوراس، فهناك الكثير من حالات الغياب النسبي، فقط لا توجد غيابات مطلقة. كان أرسطو يعدُّ إجابة أناكساجوراس عن السؤال: "هل الكأس نصف فارغ أم نصف ممتلئ؟" (لا هذا ولا ذاك؛ العَدَم فارغ تمامًا، العَدَم ممتلئ تمامًا) أقرب إلى الحقيقة من إجابة ليوكيبوس (كلاهما؛ النصف ماء والنصف فراغ). فمن خلال إنكار أنَّ الكأس نصف فارغ يشير أناكساجوراس بشكل صحيح إلى أنَّه لا يوجد فراغ.

ومع ذلك، فإنَّ أرسطو يرفض حظر أناكساجوراس على العينات النقية، إذ يمكن أن يكون الماء الموجود في الكأس ماءً نقيًّا.

اعتقد أناكساجوراس أنَّ X يمكن أن يتغيَّر إلى Y فقط إذا كان كلُّ شيء ممزوجًا مسبقًا. والبديل لأرسطو هو أنَّ الخلط يمكن أن يحدث من طريق تنشيط إمكانات المكونات، إذ تؤدّي إضافة ملعقة من السكر إلى الماء إلى خليط حقيقي، ماء السكر؛ لأنَّ المكوِّنات تبقى حيةً وتُسهمُ في تكوين كامل موحَّد جديد.

الفراغ الكامن

تنازل أرسطو الوحيد لليوكيبوس هو أنَّ الفراغ يمكن تقريبه، فالهواء أقرب إلى الفراغ من الماء، لكنَّ هذا لا يعني أنَّ الفراغ ممكن. ويمكن أن تقترب الأشكال أكثر فأكثر من كونها مربعة مستديرة (الشكل 10.2)، لكنَّ هذه التقديرات التقريبية لا تظهر أنَّ المربع الدائري يمكن أن يكون حقيقيًّا.

الشكل 10.2 تقريب المربَّع الدائري.

يمكن أن يصبح الجسم أكثر ندرةً؛ لأنَّ المواد مرنة، فهي ليست ثابتةً في الحجم مثل الذرات. وليست هناك حاجة إلى خواءات بينية؛ لأنَّ المادة متمدِّدة s - t - r - e - t - c - h - e - s . بلاط رخامي يتضخَّم مع حرارة الصيف. ومع انخفاض الكثافة، تقلُّ المادة لكلِّ وحدة مكان. لذلك؛ المكان مشغول بشكل أقل كثافة، ولكن المكان ليس شاغرًا أبدًا، فالندرة لا يمكن أن تكون كاملة.

الفراغ يشبه اللانهاية: دائمًا محتمل، وليس فعليًّا أبدًا. وإذا واصلت تقسيم الخط فستنتج مقادير أصغر وأصغر، لكن التسلسل لا ينتهي بأصغر حجم.

إنَّ وجود حجم أصغر من شأنه أن يحلَّ مفارقة تقسيم زينو، فعلى حسب زينو، لا يستطيع ليوكيبوس الخروج من الغرفة؛ لأنَّه سيضطرُّ إلى السفر في منتصف الطريق، ثمَّ نصف المسافة المتبقية، ونصف تلك المسافة الأصغر، وما إلى ذلك. يمكن لليوكيبوس الردُّ على أنَّه يحتاج فقط إلى عبور عددٍ محدودٍ من هذه الوحدات الصغيرة.

يتجنَّب أرسطو الالتزام بأصغر مسافة. إنَّه يحلُّ مفارقة التنصيف بإنكار وجود أي

لا نهائي فعلي، والنوع الوحيد من اللانهاية هو الانفتاح. وبغضِّ النظر عن ارتفاع العد كان من الممكن أن تحسب أعلى، لكنَّك ما زلت تعد فقط مرتفعًا بشكل نهائي.

في الهجوم بالحركة

الدافع الرئيس عند ليوكيبوس لافتراض الفراغ هو شرح الحركة. ويعترض أرسطو على أنَّ هذا يأتي بنتائج عكسية: الفراغ سيجعل الحركة مستحيلةً في الواقع.

تتحرَّك ذرات أفلاطون كأعضاء في قائمة انتظار، ينتقل العضو الأخير إلى المركز الذي أخلاه العضو قبل الأخير الذي يتولَّى بدوره منصب سلفه.

يرفض ليوكيبوس أنموذج الخلافة هذا؛ لأنَّ أيَّة حركة تتطلَّب تنسيقًا هائلًا. ومن الضروري ألَّا يكرِّر ليوكيبوس المشكلة من خلال شرح الحركة على أنَّها إزاحة للفراغ.

إذا وضعت مكعبًا من الذهب في كوب من الماء، سيرتفع مستوى الماء؛ لأنَّ المكعَّب يزيح كميةً من الماء مساوية لحجمه. ولا يمكن أن يوجد مكعَّب من الماء ومكعَّب من الذهب في المكان نفسه في الوقت نفسه. ولكن إذا لم يحل المكعَّب محلَّ الفراغ واستمرَّ الفراغ في الوجود، فسيكون هناك شيئان في المكان نفسه في الوقت نفسه. وإذا كان من الممكن أن يتطابق فراغ واحد مع مكعَّب الذهب، فلماذا لا يوجد فراغان أو أيّ رقم؟ (Physics, 4.8.216b8 – 11).

هذا هو أول تطبيق مسجَّل لمبدأ الخفة على الغياب، لطالما طبَّق الفلاسفة الهنود هذا المبدأ على الكائنات. ولكن ليس لغير الكائنات. ويقلِّل أرسطو من عدد حالات الغياب. ويتبادل في أنواع الغيابات المسموح بها (السماح بالحذف ولكن منع الفراغات) وعدد الغيابات من هذا النوع. مثلًا، يفضِّل أرسطو افتراض عدد قليل من الإغفالات على الكثير من الإغفالات. ففي حالة حطام السفينة، يعتقد أرسطو أنَّ هناك غيابًا لقيادة القبطان للسفينة ولكن ليس هناك غياب لقيادة والدة القبطان للسفينة. وأولئك الذين يرغبون في تحسين سلامة السفن يسجِّلون عددًا محدودًا من

حطام السفن القريبة. وافتراض وجود عدد كبير جدًّا من الأخطاء الوشيكة سيطغى على انتباهنا المحدود.

قد يفشل خبيرٌ اقتصاديٌّ في اكتشاف أيِّ هشاشة في تقليل الغيابات. ولنفترض أنَّ لديك 10 بطاقات ائتمان غير مستعملة، ومن ثَمَّ يتم إصدار فاتورة بقيمة صفر دولار لكلٍّ من الدائنين العشرة، ولديَّ بطاقة ائتمان واحدة غير مستعملة، ودفع لي الدائن الوحيد صفر دولار، فالخبير الاقتصادي يحكم علينا بالبخل بالقدر نفسه.

سوف يرفض أرسطو الخبير الاقتصادي بوصفه غير معدود، فالصفر ليس رقمًا. بما إنَّ أرسطو لم يكن لديه أبناء، لم يكن لديه عدد من الأبناء. وكان لأرسطو ابنة، لكنَّه مع ذلك ينكر أن لديه عددًا من البنات. واحد ليس رقمًا، الرقم الأول هو اثنان. ويتفق الحسُّ السليم مع أرسطو: لم يكن لأرسطو عدد من البنات، كانت لديه واحدة!

من غياب السبب إلى سبب الغياب

بالنظر إلى قول ليوكيبوس المأثور "الطبيعة لا تفعل شيئًا عبثًا"، هناك سبب لكلِّ شيء. والاعتباطية أمر مستحيل. لذلك؛ فمن الصحيح أيضًا أنَّ الطبيعة لا تغفل شيئًا عبثًا. ويبدو أنَّ الثقوب الصغيرة في الفكِّ البشري تبدو وكأنَّها سهو لمن يتأمَّلون في الجماجم، لكنَّ الثقبة السفلية عبارة عن قنوات للأعصاب التي تربط عضلات الوجه والرقبة.

أرسطو متناقضٌ بشأن الاعتباطية. من ناحية، يعتقد أنَّ الشعر المنتظم تمامًا يمكن أن يتكسَّر على الرغم من عدم وجود سبب يجعل الشعر يتكسر في مكانٍ ما دون آخر. ومن ناحية أخرى، يثني أرسطو على تفسير أناكسيماندر لاستقرار الأرض: لم يعد هناك سبب لتحرك الأرض بطريقة دون أخرى، فغياب السبب (للحركة) هو سبب الغياب (للحركة). وينطبق هذا الحظر على الحركة الاعتباطية على أيِّ شيء في الفراغ، ففي النهاية الفراغ متجانسٌ تمامًا. وليس هناك من سبب للتحرك في اتجاه واحد أكثر من

الآخر. لذلك؛ فإنَّ أيَّ كائن في الفراغ سيكون في حالة سكون.

يجيب ليوكيبوس بأنَّ الذرات كانت دائمًا في حالة حركة، وإنَّه ملتزم بشكلٍ مستقلٍ بمبدأ أنَّ مقدار الحركة لا ينقص؛ لأنَّه إذا كان لدى الذرات أيّ ميل إلى الإبطاء لكانت قد استنفدت بالفعل كلَّ الحركة. وفي النهاية، الماضي لا نهائي، فيجب أن يستنتج الذريون أنَّه كانت هناك دائمًا حركة وستكون هناك دائمًا حركة، فالكون آلة دائمة الحركة.

المُلاحظة العادية تتعارض مع الحركة الدائمة. وعلى الرغم من أنَّ الأجرام السماوية، مثل الكواكب، تتحرَّك باستمرار فإنَّ الأجسام الأرضية تتباطأ وتتوقَّف. وحتى لو بدأت الذرات في الحركة فإنَّ الذرات الأرضية قد استقرَّت الآن.

يضمن الذريون حركة دائمة. ولا يزالون يتوقَّعون خطأً أنَّ الذرات تندفع بسرعة غير محدودة؛ لأنَّ الفراغ لا يقدم مقاومة. وقد أضاف الأرسطي الإسلامي ابن سينا Avicenna 1037 - 980)) اعتراضًا على أنَّ السبب المحدود (دفع ذرة ثابتة) لا يمكن أن يكون له تأثير لا نهائي.

يضمن الذري سرعة غير محدودة. وستظلُّ مشكلة وجود الكائن في أكثر من مكان في الوقت نفسه؛ لأنَّه يمرُّ عبر مواقع وسيطة ولكن ليس في أوقات متتالية. والكائن موجود في الوقت نفسه في جميع النقاط على طول مساره!

هل تعدّد المواقع مستحيل؟ في عام 1940 اعتقد جون ويلر John Wheeler أنَّ أفضل تفسيرٍ لسبب تطابق جميع الإلكترونات من حيث النوعية هو أنَّها متطابقة عدديًّا. وهناك إلكترون واحد فقط متعدِّد المواقع. وإذا كان ليوكيبوس يعتقد أنَّ جميع الذرات متطابقة نوعيًّا فربما اقترب من بارمينيدس: الكون يتكوَّن من ذرة واحدة. ستفوق الذرة متعدِّدة المواقع على صورة كلود ميلان Claude Mellan الأحادية عن يسوع، التي تنطلق من طرف أنف يسوع (شكل 10.3).

الشكل 10.3 قطعة القديسة فيرونيكا، نقش بواسطة كلود ميلان 1649 ،Claude Mellan.

اعتراض أرسطو الأخير على التفسير الذري للحركة هو أنَّ سرعة الأجسام التي تتحرَّك في الفراغ ستكون موحَّدةً بشكل سخيف. وإذا تم إطلاق جسم ثقيل في الوقت نفسه مع جسم خفيف فسيصلون إلى الأرض في الوقت نفسه بالضبط.

أفاد التجريبي المسيحي جون فيلوبونوس John Philoponus (نحو 490 إلى 570) أنَّ هذا التوحيد المتوقَّع يقترب من أن يتحقَّق في الظروف العادية: الجسم الأثقل يتجاوز قليلًا فقط الأخف. وشرح فيلوبونوس: الأجسام الخفيفة أقلُّ تأثُّرًا بالهواء من الأجسام الثقيلة. لاحظ مدى ارتفاع الأشجار التي أسقطتها العواصف التي تركت الأشجار الصغيرة واقفة. وإذا سقطت الأشياء في فراغ فإنَّ الجسم الأثقل سيسقط أسرع بكثير من الجسم الأخف وزنًا!

كرّر جاليليو Galileo تجربة فيلوبونوس (بشكل أسطوري من برج بيزا المائل). ومع ذلك، وقف جاليليو بتكتُّم مع تنبُّؤ أرسطو الشرطي لما سيحدث إذا تم إسقاط الاثنين في فراغ، فبحسب غاليليو، الأجسام الخفيفة تتأثر أكثر بالهواء. لاحظ كيف تقف الأشجار بلا حراكٍ في النسيم الذي يحني الشتلات.

أصبحت تجربة أرسطو الفكرية في النهاية تجربةً فعليةً، إذ أسقط قائد أبولو 15، ديفيد سكوت David Scott، ريشةً ومطرقةً على القمر:

خلال الدقائق الأخيرة من النشاط الثالث خارج المركبة أُجريت تجربة توضيحية قصيرة. تم إطلاق جسم ثقيل (مطرقة جيولوجية من الألومنيوم تزن 1.32 كجم) وجسم خفيف (ريشة صقر وزنها 0.03 كجم) في وقتٍ واحدٍ من الارتفاع نفسه تقريبًا (نحو 1.6 متر)، وتم السماح لهما بالسقوط على السطح. وضمن دقَّة الإطلاق المتزامن، لُوحظ أنَّ الأجسام تخضع للتسارع نفسه وتضرب سطح القمر في وقتٍ واحدٍ، وهي نتيجة تنبَّأت بها نظريَّة راسخة، ولكنَّها مع ذلك مطمئنة بالنظر إلى عدد المشاهدين الذين شهدوا التجربة وحقيقة أن رحلة العودة إلى الوطن كانت تستند بشكلٍ حاسمٍ إلى صحَّة النظريَّة المعيَّنة التي يتم اختبارها. (Allen 1972, 2 - 11)

أثار السفر إلى الفضاء في القرن العشرين اعتراضاتٍ كثيرةً على الحركة في المكان الفارغ. وفي افتتاحية عام 1920 هاجمت صحيفة نيويورك تايمز ادعاء روبرت جودارد Robert Goddard أنَّ صاروخًا سيعمل في الفضاء:

إنَّ البروفيسور جودارد مع "كرسيه" في كلارك كوليدج وموافقة مؤسَّسة سميثسونيان لا يعرف علاقة الفعل بردّ الفعل، والحاجة إلى شيء أفضل من الفراغ الذي يجب الردُّ عليه، لنقول إنَّ ذلك سخيف. بالطبع يبدو أنَّه يفتقر فقط إلى المعرفة التي يتم الحصول عليها يوميًّا في المدارس الثانوية.

في عام 1969 قبل أيام من هبوط أبولو 11 على سطح القمر، نشرت صحيفة نيويورك تايمز تراجع: "أكدت المزيد من التحقيقات والتجارب النتائج التي توصَّل إليها

إسحاق نيوتن في القرن السابع عشر، ومن المؤكَّد الآن أنَّ الصاروخ يمكن أن يعمل في الفراغ وكذلك في الغلاف الجوي، والتايمز تتراجع عن الخطأ". ومع ذلك، فإنَّ التراجع "يصحِّح" الخطأ المخطئ. يتحرَّك الصاروخ للأمام من طريق الدفع ضدَّ جزيئات عادمه. وكان الخطأ الحقيقي هو افتراض أنَّ الصاروخ كان في فراغ. وإذا كانت هناك ذرَّة واحدة غير قابلة للتجزئة فستواجه الاستحالة الموضحة في افتتاحية عام 1920.

لا فراغ خارج الكون

إذا كان هناك فراغ، فهو مكان يفتقر إلى الجسم الفعلي، ولكن يمكن أن يشغله الجسم. ومع ذلك، لا يمكن لأيِّ شخصٍ أن يوجد خارج السماوات. لذلك؛ لا يوجد مكان خالٍ هناك. نحن نعيش في عالم كروي محدود لا يوجد بعده "لا مكان ولا فراغ ولا زمان."

على الرغم من حكم أرسطو بالاستحالة أصبح الفراغ خارج الكون ملاذًا لأولئك الذين أرادوا الإجابة "أين الإله؟" الإجابة بـ "اللامكان" توحي بالإلحاد، والإجابة "في كلِّ مكان" أيضًا توحي بالإلحاد؛ لأنَّه لا يوجد تناقضٌ بين الإله والطبيعة. ومع ذلك، إذا كان الإله في أيِّ مكان محلي، فسيكون محدودًا. هل يوجد مكانٌ للإله؟ نعم، إذا كان الإله في الفراغ الكوني فهو يحيط العالم دون أن يكون جزءًا منه.

استمرَّت جاذبية الفراغ الكوني بوصفه ملاذًا لملحدي القرن العشرين. وفي 18 يوليو 1969 كان من المقرَّر أن يهبط روَّاد الفضاء الأمريكيون على سطح القمر في غضون يومين. وسُئل مؤلِّف كتاب الخيال العلمي الكلاسيكي "2001: أوديسا المكان"، آرثر كلارك Arthur C. Clarke، عن أحلامه وتوقعاته:

هناك دائمًا خوف - بالطبع - من أن يحمل الرجال لعنة عداواتهم إلى الفضاء. لكن من المرجَّح على المدى الطويل أنَّ أولئك الذين يخرجون إلى النجوم سيتركون وراءهم حواجز الأُمَّة والعرق التي تقسمهم الآن. هناك رمزية تبعث على الأمل في حقيقة أنَّ

الأعلام لن ترفرف في فراغ، لا يمكن أن تستمرَّ صراعاتنا القبلية الحالية في بيئة الفضاء المعادية. (1969، 31)

لا يشرح أرسطو ما يحدث لرمحٍ أُلقي على حافة الكون. غامر آخرون بالإجابات نيابةً عن أرسطو. في القرن الرابع عشر، اقترح جان بوريدان Jean Buridan أنَّ إلقاء الرمح من شأنه أن يغيّر مدى المكان. ويستغل هذا الحل مبدأ وجود مكان أينما كان الجسد. ومن ثَمَّ، سوف ينمو غلاف المكان على شكل رمح لاستيعاب الرمح تمامًا. ومحاولة تجاوز الحدِّ الأقصى للمكان يشبه محاولة لفِّ أصابعك حول عملة معدنية محصورة بين وسائد الأريكة، إذ تفتح أصابعك مكانا جديدا تنزل فيه العملة. ومحاولة عبور الحدود بين المكان وغير المكان هي هزيمة ذاتيَّة؛ لأنَّ حجم المكان يتَّسع لاستيعاب محتوياته.

في القرن السادس عشر، اقترح جيوردانو برونو Giordano Bruno أنَّ الرمح يختفي من الوجود، وهذا الردُّ ينتهك مبدأ الحفاظ على المادة؛ لأنَّ الرمح لن يتحوَّل إلى العَدَم، مِمَّا يقلِّل الكمية الإجمالية للمادة في الكون. والاقتراح الأخير هو أنَّ السائل يرتكب مغالطة التكوين: كل شيء في الكون له مكان. لذلك؛ الكون له مكان. وبالنسبة إلى أرسطو فإنَّ مفهوم المكان لا ينطبق على الكون نفسه.

هل الطبيعة تكره الفراغ؟

إذا وضعت إصبعك على الجزء العلوي من أنبوب مرن يمكنك التقاط الماء. سيتخلَّى الماء عن حركته الطبيعية نحو الأسفل؛ لأنَّ ذلك سيخلق فراغًا. وبشكل أكثر دراماتيكية، سوف يعكس الماء حركته الطبيعية. إذا قمت بثني الأنبوب أسفل خطِّ الماء في الوعاء فسوف يتدفَّق الماء إلى أعلى الأنبوب ويخرج من الحاوية.

تم دمج السيفون في "كأس فيثاغورس"، فالكأس يفرض الاعتدال المثالي الأرسطي. وإذا سكب الشارب الكثير من النبيذ في الكأس يتم تنشيط السيفون. ويتم إفراغ كلِّ النبيذ من خلال ثقب في أسفل الكأس، وإذا تم سكب كمية معتدلة من النبيذ فإنَّ

الكأس يعمل بشكل طبيعي (شكل 10.4).

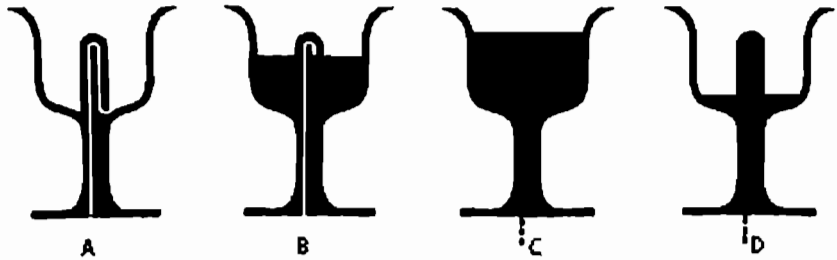

الشكل 10.4 رسم كأس فيثاغورس بواسطة نيفيت ديلمن Nevit Dilmen.

تعمل المراحيض الحديثة مثل كأس فيثاغورس. وهناك سببان لذلك: رقم واحد ورقم اثنان.

الآلية هي أيضًا التفسير الرئيس للتيَّار المتقطّع الذي وصفه بليني الأصغر في الحرف الأخير من الكتاب الرابع من الرسائل، 4.30. واشتهر بوصفه الدقيق لثوران بركان فيزوف عام 79 بعد الميلاد الذي قتل عمّه بليني الأكبر. ويستحقُّ بليني الأصغر أيضًا الفضل في التوقيت الدقيق لتدفُّق المياه الإيقاعي في نبع فيلا بلينيانا على بحيرة كومو في إيطاليا، إذ يعتقد الجيولوجيون أنَّ هناك مصدرًا للمياه الجوفية يملأ الخزان حتى يتشكَّل سيفون. ويتدفَّق الماء لتغذية التيَّار حتى ينكسر عمود الماء، ويتوقَّف الماء. ولا يزال جدول بليني للدورة دقيقًا.

هناك أسطورة أنَّ أرسطو شرح السيفون بمبدأ "الطبيعة تكره الفراغ". وقد صاغ تلاميذ أرسطو المسيحيون هذا الشعار في وقتٍ لاحقٍ. وكان أرسطو نفسه سيجد أنَّ مركزية الإنسان فيه مفرطة. وتأكيد كلمات مختلفة في الشعار يبرز الجوانب المعادية لأرسطو.

أولًا، تشير عبارة "الطبيعة تكره الفراغ" إلى أنَّ الفراغ قد يتشكَّل من فردٍ مغامرٍ له أذواق مختلفة عن أذواق الطبيعة. وعُدَّ المهندس بطل الإسكندرية، فكان يعتقد أنَّ الفراغات ليست طبيعيةً إلَّا من حيث إنَّها لا تتشكَّل بشكل عفوي. وقد يخلق محبّ الفراغ فراغًا

من طريق توصيل المنفاخ وفصل المقبض (الشكل 10.5).

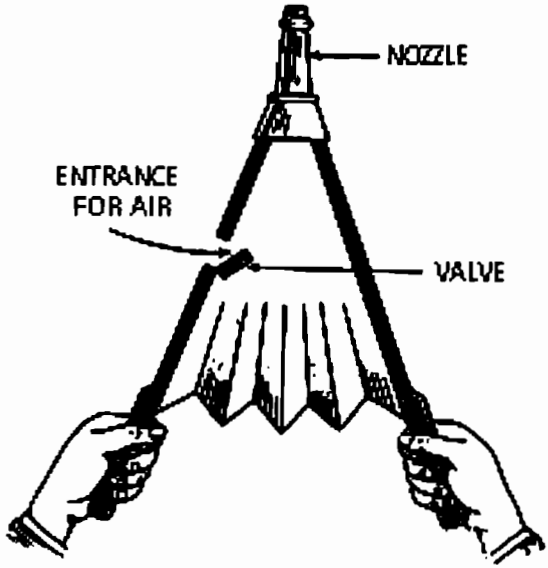

الشكل 10.5 رسم المنفاخ بواسطة بيرسون سكوت فورسمان Pearson Scott Foresman.

يعدُّ أرسطو كلَّ هذه الوصفات خاطئة، إذ ستكون هناك حاجة إلى قوَّة لا نهائية لخلق فراغ. ونظرًا لأنَّ اللانهاية هي دائمًا محتملة وليست فعليةً أبدًا فإنَّ الفراغ دائمًا محتمل، وليس فعليًا أبدًا.

ثانيًا، تشير عبارة "الطبيعة تكره الفراغ" إلى تفعيل الرغبة. والتصرُّف بناءً على الرغبة يستغرق وقتًا، إذ ستحتاج الطبيعة إلى اكتشاف الفراغ الناشئ، والتعرُّف على الخطر الذي يهدِّد رغباتها، ثمَّ إجهاض الفراغ الجنيني. لكن حتى الفراغ القصير يدحض التعدُّدية (عقيدة أرسطو بأنَّ الطبيعة ممتلئة).

ثالثًا، تشير عبارة "الطبيعة تكره الفراغ" إلى أنَّ الفراغ يمكن أن تكون له آثار مثل إثارة غضب الطبيعة، لكنَّ أرسطو يعتقد أنَّ الأشياء الإيجابية فقط هي التي يمكن أن

تكون أسبابًا. (شكل الإغفالات في التفسيرات السببية ولكن فقط كاختصار للأسباب الإيجابية).

وبالنظر إلى استحالة وجود فراغ فإنَّ أيّة كراهية للفراغ ستظهر الجهل أو اللاعقلانية. ولا تهدر الطبيعة الطاقة في حراسة المستحيلات.

سيكون أرسطو في حيرة من أمره أيضًا بشأن سبب معارضة الطبيعة للفراغ. لماذا ستكون الطبيعة ضدَّ الفراغ؟ ماذا فعل الفراغ بالطبيعة؟ الفراغ ليس هدفًا مناسبًا للعداء.

طوَّر اللاهوتيون لاحقًا أساسًا منطقيًّا غير مباشر لنفور الطبيعة من الفراغ على أيِّ نطاق. إذا كان الإله موجودًا فإنَّ العالم الحقيقي هو الأفضل بين جميع العوالم الممكنة. أفضل ما في العوالم الممكنة يغتنم كلّ فرصة لملء الفراغ بشيء موجود. وسيكون الفراغ على أيِّ نطاق مضيعة. لذلك؛ فإنَّ كلَّ المكان مليء بالأشياء الموجودة.

هذا المنطق اللاهوتي لمعارضة الفراغ لم يكن متاحًا لأرسطو، إذ لم يؤمن بإله شخصي. ومن المسلَّم به أنَّ أرسطو يفترض أنَّ المحرِّك الرئيس هو الإغراء النهائي الذي يجذب كلَّ الأشياء. ومع ذلك، فإنَّ المحرك الأول لا يمقت أيَّ شيء، فهو منخرطٌ في أفضل نشاط فقط، وهو التفكير. ولا يفكر المحرك الأول إلَّا في أفضل موضوع، هو نفسه. ومن ثَمَّ، فإنَّ المحرك الأول أحادي التفكير منغمس تمامًا في نفسه، وغافلٌ عن الضجَّة التي يثيرها في بقية الكون.

إذا كان أرسطو يريد تجسيد الطبيعة فلا يجب أن يجسِّد الطبيعة على أنَّها جاهلة أو غبية أو مسرفة. لذلك؛ لم يعد بإمكان أرسطو أن يناشد كفاءة الطبيعة في تفسير سبب جريان الماء إلى أسفل المنحدرات بدلًا من ارتفاعه، وفي خطٍّ مستقيمٍ بدلًا من خطٍّ ملتوٍ على سطح مستو.

وإنَّ تجسيد الطبيعة يمنح الكثير من المرونة، فإذا كانت الطبيعة تكره الفراغ فلماذا تعاني الطبيعة من ضرر الماء الذي يصعد السيفون؟ يجب على الطبيعة فقط كسر السيفون. اعتقد القدماء أنَّ الطبيعة فعلت هذا بالضبط حينما تنفصل الأنابيب عند

التجمد، إذ يهدِّد الماء الموجود في الأنبوب بإحداث فراغٍ من خلال الانكماش في مادة صلبة، والطبيعة تصدع الأنبوب.

لم يدرك هؤلاء المفكرون أنَّ المياه المتجمِّدة تتوسَّع بدلًا من أن تنقبض. وتجميد نصف كوب مملوء بالماء يجعل أكثر من نصفه ممتلئًا، وليس أقل من نصفه ممتلئًا. وانتشار فكرة "تجميد عقود المياه" بين القدماء أمرٌ محيِّر؛ بسبب إمكانية الوصول إلى الأدلَّة المضادة. وتتجمَّد المياه بانتظام في اليونان. وفشل الإغريق وخاصَّة الأوروبيين في العصور الوسطى في الانتباه إلى الأدلَّة المتاحة بسهولة على أنَّ المياه المتجمِّدة تتوسَّع. وتم اكتشاف بنية مرحلة الماء فقط في القرن الثامن عشر. وأصبح جوزيف بلاك 1799 - 1728 (Joseph Black) في حيرة من أمره لماذا يذوب الثلج تدريجيًّا بدلًا من ذوبانه دفعة واحدة.

في الوقت الحاضر نحن أكثر انفتاحًا على جعل "الطبيعة" نسبيًّا في بيئة معيَّنة. فما هو طبيعي على الأرض ليس طبيعيًّا على القمر. وحينما هبط روَّاد فضاء أبولو 11 على القمر لم يتمكَّنوا من فتح الباب. وبقي الكثير من الهواء في مركبة الهبوط على سطح القمر. فعلى القمر، الطبيعة تكره غياب الفراغ!

بعد أن أزال روَّاد الفضاء الهواء، تمت موازنة الضغط حتى يتمكنوا من الخروج، وكانوا حريصين على ترك الباب مواربا.

11. لوكريتيوس: الغياب اللامتناهي

كان الشاعر والفيلسوف الروماني لوكريتيوس كاروس (Lucretius Carus 55 - 99 قبل الميلاد) من بين تلاميذ أبيقور Epicurus. وكان المعلم أبيقور قد حلَّ المشكلات الفلسَفيَّة الرئيسة للميتافيزيقا (من خلال الذرية) والأخلاق (من خلال المتعية). ومثلما اعتقد علماء الفيزياء في القرن التاسع عشر أنَّ المستقبل ملكٌ للمهندسين، اعتقد الأبيقوريون أنَّ المستقبل ملكٌ للمعالجين.

لم يسعَ لوكريتيوس إلى التفوُّق على الإغريق بالابتكار على المستوى النظري. وبصفته رومانيًّا عمليًّا، فهو يعمل مع "عن الطبيعة" On Nature لأبيقور بوصفه مصدرًا فلسفيًّا وحيدًا له (Sedley 1998). وتكمن أصالة لوكريتيوس في جعل الشعر أداةً علاجيةً، إذ يقارن قصائده بالعسل المُداف على حافَّة كوب يحتوي على دواء مرّ.

أبيقور المعلم

تتبع قصيدة لوكريتيوس الطويلة "عن طبيعة الأشياء" De Rerum Natura بنية عرض أبيقور الأكاديمي لفلسفته، إذ يبدأ كلٌّ منها بالذرات والفراغ. في حين أنَّ فراغ ديموقريطس هو نوع من الموادِّ السلبية فإنَّ أبيقور يعامل الفراغات على أنَّها أمكنة فارغة. والفراغات لا يمكن أن تتحرك، إذ يتمُّ تدميرها حينما يتحرَّك شيء ما فيها. وحينما يتحرَّك الكائن للخارج يتم إنشاء مكان جديد. وبالنظر إلى الماضي اللامتناهي يتم تدمير كلِّ فراغ، فجميع الفراغات الحالية لها أعمار محدودة، وسيتم تدميرهم جميعًا، فالذرات فقط هي الخالدة.

يحاكي لوكريتيوس إجراء أبيقور المتمثل في التوسُّع من الذرات إلى الأجسام متوسطة الحجم. ونحن رقمٌ من بين مجموعات الذرات.

تنبثق نفسيَّتنا خطوةً بخطوةٍ من التوليفات الجسدية. وقد أخذ أبيقور هذه الجوانب العقلية على محمل الجدِّ أكثر من ديموقريطس، الذي يميل إلى تخفيض المعتقدات

والرغبات إلى الظواهر الثانوية.

يقلِّل ديموقريطس من التطلُّعات التعليمية بقوله: "في الواقع نحن لا نعرف شيئًا؛ لأنَّ الحقيقة في الهاوية" (Diogenes Laertius IX, 72). على النقيض من ذلك، فإنَّ أبيقور متفائلٌ بشأن قدرتنا على اكتساب المعرفة بالعالم، فالمعرفة سهلةٌ إلى حدٍّ ما، مثل اكتساب السعادة.

توفر الظواهر العقلية على هذا النطاق الأوسع أدلَّة على ما يحدث على النطاق الأصغر غير المرئي، فعلى وجه الخصوص يكشف الاستبطان عن وجود عمل تطوعي. وهذا يدلُّ على أنَّ الذرات لا يمكن أن تكون حتميةً بالكامل (على عكس ديموقريطس). ويجب أن تتحرَّك من حين لآخر من طريق الصدفة.

توضِّح هذه الانحرافات أيضًا كيف تبدأ الذرات في الاصطدام مع بعض، إذ تسقط الذرات بمعنى أنَّها تتحرَّك بالتوازي مع بعضها الآخر.

(عرَّف أرسطو السقوط بأنَّه حركة إلى مركز الكون، لكنَّ الذريين ينكرون وجود مركز، فالكون لا نهائي، وبالنتيجة يفتقر إلى الحدود الخارجية لتحديد المركز) وإذا لم تكن هناك انحرافات فإنَّ الذرات ستسقط مثل المطر في هدوء مميت، لا تتفاعل أبدًا لصنع أيَّة كائنات مركبة.

بفضل حرية العناصر، توجد حبيبات من الرمل والحجر الرملي وتماثيل الحجر الرملي. وقد ننهي التسلسل مع عالمنا، لكنَّ لوكريتيوس يصرُّ على أنَّ عالمنا هو مجرَّد واحد من بين الكثير من العوالم، فالكون لا نهائي، ويجب أن تكون هناك الكثير من العوالم إلى ما لا نهاية. وتمامًا كما يتحدَّث العدد الهائل من الحبوب ضدَّ أيَّة حبوب ذات أهمية مميزة، فإنَّ العدد الهائل من العوالم يقلِّل من بعضها الآخر إلى عدم الأهمية، وعالمنا هو مجرد مجموعة كبيرة من الذرات، وأيضًا سوف يموت.

بالنظر إلى افتقار عالمنا إلى الامتياز، يجب أن نرفض التفسيرات اللاهوتية لخصائصه. أنتَ لا تناشد الآلهة أن تشرح شرخًا في حصاة، فمن خلال التكافؤ في المنطق لا يجب

أن تناشد الآلهة أن تشرح الوادي في الأرض. وإذا كانت الصواعق أسلحةً ألقى بها زيوس فلماذا يهدر الإله الكثير من الضربات على المناطق المهجورة؟ وحينما يصطدم زيوس بشيء ما، فلماذا يكون معبده في كثير من الأحيان؟

ضمنت زخارف لوكريتيوس المعادية للدين قمعًا أدبيًا واغتيالاً للشخصيَّة. وبعد سيطرة المسيحيين على روما، ذكر القدّيس جيروم Jerome (نحو 347 - 420) أنَّ لوكريتيوس كان مدفوعًا بالجنون؛ بسبب جرعة الحبِّ وانتحر. وتم شرح مزايا قصيدة لوكريتيوس بعيدًا على كونها تحسينات تحريرية لشيشرون Cicero. وبالكاد تمت قراءة "عن طبيعة الأشياء" وأبعِدَت عن التداول.

الخوف من الخوف من الموت

كما هو الحال مع أيِّ شيء معقَّد آخر، يجب أن تتحلَّل في النهاية، فموتك ليس سيِّئًا بالنسبة إليك. لن يحدث في حياتك! الخوف من الموت مضرٌّ لك. ويمكن إخضاع هذه الحالة المؤلمة بالمعرفة. والغرض من قصيدة لوكريتيوس هو توفير هذا العلاج المعرفي.

كخطوة أولى، يضع لوكريتيوس ميتافيزيقيا تكون فيها الحياة الآخرة مستحيلةً. وبما إنَّ الموت هو تدميرك الدائم فلن تعاني من جحيم تانتالوس أو تيتيوس أو سيزيف.

يؤدِّي التطبيق غير الكامل لهذه الرؤية إلى خطر وجود بقايا غير منطقية من القلق. وإذا تخيَّلت جثتك مع بقايا حياة، فسوف تعدُّ نفسك واعيًا بما يكفي لتحمل في حالة شلل ضعيف! ثاناتوس الزائفة، التشخيص الخاطئ للموت، كان خوفًا منطقيًا. وتخمِّن الطبيبة كاثرين هول 2019 (Katherine Hall) أنَّ الإسكندر الأكبر البالغ من العمر 32 عامًا قد أُعلنت وفاته قبل ستة أيَّام؛ لأنَّ أطباءَه لم يكونوا على علمٍ بمتلازمة غيلان باريه[1] Guillain - Barre، إذ ظنوا أنَّ قلة انحلال الجسد لدى الإسكندر كانت

(١) اضطراب نادر يتسبَّب فيه الجهاز المناعي للجسم بإتلاف الأعصاب، وتلف الأعصاب يؤدِّي إلى ضعف العضلات، والشلل في بعض الأحيان. (المُترجم)

بسبب ألوهيته. وبما يليق بابن زيوس، قام جسد الإسكندر بتعطير ملابسه برائحة لطيفة (Plutarch 1914, 465)، ولم يكن الأسقف جورج بيركلي George Berkeley يريد سمعته بوصفه غير مادي لتعزيز زيف ثاناتوس. وقد حدَّدت وصيته أن يبقى جسده "خمسة أيّام فوق الأرض ... حتى تندلع برائحة الجثث" (1948، 8: 381).

نظرًا لعدم موت أحد على قيد الحياة، أصبحنا قلقين من هذه الحالة غير المسبوقة. ولجعل الموت مألوفًا أكثر، قارن الإغريق الموت بالنوم. لا نخشى فقدان الوعي الذي يأتي مع النوم. الموت - بصفته فقدانًا دائمًا للوعي - هو مجرَّد أكثر مِمَّا لا نخافه.

سابقة لوكريتيوس الثانية هي "تجربتك" مع عدم وجود الماضي. لقد "كنت" بالفعل من خلال عدم وجود حياة سابقة! ما مدى سوء ذلك؟ ليس سيّئًا على الإطلاق. هل يمكن أن يكون عدم وجودك في المستقبل أسوأ؟ لا يوجد فرق ذو صلة. لذلك؛ لا تتوقَّع أن تعاني بعد الموت:

انظر للخلف:

العَدَم بالنسبة إلينا كان كل شيء سابقًا للأبد من الزمن، قبل أن نولد.

والطبيعة تحمل هذا مثل مرآة للوقت المستقبلي حينما نموت ونذهب.

وما الذي يبدو في ذلك رهيبًا؟

الآن ما المحزن في كلِّ هذا؟

أليس السكينة بعيدة عن أيّ نوم؟ (Lucretius 1916, book III, ll. 968 – 77)

يخلص لوكريتيوس فقط إلى أنَّ عدم وجودك في المستقبل لن يكون سيّئًا بالنسبة إليك. هل عدم وجودك في المستقبل سيّئ بالنسبة إليكَ الآن؟

يجيب لوكريتيوس بالنفي من طريق استعارة حجَّة أبيقور في المواعدة. فإذا كان هناك حدث يضرُّ بك فإنَّه يضرُّ بك في وقتٍ معيَّن. ولا يمكن للموت أن يؤذيك قبل حدوثه (لأنَّ ذلك سيكون سببية عكسية) أو في أثناء حدوثه (لأنَّه بمجرَّد حدوثه يتوقَّف عن الوجود) أو بعد حدوثه (لأنَّك لم تعد متأثِّرًا به).

غارق في اللانهاية؟

قرب نهاية كتابه عن طبيعة الأشياء، يجادل لوكريتيوس بأن إطالة الحياة لا يمكن أن تجعلها أفضل. وهو يعتقد أنَّ أيَّ تحسينات محدودة سوف تغمرها فترة عدم الوجود اللانهائية.

كان الإغريق هندسيين أكثر من كونهم حسابيين، واستعاراتهم لحياة جيدة هي استعارات مكانية: توازن وتماثل وتناسب. فكما إنَّ طول العمر لا يجعل القصة أفضل، فإنَّ الحياة لا تتحسَّن بمجرد إطالتها. فالحياة الإضافية جيدة فقط بقدر ما تكمل قصتك. تأمل الفنان توماس هارت بينتون Thomas Hart Benton، وُصِف بأنَّه تمتَّع بموت مثالي؛ لأنَّه كان قد أكمل للتوِّ لوحةً جداريةً أخيرة، مصادر موسيقى الريف، لقاعة مشاهير موسيقى الريف في ناشفيل، تينيسي، في سنِّ 85. ويتناقض بينتون مع فرانز شوبرت Franz Schubert، إذ منعته وفاته عام 1828 عن عمر 31 عامًا من إنهاء سيمفونية رقم 8 في B الصغرى، والمعروفة باسم "السمفونية غير المكتملة".

حينما أعاد جيريمي بينثام Jeremy Bentham إحياء مذهب المتعة، عَدَّ فقط الجوانب الكمية للملذات مهمة من الناحية الأخلاقية. وبالنظر إلى أنَّ مقدار المتعة متساوٍ فإنَّ الحياة المقتطعة تكون جيدةً تمامًا مثل تلك التي تحمل الجدارة الجمالية لاكتمال السرد.

يشير نهج بنثام الكمي إلى أنَّ أسوأ وقت للموت هو في البداية. وبالنظر إلى أنَّ الحياة تبدأ عند الحمل وأن توازن اللذة على الألم ينمو، فإنَّ الإجهاض سيكون أسوأ أنواع الحرمان.

إنَّ تعويض نظريَّة مكافحة الإجهاض هذه هو اللامبالاة النفعية لكيفية توزيع المنفعة، فالجنين هو مجرَّد وعاء فارغ تُسكب فيه القيمة. ويمكن تعويض الإجهاض بسهولة من طريق إنشاء وعاء فارغ آخر، فالمفهوم الحاكم هو تكلفة الفرصة.

ما ينطبق على الأجنة ينطبق على البالغين. يمكن تبرير وفاتهم من خلال خلق

أشخاص آخرين، وخاصة الأشخاص الذين يكونون أكثر سعادةً. وهذه هي مقدمة الروايات "الفاضلة" مثل عالم جديد شجاع، حيث يحول علماء تحسين النسل التركيز من إسعاد الناس إلى جعل الناس سعداء.

الخوف من الموت يقوم على الحكمة وليس الأخلاق. لا يواسيني احتمال أن يتسبَّب موتي في أن يعيش شخص آخر حياة أكثر إمتاعًا من حياتي. وحتى حينما يضحّي المرء بحياته عن طيب خاطر من أجل آخر فهذه تضحية.

من وجهة النظر الاحترازية، أريد أن تستمرَّ حياتي إلى أجلٍ غير مسمَّى. وفي أية مرحلة من مراحل الحياة من المنطقي أن ترغب في الاستمرار، وبالنتيجة فإنَّ الرغبة في التوقف عن العيش هي علامة على اللاعقلانية. وعليه فإنَّنا نتدخل أبويًّا ضدَّ محاولات الانتحار. وإذا كانت حياة شخص ما تسير على ما يرام فيجب إحباط قرار الانتحار.

لوضع النقطة بشكل أكثر تعقيدًا، ليس من المنطقي أبدًا الرغبة في الموت (نظرًا لأنَّ حياة المرء تسير على ما يرام)، لذلك فمن المنطقي أن نرغب في الخلود.

لماذا تتوقَّف هنا؟ بمجرد أن تفكر في التناسق بين عدم الوجود السابق للحيوية وعدم الوجود بعد الوفاة يصبح من الأفضل أن يكون لديك بداية مبكرة، أو الأفضل من ذلك أن تكون موجودًا دائمًا. إنَّ عدم إشباع هذه الرغبة في الحياة يمنحها النطاق اللامتناهي اللازم للتغلب على حجة لوكريتيوس الغارقة.

ربما وجد لوكريتيوس رغبةً قويةً في بدء الحياة مبكرًا، لكنَّه وجد أيضًا أنَّه من المعقول أن يكون لروما نقيض، حيث ينعكس الليل والنهار وتتحرَّك الحيوانات رأسًا على عقب.

عكس التناظر

تتضمَّن ذخيرة الفنان الفكاهي الموسيقي بيتر شيكل Peter Schickele "سمفونية الأزلية" Unbegun Symphony، إذ يوضِّح شيكل بأسفٍ أنَّه "وُلد متأخِّرًا جدًّا بحيث

لا يستطيع كتابة الحركتين الأوليين"

من وجهة نظر منطقية، قد تستنتج أنَّ التناسق بين عدم الوجود السابق للحيوية وعدم الوجود بعد الوفاة يُظهر أنَّه يجب أن تشعر بالرعب من عدم وجودك السابق للحيوية.

سخَّرَ الرومان أنفسهم من أيَّة رغبة في أن يكونوا قد بدؤوا في الوجود في وقتٍ مبكرٍ أو في الوجود في وقت سابق. يكتب سينيكا Seneca:

ألا يبدو لك الشخص الذي بكى لأنَّه لم يكن على قيد الحياة منذ ألف عام أحمق مطلق؟ بالقدر نفسه من الحماقة هو الذي يبكي لأنَّه لن يكون على قيد الحياة بعد ألف عام. وهذان هما الشيء نفسه: لن تكون، ولا أنت كذلك. ليس الوقت ملك لك. (Epistulae Morales 77.11, trans. Warren 2004, 70)

يمتدُّ سينيكا بالقدرية حول الماضي (لا يمكن تغيير الماضي) إلى القدرية حول المستقبل. يجب أن نقبل بهدوء ما لا مفرَّ منه؛ لأنَّ المقاومة لا طائل من ورائها. وهذه الحكمة حول عدم قابلية تغيير الماضي تفسر استسلامنا الهادئ لعدم وجود ما قبل الحياة، إذ يمضي القدري إلى استنتاج أنَّه يضمن رباطة جأش مماثلة تجاه عدم وجودنا بعد وفاتنا.

وبحسب القدري، نحن كائنات ضرورية، ولا يمكن أن يكون وجودنا أطول أو أقصر، ولا يمكن لأيِّ شخصٍ غير موجود أن يصبح موجودًا. وبما إنَّ الحرمان يتطلَّب إمكانية وجود بديل، فلا رابح أو خاسر في "يانصيب" الوجود. كلُّ الأفراد موجودون ضروريون، وكلُّ "الأفراد" غير الموجودين هم بالضرورة غير موجودين.

القدري ليس مبتهجًا لوجوده أكثر مِمَّا هو مسرور لوجود الرقم 10، كلاهما كائنات ضرورية، ولا يشعر القدري بأنَّه قد أُلقي به إلى الوجود، ولا يوجد دوار للطوارئ، الصفاء فقط.

خامسًا: العَدَم الإلهيُّ

خامسًا: العَدَم الإلهيُّ

12. القديسة كاثرين الإسكندرية: غياب عدم الفيلسوفات

كانت سياستي هي التعويض عن التمييز ضدَّ الفلاسفة غير الموجودين من خلال تسليط الضوء على مساهماتهم. وبشكل محرجٍ، كلُّ الفلاسفة غير الموجودين الذين ناقشناهم حتى الآن هم من الرجال.

للإغاثة، أناشد قديسة الفلاسفة كاثرين الإسكندرية Katherine of Alexandria. إنَّها الجواب المسيحي على هيباتيا الإسكندرية Hypatia of Alexandria الوثنية، وهي فيلسوفة مزَّقها حشدٌ مسيحيٌّ، ففي الإسكندرية في القرنين الثالث والرابع كان من المفترض أنَّ النساء والفلاسفة لا يمكن المساس بهم، فكان مقتل الفيلسوفة مشكلة مزدوجة، وقد فشلت السلطات المسيحية في معالجة الغضب، وهذا رفع هيباتيا إلى مرتبة الشهيدة الوثنية. واحتاج المسيحيون إلى قائدٍ مضادٍّ لموازنة ميزان العدالة.

تم ذكر كاثرين للمرة الأولى في القرن التاسع، ولكن يقال إنَّها عاشت في القرن الرابع، فخلال القرن الرابع كان الإيمانَ أكثر أهميةً من المعرفة. وصوَّر المسيحيون العلم على أنَّه غطرسة. لكن بحلول القرن التاسع أصبح المسيحيون أكثر قلقًا بشأن مؤهلاتهم الفكرية، وشهداؤهم القدامى أُعيدَ تثقيفهم.

أصبحت السلالة والجمال أكثرَ أهميةً بكثير مِمَّا اقترحه العهد الجديد. ووُصِفت كاثرين بأنَّها الابنة الجميلة لملك الإسكندرية والأميرة سابينيلا أميرة السامرة، وكانت كاثرين ضليعةً في جميع الفنون والعلوم. وكان من الممكن أن يكون مثل هذا التعليم معجزةً بالنسبة إلى امرأة في القرن الرابع. ومع ذلك، درس عددٌ قليلٌ من النساء في متحف الإسكندرية. وتبعًا لذلك، تحوَّلت كاثرين إلى المسيحية في سياق دراستها.

في إحدى الروايات، ذهبت كاثرين البالغة من العمر سبعة عشر عامًا إلى أرمينيا للبحث عن زوجٍ مستقبليٍّ يمكن أن يضاهي جمالها وتعلمها. وأمرها ناسك يُدعى أدريان بالصلاة؛ من أجل السماح لها برؤية ابن مريم. وفي اليوم التالي علمت أنَّ المسيح

رفضها بصفتها قبيحةً بسبب غرورها. وبعد تأديبها وتعليمها، سعت كاثرين مرَّةً أخرى إلى رؤية أخرى، فقبلها المسيح الآن، وقدَّم خاتمًا للدلالة على زواجهما.

في العام التالي، أصدر الإمبراطور ماكسيمينوس مرسومًا يقضي بأنَّ على جميع المواطنين الرومان التضحية للآلهة. ولانزعاجها من عدد المسيحيين الذين قدَّموا التضحية هربًا من الاضطهاد واجهت كاثرين الإمبراطور. وبعد أن غمره منطقها استدعى الإمبراطور خمسينَ فيلسوفًا لدحضها، فأثبتت كاثرين - بما يفوق العدَّ وليس القياس - أنَّ الشعراء والفلاسفة اليونانيين الوثنيين يدعمون المسيح، فتحوَّل الفلاسفة الخمسون.

خسر الإمبراطور ماكسيمينوس خسارةً مؤلمةً، وأحرقَ الفلاسفةَ المتحولين. "أشعل نارًا لرجل وسيكون دافئًا طوال الليل، أشعل الرجل بالنار وسيبقى دافئًا لبقية حياته"[1]. وكانت مذبحة الفلاسفة الخمسين دافئةً بشكل خاصّ؛ لأنَّ المتحوِّلين أُحرقوا دون الاستفادة من المعمودية[2] baptism. وكان هذا يعني أنَّ الفلاسفة المحمصين سيُعادون في الجحيم. ويُظهر بعض رسَّامي العصور الوسطى الرحيمين ملاكًا يعمد الفلاسفة في خضم التضحية بهم، وربَّما يكون أصل عبارة "التعمُّد بالنار".

ماذا تفعل مع كاثرين؟ في تحوُّل عاطفي 180 درجة، اقترح الإمبراطور ماكسيمينوس الزواج. وكعروس للمسيح، رفضت كاثرين. وفي المحور الثاني بزاوية 180 درجة، أمر ماكسيمينوس المهجور بقتل كاثرين على عجلة مسننة.

بأعجوبة، تحطَّمت العجلة قبل أن تؤذي كاثرين. ويصوِّر رسَّامو العصور الوسطى غير الرحيمين المارَّة وهم يُقتلون بواسطة الشظايا.

---

(1) هذا هو التخريب في التسعينيات لمثل الأربعينيات الذي يُنسب بشكل خاطئ إلى يسوع: «أعطِ رجلاً سمكة، وأنت تطعمه ليوم واحد. علم رجلا أن يصطاد، وأنت تطعمه مدى الحياة». الرسل الاثنا عشر هم صيادون. ويعجُّ الإنجيل بقصص عن الأسماك والصيادين. وفي القرن الثاني بدأ رمز ichthys للمسيحية كرسومات على الجدران لكنَّه تحوَّل إلى عمل فني.

(2) شكل من أشكال التطهير القدسي بالماء. (المُترجم)

مع تراجع الخيال، أمر ماكسيمينوس بعد ذلك بضرب كاثرين وسجنها دون طعام. ومع ذلك، تم إنقاذها من الجوع بواسطة حمامة كانت توصل الطعام عبر قضبان زنزانتها.

أثارت الفضول، وزارتها الإمبراطورة وضابط في الجيش كاثرين، وحينما شهدت الزائرة وحراسها حضور الملائكة عند كاثرين، تحوَّلوا جميعًا، فقتل الإمبراطور هذه المجموعة الثانية من المسيحيين الجدد.

بعد أن سئم الإمبراطور من هذه الخسائر الجانبية، أمرَ بقطع رأس كاثرين. وحينما انفصل رأسها، تدفَّق الحليب من رقبتها بدلًا من الدم.

في هذا الوقت، نحو 305، نقلت الملائكة جسدها من الإسكندرية إلى جبل سيناء، حيث كان مختبئًا، حتى القرن التاسع. والدير، الذي بني في موقع شجيرة موسى المحترقة أخذ اسمه بعد اكتشاف جثتها. ولا يزال الرهبان يبجلون رفاتها.

يعترف رسَّامو القداسة من الروم الأرثوذكس والكاثوليك بوجود أوجه تشابه تثير الدهشة مع هيباتيا. ما الدليل على وجودها؟ سيرتها تظهر عند أوسابيوس Eusebius. ففي الفصل الرابع عشر من الكتاب الثامن من تاريخ كنيسته، يصف أوسابيوس جمالًا إسكندرانيًّا قد يكون أساس الأساطير. كان لديها تعليم وثروة ودعم من أسرة جيدة. وحينما قاومت تقدّم الإمبراطور ماكسينتيوس، نفاها وصادر ممتلكاتها. ومع ذلك، لا يصف أوسابيوس استشهادها.

هناك أدلةٌ على أنَّ القديسة أبولونيا Apollonia كانت مبنيةً على امرأة حقيقية (Lew-is 2000, 46). كانت شماسة مسنة في الإسكندرية ألقت بنفسها في النار بدلًا من تلاوة صلوات وثنية. وحينما تُروى الحكاية ويُعاد سردها تصبح القدّيسة أبولونيا أصغر سنًّا ويصبح موتها أكثر وضوحًا. وبحلول أواخر العصور الوسطى، كانت أبولونيا شابَّةً مسيحيةً فاضلةً جميلةً تم تعذيبها ببراعة من الوثنيين الفاسدين.

هناك فجوة تبلغ أربعمئة عام بين استشهاد كاثرين المزعوم وأيّة إشارة أدبية أو مصورة

إليها. ويمكن إرجاع جميع الإصدارات الحالية من الأسطورة إلى حساب كتبه سيمون ميتافراستس[1] Symeon the Metaphrastes كتبه بين 960 و 964.

تُعلِّمنا القديسة كاثرين دروسًا عن المشاهير غير الموجودين، فكما هو الحال مع ما هو خارق للطبيعة على غرار الطبيعي فإنَّ غير الموجود على غرار الموجود. نحن نفتقر إلى الخيال للابتعاد عمَّا هو مألوف. لذلك؛ نجري بعض التعديلات الدراماتيكية ونترك الافتراضات المعتادة تملأ بقية القصة افتراضيًّا. ومع ازدياد عدد الفيلسوفات من النساء سيزداد عدد النساء الفيلسوفات غير الموجودات.

(1) في النصِّ الأصلي ورد Simeon Metaphrastes، والصحيح هو Symeon the Metaphrast. وهو كاتب ومسؤول بيزنطي، يعدُّ قدِّيسًا في الكنيسة الأرثوذكسية الشرقيَّة، اشتهر بكتابه "مجموعة حياة القديسين". (المُترجم)

13. أوغسطين: شر الغياب غياب الشر

تشبه ميتافيزيقيا أوغسطين Augustine معبد كونكورديا، وهو معبدٌ يوناني تم تحويله إلى بازيليك[1] basilica في العام 597. وظلَّ الكثير من الهيكل اليوناني الأصلي سليمًا، إذ يستدمج أوغسطين فكرة أفلاطون بأنَّ هناك درجات من الواقع. ويُنظر إلى العالم التجريبي على أنَّه فساد لعالم أعلى شكلته الأشكال، التي حدَّدها أوغسطين على أنَّها أفكار الإله.

مرت الأعمدة الأفلاطونية لميتافيزيقيا أوغسطين عبر يدي أفلوطين، الذي وضع ميول أفلاطون الصوفية، إذ قدَّم أوغسطين أفلاطون على أنَّه فيلسوف حقَّق أكبر قدرٍ ممكنٍ من التقدم دون توجيه الوحي الإلهي.

فضلًا عن صور الظل الموروثة من أفلاطون، استورد أوغسطين الثنائيات الفارسية للنور والظلام. وكان أوغسطين من أتباع النبي الفارسي ماني 276 - 215) Mani) لمدة تسع سنوات. وأكد ماني أنَّ الكون ساحة معركة بين قوى النور والظلام، الإله نور. ويتحكَّم الشيطان في الظلمة (فضلًا عن الدخان والنار والريح والماء). والظلام مادة مدخنة، وليس مجرد غياب للضوء. ويتوافق التكافؤ بين الضوء والظلام مع توصيف أرسطو للضوء والظلام على أنَّهما أساسيان بالقدر نفسه. وتبعًا لإيمبيدوكليس Empedocles، حلَّلَ أرسطو الألوان اللونية chromatic (الأحمر والأزرق والأصفر) بوصفه مزيجًا من الألوان اللالونية achromatic (الأسود والأبيض).

فضَّل الشاب أوغسطين المانوية على مسيحية والدته، إذ لم يطلب ماني الإيمان، فيكفي السبب. كان ماني متواضعًا، وكان المسيحيون من عالمٍ آخر.

بالنسبة إلى ماني، فإنَّ الإله تأمليٌّ بحت، يلهم الإله الناس لمحاربة الشر، ولا يلوِّث الإله يديه بمحاربة الشرِّ مباشرة. ويعتقد المانويون أنَّ من الواضح تجريبيًّا أنَّ الإله ليس

---

(1) في العمارة الرومانية القديمة، مبنى عام كبير له وظائف متعددة، يبنى عادة بجنب منتدى المدينة. (المُترجم)

كلي القدرة، وإذا كان الإله كلي القدرة فإنَّه سينهي المعاناة.

شدَّد تلاميذ ماني على هذا الاعتراض ضد المسيحيين. كما سخر المانويون من العقيدة القائلة بأنَّ الإله خلق الكون من العدم. ماذا كان الإله يفعل قبل أن يخلق العالم؟ ورد الأساقفة المحليون: "جعل الجحيم لمن يطرح أسئلة من هذا القبيل!". قبل المسيحيين، كان هناك إجماع على أنَّ شيئًا لا يمكن أن يأتي من العَدَم، فالخلق يحول شيئًا غير محدَّد إلى شيء محدَّد. وحينما يصف أفلاطون خلق العالم في تيماوس فإنَّه يصوِّر خلق الكون المادي على أنَّه تشكيل العالم من المادة الخام. ويمكن إلقاء اللوم على أوجه القصور في العالم على حدود المادة.

في النهاية التقى أوغسطين بفاوست Faustus، الزعيم المانوي العظيم. وقدَّر أوغسطين كارزما الرائي. لكنَّ أوغسطين أُصيب بخيبة أمل؛ بسبب افتقار فاوست إلى الصقل الفلسفي، فاستنتج أوغسطين أنَّ المانويين بالغوا في دور العقل في دينهم.

عاد أوغسطين لفترة وجيزة إلى الشكِّ الأكاديمي لشبابه، ولكن من خلال العثور على هذا الحساء الرقيق شاركَ في الأجرة الثقيلة لإفلاطون، فتسبَّب هذا في عسر هضم روحي لم يهدأ إلَّا بقيء الثقة.

احتاج المسيحي المطهر حديثًا إلى بناء منزل في المشهد الميتافيزيقي الذي رفضه أوغسطين في شبابه. أصبح الشرُّ الآن حالةً شاذَّةً ملحةً بدلًا من دحضٍ سهلٍ لدين والدته البسيط. كان أوغسطين على دراية بالمزايا التي يتمتَّع بها الآخرون في شرح الشر. وفي تيماوس، يصنع خالق العالم المادي عند أفلاطون كلّ شيء من المادة الموجودة مسبقًا. وبما إنَّ المادة غير كاملة فإنَّ كلَّ ما يتم بناؤه من المادة يرث حدوده.

لكن بحسب المسيحية، خلق الإله كلَّ شيء، وكلُّ ما يصنعه الإله هو خير. لذلك؛ يجب أن تكون كلُّ الأمور جيدة.

في الواقع، يجب أن يكون كلُّ شيء يصنعه الإله كاملًا. ومع ذلك، لا يستطيع الإله أن يصنع إلهًا كاملًا آخر؛ لأنَّ كائنًا واحدًا فقط يمكنه أن يكون كليَّ القدرة. لذلك؛ يجب أن

يكون كلُّ شيء ما عدا الإله ناقصًا.

لكن هذا لا يعني أنَّ هذه الأشياء سيئة بالمعنى الجوهري، فالشر مكمل للخير لا نقيضه. هناك بعض الأشياء بين الحار والبارد، لكن لا يوجد شيء بين الخير والشر، ومجرد غياب الشر خير. وبما إنَّ ما يوجد خير فإنَّ "الشرَّ" هو مكمل فارغ (تمامًا كما إنَّ "غير موجود" هو مكمل "الوجود").

بما إنَّ أوغسطين ينكر أيَّ شيء في وسط الخير والشر فإنَّ غياب غياب الخير خير. وهكذا فإنَّ الحفل يُثنى عليه بقول "ليس سيئًاا"

نحتفل بأعلى مقياس بمقياس "حقيقي": زوجة حقيقية، مصافحة حقيقية، سكين حقيقي. والأقل من زوجة حقيقية ناقصة. ويُقاس سلوكها بالمعايير التي تضعها الزوجة الحقيقية.

حينما ترتدي ثقبًا في جورب فأنتَ تغيّر شكل الجورب فقط، أنت لا تضيف إلى جرد العالم، لا يمكنك عمل ثقب فقط. وارتداءك الجورب سيخلق الثقب كأثر جانبي، لكنك لا تنوي الثقب. وبالمثل، يتوقَّع الإله الآثار الجانبية لأفعاله، لكن هذا لا يجعل الإله شريرًا.

الشرُّ يفتقر إلى الواقعية المستقلة، إذ يمكن أن يوجد العظم من دون كسرٍ، ولكنَّ الكسر لا يمكن أن يوجد من دون العظم.

ما هو - بالنتيجة - الشيء الذي نسميه شرًّا إلَّا الحرمان من الخير؟ في أجسام الحيوانات، مثلًا، المرض والجروح ليست سوى حرمان من الصحة. وعند الشفاء، لا تتراجع الشرور التي كانت موجودةً (أي المرض والجروح) وتذهب إلى أيِّ مكان آخر. بل إنَّها ببساطة لم تعد موجودةً؛ لأنَّ هذا الشرَّ ليس مادة، فالجرح أو المرض هو عيب في مادة الجسم وهو جيد كمادة. فالشرُّ إذن حادث، أي حرمان من الخير الذي يسمَّى الصحة. وهكذا، مهما كانت العيوب الموجودة في الروح فهي حرمان من الخير الطبيعي. وحينما يتم علاجها لا يتم نقلها إلى مكان آخر، ولكن نظرًا لأنَّها لم تعد موجودةً في الحالة

الصحية فإنَّها لم تعد موجودةً على الإطلاق. (Augustine 2010b, 3.8)

حل الحرمان يعالج مشكلة الشرِّ بطريقة تحفظ سيادة الإله، فبدلًا من وجود قوتين متعارضتين - كما بشَّرَ ماني - هناك قوةٌ واحدةٌ فقط. الشرُّ هو وهمٌ يعتمد على الخير، والشرُّ هو ثقب في الخير (شكل 13.1). "ويل للقائلين للشرِّ خيرًا وللخير شرًّا، الذين يجعلون الظلمة نورًا والنور ظلمة" (Isaiah 5:20).

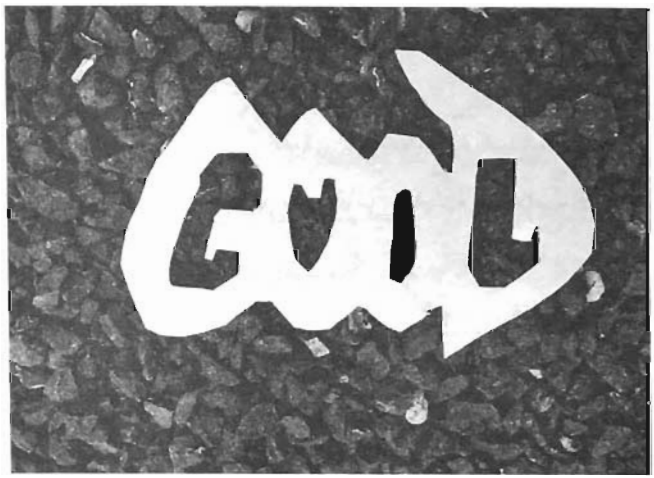

الشكل 13.1 الشر فجوة في الخير.

يسمح الحل أيضًا لأوغسطين بالحفاظ على فكرة رئيسة من المانوية: تحديد الألوهية بالنور، الضوء نقي. وحينما يلامس الضوء القذارة لا يفسد الضوء.

في بساطته الإلهية، يقف الإله مهمًّا كما يقف الضوء الأبيض أمام ألوان قوس قزح، فحينما يمرُّ الضوء من خلال القطرة تلو الأخرى يخفت الضوء. ومع وجود كمية كافية من الماء - كما هو الحال في أعماق البحار - هناك غياب للضوء، ويزداد الظلام مع البعد عن الضوء. وحينما تغرق بعيدًا عن مصدر الإضاءة، يزداد ظلك بشكل أكبر وأكثر تشوُّهًا.

"الإله نور وليس فيه ظلمة أبدًا" (John 1:5 1). ينفي أوغسطين أنَّ مثل هذه المقاطع يجب أن تُقرأ مجازيًا: "لا يقول المرء إنَّ المسيح نور بالمعنى نفسه الذي يُدعى به صخرة؛ لأنَّ العبارة الأولى حرفية، بينما العبارة الثانية هي مجرد صورة كلام" (1982، 136).

إنَّ تعريف أوغسطين الحرفي للمسيح والنور يكون أقلّ تلاشيًا إذا كان الضوء القادم من نافذتك يُنظر إليه على أنَّه يتمتَّع بدرجةٍ أقلَّ من الحقيقة من النور الحقيقي للألوهية. كان هذا التمييز بين النور الإلهي والنور العادي شائعًا في العصور الوسطى. ويحتفل شعر دانتي (Dante 1265 - 1290) بالتباين بعد ما يقرب من ألف عام من أوغسطين. ففي الكتاب الثامن والعشرين من الجنة Paradiso، يقف الراوي على حافَّة مكان إمبيرين، ويقول:

رأيت نقطة كانت تتألَّق بالضوء بشدَّة،
والعين التي تراها لا تستطيع تحمُّل التوهُّج؛
النجم الذي يعدُّ أصغر نجم بالنسبة إلينا
يبدو قمرًا إذا تم وضعه بجانب هذه النقطة. (1982، 47)

هذا الضوء الأقوى يحيي أسطورة أفلاطون عن الشمس، ففضلًا عن كونها أصل كلِّ شيء، فإنَّ الشمس هي سببٌ مستمرٌّ لكلِّ كائن.

ما مدى اعتماد الأجسام الأرضية على الشمس لاستمرار وجودها؟ الجواب المعاصر يضعها في قيود أطول: إذا اختفت الشمس فسيحدث دمار واسع، لكن ليس على الفور؛ وهذا لأنَّ الكائنات يمكن أن تستمرَّ في الوجود بمفردها، إذ لا تحتاج الأشياء المادية إلى الرعاية من لحظة إلى أخرى. والمراحل المتأخرة من الكائن ناتجة من مراحلها المبكرة، فيستمر الكائن بسبب علاقة سببية جوهرية.

يوضِّح توما الأكويني (1225 - 1274) هذا الجمود الوجودي بالتمييز بين الحرارة والضوء. حينما يتم تسخين جسم ما يظل الجسم ساخنًا بعد إزالة مصدر الحرارة. ويعود سبب استمرار سخونة الكائن إلى درجة سخونة الماضي، لكنَّ الضوء يختلف. نفتِر الإضاءة المستمرة لجسم ما كتأثير مصدر ضوء خارجي. وإذا تمت إزالة مصدر الضوء

فسيتوقَّف الكائن عن الإضاءة.

فكر الآن في شيء يعتمد كليًّا على الإضاءة: الظل. مرحلة واحدة من الظل لا تسبب المرحلة التالية، فالظلال ليس لها سببية جوهرية. وبحسب أوغسطين ظهور المواصلة وهم. وعلى الرغم من ظهور التتابع فإنَّ هناك ظهورات متتالية.

ما العلاقة بين الإله والأشياء المادية؟ بحسب أوغسطين، الصخور والجداول تشبه الظلال. ومراحل الأشياء المادية هي كيانات مؤقتة تدين بوجودها للإله: "إذا انسحب، إذا جاز التعبير، من كل الأشياء، فإن قوته الخلاقة ستنتكس على الفور إلى العدم الذي كانت فيه عندما خلقت لأول مرة" (1872، 60).

لم يدفع معظم خلفاء أوغسطين في العصور الوسطى التشابه بين الأشياء والظلال إلى هذا الحد. وقد أثبتت النظرة اللحظية أنَّها أكثر شيوعًا بين الميتافيزيقيين الإسلاميين مثل الفيلسوف الفارسي أبي حامد محمد بن محمد الغزالي (نحو 1056 - 1111). فقد قدّروا المزايا التفسيرية للفرضية القائلة بأنَّ كلَّ كائن عبارة عن مجموعة من الكيانات اللحظية. مثلًا، يحلّ مشكلة التغيير: كيف يمكن أن يتطابق كائن له خاصية واحدة مع كائن لاحق يفتقر إلى الخاصية؟ ينكر حلّ "الديمومة" perdurantist بقاء الأشياء عبر الزمن. وبدلًا من دوام الأشياء؛ جزء زمني واحد له الخاصية التي يفتقر إليها جزء زمني لاحق. فيمكن للدواميين أيضًا حل مفارقة سهم زينو: كيف يمكن للسهم أن يتحرك إذا كان ثابتًا في كلِّ لحظة من رحلته؟ الحلُّ المتمثل في أنَّ الحركة هي مجرد تغيير في المكان. وفي كلِّ لحظة، تحتوي مراحل السهم على مواضع متقدمة قليلًا. السهم هو مجرد سلسلة من الأسهم اللحظية → = > →, →,→, →,→, →,→, →,→, →,→ <.

الإله وظله

بالنظر إلى وصف أوغسطين الحرماني للشرِّ، لا شيء يمكن أن يكون شريرًا بالكامل. يمكن أن يحتوي الجورب على ثقوب في الكعب وفي أصابع القدم، لكن لا يمكن أن

يكون الجورب عبارةً عن ثقوب بالكامل. ويستنتج أوغسطين بجرأة أنَّ الشيطان لا يمكن أن يكون شريرًا بالكامل، فالشيطان خير بقدر ما هو موجود.

يحرص أوغسطين على تحديد صفات الشيطان الحميدة، إذ ينتمي الشيطان إلى أعلى الأنواع: الأرواح. وكان أفضل عينة من تلك الأنواع النبيلة. ومن المفارقات أنَّ هذا الخير الفائق كان سبب سقوط الشيطان؛ لأنَّ اعتراف الشيطان بالجدارة منحه الكبرياء، ومن الكبرياء جاء حسد الإله، وأدَّى هذا إلى قيام الشيطان بإثارة تمردٍ كارثيٍ بين بعضٍ زملائه الملائكة، ومن خلال التمرد أصبحت هذه الأرواح شياطين.

صنَّف اللاهوتيون الآخرون الشياطين نوعًا متميِّزًا عن الملائكة، لكنَّ أوغسطين اعترض على أنَّ الأنواع الشريرة مستحيلة. لن يكون لدى الإله أيُّ سبب لخلق أيِّ شيء شرير بحت. بدلًا من ذلك، فإنَّ الأرواح الشريرة هي أرواح اختارت الخير الأقل (أنفسهم بدلًا من الإله).

في كتاب جون ميلتون (John Milton 1608 - 1674) الفردوس المفقودParadise Lost، يعلن الشيطان: "الشر، كوني خيرًا". لكنَّ الشرَّ يتطفَّل على الخير. وما يشاء الإله يقابله الشيطان، فالشيطان مثل طفل صغير متحدٍّ لكنَّه غير مفصلي، إذ يحرص الصبي المضاد للإيحاء على أن يقول "لا". ولكن يجب أن ينتظر والده حتى يصرح بأمر، فالطفل المتعمد لديه دافع لتعريف نفسه ضدَّ والده، لكن الصورة الناتجة هي مجرَّد صورة فوتوغرافية سلبية لوالده.

على الرغم من هذه الاشتقاقية، فإنَّ تمرُّد الشيطان خلق عدم توازن في الكون، فعوَّض الإله بخلق آدم، وكتفكير لاحق، حواء. للأسف، نجح الشيطان في إغراء حواء بعصيان القاعدة الوحيدة التي فرضها الإله، فأكلت من شجرة المعرفة، وضاعفت حواء خطيئتها بإقناع آدم بالانضمام إليها.

وضعت هذه الخطيئة الأصلية البشرَ تحت سلطة الشيطان، وكان يحقُّ لأمير الظلام أن يختار النفوس من البشرية حيث يمكن للمرء أن يقطف التفَّاح من الشجرة. نصب

الإله فخًّا للشيطان بوضع يسوع على الأرض، فيسوع الذي يعرِّف نفسه بأنَّه "نور العالم" (John 8:12) كان بلا خطيئةٍ، وبالنتيجة هو خارج نطاق سلطة الشيطان. لكنَّ الإله كان بإمكانه أن يتنبَّأ بأنَّ احتمال إفساد يسوع سيكون مغريًا لدرجة أنَّ الشيطان قد يتعدَّى حدوده. وحينما أخطأ الشيطان بأخذ يسوع إلى الجحيم كان يسوع قادرًا على فداء البشرية.

قبل أوغسطين اقتراح أوريجانوس Origen أنَّ الشيطان Satan هو لوسيفر Lucifer. وبحسب هذا التفسير، يظهر الشيطان لأوَّل مرة تحت اسم لاتيني: "كيف سقطت من السماء، يا لوسيفر، ابن الصباح!" (Isaiah 14:12). يبدو أنَّ هذا في الواقع سرد لملك بابلي سقط اسمه العبري هو "هلال بن شاهار" أو "نجمة النهار ابن الفجر". ونجمة النهار هي ما نسمّيه نجمة الصباح (في الواقع كوكب الزهرة كما رأينا قبل شروق الشمس مباشرة). فـ "جالب الضوء" Lucem ferre أصبح اسم لوسيفر. ومن خلال تقلبات التفسير الكتابي يصبح الملك الساقط ملاكًا ساقطًا.

كما يذكر أوغسطين، يشير المسيح إلى نفسه بأنَّه "نجمة الصباح"(Revelation 22:16). ويقول أوغسطين إنَّ هذه الاستعارة مناسبة؛ لأنَّ المعرفة البشرية تنبع من الاستنارة الإلهية. ومثلما تعتمد الرؤية على النور فإنَّ معرفة العالم والحقائق الدينية تعتمد على الإله.

الشيطان (كالمسيح الدجَّال Antichrist) هو ظلُّ الإله، إنَّه غير قادر على أصالة الإله، ولذا فهو يقلِّد الألوهية إلى الأبد. وطقوس عبادة الشيطان طفيلية على تلك المسيحية الحقيقية. فمثلًا: القدَّاس الأسود هو صورة زائفة للقدَّاس المبارك. ويشرح أوغسطين أوجه التشابه بين الوثنية والدين الحقيقي بوصفه تزويرًا شيطانيًّا. ويحذِّر من "شياطين الظهيرة" التي تقدّم ضوءًا داكنًا يمكن عدُّه إضاءةً حقيقيةً. والزنادقة مقنعون لأنَّهم يتَّخذون مظهر العلم.

في "محاضرات أوغسطين عن إنجيل يوحنا"، دقَّق أوغسطين لتمييز المسيح عن

لوسيفر: لكن إبراهيم أيضًا وُلِد في وسط الجنس البشري: كان قبله كثيرون وكثيرون بعده. استمع إلى صوت الأب للابن: "قبل لوسيفر لقد ولدتك". الذي وُلد قبل لوسيفر نفسه ينير الجميع. والذي اسمه لوسيفر سقط؛ لأنَّه كان ملاكًا وأصبح شيطانًا. وعنه قال الكتاب: "لوسيفر الذي قام في الصباح سقط". ولماذا كان لوسيفر؟ لأنَّه، كونه مستنيرا، أعطى الضوء. لكن لأيِّ سبب أصبح مظلمًا؟ لأنَّه لم يثبت على الحقِّ! لذلك؛ كان قبل لوسيفر، قبل كلِّ متنور؛ لأنَّه قبل كلِّ شخص مستنير، يجب بالضرورة أن يكون هو الذي يستنير الجميع بواسطته. (21)

تنبع شعبية الشيطان من رغبتنا في تجسيد الشرِّ. نريد أن نعرف ماذا - أو الأفضل - من نكره. ووضع وجه بشري على الشرِّ يمنحنا الشعور بأنَّنا نعرف ما نواجهه. ومع ذلك، فإنَّ نظريَّة الشرِّ الحرمانية لأوغسطين تشتِّت تركيزنا، فإذا كان كلُّ ما هو موجود خيرًا فعلينا أن "نحبَّ الخاطئ ولكن نبغض الخطيئة".

يصعب الحفاظ على هذا المستوى من التجريد عاطفيًّا. وبالنظر إلى نظريَّة الشرِّ الحرمانية لأوغسطين من الصعب أيضًا الحفاظ عليه فكريًّا، ففي كرهنا للخطيئة (بدلًا من الخاطئ) ما الذي نكره بالضبط؟ بالنظر إلى أنَّ الخطيئة هي غياب فلا يوجد شيء تكرهه. سأل تلاميذ القديس أنسيلم Anselm لماذا يهمُّ ما إذا كانوا يخطئون، فإذا كان الشرُّ عَدَمًا، فالخطيئة عَدَم. وإذا كانت الخطيئة عَدَمًا، فلن يعاقبنا الإله على الخطيئة.

إذا كان الشرُّ هو حرمان الخير فكيف يضرُّنا؟ تذكرنا إجابة أوغسطين بالعقيدة السقراطية القائلة بأنَّ الشرَّ لا يمكن أن يؤذي الإنسان الصالح. وبحسب أوغسطين، فإنَّ الصالح المعيب هو الذي يمتلك القوَّة السببية. والشيطان والملائكة الساقطون مخلوقات فاسدة بذاتها تسبّب الحزن من خلال سماتها الإيجابية، وليس سماتها السلبية. فحينما يسقط الرجل تأتي الكدمة من ملامسة الأرض، وليس من عدم وجود دعم. أو ضع بحسبانك الضرر الناجم من قطع شريان الرجل، يضخُّ قلبه السليم الدمَ عبر الشق مِمَّا يتسبَّب في نزفه حتى الموت، فالشقُّ لا يقتله، وإنَّما قلبه يفعل.

القبح حرمان من الجمال. وباستعمال التعريف الأفلاطوني للحقيقة والجمال والخير يعدُّ أوغسطين أنَّ كلَّ شيء جميل بقدر ما هو موجود. فبقدر ما تكون الدودة في سلسلة الوجود الكبرى فإنَّها تتمتَّع بدرجةٍ معينةٍ من الواقع، وكذلك درجة معينة من الجمال. وعلى حسب ذلك، يحرص أوغسطين على مدح جمال الدودة.

إذا كانت جماليات أوغسطين صحيحة فلا توجد فترات حرمان جميلة. فماذا نقول عن الظلال الجميلة التي تلقيها مصابيح الزيت المعلَّقة في الكنائس المسيحية؟ تشع ظلال الصلبان من المركز، وتغمر الخدمات المسائية بأنماط دقيقة زائلة.

وصف أوغسطين هذا النوع من الجمال بأنَّه مشتقٌّ؛ "لأنَّ جمال الصورة يزداد بظلال مدارة جيدًا، لذلك، بالنسبة إلى العين التي لديها مهارة في تمييزها فإنَّ الكون يتم تجميله حتى من الخطاة، على الرغم من أنَّ تشوُّههم يعدُّ عيبًا حزينًا في نظرهم" (1953، 265).

تساعد الظلال عناصر الجمال من خلال الكشف عن العمق والملمس. لكنَّ الظلال يمكن أيضًا أن تخرج عن الخلفية وتكون جميلةً في جوهرها، إذ تُظهِر الظلال التي تلقيها المصابيح الزخرفية أشكالًا جميلةً مقابل خلفية من الضوء. وربما يصرُّ أوغسطين على أنَّ الضوء هو الجميل وأنَّ الظلال هي مجرد وسيلة لتحقيق النهاية. وبالتناوب، قد ينسب الجمال إلى الخصائص الإيجابية للظلِّ (الشكل والحجم والاتجاه) بدلًا من الظلِّ نفسه.

الإله لا يخلق الشرَّ. في الواقع، الشرُّ، بمعنى ما، غير واقعي. صحيح، هناك ثغرات في الوجود، لكن هذا أثر جانبي لصنع كونٍ كاملٍ، كون يتم فيه تمثيل كلِّ نوع من الأشياء. وعلى رأس سلسلة الوجود العظيم يوجد الإله، ثمَّ تأتي الملائكة والبشر والحيوانات والنباتات والأشياء غير الحيَّة والمواد غير المشوّهة والظلال. "ليس لديك كون مثالي إلَّا حيث يؤدِّي وجود أشياء أعظم إلى وجود كائنات أصغر، وهي ضرورية للمقارنة" (Augustine 2010b, 3.9).

تم تعديل نظريَّة الشرِّ الحرماني في العصور الوسطى. بدلًا من النظر إلى الخير والشرِّ على أنَّهما متناقضان contradictories، تم عدُّهما متقابلين contraries، فبعض الأشياء ليست جيدةً ولا شريرة.

عزَّز الأكويني هذه المنطقة المحايدة، فعلى الرغم من أنَّ الشرَّ هو نقصٌ في الخير، فإنَّه ليس كلُّ نقص شرًّا، فالرجل يفتقر إلى القدرة على هضم الخشب. وهذا الغياب ليس شرًّا؛ لأنَّه ليس حرمانًا (على الرغم من أنَّ عدم القدرة على هضم الخشب هو حرمان في النمل الأبيض). والعمى عند الإنسان شرٌّ؛ لأنَّه يُبصر بالفطرة. وينمو الجنين إلى شكل الإنسان، وهذا الشكل هو حيوان بصري. وهذا الارتباط بين الخير وما هو طبيعي يجعل الشرَّ شيئًا دائمًا ما يكون شذوذًا، ودائمًا شيئًا يحتاج إلى تفسير، فنسأل لماذا لا يستطيع الأعمى أن يرى ولكن ليس لماذا يبصر الرجل المبصر، وليس وجود شذوذ في الحجر حينما لا يمكنه الرؤية، فمن المفترض أن يرى الرجال، والصخور لا ترى.

الحرمان هو غياب الشيء الذي يجب أن يكون موجودًا. وفي الاستعمال العادي، ندع "يجب" محكومة بمجرد توقع. والأكويني هو منظِّر القانون الطبيعي، إذ يعتقد أنَّ الكون تديره قوانين طبيعية لها قوَّة وصفية ومعيارية.

يميز الأكويني أيضًا بين الغيابات الموجَّهة والغيابات المحايدة، فقطعةٌ من البرونز يمكن أن تصبح تمثالًا نصفيًّا لأفلاطون. ومع ذلك، فإنَّ فشل الكتلة في الحصول على شكل رأس أفلاطون ليس شرًّا. ككتلة، لا يُقصد بالبرونز أن يكون له هذا الشكل ولا يُقصد به عدم وجوده.

حتى مع تصريحات الإكويني للحياد، هناك أمثلةٌ عنيدةٌ للشرِّ تبدو إيجابيةً وليست سلبيةً، إذ يتناقض الحقد مع القسوة في كونه أكثر من مجرَّد غياب للشفقة. ويتناقض الألم مع التنميل في كونه أكثر من مجرد غياب للشعور. وبالمثل، فإنَّ بعض الأمراض ناتجة من الوجود وليس الغياب، فوجود الذيل هو اضطراب للإنسان، فالذيل هو نوعٌ خاطئٌ من الوجود للإنسان.

مشكلة الشرور الإيجابية الأخرى هي مشكلة كمية، فيجب أن يكون للبشر أصابع، لكنَّ امتلاك ستة أصابع يعدُّ اضطرابًا، حتى لو كان كلٌّ منها يعمل في حدِّ ذاته.

ربَّما يمكن وصف الذيل والإصبع بالحرمان من العدد الصحيح للأجزاء (خمسة للأصابع وصفر للذيول). وبروح مماثلة، سيكون الحقد حرمانًا من المقدار الصحيح من السادية.

إنَّ تحويل الشرور الإيجابية إلى أنموذج الحرمان ينطوي على مخاطر جعل عبارة "الشرّ هو غياب الخير" أكثر مرونةً بحيث لا يمكن اختباره بالحسّ السليم. وإذا سمحنا لأنفسنا بهذه الدرجة من الترخيص اللغوي فلن يكون لدينا أيُّ سببٍ لتفضيل نظريَّة الشرِّ الحرمانية على نظريَّة الخير الحرمانية. وكما سنرى في الفصل الذي يناقش تشاؤم آرثر شوبنهاور (وربما رأينا في الفصل الخاص ببوذا)، فقد تم تبني نظريَّة الخير الحرمانية بشكل جادّ.

هل "العَدَم" يعني العَدَم؟

شعر أوغسطين بالحيرة من قصَّة الخلق في سفر التكوين؛ لأنَّها تنتهك المبدأ القائل بأنَّ العَدَم يأتي من العَدَم. ولتقليل أهميَّتها، يتعامل الأستاذ أوغسطين مع المفارقات حول "العَدَم" على أنَّها ارتباكات لغوية.

يقرُّ أوغسطين أنَّ "العَدَم" هي كلمة غريبة. يمكن لأوغسطين أن يشرح المعنى لأديوديتس "Adeodatus" بالإشارة إلى حامل هذا الاسم: يشير أديوديتس إلى ابن أوغسطين البالغ من العمر خمسة عشر عامًا. (كيف انتهى الأمر بالقديس أوغسطين مع ابن؟ في الاعترافات، كتب أوغسطين: "حينما كنت شابًّا دعوت: أعطني العفَّة والصبر، لكن ليس بعد") لكن بعض الكلمات تفتقر إلى مرجعية واضحة. فيعتقد ماني أنَّ "الشرَّ" يسمي مادة، لكن أوغسطين يقول إنَّ "الشرَّ" يسمي غياب الخير مثلما يسمّي "البرد" غياب الحرارة. والقول بوجود الشرِّ مضلل مثل القول بوجود البرد.

يناقش الأب والابن الطبيعة العامَّة للكلمات في حوار أوغسطين "حول المعلم". ويفتح أوغسطين الحوار بالأطروحة القائلة بأنَّ كلَّ تحدثٍ هو تعليم. فكر في الطالب الذي يطرح سؤالًا، إنَّه يخبر معلمه عن رغبته في معرفة حقيقة معيَّنة.

أديوديتس يقترح الغناء كمثال مضاد، يتراجع والده عن الادِّعاء بأنَّ كلَّ الكلام هو إما تعليم أو تذكير. وحينما يصرُّ أديوديتس على أنَّ بعض الغناء يتم فقط من أجل المتعة يعترض أوغسطين على أنَّ هذا النوع من الغناء لا يختلف عن غناء العصافير، وبالنتيجة لا يتحدث.

يوافق أديوديتس على هذا الردّ، ويلتفت إلى مثال آخر واضح مضاد، عند الصلاة للإله يخاطب المسيحي مستمعًا يعتقد أنَّه يعرف كلَّ شيء، ويجيب والده أنَّ كلَّ حديث في الصلاة هو لتنوير المتفرجين.

بالنظر إلى أنَّ كلَّ الكلام هو للتعليم أو للتذكير يجب أن تكون كلُّ الكلمات علامات، يجب أن تعمل كلُّ كلمة مثل الاسم. وتعليم معنى الاسم هو مسألة الإشارة إلى حاملي تلك الأسماء، إذ يظهر ضحك الصبي في "جلس يسوع على حماره" (Matthew 21:1 - 11) أنَّه يحتاج إلى تعليمات حول معنى "الحمار". وتعلمه والدته "الحمار" بالإشارة إلى حمار (Equus africanus asinus).

يبدأ أوغسطين وأديوديتس فورًا في حلِّ اللغز بشأن ما تشير إليه كلُّ كلمة في سطر 2.659 من إنيادة فرجيل: Si nihil ex tanta superis placet urbe relingqui (إذا كان من دواعي سرور الآلهة أن لا يبقى شيء من هذه المدينة العظيمة). Si تعني إذا If. ولا يمكننا أن نشير إلى if كما نشير إلى الحمير. وعند الضغط عليه، يقترح أديوديتس أنَّه إذا تدلُّ على الشكِّ في عقل المتحدث. ويقبل أوغسطين مبدئيًّا هذا الاقتراح. ويحثُّ ابنه على الانتقال إلى الكلمة الثانية nihil ("العَدَم"). ويُجبر أديوديتس على قول إنَّ nihil تشير إلى ما هو ليس كذلك. لكنَّ والده يعترض: الإشارة إلى ما ليس هو فشل في الإشارة. ومن ثَمَّ، "العَدَم" يجب أن يكون بلا معنى، فيرتبك أديوديتس.

العَدَم .. تأريخٌ فَلسَفيٌّ

من ناحيةٍ أخرى، إذا كان "العَدَم" يشير إلى شيء ما فسنجد صعوبةً في دحض هذا القياس المنطقي:

العَدَم أسوأ من إبليس Devil.

العَدَم أعظم من الإله.

لذلك؛ فإنَّ إبليس أعظم من الإله.

من ناحيةٍ أخرى، إذا فشل "العَدَم" في الإشارة، فلا يوجد قياس منطقي، وما يبدو أنَّه مقدمات هو كلام لا معنى له. وهذا الإنكار للمعنى يفشل في إنصاف مظهر المراوغة، إذ تتطلَّب المراوغة معنيين.

بصفته مدرسًا سابقًا للبلاغة، كان أوغسطين على دراية بمدى تأثير التوقفات الطفيفة في الكلام بشكل كبير على المعنى. تأمل الجملة المكتوبة: "المرأة من دون زوجها عَدَم" A woman without her man is nothing. إذ يقترح اعتماد الإناث على الرجال من عبارة: "المرأة، من دون زوجها، عَدَم" A woman, without her man, is nothing. والاعتماد المعاكس يقترح من العبارة: "المرأة: من دونها، الرجل عَدَم" A woman: without her, man is nothing. بما إنَّ معنى "العَدَم" يتأثَّر بشكل كبير بالقليل من الصمت، يجب أن يكون هناك معنى ما لـ "العَدَم" للتأثير.

لا يستعمل أوغسطين هذا الدليل اللغوي لإعادة النظر في الافتراض بأنَّ "العَدَم" يجب أن يكون له حامل ليكون ذا معنى.

بدلًا من ذلك، حثَّ ابنه على الانتقال إلى الكلمة الثالثة من اللغز، "لئلَّا يمنعنا شيء". مزيد من المتاعب: الكلمة الثالثة ex ("من") هي حرف الجر. من ماذا تنشأ كلمة "من"؟ يستمرُّ أنموذج اسم المعنى في إجبار الأب والابن على القيام بمهام خيالية بشكل متزايد للمراجع. وعلى الرغم من المثال المضاد بعد مثال مضاد لا يشكِّك الاثنان مطلقًا في النظريَّة القائلة بأنَّ معنى الكلمة هو حاملها. ويعتمد أوغسطين على التنظير المبكر حول القواعد. مثلًا: حرَّرَ المحجر quarry بتمييز أفلاطون بين الأسماء والأفعال،

فبدلًا من حصر البحث في الأشياء فإنَّه يوسع البحث ليشمل صفات تلك الأشياء. ويؤكد أوغسطين أنَّ كلَّ جملة لها بنية اسم - فعل. وينتقي الاسم مرجعًا وينسب الفعل بعض الخصائص لتلك المادة.

أصبح أنموذج الفعل - الاسم هذا حقيقةً بديهيةً لا جدال فيها في التقليد النحوي الغربي. ووضع الفيلسوف الاسكتلندي توماس ريد (1710 - 1796) Thomas Reid "كل جملة كاملة يجب أن يكون لها فعل" من بين الحقائق الضرورية للحسِّ السليم. ولا يناقش ريد الجمل الشاذَّة مثل أحجية أوغسطين وابنه حول أنموذج الاسم للمعنى، ففي حالة أنموذج الفعل - الاسم، لا أحد يناقش ما إذا كانت الجملة المعادلة "هذه الجملة بلا فعل" نحوية. ولا أحد يحاول إظهار أنَّ التعجب الوجودي "نار في الحفرة!" هو حذف للجملة التي تحتوي على فعل.

كان لا بدَّ من استيراد الشكوك حول مطلب الفعل من النحاة العرب. كانوا على دراية باللغات التي تستعمل فيها الجمل الخالية من الأفعال. وبمجرد أخذ هذه الشكوك المستوردة على محمل الجد، تكهَّن علماء اللغة أنَّ ميتافيزيقا السمة الجوهرية للغرب مشتقة من حادث نحوي للغات الهندو أوروبية. فتصور علماء اللغة القلقون اللغة الأم للفرد على أنها سجن. وقد تحدوا الحقائق الضرورية من خلال فحص تاريخ اللغات في ضوء الأدلة اللغوية المتقاطعة.

قلق أوغسطين الدائم في الحوار هو أنَّ الكلمة ستترك يتيمة من دون مرجع. ويبحث عن شيء سيكون موجودًا دائمًا حينما تكون الكلمة موجودة، وأحد المرشحين هو كلمات أخرى.

من المؤكد أنَّ "الاسم" يشير، وفي النهاية "الاسم" هو في حدِّ ذاته اسم، وكلُّ كلمة تشير إلى نفسها إذا كان كلٌّ من استعمالاتها اقتباسًا منها أيضًا. ويمكن القول إنَّ كلَّ استعمال للكلمة يُقصد به أن يكون أنموذجًا لكيفية استعمال الكلمة، فحينما سُئل أوغسطين عن اسمه أجاب "أوغسطين"، وأشار إلى نفسه في الوقت نفسه، ومن ثَمَّ علم

الآخرين كيفية استعمال اسم "أوغسطين". ونظرًا لأنَّ كلَّ كلمة تعلم كيفية استعمالها فإنَّ كلَّ كلمة تضمن مرجعها الخاص.

يجب أن يكون مخطَّط التأمين هذا جذابًا بشكلٍ خاصٍ قبل اختراع علامات الاقتباس. وفي النهاية أصبح أوغسطين حتَّاسًا للتمييز بين استعمال الكلمات والاكتفاء بذكرها. فإذا خرجت "رائحة الفم الكريهة" من فم أوغسطين فلا يتبع ذلك الرائحة الكريهة التي خرجت من فمه. ويمكن للمتحدث غير المتأكد من النطق المضي قدمًا دون أيِّ التزام بأن يكون أنموذجًا للاستعمال السليم. وعند الترجمة، لا يغيِّر المرء الموضوع بذلك.

الترجمة وفية فقط إذا كان ما يفكر فيه المتحدث يطابق ما يدور في ذهن المستمعين. ويمكن أن يكون هناك تطابق فقط إذا كانت هناك أشياء متطابقة، وهكذا يبدأ أوغسطين في عَدِّ الأفكار مراجع للكلمات (وليس الكلمات نفسها).

يستخفُّ الفلاسفة المعاصرون بأصالة هذه الفكرة. وقبل أوغسطين كان يُعتقد أنَّ تقديم تقرير بعبارة "يبدو لي" يعطي عبارةً ليست صحيحة ولا خاطئة. مثلًا، يعدُّ سكستوس إمبيريكوس Sextus Empiricus مثل هذه الملاحظات المغطاة تراجعًا إلى الحياد؛ لم تتخذ أيَّ موقف. ويبتكر أوغسطين من خلال وصف عبارات المظهر على أنَّها أوصاف للأعمال الداخلية للعقل.

المظاهر توفر ملاذًا من المتشككين، إذ لا يمكن مهاجمتها على أساس أنَّ حواسنا قد تكون معطَّلة.

كان سكستوس إمبيريكوس مدركًا لهزيمة الذات البلاغية في تأكيده "أنا غير موجود". لكن أوغسطين يحول هذه المفارقة البراغماتية إلى مناورة فلسَفيَّة جوهرية. وعلى وجه الخصوص، يجادل أوغسطين في أنَّ الجدالات المشككة تدعم في الواقع وجود الذات؛ لأنَّه بالنظر إلى حقيقة وجود شكٍّ يجب أن يكون هناك شكٌّ.

هنا نشهد تأثيرًا دائمًا للدين على الفلسَفَة، إذ تطوَّرت المسيحية في الإمبراطورية الرومانية كدين سري. وقد حصل اليهود على إذنٍ قانونيٍّ لعبادة إلههم. ولكن مع تطوُّر المسيحية بعيدًا عن الديانة المضيفة تمت إدانة المسيحيين بوصفهم طفيليات على الجسد السياسي. وبصفتهم يهودًا زائفين، فقد المسيحيون الحماية القانونية. وطقوسهم الغريبة، مثل أكل لحوم البشر من لحم ودم المسيح، كان لا بدَّ من إجرائها في الظل. ونظرًا للاضطهاد الديني، شدَّد المسيحيون على الموافقة الداخلية على الطقوس العامة، وتم تشجيع الاستبطان أكثر من خلال نبوءة يسوع عن دمار وشيك للعالم، وحوَّل أتباعه الاهتمام من تراكم السلع المادية والمكانة، وركزوا على تحسين الذات الروحي، ووقفت السماء مكافأةً لأصحاب النوايا الحسنة، وكان الجحيم يلوح في الأفق عقابًا لأولئك الذين لديهم نوايا سيئة، وكان المسيحيون بطبيعة الحال حريصون على مراقبة الحالة السرية لأرواحهم.

تتسرَّب الطبيعة الخاصة للأفكار إلى مفهوم أوغسطين عن الكلام، فبدلًا من تصوير اللغة وسيلةَ تواصلٍ اجتماعي فإنَّه يفكر فيها بشكل متزايد على أنَّها وسيلة فكرية خاصة. للمتحدث سلطة فريدة على ما تعنيه كلماته. ومن ثَمَّ، فإنَّ المتحدث فقط هو في وضع يسمح له باكتشاف متى يكون التفسير ما بعد اللغوي دائريًّا وحينما يكون مفيدًا: "لمناقشة الكلمات بالكلمات تكون متشابكةً مثل التشابك وفرك الأصابع بالأصابع، وفي هذه الحالة نادرًا ما يمكن تمييزها، إلَّا من قبل من يفعل ذلك بنفسه، أي الأصابع تحك وأيها يساعد على الحك" (1948، 372).

الميزة الكبرى لجعل الأفكار تحمل المعنى هي أنَّه يبدو دائمًا أنَّ هناك مرجعًا في متناول اليد. ولا يزال هناك سؤال حول ما إذا كان قد تم العثور على مرجع مناسب. فمثلًا، يبدو أنَّ الشكَّ مفتعل بوصفه مرجعًا لـ "إذا". فقد يكون هناك المزيد من المعقولية في الاقتراح أنَّ "إذا" تشير إلى فكرة "إذا". ولكن فكرة "إذا" في حدِّ ذاتها تبدو متعطشة لمرجع مثل كلمة "إذا". وكان من الأفضل ألَّا تكون وجبته كلمة "إذا"!

العَدَم .. تَأريخٌ فَلسَفيٌّ

الأمور أسوأ بالنسبة إلى الاقتراح بأنَّ "العَدَم" يشير إلى فكرة العَدَم، ففكرة العَدَم موجودة. لكن كيف يوجد العَدَم؟ كما سنرى في الفصل التالي، استمرت ألغاز العدم في الازدهار على أنقاض الجامعات الأوروبية.

14. فريدوجيسوس: التزامُن والغياب

بعد سقوط روما، تعمَّق التدهور الاقتصادي لأوروبا. وتصوَّر مسيحيو العالم الآخر أنفسهم على أنَّهم في عصرٍ مظلمٍ بين مجيء المسيح الأول والثاني. واستجاب شارلمان Charle-magne (742 - 814) الذي يتَّسم بالطابع الدنيوي للانخفاض في التعلم من خلال تجنيد العلماء. ووافق ألكوين يورك Alcuin of York (735 - 804) - راغبًا في تجنُّب الفايكنغ Vikings - على أن يصبح مديرًا لمدرسة القصر. ودرَّس الرياضيات الأساسية وعلم الفلك. ويحتوي كتابه المدرسي على أقدم عرض لألغاز التحويل. وطرح لغز كيفية نقل ذئب وماعز وعلف عبر النهر (دون أن يأكل الذئب الماعز أو الماعز يأكل العلف).

بوصفه مسؤولًا أكاديميًّا، قدَّم ألكوين مجاله ملاذًا آمنًا للتعلم. واندلعت أزمة حينما لجأ قاتل إلى إحدى الكنائس تحت سلطة ألكوين. ومنع رهبانه منفذي القانون من دخول الكنيسة. وجادلت السلطات العلمانية بأنَّ الخاطئ قد لوَّث المكان المقدس، ومن ثَمَّ سمح بدخوله. وينبغي شكرهم على تطهير المكان لاستعادة مكانته المقدسة! ودافع ألكوين عن رهبانه بالقول إنَّ قدسية المكان تستمرُّ حتى حينما يدخلها الخطاة. وكما أشار أوغسطين، لا يمكن أن يتلوَّث الضوء بالأوساخ التي ينيرها، وأصبح مفهوم ألكوين القوي عن المكان المقدَّس راسخًا.

نشأت أسئلة، فعتبة الكنيسة ليست بالتأكيد في الكنيسة ولا خارجها بالتأكيد. هل الجدران الخارجية للكاتدرائية مقدسة أم دنيوية؟ أصبحت منطقة الشفق هذه يسكنها عالم مقلوب من الحمير التبشيرية والأرانب المفترسة وكهنة المنبوذين. وتصطفُّ هذه الشخصيات الكرنفالية على جوانب الكنائس وقواعدها. وتم العثور على قرود فاسقة عند قاعدة التماثيل القديسة. والجرغول اللطيف Lewd gargoyles يحدق من أعمدة الكاتدرائية.

فضلًا عن حماية الرهبان والقتلة، جنَّدَ ألكوين علماء آخرين، وناشد أن تُرسلَ بعض الكتب التي جمعها في يورك عبر القناة الإنجليزية. ولا أعرف ما إذا كان رجال يوركشاير

تبرَّعوا بأية كتب. وعرف أحد معارفه في لندن رجل يوركشاير بأنَّه اسكتلندي بلا كرم.

يناشد ألكوين بلطف: "أقول إنك قد توافق على إرسال بعض أولادنا للحصول على كلِّ ما نحتاجه من هناك، وإحضار زهور بريطانيا إلى فرنسا، فضلًا عن الحديقة المسورة في يورك حيث قد تكون هناك براعم الجنة تؤتي ثمارها". وقرب نهاية حياته، لخص ألكوين حياته المهنية: "في الصباح، في أوج قوتي، زرعت البذرة في بريطانيا، والآن في المساء حينما يبرد دمي ما زلت أزرع في فرنسا، على أمل أنَّهما سوف ينموان بنعمة الإله، ويعطيان البعض عسل الكتب المقدسة، ويجعلان آخرين يشربون من النبيذ القديم للتعلم القديم"

كان فريدوجيسوس Fridugisus أحد تلاميذ ألكوين المفضلين، الذي انتقل من إنجلترا إلى فرنسا قبل عام 796. وبعد وفاة ألكوين، عيّن شارلمان فريدوجيسوس رئيسًا مديرًا لسانت مارتن في تورز. وفي وقت لاحق، تم تسليم فريدوجيسوس أيضًا أديرة القديس أومير وسانت بيرتين. وكان مستشار لويس الورع من 819 إلى 832.

منحة فريدوجيسوس الوحيدة الباقية هي رسالة إلى شارلمان بعنوان "في كينونة العَدَم والظلال"، تتناول الرسالة السؤال "هل العَدَم شيء أم لا؟"

يسعى فريدوجيسوس أولًا إلى إثبات أنَّ العدم هو جوهر. ثم يمضي في القول بأنَّ الظلال والظلام هي أيضًا مواد (ومن ثَمَّ يؤيد الرواية المانوية للظلام). ويقسم براهينه إلى تلك التي تعتمد فقط على العقل البشري، وتلك التي تعتمد على المنطق من المقدمات التي يمنحها الكتاب المقدَّس.

يمكن للعقل البشري أن يقرر ما إذا كان شيء ما ممكنًا. والإبداع الذاتي مستحيل؛ لأنَّ الخالق يجب أن يكون موجودًا بالفعل للقيام بأيِّ إبداع. ويبدو أيضًا أنَّ إنشاء شيء من العَدَم مستحيل؛ لأنَّ هناك علاقة مفقودة لـz في "x خلق y من z".

يشارك فريدوجيسوس ميل أوغسطين في تصميم الكلمات كأسماء. وبشكل مخيّب للآمال، لا يُظهر فريدوجيسوس إدراك أوغسطين أنَّ الأنموذج يواجه صعوبةً في العثور

على حاملي كلمات مثل "إذا" و"العَدَم" و"من". ويبدو فريدوجيسوس جاهلًا بالقواعد التي طرحها أوغسطين، ففريدوجيسوس مجرد متابع. وتشير المصطلحات العامة مثل "رجل" مجتمعةً إلى ذكور بالغين. ونظرًا لأنَّ "العَدَم" هي كلمة ذات معنى فلا بدَّ من وجود شيء ما تشير إليه.

أصبح الانحدار اللغوي لأوروبا في القرن الثامن واضحًا من خلال التقدُّم في الهند في القرن الثامن. وحلَّل منظِّرو النفي "النعام لا يطير" بوصفها مُلاحظةً ما وراء معرفية بدلًا من وصف. ويحذِّرنا منكِر طيران النعام من تصديق أنَّ النعام يطير، فالعبارات الإيجابية فقط تصف الواقع، والتصريحات السلبية تشير إلى الإغراءات الفكرية. ويمكن توسيع هذا المنظور ما وراء المعرفي ليشمل العبارات التي تبدو إيجابيةً، مثل: الشرط "إذا كانت عين نعامة أكبر من دماغها فعندئذٍ تكون كلّ النعام كذلك". وبدلًا من رسم خرائط الواقع يخبرنا الشرط كيفية مراجعة خريطتنا للواقع عند معرفة النعامة التي لها عين أكبر من دماغها.

بالنظر إلى نظريَّة فريدوجيسوس عن المعنى، يصبح الكتاب المقدَّس مخزونًا غير مقصود. وبما إنَّ سفر التكوين يروي كيف خلق الإله العالم من العَدَم، فالعَدَم يجب أن يكون أكثر مواد البناء تنوُّعًا:

لأنَّ هذه هي [السلطة] التي تعلن أنَّ الأشياء أولًا وقبل كلِّ شيء بين المخلوقات تنتج من العدم. ولذلك؛ لا يوجد شيء عظيم ومميّز. ولا يمكن تقييم مدى روعة ذلك الذي تأتي منه أشياء كثيرة ومميزة، حيث لا يمكن تقييم أيٍّ من الأشياء الناتجة منه أو تحديد قيمتها.

لمن قاس طبيعة العناصر بالتفصيل؟ من استوعب وجود وطبيعة النور أو الطبيعة الملائكية أو الروح؟ (Fridugisus 1995, 3)

في تيماوس لأفلاطون، يخلق خالق العالم المادي العالم من الفوضى البدائية. وبالنسبة إلى فريدوجيسوس فإنَّ الإله خلق العالم من العدم.

نحن نتحدَّث كما لو أنَّ القليل من الأشياء يمكن أن تكون أجزاء من الأشياء، فلتحويل وعاء إلى مصفاة أضف ثقوبًا. ويضاف الظل إلى مشهد لتجسيد الكائنات ثلاثية الأبعاد.

سيكون من المستحيل إضافة الظلال إذا فشل "الظل" في الإشارة إلى أيِّ شيء. ونظرًا لأنَّ "الظلَّ" يشير إلى شيء ما، غياب الضوء، فالظلال ممكنة.

تتمثَّل استراتيجية فريدوجيسوس لإثبات وجود الظلال في إظهار أنَّ وجودها مضمون من خلال النصوص الموثوقة. وبين الأوروبيين في العصور الوسطى، تمتَّع الكتاب المقدس بهذا الوضع القانوني. وعلى وفق ذلك، يسعى فريدوجيسوس إلى الكتاب المقدَّس الذي يشير إلى وجود الظلال.

يبدأ الكتاب المقدَّس بإشارات متعددة إلى الظلال. يخبرنا سفر التكوين 1:2: "على وجه الغمر ظلمة."

بالنسبة إلى فريدوجيسوس، فإنَّ المقاطع الكتابية حول الظلال تفعل أكثر من مجرد إثبات وجود الظلال. يعتقد أنَّها تعني أيضًا الكثير عن طبيعتها. في هذا المنعطف، يتوقَّع المرء أن يركز فريدوجيسوس على الظلال المعجزة. مثلًا: تتطلَّب قوانين الطبيعة إطالة الظل في فترة ما بعد الظهر، لكنَّ الإله يتدخَّل لتقليص ظلال الظهيرة (الملوك 20:10). يتم شفاء المرضى بظلال بطرس (أعمال الرسل 5:15).

فريدوجيسوس محافظ. وتهدف جميع أوصافه للظلال إلى تأكيد تعميمات الحسِّ السليم حول الظلال. وهناك ذكر واحد فقط للظل المعجزة:

حينما عاقب الربُّ مصر بأوبئة رهيبة بسبب اضطهادها لشعب إسرائيل غلَّفها بظلال كثيفة، بحيث يمكن الشعور بها. ولم يقتصر الأمر على حرمان الرجال من رؤية الأشياء، ولكن أيضًا بسبب كثافتها، يمكن حتى لمسها باليدين. الآن كلُّ ما يمكن لمسه والشعور به يجب أن يكون. ومهما كان يجب أن يكون، ومن المستحيل ألا يكون كذلك. ولذا؛ فمن المستحيل ألَّا تكون الظلال لأنَّ من الضروري أن تكون، كما ثبت من حقيقة أنَّه يمكن الشعور بها. (1995، 5).

هذا المقطع يعيد إلى الأذهان الفضول الذي ذكره مستكشفو الكهوف، فحينما يغرق في الظلام التامِ لكهف لا يستطيع المستكشف رؤية يده أمام وجهه. ومع ذلك، حينما يلوح بيده تبدو يده وكأنَّها مرئية بشكل ضعيف. وحينما تلوح زميلته في الكهف بيدها أمام وجهه لا تكون لديه مثل هذه التجربة.

يشرح علماء الأعصاب هذه "الرؤية" الخالية من الضوء بأنَّها "تزامُن" (Dieter et al. 2014). إذ تتسرَّب المعلومات من استقبال الحتِ العميق لحركة الأطراف في القناة المرئية. ويختبر هذا الاختلاط بين الحواسِ كموجة يد خافتة. ويتمتَّع الأشخاص ذوو التزامُن القوي بموجة يدوية أكثر إشراقًا. وتتبُّع العين لليد المرئية سلس، وليس الحركة المتشنجة للأشخاص الذين يتخيَّلون فقط أيديهم تمرُّ أمام وجوههم.

التزامُن مُتصل، حيث الغالبية العظمى منَّا ليس لديه وعيٌ شعوريٌّ بتداخل المعلومات بين القنوات الحسية. ومع ذلك، فإنَّ فهمنا للمجاز ("عسل الكتاب المقدس") يوحي بالحساسية تجاه التيَّار الخفي المتزامن. ويدفع التزامُن للضحك العصبي من النكتة "الراهب توك Friar Tuck سمين لدرجة أنَّ ظله يُستخدم لتزييت عجلة مياه الدير."

ينجذب فريدوجيسوس إلى الأدلَّة الكتابية للظلال الملموسة؛ لأنَّ اللمس هو اختبار للواقع أقوى من البصر. وحينما يشكّ في أنَّ توماس يرى يسوع المبعوث فإنَّه يصل إلى اليقين الكامل من خلال لمس الثقب الذي أحدثه رمحٌ رومانيٌّ في جسد يسوع.

الظلال العادية ليست واضحةً. ولا تقدِّم أيَّ أحاسيس من طريق اللمس. ولا يمكن لمس الظلال إلَّا بالمعنى البسيط للتواصل الجسدي (بالطريقة التي تلامس بها الصفحة في الكتاب المطبوع الصفحة التالية). ويمكن أن يكون ملمس الظل ظلًّا آخر.

نتوقَّع أن تتلامس الظلال فقط حينما تتلامس المحركات. لكن في الرسالة الشاملة عن الظلال The Exhaustive Treatise on Shadows أشار الباحث الفارسي البيروني Al Biruni (973 – 1052 –) إلى أنَّ ظلَّ إصبعك يلامس ظلَّ أنفك قبل أن يلمس إصبعك

أنفك. وظل شفاه الزوجين العفيفين قد تقبل دون تقبيل الزوجين.

كان الدافع وراء تركيز البيروني على الظلال هو منع المغالطات الفلكية من تشويه الطقوس، إذ تتطلَّب الصلوات الخمس في الإسلام اهتمامًا يوميًّا بالوقت والتوجيه المكاني، وكانت هذه الدوافع لعلم الفلك والجغرافيا غائبةً عن المسيحية، إذ كان الحافز الرئيس للرياضيات المسيحية هو حساب التواريخ الدقيقة لعيد الفصح.

فضلًا عن توقُّع أنَّ الظلال تشبه تصرفات محركاتها، نتوقَّع أن تتشابه المحركات نفسها. ويتجاوز توقع التشابه هذا ما هو ممكن بصريًّا (Casati and Cavenagh 2019, chapter 5). والفنانون يميلون إلى هذه المغالطة المقلدة حينما يصورون مكعَّبًا مضيئًا قطريًّا على أنَّه يحتوي على ظلال مربعة بدلًا من ظلٍّ سداسيٍ.

الظلال لا توفر مقاومة، ولا يمكن الشعور بها كما يمكن الشعور بالنسيم. ومع ذلك، لا يبدو الأمر كما لو أنَّ الظلال تتراجع من إصبع ممتدٍّ، إذ يمكنك الاتصال بظل، ويمكنك الشعور ببرودة الظل. وحينما تدخل الظل الذي تلقيه الشجرة في يوم حارٍّ تشعرُ بالراحة من الطاقة المشعَّة للشمس.

يستنتج فريدوجيسوس أنَّ الظلال هي أنواع الأشياء التي يمكن صنعها لأنَّه "في آلام الرب يعلن المبشر أنَّ الظلال تتكوَّن من الساعة السادسة من اليوم حتى الساعة التاسعة" (1995، 6). هل كلُّ الظلال مصنوعة؟ إذا كان حجب الضوء ضروريًّا للظلال فيبدو أنَّ كلَّ ظلٍّ يجب أن يكون له خالق.

ومع ذلك، ليس كلُّ الظلام بسبب انسداد الضوء، إذ تفترض قصَّة الخلق في الكتاب المقدَّس ظلامًا كونيًّا حتى يتدخل الإله. الظلام هو حالة افتراضية يمكن أن توجد فقط من خلال عدم وجود مصدر ضوء.

تظهر قصة الخلق أيضًا أنَّ للظلال أصولًا، وهي في الوقت المناسب، ويجب أن تكون أيضاً في المكان؛ لأنَّ النبيَّ داود قال: "أرسل ظلالًا" (مزمور 105: 28). فما يتم إرساله ينتقل من مكان إلى آخر. وتؤكد مقاطع أخرى إمكانيةَ تحديد مكان الظلِّ: "جعل الظل

مختبأ له" (مزمور 18: 11). وقال يسوع نفسه: "أبناء الملكوت يطرحون في الظلِّ من الخارج" (متى 8: 12).

لو كان فريدوجيسوس فيلسوفًا منطقيًّا لكان قد ناشد ممارساتنا المعتادة لتتبع حركات الظل. لكن هذه الممارسات مليئة بالتنبُّؤات الخاطئة، إذ يبالغ الناس في تشابه الظلال بالأشياء التي تلقي بها، ويعاملون الظلال بوصفها أشياء، على الرغم من امتلاكهم الكثير من الأمثلة المضادة. وكما أوضح أوغسطين في ارتباطه بأنموذج الاسم للمعنى، فإنَّ القدرة على التعلُّم من مثال مضاد غير منتظمة للغاية.

تظهر حركة الظل حول الساعة الشمسية أَنه يجب أن تكون هناك حركات غير مرئية للظلال، فعقرب الساعة الشمسية هو الشيء الذي يلقي الظل الذي يشير إلى وقت اليوم. ولمنع الموقّتين من الوقوع على العقرب يحوّل مصمِّمو الساعة الشمسية الموقتين إلى عقرب، فيصعد الموقت على لبنة مطابقة للشهر (شكل 14.1).

وهو بذلك يتكيَّف مع ميل الأرض المتغير نحو الشمس، فظلُّ عقرب الإنسان يرتكز على رقمٍ يتوافق مع الوقت من اليوم.

لكنَّ ظلَّ العقرب لا يهدأ حقًّا، ففي الهواء الطلق يزحف ظلُّ عقرب الإنسان باستمرارٍ حتى لو كان لا يزال قريبًا من الأرض، وقد تكون هذه الحركة البطيئة ملحوظةً لمخلوق بنظام بصري بمقياس زمني مختلف.

شكل 14.1 ساعة شمسية بشرية في مركز أوستن للطبيعة والعلوم.

هل يمكن أن تكون هناك حركات ظلٍّ لا يمكن تمييزها عالميًّا؟ ضع بحسبانك الظل المستدير الذي يلقيه قرص: . إذا دار القرص فهل يدور ظله أيضًا؟ إذا كنت تنظر إلى الظل فقط فلا يمكنك رؤية أيِّ فرقٍ. وسرعة رؤيتك ليست ذات صلة هنا. إذا كانت الظلال عبارة عن مظاهر فإنَّ ظلَّ قرص الدوران لا يدور في حدِّ ذاته.

الطريقة الأكثر جذريةً للوصول إلى الحكم بأنَّ الظلال لا تدور هي إنكار استمرار الظلال بمرور الوقت. تذكر هذه الأطروحة النقطية punctate thesis التي ناقشها لأول مرة الموهيسيون Mohists الصينيون القدماء (وهي حركة ازدهرت خلال حقبة الممالك المتحاربة من 479 إلى 221 قبل الميلاد)، إذ يستمرُّ الطير بالطيران؛ لأنَّ كلَّ مرحلة من مراحل الطير تؤدي إلى المرحلة التالية. وتفتقر مراحل ظلال الطائر إلى هذه "السببية الجوهرية". وكلُّ مرحلةٍ من ظلاله ناتجة من تداخل الطائر مع الشمس. وهكذا، فإنَّ كلَّ مرحلة من مراحل ظلِّ الطائر تشبه صفحةً في رسم الحركة لجون بارنز لينيت، موضحة هنا في براءة اختراعه لعام 1868 (شكل 14.2).

الشكل 14.2 مخطط الحركة.

مرحلة من "سينما الإبهام" هذه لا تسبب المرحلة التالية. وهذا الاستقلال يمهِّد الطريق لتفسير الموهيسيين الحرفي لقول تشوانغ تزو المأثور: "ظلُّ طائر يطير لا يتحرك أبدًا".

أوغسطين متعاطف مع الأطروحة النقطية، وقد ألمح إلى أنَّ كلَّ مرحلة من مراحل الكون تعتمد على إرادة الإله، مِمَّا يجعل الكون كلَّه أقرب إلى الظل. ويرحِّب اللاهوتيون الإسلاميون بالإيحاء بأنَّ كلَّ شيء يعتمد على إرادة الإله في كلِّ لحظة، وليس فقط عند الخلق، ولازمتهم: "إن شاء الله"، التي يتم التحدُّث بها حرفيًّا بوصفها رؤيةً ميتافيزيقيةً دائمةً ذات صلة. وبالنسبة إلى المحمديين، لا يوجد خمول وجودي، ولا يستمرُّ وجود كائن بإهماله.

يدحض فريدوجيسوس شكوك زينو حول الحركة من خلال مناشدة سلطة الكتاب المقدَّس بدلًا من مُلاحظة الحركة، مثل طي صفحة من الكتاب المقدَّس، إذ توجد آيات كثيرة توصف فيها الظلال بأنَّها متحركة.

ويحسب فريدوجيسوس هذه الالتزامات الموثوقة دليلًا أفضل من شهادة الحواس. ولم يذكر بليني الأكبر (23/24 - 79) Pliny the Elder م الساعات الثلاث من الظلمة التي غطَّت الأرض كلَّها في أثناء صلب المسيح.

بدلًا من الشكِّ في الأناجيل، استنتج فريدوجيسوس أنَّ بليني كان غير مستوعب في سجله للمعجزات الفلكية.

بدلًا من مناشدة المُلاحظة مباشرة، يلجأ فريدوجيسوس إلى التقارير الكتابية للملاحظات. تذكر الجدل اليوناني حول من يملك ظلَّ الحمار، إذ تشير عبارات مثل "مثل ظلاله" (مزمور 139: 12) إلى أنَّه يمكن امتلاك الظلال: «إذا كان الضوء الذي في داخلك هو الظلال، فما مدى روعة تلك الظلال» (متى 6:23).

ونظرًا لاستعمال «الظل» في صيغة الجمع في هذه الجملة يجب أن تكون الظلال قابلةً للعدِّ، وما يمكن عدُّه يجب أن يوجد.

ماذا عن الليل؟ يعتقد فريدوجيسوس أنَّ الليل مصنوع من مادة الظل نفسها. ويوضِّح الكتاب المقدَّس أنَّ الليل هو جوهر:

حينما جعل الربّ التقسيم إلى نور وظلال، دعا النور "يومًا" والظلال "ليلًا" (تكوين

1: 5). لأنَّه إذا كان اسم "اليوم" يدلُّ على شيء ما فإنَّ اسم "الليل" لا يسعه إلا أن يشير إلى شيء ما. والآن يشير "اليوم" إلى الضوء، والضوء شيء عظيم. بالنسبة إلى اليوم هوكلاهما وهو شيء عظيم. ماذا بعد؟ هل الظلال لا تدلُّ على شيء حينما يفرض عليها اسم "الليل" من قبل نفس الصانع الذي فرض لقب "اليوم" على الضوء؟ (1995، 5).

مناشدات اللغة العادية مشكوكٌ فيها بقدر ما تستند إلى حكم المتحدثين من البشر، إذ يقدم الناس كلمات لأشياء غير موجودة، ويعزِّز فريدوجيسوس حججه بحذر بالثيوديسية اللغوية:

ختمَ الخالقُ الأسماء على الأشياء التي صنعها، بحيث يعرف كلّ شيء عند تسميته باسمه. ولم يشكل أيّ شيء من دون الكلمة [المقابلة]، ولم يؤسّس أيَّ كلمة ما لم تكن موجودة. وإذا كانت الحالة [أن الإله قد أسَّس كلمة من دون أيّ شيء مماثل فإنَّ الكلمة] ستبدو غير ضرورية تمامًا. ومن الخبيث أن نقول إنَّ الإله قد فعل ذلك. ولكن إذا كان من الخبيث أن نقول إنَّ الإله قد أسَّس شيئًا لا لزوم له، [إذن] فإنَّ الاسم الذي فرضه الإله على الظلِّ لا يمكن أن يظهر بأيّ شكلٍ من الأشكال على أنَّه غير ضروري. (1995، 5).

لا يمكن أن تكون كلمة الإله كلامًا سائبًا، فمن "حلول الظلام" يمكننا أن نستنتج أنَّ الليل ثقيل، وله وزن كبير.

يعتمد فريدوجيسوس بخشوع على الكتاب المقدَّس. ومع ذلك، فإنَّ منهجيَّته الشاملة هي نفسها التي اتبعها ملحد القرن العشرين الموقَّر دبليو في كواين W. V. Quine، فلتطوير نظريَّة ظاهرة معينة يستشير الفيلسوف أكثر النصوص موثوقية. ماذا يمكنه أن يفعل أيضًا إذا كان يفتقر إلى الخبرة الخاصة؟ (تذكر احترافية ناجارجونا في تقييد نفسه بربط النقاط، وليس إنشاء النقاط). ثمَّ يطبِّق الفيلسوف المنطق للتأكُّد مِمَّا يلزم مؤلفي تلك النصوص القانونية بتصديقه، وتمثِّل هذه الالتزامات أفضل رؤية مدعومة للظاهرة.

يتطلَّب اعتماد الفيلسوف المحترم على النصوص القانونية منه التمييز بين

السلطات والسلطات الكاذبة، فالسلطات الحقيقية تحتاج إلى أن توزن بدرجة خبرتها. ومع اقتراب القرن العشرين اختلف الفيزيائي اللورد كيلفن Kelvin مع عالم الأحياء تشارلز داروين Charles Darwin والجيولوجي تشارلز لايل Charles Lyell حول عمر الأرض، أي مجال له الأسبقية بالنسبة للفيلسوف الذي يرغب في تأجيله؟ قضية الوحي تناقض الجداول الزمنية.

تتعارض الفيزياء وعلم التخاطر؛ لأنَّ موضوع علم التخاطر هو أحداث خوارق، أحداث تمنعها الفيزياء. وردَّ كواين باستبعاد علم التخاطر لكونه علمًا زائفًا تمامًا كما استبعد آباء الكنيسة الكثير من القصص عن يسوع لكونها كتابات مشكوكة.

تختلف الطوائف حول الروايات الواردة في "الكتاب المقدَّس". وهذه عملية مستمرة؛ لأنَّ الأدلَّة ماكرة. وهناك أيضًا اكتشافات لأقوال المسيح agrapha الجديدة (أقوال يسوع التي لا تظهر في الأناجيل الكنسية). في عام 1950، نشر كاتب كلاسيكي مرموق، بول كولمان نورتون Paul Coleman - Norton، "أقوال المسيح المؤنسة" An Amusing Agraphon في فصلية الكتاب المقدَّس الكاثوليكي Catholic Biblical Quarterly. وأفاد أنَّه خلال الحرب العالمية الثانية بصفته رقيبًا عسكريًّا في المغرب الفرنسي اكتشف قصاصة من الورق في نصٍ إسلاميٍ قديمٍ. وكان هذا تعليقًا على وصف يسوع للجحيم في متى 24:51، إذ يحذِّر يسوع "في ذلك المكان سيكون هناك البكاء وصرير الأسنان" ومن المثير للاهتمام أنَّ الرقعة المغربية تتابع وصف الجحيم بما يتجاوز ما كان موجودًا بالفعل في الكتاب المقدَّس. ويسأل أحد مستمعي يسوع السؤال الذي طرأ على أجيال من القرَّاء اللاحقين: "يا معلم، كيف يمكن أن تكون هذه الأشياء إذا كانت بلا أسنان؟" يجيب يسوع: "يا قليل الإيمان، لا تتعب نفسك، إذا كانت تفتقر إلى أيِّ شيء بالصدفة فسيتم توفير الأسنان"

رحَّب الصحفيون بدهاء يسوع. ومع ذلك، أفاد كاتبٌ كلاسيكيٌّ آخر أنَّه سمع الأقوال نفسها تُروى على أنَّها نكتةٌ علميةٌ قبل الحرب العالمية الثانية. وكان هذا مزعجًا لأولئك

الذين افترضوا أنَّ التهديدات بالعقاب الإلهي سوف تردع المحتالين.

يؤكد العلماء أنَّه سيتم الكشف عن الاحتيال من خلال اشتراط تكرار النتائج، ففي الممارسة العملية يعتمدون في الغالب على الثقة. وإحدى العلامات هي الغضب الذي يعبِّرون عنه حينما يتم كشف الاحتيال.

ومع ذلك، يعتقد كواين أنَّ العلم أكثر مصداقيةً بكثير من أيِّ مصدر آخر. وقد بدأ كوين حياته المهنية كاسمي، مثل بوذا، مؤمنًا أنَّ كلَّ شيء له موقعٌ في المكان والزمان. والمجموعات هي كائنات مجردة؛ لأنَّها غير موجودة في وقت ومكان معينين. لذلك؛ رفض كواين في البداية المجموعات (والأرقام، والعوالم، وجميع المجردات الأخرى). وبعد التنوير من خلال كتب الفيزياء المدرسية، خلص كواين إلى أنَّ بعض العبارات المادية تشير إلى مجموعات لا غنى عنها. وقَبِلَ المجموعات وتخلى عن الاسمية.

أنماط الوجود والعدم

رفض الراهب الأيرلندي جون سكوتوس إيريوجينا John Scotus Eriugena (نحو 800 - 877) افتراض فريدوجيسوس بأنَّ هناك معنى واحدًا لـ "وجود". فهناك أنماطٌ متعددةٌ للوجود، وأنماطٌ متعددةٌ جدًّا من اللاوجود.

الطبيعة هي مجمل كلِّ ما هو موجود وكلِّ ما لا يوجد. واستكمالًا ليانغ من النور الإلهي لأوغسطين، هناك ين الظلمة الإلهية. انبثق الإله من هذه الحالة المظلمة من اللاوجود بنفي العدم، والإله هو العَدَم الذي يعدِم العَدَم، إذ تأتي الكائنات من اللاوجود، ودائرة السلبيات المزدوجة المتناهية هذه من اللاوجود إلى الكينونة، فالإله هو "بداية كلِّ شيء ووسطه ونهايته"

لكن المنشئ الديناميكي الخاص بها يقف فوق الوجود واللاوجود المحدود، فالإله كائن غير محدود يقف خارج الزمن، ليس لديه علم مسبق يهدِّد حرية الإنسان، الإله سامٍ، وهذا يجعل الإله غير قابل للمعرفة، حتى له.

15. موسى بن ميمون: ألوهة الغياب

بحسب أفلاطون، فإنَّ شكل الخير له أعلى درجة من الواقع. وكلَّما كان الشيء أكثر واقعية كان أكثر قابلية للمعرفة. لذلك؛ فإنَّ شكل الخير معروف جدًّا.

أرسطو يتحدَّث بالمثل، كلُّنا نعرف ما هو شكل التفكير. وبما إنَّ التفكير يهدف إلى المعرفة والمعرفة هي الأفضل فإنَّ الأفضل هو الذي يفكّر فقط، فالكيان الذي يتم توجيه جميع الكيانات الأخرى إليه هو العارف الجوهري. والمحرك الرئيس يعرف كلَّ شيء، بمعنى أنَّ معرفته الذاتيَّة تمنحه معرفةً ضمنيةً بكلِّ شيء. وفي حين أنَّ العداد abacus يعكس ضمنيًّا جميع الحقائق الحسابية فإنَّ المحرك الرئيس يعكس كلَّ الحقيقة على الإطلاق.

اتبع اللاهوتيون خطى أفلاطون وتلميذه الشهير أرسطو (الذي كان يُنظر إليه خطأً على أنَّه مجرد تطوير لآراء معلمه). واللاهوت هو دراسة الإله، أكثر الأشياء معرفة. لذلك؛ يقع اللاهوت في قمَّة هرم البحث، والمجالات الأخرى لبناء علم اللاهوت، إذ تدرس التصميم الإلهي للخليقة، لكنَّ اللاهوتيين يدرسون الخالق نفسه.

يحتوي الجزء الخلفي من الورقة النقدية الأمريكية التي تبلغ قيمتها دولارًا واحدًا على صورة الختم العظيم، التي استعملها الماسونيون Masons لنقلها إلى حالة اللاهوت الفائقة (انظر الشكل 15.1).

الشكل 15.1 الختم العظيم.

هذه هي العين التي ترى كلَّ شيء فوق هرم مصري، وتمثِّل الخطوط الأربعة للهرم وجهات نظر مختلفة من كلِّ اتجاه: الشمال والشرق والجنوب والغرب. وتتوافق هذه مع مجالات الدراسة المختلفة، إذ تختلف التخصُّصات مثل علم الفلك والفيزياء والبيولوجيا والجيولوجيا بشكلٍ كبيرٍ في القاع. ولكن حينما ينظر هؤلاء المتخصصون فإنَّهم يقتربون من نقطةٍ واحدةٍ تفتح عندها عين الإله.

قلب موسى بن ميمون (ميموندیس) (1204 - 1138) Moses Maimonides هرم المعرفة اللاهوتي من △ إلى ▽. فالإله هو الأقل معرفة. وتغلق العين.

الاستقلال الالهي

تذكر كهف أفلاطون، يعتمد ظلُّ الفرس على التمثال، والتمثال يعتمد على الحصان الذي هو نسخة منه، ويعتمد الحصان على الحصانيَّة، والحصانيَّة يعتمد على العالميات العليا، وفي قمة المقلدين هو شكل الخير، فكلُّ شيء يعتمد على شكل الخير، لكنَّه لا يعتمد على أيِّ شيء. وهذا التباين يجعل شكل الخير يختلف عن أيِّ شيء آخر، ففي حين أنَّ الأشياء الأخرى يمكن أن تكون لها خصائص من خلال إنشاء مثيل للعالميات فإنَّ أعلى عام لا يمكنه إنشاء مثيل عالمي، فشكل الخير فقط له غياب مطلق للخصائص.

باتباع الممارسة اللاهوتية المعيارية، يعرِّف موسى بن ميمون الإله بصيغة الخير، لكنَّ موسى بن ميمون يشكو من أنَّ أفلاطون أساء تفسير استعارته، إذ صحيح أنَّ الشمس تضيء كل الخليقة، لكنَّ الضوء الشديد الذي يضيء كلَّ سطح يجعل سطح الشمس غير مرئي.

لتُدرِك مادة، يجب عليك إضافة خصائص إلى لوحة الخيال الفارغة، فحينما تحاول رسم صورة الإله تجد نفسك "ترسم" بفرشاة جافَّة. ويمكنك فقط المرور من خلال حركات الرسم. ويدلُّ عدم وجود صورة ناتجة على عدم جدوى المشروع. وفي النهاية،

لتعيين خاصية إلى أعلى عام فإنَّك ستخضع أعلى عام إلى عام أعلى من أعلى عام، وهذا يجعل تصوير الإله تجديفًا.

إذا كانت الاحتمالية تتطلَّب قابلية التصور فإنَّ غياب خصائص الإله يستتبع استحالة وجوده. ومع ذلك، من الممكن أن يوجد من دون خصائص؛ لأنَّ الدليل الكوني لوجود الإله يوضح أنَّ الإله فعليٌّ إلى حدٍّ ما. ولتجنُّب الانحدار اللانهائي يجب أن يكون هناك سبب غير مسبب في حدِّ ذاته، وهذا السبب الأول هو الإله.

بـ "السبب الأول" لا يعني موسى بن ميمون الأول في الزمن؛ لأنَّ الكون قد يفتقر إلى البداية. موسى بن ميمون يعني الأول في سلسلة التبعية، إذ لا يحتاج الإله إلَّا أن يكون سببًا داعمًا (وليس سببًا منشئًا). يتدخل الإله باستمرار كما تتدخَّل الشمس باستمرار، فينبعث منها الدفء والنور اللازمين لاستمرار الحياة.

باختصار، فإنَّ مكانة الإله على قمة سلسلة الوجود تضمن وجوده، ومع ذلك فإنَّ له طبيعة غير معروفة. وبينما ينكر اللاأدري الوجودي أنَّه يمكننا معرفة ما إذا كان الإله موجودًا، ينكر اللاأدري الطبيعي أنَّه يمكننا معرفة صفات الإله. ويقرن موسى بن ميمون الإيمان بالإله مع اللاأدرية الطبيعية.

التحدي الأبيقوري

مثلما انقرضت البوذية في أفغانستان في القرن الحادي والعشرين، انقرض الإلحاد في شبه الجزيرة العربية في القرن الثاني عشر. وفي الواقع، لا يمكن العثور على ملحدٍ في أيٍّ من الأراضي الإسلامية الممتدَّة إلى قرطبة، إسبانيا، حيث وُلد موسى بن ميمون. ملحده الممثل كان أحفورة من اليونان القديمة: أبيقور.

كان لأبيقور لاهوت رسمي، ولتجنُّب وصمة الإلحاد اليونانية يقرُّ أبيقور بمرح أنَّ الآلهة موجودة. ويواصل ليؤكد للقرَّاء أنَّ الآلهة لا تهتمُّ بهم. ومثلما لا يبالي سكان الجبال بالنمل في الوادي، فإنَّ سكان الجنة لا يبالون بسكان الجبال. لماذا تهتمُّ الآلهة بنا؟

ولماذا يجب أن نهتم بالآلهة؟ يجب على الجميع رعاية حديقتهم الخاصَّة. كان أبيقور يسأل موسى بن ميمون: إذا كنَّا لا نستطيع أن نعرف شيئًا عن الإله بخلاف حقيقة وجوده فلماذا لا نتمسَّك بما يمكننا معرفته؟

قد يجيب الرجل التقي بأنَّ تجاهل الإله سيهين، فالمديح الأعمى أكثر أمانًا من عدم الثناء.

لا يوافق موسى بن ميمون على مثل هذا التملُّق، فالتسبيح الذي يخصّص خصائص للإله هو تسبيح كاذب. وبما إنَّ الإله كامل فإنَّ "الحمد" سيقلِّل من استحقاقه. بإدراك ذلك، لا يمكنك مدح الإله بالكلمات.

ولا يمكنك تسبيح الإله بالصور. وكما قال أناكساجوراس ساخرًا: إذا كان بإمكان الثيران والكلاب الرسم فسوف يصوّرون الإله على صورتهم. اكتشف علماء الآثار نقوشًا على الصخور في فلسطين الإسرائيلية تطلب بركة السيد والسيدة يهوه (كلٌّ منهما بقضيب). فتصوير الإله ملكًا مكملاتٌ غير مرغوبة. لا يمكن وصف الخالق بخصائص تتناسب مع العنصر الذي تم خلقه؛ "لأنَّ الإله في السموات وأنت على الارض. فليكن كلامك قليلا" (الجامعة 5: 1)

الصمت المتعلَّم

يقود موسى بن ميمون هذا التقليل من الكلمات إلى نهايته المنطقية، الصمت هو أعلى ثناء يمكن أن نقدمه للإله. وللتأكيد، يستشهد موسى بن ميمون بمزمور 65:12: "الصمت هو التسبيح لك."

وينصح أبيقور بالصمت، هذا هو الصمت المنضبط لرجلٍ يحترم الحكمة: أكد فقط ما تعرفه. ونظرًا لأنَّ اللاهوت لن يضعك في وضع يسمح لك بالمعرفة أبدًا فإنَّ أبيقور يوجِّه انتباهه إلى الموضوعات التي تجعل المحادثة أفضل.

صمت موسى بن ميمون هو تتويج مذهل للدراسة المكثَّفة:

فسبحان من هو هكذا حتى حينما تفكِّر العقول في جوهره يتحوَّل خوفهم إلى عجز. وحينما يفكرون في بدء عمله من إرادته تتحوَّل معرفتهم إلى جهل، وحينما تطمح الألسنة إلى تعظيمه بمؤهلات النسب تتحوَّل كلُّ فصاحة إلى تعب وعجزا (1904، 1:59)

هناك حاجة إلى التطوُّر اللاهوتي لفهم الرهبة السامية المستوحاة من إدراك عدم معرفة الإله. وقلَّة من إخوة الحاخام موسى بن ميمون تلقّوا التدريب أو المواهب الفكرية لاتباع الدليل الأفلاطوني الحديث على عدم معرفة الإله، فالهدوء المعرفي يقتصر على المتعلمين. وبالنسبة إلى أولئك غير القادرين على فهم عبث الكلام يجب قول شيء ما.

التوقُّع السلبي

أن يكون لديك سمة هو أن تكون مثيلًا لعالمية أعلى. فالإله هو أعلى كوني.

ثمَّ يتضح أنَّه ليس له صفة إيجابية على الإطلاق، فالصفات السلبية ضرورية لتوجيه العقل إلى الحقائق التي يجب أن نصدقها حينما نقول عن هذا الكائن إنَّه موجود، فإنَّنا نعني أنَّ عدم وجوده أمرٌ مستحيل، إنَّه حيٌّ: ليس ميتًا. هو الأول: لا يرجع وجوده إلى أيِّ سبب، لديه القوَّة والحكمة والإرادة: ليس ضعيفًا أو جاهلًا، إنَّه واحد: لا يوجد آلهة أكثر من واحد. كلّ صفة من صفات الإله تدلُّ أيضًا على نوعية الفعل، أو حينما تهدف السمة إلى نقل فكرة ما عن الكائن الإلهي نفسه - وليس أفعاله - إنكار العكس. (Maimonides 1904, 1:58)

يبدو أنَّ هذا المقطع يقدّم معرفة الإله من خلال عملية الإقصاء، كما هو الحال في لعبة عشرين سؤالًا Twenty Questions. في اللاهوت الصوفي، يصف سودو دايونيسيوس Pseudo - Dionysius (نحو 500) الباحث بأنَّه يبدأ من إنكار الخصائص البعيدة ("الإله ليس مخمورًا") ويتقدّم من خلال إنكار الصفات الأقرب إلى الحقيقة ("الإله ليس

حكيمًا"). والإنكار عرضة أكثر من أيّ وقت مضى لسوء التفسير، ولذا يجب أن يتم التعبير عنه بعيدًا عن سمع الجهلاء. وحينما يصعد المرء في سلسلة الوجود يصل المرء إلى "الظلمة الفائقة"، وصولًا إلى "سحابة المعرفة" السامية.

ومع ذلك، فإنَّ طريقة الاستبعاد تفترض سابقًا أنَّ الحقائق المتميزة تجعل الإجابات صحيحة. وإجابة موسى بن ميمون عن أيّ سؤال على شكل "هل يمتلك الإله خاصية P؟" ليس ببساطة بسبب افتقار الإله لأية خاصية، إذ يبدو الأمر كما لو أنَّ موسى بن ميمون وضع يديه على أذنيه قبل سماع الكلمة الأخيرة في السؤال.

في هذه المرحلة، يحمل اللاهوت السلبي تشابهًا مزعجًا مع تسلسل طويل من تعليمات الفحص التي تنتهي: الآن، تجاهل جميع التعليمات السابقة، وسجل اسمك على الاختبار، وسلم صفحة فارغة.

من الناحية الموضوعية، ينقل كلُّ نفي إلهي لشكل "الإله ليس F" الرسالة نفسها. كمية المعلومات التي نحصل عليها من أيّ تنبؤ سلبي مستقلٍ عن أيّ مسند نختاره. ومن ثَمَّ لا يوجد تراكم للقرائن.

هناك فرقٌ شخصيٌّ بين النفي الإلهي. قبل أن يتعلم اللاهوت السلبي يرى السائل الساذج أنَّ بعض التكهنات الإيجابية أكثر مصداقية من غيرها. ويميل إلى عزو الحكمة والقوّة والذكورة إلى الإله أكثر من عزو الجهل والضعف والأنوثة. ويذهل المبتدئون من نفي الصفات المحتملة ذاتيًا (الإله ليس حكيمًا، الإله ليس لطيفًا، إلخ)، فالإنكار الصادم يفرغ أذهانهم من المفاهيم الخاطئة عن الإله.

بعد استيعاب مبدأ عمومية "الإله ليس له صفات إيجابية" لم تعد تجد أيَّ اختلافات في النفي، لقد تم تشغيل مصدر التنوير هذا.

ماذا تعلَّمتَ عن الإله؟ لا شيء، لكنَّك توقفت عن ارتكاب مغالطة تجسيد الإله، لقد توقَّفت عن قراءة الكتاب المقدَّس حرفيًا، ولم تعد تنخرط في صلاة التجديف. باختصار: لقد شفيت من الاضطرابات الروحية.

كان موسى بن ميمون طبيبًا بارزًا يعتقد أنَّ هناك أمراضًا في الروح والجسد. وكانت الفلسَفَة مفيدة في فهم المريض ككلٍّ، فالصحَّة هي غياب المرض، والعلاج هو نشاطٌ سلبيٌّ، مثل فك رباط، إذ لا يمكن لأيِّ كلب أن يفكَّ عقدة الرجل، ولا أحد يستطيع فكّ سلب الإله.

بيانات الهُويَّة

عبارات الهُويَّة مثل "الإله مطابق للإله" لا تنسب خصائص إلى الإله، فيمكن أن تكون صحيحة حرفيًّا دون نفي.

بيانات الهُويَّة ليست تافهةً كما تبدو. تأمَّل مسألة ما إذا كان اليهود يعبدون إله المسيحيين والمسلمين نفسه، وهذا مهمٌّ لأولئك الذين يفكِّرون في التحوُّل القسري، إذا كان الإله = الله؛ فيمكن لليهودي على الأقلِّ أن يستمرَّ في عبادة الإله نفسه.

يقول المسيحيون إنَّ الطفل يسوع = الإله. هل هم أيضًا على استعداد لقول الإله = يسوع الطفل؟ هل هذا الإله يلوّث حفَّاظته؟ من الناحية المنطقية الهُويَّة متماثلة، لكن من الناحية النفسية فإنَّ بيانات الهُويَّة غير متكافئة. وغالبًا ما يكون عكس الهُوية أمرًا مروعًا.

يعتقد موسى بن ميمون أنَّ هناك اختلافات جوهرية بين اليهودية وجميع الديانات الأخرى. في "رسالة إلى اليمن" Epistle to Yemen وصف موسى بن ميمون المسيحية والإسلام بأنَّهما تقليد سطحي لليهودية، يقفان أمام اليهودية حيث يقف التمثال أمام الملك الذي ينسخه. وهناك تشابه على السطح، لكن داخل التمثال مجرد حجر، فالإسلام والمسيحية ديانتان مقلّدتان شُيِّدتا على أساس الحسد، إذ اختار الإله شعب إسرائيل والأمم يعرفون ذلك، لهذا يستمتع المسلمون والمسيحيون بمعاناة اليهود.

بيانات الفعل

على الرغم من أنّنا لا نستطيع معرفة ماهية الإله يمكننا أن نعرف ما يفعله، الإله مسؤول عن كلِّ الخليقة. وقد روّج موسى بن ميمون للدراسة العلمانية؛ لأنَّ الطبيعة تكشف عن تصميم الإله.

الساعات هي ساعات بحكم ما تفعله: تخبر عن الوقت. إذا كان الإله هو الإله بفضل ما يفعله فيمكن معرفة طبيعة الإله بمعرفة وظيفته (لنقل، دعم الكون).

فشل التوصيف الوظيفي للإله لسببين: أولًا، الإله هو المسؤول عن الوظائف وليس المنفذ، الإله هو مهندس أسنانك، لكنَّ الإله لا يمضغ طعامك.

ثانيًا، تناقض عزو خصائص تأثيرات الإله إلى الإله نفسه، وهو أقرب إلى عزو تأثيرات النار إلى النار نفسها، تعمل النار على تليين الشمع وتقوية الطين وتقوية السكر وتبييض جذوع الأشجار، فإذا كانت النار هي ما تفعله النار فالنار تكون ناعمةً وصلبةً، وكلاهما أبيض وأسود. وعلى الرغم من أنَّ دراسة الطبيعة قد تزوّدنا بالكثير من المعرفة عن تأثيرات الإله فإنَّها لا تزوّدنا بمعرفة عن الإله. يتعامل اللاهوت السلبي مع الإله على أنَّه صندوق أسود لا يمكن التكهُّن بمبادئه الداخلية من نتاجه.

دراسة الكون المادي ليست كافيةً لاتجاه ديني، إذ يعتقد علماء الفيزياء في القرن الحادي والعشرين أنَّ كلَّ شيء هو تأثير الانفجار العظيم. ولا تُترجم رهبتهم إلى مدح ديني للانفجار العظيم بوصفِه السبب الأول. وفي الواقع، حقيقة أن الانفجار العظيم لا يمكن الوصول إليه معرفيًا من الفيزيائيين له تأثير أبيقوري فيهم، إذ يدين الفيزيائيون التكهنات حول ما حدث قبل الانفجار العظيم بوصفها تكهُّنات غير مجدية، وربَّما لا معنى لها. وتحت فرضية "لا حدود" لعلم الكونيات الكمومي، الوقت غير موجود. ومن خلال استغلال الأرقام الخيالية، قام ستيفن هوكينج Stephen Hawking وجيمس هارتل James Hartle بتلطيف الوقت في اتجاه آخر للمكان. وفي هذه العملية، يفقد الانفجار العظيم طابعه كنظريَّة الخلق. ففي النهاية، إذا لم يكن هناك سؤال "قبل" و"بعد" فإنَّ

السؤال "ماذا حدث قبل الانفجار العظيم" يشبه السؤال "ما هو شمال القطب الشمالي؟" (Hawking and Mlodinow 2010, 133 - 136).

الأمل الكاذب في الاحتمال

قد يزعم المرء أنَّ "الإله حكيم" أقرب إلى الحقيقة على الأقلِّ من "الإله جاهل". وإذا كانت هناك درجات من الواقع فهناك درجاتٌ من الحقيقة. لذلك؛ ربَّما يمكن إحياء اللاهوت الإيجابي بطريقة تدريجية.

يسمح سودو دايونيسيوس بـ "التأكيدات غير الكافية" مثل "الإله محبّ، لكن ليس بطريقة المخلوقات". وهو يسمح أيضًا بمرحلة أعلى تتضمَّن صيغ التفضيل التي ترفض ضمنيًّا امتلاك أيِّ كائن مخلوق: "الإله يُعرف بلا حدودٍ"، "الإله خير فوق الامتياز"، وهكذا دواليك.

لسوء الحظِّ، تتطلَّب صيغة التحقُّق مقياسًا مشتركًا. وتفسّر هذه القابلية للتناسب سبب إمكانية التحوّط من العبارات التي لا تحتوي إلَّا على درجة من الحقيقة في عبارات صحيحة تمامًا. وبالنظر إلى أنَّ بن يبلغ من العمر 29 عامًا فإنَّ "بن يبلغ من العمر 30" هو مجرد قريب من الحقيقة، لكن "بن يبلغ من العمر نحو 30 عامًا" صحيح تمامًا.

إذا كان للإله عمر، فسيكون أقرب إلى الحقيقة أن نقول إنَّه يبلغ من العمر ألف عام من أن نقول إنَّه يبلغ من العمر مئة عام، فيصوّر الإله على أنَّه رجل عجوز ذو لحية رمادية. لكن كلّ صور عمر الإله خاطئة، فالإله دائم الشباب، الإله خارج مقياس العمر بالسنوات، ولكن ليس لأنَّ عمره يساوي عددًا أكبر من أن نتخيَّله، فهذا من شأنه أن يترك الإله في الميزان. ومن ثَمَّ، فإنَّ جميع الصفات الإيجابية للعمر خاطئة على حدٍّ سواء.

الاستعارة والخيال

تتضمَّن الاستعارة عادةً قنطرة تشبيهية من الأكثر شيوعًا إلى الأقلِّ شيوعًا، فالفرداني الذي يقول: "إسرائيل انتقمت" ينفي التزام إسرائيل بأن تكون فاعلًا. ويشرح الفرداني أنَّ ملاحظته تعني فقط نقل حقيقة أنَّ المسؤولين الإسرائيليين المناسبين تصرَّفوا بطريقة جعلت إسرائيل تشبه المنتقم. وبالمثل، فإنَّ "غمر الإله الأرض" هو امتداد مجازي، فالناس هم الفاعلون الأساسيون، والإله فاعل مجازي.

في أطروحته "عن الفاعل الحقيقي الواحد" On the One True Agent، يدير الفارابي Al - Farabi (نحو 900) القياس في الاتجاه المعاكس. الفاعل الوحيد هو الذي يستطيع أن يأتي من اللاموجود (المطلق). ويمكن للبشر فقط أن يجلبوا الوجود من الإمكانات، إذن فالإله حرفيًا فاعل والناس مجرد فاعلين مجازيًا!

في القرن العشرين، سيَّسَ الفاشيون الانقلاب. كلمة فاشي Fascis هي كلمةٌ لاتينيةٌ تعني "حزمة" bundle، فكلُّ قضيب خشبي ضعيف، وحزمة من القضبان قوية، والفاعلية تتطلَّب القوة. ومن ثَمَّ، فإنَّ الفاعل هو الجماعي وليس الأفراد الذين يؤلفونه، الإيطاليون يأتون ويذهبون. وقد أصبحوا إيطاليين من قبل إيطاليا، وهي أمَّة استمرَّت على مدى أجيال متعدِّدة، فالمجتمع الأخلاقي هو مجتمع من الفاعلين، وهؤلاء الفاعلون هم دول وليسوا أفرادًا، فما يهمُّ هو الدول وليس مواطنيها.

عند مناقشة اللاهوت الأولمبي لليونانيين القدماء، يقول الموحِّد إنَّ هناك الكثير من الآلهة: أبولو، بريزو، شارون، ... والتوحيد ثابت؛ لأنَّ أبولو شخصيَّة خيالية. "أبولو إله" يعني أنَّ الموحِّد يتظاهر بأنَّ "الإله" ينطبق على الشخصيَّة الخيالية. وحينما يظهر الإله في خيال فهو كائن مهاجر مثل الشمس، وليس شخصيَّةً خياليةً. وأولئك الذين ينكرون أنَّ الإنسان يمكن أن ينسب إلى الإله حرفيًا لا يزال بإمكانهم التظاهر بأنَّ الرجولة تُنسب إليه.

كلمات التفاعل

تتفاعل بعض الصفات مع ما تعدله. يمكن أن ينطبق مصطلح "صحي" على الطعام والتمارين والعادات والأشخاص وبولهم. ولا تحتاج هذه العناصر إلى خاصيةٍ مشتركةٍ لتطبيق "الصحة" على كلٍّ منها. وبالمثل، فإنَّ "الخير" لا معنى له بصرف النظر عمَّا يعدله. فالقول إنَّ "الإله خير" و "اللذة خير" يمكن أن يكونا صحيحين من دون صفةٍ مشتركةٍ ومن دون مواربة.

لا يوجد مصالحة مع اللاهوت السلبي إذا اختزلت الاستعارة إلى إسناد إيجابي آخر، فبحسب نظريَّة التشبيه في الاستعارة فإنَّ عبارة "الإله حي" تعني أنَّ الإله يشبه كائنًا حيًّا. والطريقة الوحيدة لتشبيه شيء ما هي مشاركة بعض الخصائص معه. واقتران اللاهوت السلبي ونظريَّة التشبيه في الاستعارة يستبعد حتى الأوصاف المجازية عن الإله.

ليست كلّ أشكال الكلام التي تذكر الإله تتحدَّث عن الإله، فشعار فريدريك نيتشه Friedrich Nietzsche "مات الإله" يدور حول الإيمان بالإله.

يستعمل خطاب الفيزياء كلمة "الإله" لتجسيد قوانين الطبيعة. وحينما قال ألبرت أينشتاين Albert Einstein: "الإله ماكر ولكنَّه ليس خبيثًا" كان يمارس الفيزياء بدلًا من علم اللاهوت. فبدلًا من تفسير "الإله لا يلعب النرد" لأينشتاين بوصفه حقيقةً تافهةً، قرأ الفيزيائيون اعتراضًا على نظريَّة نيلز بور Niels Bohr: على عكس الأحداث العشوائية التي تطرحها ميكانيكا الكم لدى بوهر Bohr فإنَّ الكون حتمي. وحينما ردَّ بوهر: "توقف عن إخبار الإله بما يجب عليك فعله!" كان بوهر يوجّه اللوم إلى أينشتاين؛ بسبب فيزياءه العقلانية، وليس بسبب عدم تقواه.

تتجنَّب نظريَّات الاستعارة غير المعرفية أيَّ التزام بإعادة الصياغة الحرفية من خلال مقارنة الاستعارات بالخمريات، إذ هناك تغيير عقلي ولكن لم يحدث تغيير بواسطة المعلومات التي تنقلها الاستعارة، الهدف هو إثارة غضب الجمهور بطريقة مواتية.

هل الوجود خاصيَّة؟

إذا كان الوجود خاصيَّة وليس للإله خصائص فلا وجودَ للإله. ويجيب بعض اللاهوتيين السلبيين بأنَّ هذا صحيح بالنسبة إلى معنى "وجود" وخطأ لمعنى آخر.

وهذه مستوحاة من عقيدة أرسطو القائلة بأنَّ هناك الكثير من الطرق لتكون. وإذا اعتقد المرء كذلك أنَّ المسند لا يمكن أن ينطبق عبر فئات مختلفة من الوجود، ووضع الإله في فئته الخاصة؛ فعندئذٍ سيكون الإله موجودًا بمعنى مختلف عن أيِّ شيء آخر.

إذا كان هناك من يرى أيضًا أنَّ سوء تخصيص أحد المسندات في الفئة الخطأ ("يتثاءب الإله") ينتج منه كلام بلا معنى؛ فإنَّ العبارات الإيجابية عن الإله هي عباراتٌ لا معنى لها وليست خاطئةً.

هذا يهدِّد مقولة موسى بن ميمون بأنَّ التكهنات السلبية صحيحة، وينتج من "نفي" عبارة لا معنى لها بيانٌ آخرُ لا معنى له.

الصعوبة الثانية في التعامل مع "الوجود" على أنَّه غامض هي أنَّه لم يعد هناك أيّ طريقة لتصنيف المخلوقات في سلسلة كبيرة من الوجود، فكلُّ إحساس "بوجود" سيكون مستقلًّا. ضع بحسبانك أولئك الذين يؤكِّدون أنَّ الأشياء المادية فقط موجودة ولكنَّهم بعد ذلك يقرّون بوجود عددٍ أوليٍّ زوجيٍّ. ولتجنُّب التناقض، يقولون إنَّ الأرقام موجودة بمعنى مختلف. وبالنظر إلى أنَّ كلمة "موجود" غامضة فإنَّ "الدقات والأعداد الأولية موجود" هي تلاعب لفظي، إذ يميل الناس العاديون إلى القول إنَّ الدقات توجد بطريقة أقوى من الأعداد الأولية. ويميل أفلاطون إلى قول العكس، لكن غموض "موجود" يحرم كلا الجانبين من مقياس مشترك لجعل المقارنة صحيحة.

هناك طريقة واعدة أكثر لإنقاذ حقيقة التنبُّؤات السلبية وهي الحفاظ على أنَّ الوجود شرط مسبق لامتلاك خصائص وليس خاصية بحدِّ ذاتها. فبموجب هذا الرأي، لا يوجد تورية في "الإله ومخلوقاته موجودون"

اسم الإله

تستعمل كلمة "الإله" مسندًا في "أبولو إله". لذلك؛ يجب على موسى بن ميمون أن يخلص إلى أنَّ الإله ليس إلهًا. يلاحظ سقراط (في كراتيلوس Cratylus لأفلاطون) "الآلهة أيضًا مغرمون بالنكتة"

"الإله هو الإله" لا يتأثَّر؛ لأنَّ "الإله" يستعمل بوصفه اسمًا، وله الشكل المنطقي لبيان الهُويَّة g=g بدلًا من الإسناد Gg . وفي ظلِّ هذا التحليل "الإله" هو مجرَّد تسمية للإله لا تحمل أيَّ محتوى دلالي.

يدافع بعض المؤمنين عن وجود الإله بجعل الوجود سهلًا. مثلًا: يقولون إنَّ الوجود السلبي "الإله غير موجود" يهزم الذات؛ لأنَّه لا يمكن للمرء أن يشير إلى الإله إلَّا إذا كان موجودًا.

قد تناسب هذه الاستراتيجية المشرك، لكنَّ الموحِّدين ينفون وجود آلهة أخرى. وقد قاد هذا الجانب السلبي من التوحيد الرومان المشركين إلى الجمع بين الموحّدين والملحدين بصفتهم غير مهمين عدديًّا. وأنكر هذان الطرفان كلاهما وجود الآلهة اللازمة لتحصين السلطة العلمانية.

الباطنية

نظرًا لأنَّ الكتب كانت باهظة الثمن، فقد طُلب من الأولاد حفظ التوراة قبل أن يفهموا ما تعنيه، ويمكن أن يكون الفهم جزئيًّا، ويمكن للصبي أن يستعمل "الأب" بكفاءة قبل أن يتعلَّم، في ليلة زفافه، ما تستتبعه الأبوة.

مثلما يجب أن يتغذَّى الرضيع بالحليب قبل أن يتغذَّى باللحوم يجب أن يتعلَّم الطالب بالأمثال قبل أن يتغذَّى بالمبادئ. ويجب أن يذعن الطالب للقلَّة الذين يمكنهم الحصول على مستوى أعلى من المعرفة. وعلى الحكماء بدورهم أن يحافظوا على تقوى الجاهل بالامتناع عن التصريحات التي يمكن أن يساء تفسيرها.

يأتي التدريس على مستويات مختلفة. ونظرًا لأنَّ موسى بن ميمون كان عليه أن يعظ جمهورًا أوسع بكثير؛ فإنَّ كتاباته تحتاج إلى تفسير من حيث جمهورها المقصود. ولم يرغب موسى بن ميمون في تعريض تقوى أولئك الذين كانوا على استعداد لإساءة تفسير ما قاله للخطر. كان عليه أن يبني جسورًا للخلاص ليستطيع حتى الجاهل عبورها بأمان. والجاهل ليس مجبرًا على الفهم، بل هو مطالب فقط بالإذعان لأولئك الذين يعرفون أفضل.

اعتقد موسى بن ميمون أنَّ آدم يعرف أدلَّةً على وجود الإله تم نسيانها لاحقًا. وبدلًا من امتلاك أنموذج تراكمي للمعرفة، اعتقد موسى بن ميمون أنَّ المعرفة كثيرًا ما تُفقد؛ بسبب الكوارث والتخريب والإهمال. ولم يقبل وجهة نظر أفلاطون بأنَّ المعرفة فضيلة. وبفضل الخطيئة الأصلية، يتصرَّف الناس بطريقة غير أخلاقية حتى حينما يعرفون كيف يجب أن يتصرَّفوا. والأسوأ من ذلك، أنَّ بعضَهم ينجذب إلى الإساءة؛ لكونها إساءة. وحينما كان صبيًّا، سرق القديس أوغسطين الكمثرى؛ لأنَّ السرقة كانت خطأ، ليس بالضدِّ من الخطأ.

لم يكن موسى بن ميمون مثقَّفًا شيوعيًّا، وخالف العلماء الذين يشاركونه كلَّ ما يعرفونه، فمثل الكهنة المصريين كان موسى بن ميمون مالِكًا، وكانت هناك أسرارٌ دينيةٌ لا ينبغي كشفها حتى للحكماء الآخرين.

تتفاقم الصعوبات التفسيرية بتأييد موسى بن ميمون للتقليد الحكيم، فخلال حقبة الحروب الصليبية المضطربة ارتفعت موجات التعصُّب الديني وانحسرت في المناطق المتنازع عليها. وغالبًا ما كان اليهود يواجهون الاختيار بين التحويل والموت. ومن المثير للجدل أنَّ موسى بن ميمون قال إنَّه من الأفضل التشدُّق بالكلام بدلًا من الاستشهاد. ويمكن لليهودي أن ينتظر عودة التسامح أو على الأقل فرصة للهجرة. (كان اليهود في المناطق المسيحية أكثر ميلًا للدعوة إلى الاستشهاد، جزئيًّا في محاكاة المثل الأعلى المسيحي للاستشهاد، وجزئيًّا؛ لأنَّ التحوُّل إلى المسيحية كان يُنظر إليه على أنَّه شرك).

العَدَم .. تَأريخٌ فَلسَفيٌّ

عاش موسى بن ميمون نفسه حياة يهودي متخفي، أدَّى الشعار الذي جعله مسلمًا، وصلَّى في المساجد، ودرس القرآن، واختار أن يكذب بشأن الأمور المقدَّسة، وقد أقنع إخوانه اليهود أن يفعلوا الشيء نفسه.

قد يتساءل المرء عمَّا إذا كان بإمكاننا الوثوق بأيِّ شيء يقوله موسى بن ميمون! هل ينبغي قبول مثل هذا المراوغ كشاهد في محاكمة؟ هل يجب أن يكون مؤهلًا لشغل منصب قاضٍ؟ تم تقديم إجابة واحدة من خلال صورة على أبواب معرض مجلس النواب الأمريكي (تقع بين 22 مشرِّعًا آخر) (شكل 15.2).

وأجاب مترجم دليل الحائرين Guide for the Perplexed لموسى بن ميمون بروح المعكوسة. وأكد ليو شتراوس (Leo Strauss 1952) أنَّ احتمال أن يكون موسى بن ميمون يحمل أطروحة معينة يتناسب عكسًا مع مدى جادته في الدفاع عنها. فبحسب شتراوس، فإنَّ حجج موسى بن ميمون لصالح الخلق من العَدَم هي علامة على أنَّه يؤمن سرًّا بخلود الكون!

الشكل 15.2 صورة موسى بن ميمون في مجلس النواب الأمريكي.

كانت مقاربة التفكير المزدوج لشتراوس مؤثرةً بشكل مدهش، فالتفكير المزدوج يجعل جميع تفسيرات موسى بن ميمون ذاتيَّة البطلان، بما في ذلك الرأي نفسه. وقد ابتعد العلماء عن شتراوس، وتفترض الغالبية الآن أنَّ موسى بن ميمون كان يعني ما كتبه.

يقول موسى بن ميمون إنَّنا يجب أن نكون متواضعين جدًّا، وتعكس آراؤه حول قدراتنا المتواضعة على مناقشة الإله هذا التواضع الشديد، إذ يضع منتقدو اللاهوت السلبي بالحسبان التواضع التنافسي في المجامع، فالشموس shamus هو عامل المعبد، وفوقه يوجد الكانتور cantor الذي يقود المصلين في الصلاة، وفي ذروته الحاخام rabbi، الذي يعلم ويفصل في قضايا الشريعة، ويقلق الحاخامات من الظهور عبثًا، إذ يركع حاخام جاد ويضع جبهته على الأرض ويعلن: "أمامك يا رب، أنا العَدَم" وأعجب بتقوى الحاخام، فركع الكانتور بجانب الحاخام، ووضع جبهته على الأرض، وقال: "أمامك يا رب، أنا أقل من العَدَم!"، ثمَّ ينضم الشموس إلى الاثنين على الأرض، ويقول: "أمامك يا رب، أنا العَدَم"، يدفع الكانتور الحاخام ويقول: "انظر من يعتقد أنَّه العَدَم!"

سادسًا: العَدَم العلميُّ

سادسًا: العَدَم العلميُّ

16. برادواردين: غياب الحتميَّة

تبدأ "حكاية قس دير الراهبات" The Nun's Priest's Tale لجيفري تشوسر Geof-frey Chaucer بمديح أوغسطين وبوثيوس Boethius وتوماس برادواردين Thomas Brad-wardine. وبصفته رئيس أساقفة كانتربري السابق فإنَّ برادواردين هو المفضَّل المحلي في حكايات كانتربري Canterbury Tales.

كان برادواردين أقصر رؤساء الأساقفة عمرًا. اختصر الموت الأسود عهده في عام 1349، بعد خمسة أسابيع فقط من تكريسه من قبل البابا كليمنت السادس Pope Clement VI، وبعد أسبوع واحد بالضبط من عودته إلى إنجلترا. وعمل برادواردين على الإرادة الحرَّة شكَّل القضية الكبرى في أيام تشوسر: هل حرية الإله تمنع الآخرين من التمتُّع بالحرية؟

الحرية بوصفها لعبة صفرية

لكلِّ حرية حدود متساوية ومعاكسة. حقُّك في قطعة من الفطيرة واجب على الآخرين ألَّا يأكلوها. وكلَّما زادت حريتك تتناقص حريَّتهم، وحينما تضاف مكاسبك إلى خسائرهم يكون المجموع صفرًا بالضرورة.

إن كان الإله موجودًا فهو كليُّ القدرة، أيُّ شيء بقدرة كلية له الحرية الكاملة، وبما إنَّ الإله له كل الحرية فلا أحد غيره حرّ.

يقبل برادواردين هذا الحساب للحرية الأولية، إذ يتمتَّع الناس بحرية ثانوية في الإقرار بأفعال الإله. وكلُّ واحد منَّا هو عجلة عربة. لا توجد عجلة لديها حرية الحركة الأساسية. وقد تتمتَّع العجلة بالحرية الثانوية في الاستجابة للحركة الأساسية للحصان الذي يسحب العربة. وقد تم تصميم العجلات لتدور بحرية. ومع ذلك، قد تلتوي وتصقَل وتُضغَط. وحينما يصلِّح المُصلِّح العجلات تستعيد العجلات حريَّتها، فالحرية الثانوية

هي تحقيق الوظيفة.

يقول يوحنا المعمدان عن يسوع: "يجب أن يصير أعظم، وأنا يجب أن أصبح أقل" (يوحنا 3:30). يسوع بدوره، حينما يتعلَّق بالإله كونه ابنًا للآب، أفرغ إرادته، وأصبح شيئًا عبدًا (فيلبي 2: 7). وتتضاعف عقيدة التواضع هذه التي تطمس الذات بوصفها عقيدةً للحرية الثانوية.

أولئك الذين يؤمنون بالحتمية يستبعدون الإرادة الحرة، يقولون إنَّك مسؤول فقط إذا كان بإمكانك القيام بعمل مختلف. وبرادواردين يختلف مع ذلك، إذ افترض أنَّ لوسيفر سيؤدِّي إلى هوس السرقة إذا فشلت في سرقة هذا الكتاب. وبالتناغم مع أمير الظلام، أنتَ تسرق هذا الكتاب طواعية، ولا يزال لوسيفر خاملًا. وعلى الرغم من أنَّك لا تستطيع أن تفعل بشكل مختلف فأنتَ مسؤولٌ عن السرقة، فما يهمُّ هو نيتك.

كيف تبني حرية الإله المكان والزمان؟

في العام 1913، حلَّ لورنس العرب Lawrence of Arabia اللغز، "كيف يمكنك تطويق النمر؟" نمره الصغير، هدية من مسؤول حكومي في جرابلس، قد حلّ طوقه. ردع نمر لورانس المتسللين، لكن لم يكن لديه ولاء للورانس، وحبس النمر في صندوق جعل القط الكبير أكثر شرًّا. ولم يرغب لورانس في وضع يده في الصندوق، فحشا القفص بأكياسٍ من القماش حتى فقد النمر حرية الحركة، ثم فتح لورانس الجزء العلوي من الصندوق، ووضع الطوق الجديد على النمر المحشور.

استغلَّ لورانس العلاقة بين المكان والحرية. ويربط برادواردين المكان بحريَّة الإله، فمِرْفَق الإله يزيل مِرْفَق الآخرين.

في الواقع، تتحكَّم قدرة الإله المطلقة في طبيعة المكان نفسه، وتتطلَّب الحرية الأساسية الغياب التامَّ للقيد، ونقص في المكان سيكون قيدًا. وهكذا فإنَّ الحرية الكاملة تتطلَّب مسرح عمليات لا نهائي. وعلى عكس أرسطو، يجب أن يكون الكون لا نهائيًا.

ما ينطبق على المكان ينطبق على الزمان، لا بدَّ أن الإله كان حرًّا في خلق الكون في وقتٍ سابقٍ أو لاحقٍ. وعلى عكس أرسطو، لا بدَّ أنَّه كان هناك فراغ سابق.

يجب أن يكون الإله حرًّا في وضع الكون في مكان آخر. ومن ثَمَّ، فإنَّ أرسطو مخطئ بشأن وجود مركز للكون، ودرجات المسيحي في النقاش حول الفراغ: يسوع 1، أرسطو 0.

ثقوب في المكان

لكي يكون الإله حرًّا، يجب أن يكون له الحرية في إبادة أيِّ جسد، بينما يمنع أيضًا الأجساد الأخرى من شغل المنصب الشاغر. وأشار ألبرت ساكسونيا Albert of Saxo-ny إلى أنَّ هذا يثير تساؤلًا حول المسافة. لنفترض أنَّ كلَّ شيء تحت المجال القمري قد أُبيد، لن يترك ذلك شيئًا على الإطلاق (ولا حتى الهواء أو بعض الغازات الرقيقة). وافترض كذلك أنَّ الكرة لا تتحطَّم (ربَّما لأنَّها سميكة بشكل موحَّد لذلك لا يوجد سبب آخر لانكسار الكرة عند نقطة واحدة بدلًا من أخرى). ما المسافة بين الراصدين اللذين يقفان خمس وحدات فوق وتحت المجال الكروي المكوَّن من 10 وحدات؟ (الشكل 16.1). في البداية، نجيب أنَّ المراقبين يقفان على مسافة 20 وحدة: 5 + 10 + 5 = 20 وحدة، لكن بعد ذلك نتذكَّر أنَّ الكرة لا تحتوي على أيِّ شيء. لذلك؛ لا توجد مادةٌ داخل الكرة يمكننا أن نطبِّق عليها العبارة الكمية "يبلغ قطرها 10 وحدات".

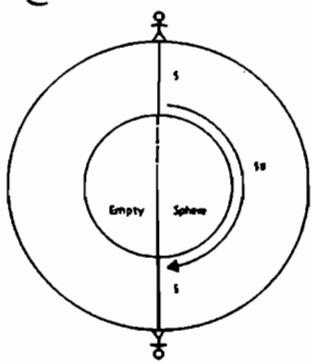

الشكل 16.1 شكل الكرة الفرعية.

إذا استنتجنا أنَّه لا توجد مسافة داخل الكرة فسيسأل ألبرت عن النقطتين عند القطبين المتقابلين للكرة. إذا لم تكن هناك مسافة بينهما فهما على اتصال!

استجابةً لخطر الانهيار هذا، ننكر بدلًا من ذلك أنَّ مفهوم المسافة ينطبق عبر الفجوة. لكن الآن تظهر قدرتنا المربكة على قياس المسافة حول الفجوة: المحيط = 2π، لذا فإنَّ نصف المحيط هو 5π، أو 15.5 وحدة. ويجادل هنري جينت Henry of Ghent بأنَّ الفراغ في الكرة الفرعية يجب أن يكون له أبعاد: يمكن محاذاة أبعاد الفراغ بقضيب قياس. وفضلًا عن ذلك، هناك شكل للفراغ. وعلى وجه الخصوص، يشترك الفراغ في استدارة الحاوية الكروية.

الكرة متناظرة من اليسار إلى اليمين، ولكن إذا كانت الحاوية على شكل قفاز أعسر فسيكون للفراغ اتجاهٌ يختلف عن الحاوية التي لها شكل قفاز أيمن، فاليد التي تتناسب بشكل مريح مع أحد القفازات لن تتناسب مع الأخرى. ويمكن توسيع إسناد هنري جينت لشكل الفراغ إلى إسناد التوجُّه، إذ يمكن أن يكون للفراغين نفس الحجم والشكل ومع ذلك يختلفان كالقفازات.

يلاحظ جين ريبا1368 - 1357 (Jean of Ripa (fl. أنَّ الشذوذ المكاني للفراغ يفرز الألغاز حول الحركة، فافترض أنَّ الإله أباد على التوالي الخلايا الموجودة بين أ وب (شكل 16.2). وإذا كانت كلُّ خلية عبارة عن وحدة واحدة في الطول وكانت المسافة تتطلَّب أن يكون للموضوع هذه الكمية فإنَّ عدد الوحدات بين A و B يتناقص مع إبادة الخلايا. ومع ذلك، فإنَّ "A" و "B" في حالة راحة!

A	1	2	3	4	5	B

الشكل 16.2 إبادة الخلايا الوسيطة.

الحدود المنطقية للقدرة المطلقة

الحدُّ الوحيد لقدرة الإله منطقي، إذ لا يمكنه عمل دائرة بها زوايا، ولا يستطيع الإله - بصفته كائنًا كاملًا - أن يفعل أيَّ شيء بشكل ناقص، ولا يستطيع الإله أن يشهد زورًا، ولا يمكن للإله أن يفعل أيَّ شيء يشير إلى وجود تناقض غير مباشر، وعلى وجه الخصوص، لا يمكن أن يخلق الإله فعلًا لا نهائيًا. إذن، يمكن أن يخلق الإله إلهًا آخر، واحتمال وجود إلهين متماثلين يعني إمكانية التنافس بين قوَّة لا تقاوم وجسم غير متحرك، ومثل هذا التنافس يعني وجود تناقض.

بما إنَّ حرية الإله تتطلَّب مكانًا لا نهائيًا فعليًا ولا يمكن أن يكون الإله قد خلقَ مكانًا لا نهائيًا فعليًا، يجب أن يكون المكان اللامتناهي صفة من صفات الإله، فالمكان هو تجسُّد وجود الإله كلي الوجود. وهكذا، فإنَّ العدم وراء الإرادة الحرَّة ينفجر في العدم في المكان والزمان اللانهائي، وتعود كلُّ الحرية إلى كائنٍ واحدٍ غير مسبب هو المسؤول عن كلِّ شيء. والبشر أحرار إلى الحدِّ الذي يؤيدون فيه الأعمال التي تنبع من حرية الإله، وأولئك الذين يريدون ما يشاء الإله، يحصلون بالضبط على ما يرغبون، ويجب أن يرغبوا فيه.

تحرير الطاعون الأسود

كانت الإرادة الحرة قضية حيَّة في القرن الرابع عشر، فمن ناحية بدت حرية الإله وكأنَّها قدر كلِّ شخص آخر إلى مصير لا يتحكمون فيه. ومن ناحية أخرى، فتحت الكارثة الزراعية فرصًا غير مسبوقة وخيارات صعبة، إذ تسبَّب الطقس البارد غير المعقول في موت المحاصيل، وتسبَّب موت المحاصيل في المجاعة، والمجاعة سبَّبت الطاعون، وتسبَّب الطاعون في مذابح، وتسبَّبت المذابح في الحرب. والحلُّ الشائع للمشكلات هو الرحمة. لكنَّ الطاعون الأسود إختير ضدَّ الناس الرحيمين، والذين يرعون المرضى مرضوا، وفرَّ الكهنة، ثمَّ الأزواج، ثم الآباء. وفي نهاية المطاف، ورث الناجون ذوو القلوب

القاسية ممتلكات ورتبًا وسوقًا محسَّنة لعملهم.

في السابق، كانت الكنيسة تُعدُّ الحكم النهائي في النزاعات، وقد أضعف الطاعون هرم سلطة رجال الدين، ففي عام 1377 ادَّعى كلٌّ من أوربان الرابع Urban IV في روما وكليمنت السابع Clement VII في أفينيون أنَّهما بابا، وكان على المسيحيين أن يقرِّروا من هو البابا ومن هو ضدّ البابا.

قبل مئة عام، إدانة عام 1277 حظرت 217 عقيدة مرتبطة بأرسطو، وتم تنظيم الإدانة من أتباع أوغسطين، واستهدفت المدارس اللاهوتية في باريس. وتلقى توماس برادواردين تعليمه في هذه الفترة من الإصلاح الأوغسطيني. وأكد أوغسطين أنَّنا ملوَّثون جميعًا بالخطيئة الأصلية. ومن خلال تضحية يسوع، يمكن للمسيحيين أن ينالوا الخلاص بنعمة الإله، لكنَّ غير المسيحيين (اليهود والمسلمين والوثنيين وحتى الأطفال المتوفين غير المعمَّدين) يذهبون إلى الجحيم. ولا يمكن للأعمال الصالحة نفسها أن تجعل إلهًا مستقلًّا تمامًا يفعل أيَّ شيء. والإله ليس قاضيًا تكون أحكامه نتيجة سلوك المدَّعى عليه، فقد سبق الحكم بالحكم قبل وجود المدَّعى عليه.

يتردد أوغسطين، فيُسكن أطفالًا غير معتمدين في شقق جميلة في الجحيم (بجانب سقراط وأفلاطون وغيرهما من فلاسفة ما قبل المسيحية). ويقترح أوغسطين أنَّ الأعمال الصالحة قد تكون أحد أعراض أنَّ المرء من بين المختارين.

اقترح بعضُهم أنَّ الأعمال الجيِّدة يمكن أن تكون مدفوعةً بالأخبار السارة التي تولدها، فإذا ساعدتَ جارك الضعيف فهذا دليلٌ على اختيارك سابقًا لتكون من بين أولئك الذين سيذهبون إلى الجنة. وإذا كان تعظيم الأخبار السارة (بغضِّ النظر عن التأثير السببي) أمرًا منطقيًّا فإنَّ توقيت المكافأة غير ذي صلة، وسيعمل الحافز بغضِّ النظر عمَّا إذا كانت الجنة تأتي قبل أو بعد وجودك الأرضي. افترض أنَّك نسيت - عند الولادة - ما إذا كنت قد كنت في الجنة أو الجحيم، لا يزال بإمكانك الحصول على أدلَّة من خلال ما إذا كنتَ قد قمت بأعمال جيدة، والتضحية لزيادة احتمالية وقوع حدثٍ

ماضٍ أمر غير منطقي، والتضحية لزيادة احتمالية وقوع حدث مستقبلي أمر منطقي فقط إذا كان من المحتمل أن تكون التضحية سببًا لذلك الحدث.

تفترض نظريَّة القرار السببي (التي تؤيد الخيار بأفضل التأثيرات) وجود فرق موضوعي بين الماضي والمستقبل. وأوغسطين لديه نظريَّة ذاتيَّة للوقت، فالماضي هو ما يمكن تذكره، والحاضر هو ما يمكن إدراكه، والمستقبل هو ما يمكن توقعه. وبما إنَّ الإله يدركُ كلَّ شيء دفعةً واحدةً فإنَّ كلَّ شيء الآن بالنسبة إليه، فالعقيدة ليست معرفة مسبقة للإله.

يزعم الحتميون الناعمون أنَّ "كلَّ حدث يحدث" يتوافق مع الحرية. وكان تشوسر على دراية بهذه العقيدة من خلال ترجمته لكتاب بوثيوس "تعزية الفلسَفَة" The Consolations of Philosophy. ضع بحسبانك قراءتين لـ "إذا توقّع أمين المكتبة أنَّك ستعيد كتابًا فيجب عليك إعادة الكتاب المستعار":

ضرورة النتيجة: بالضرورة، إذا توقَّع أمين المكتبة أنَّك ستعيد الكتاب فستعيد الكتاب.

ضرورة النتيجة: إذا توقَّع أمين المكتبة أنَّك ستعيد الكتاب فإنَّك بالضرورة ستعيد الكتاب.

الشرط الأول صحيح ولكنَّ الثاني خطأ، إذ لا تجبرك المعرفة المسبقة لأمين المكتبة على إعادة الكتاب. وفي النهاية، يمكن أن يكون أساس توقعها هو حقيقة أنَّك حرٌّ، ويعني عدم وجود عقبات وإعاقات أنَّك - بصفتك راعيًا ضميريًّا - ستفي بوعدك بإعادة الكتب.

الاحتكار الإلهي للحرية

يفترض الفاعلون أنَّهم يولّدون أفعالهم. أنتَ لست مثل القلم الذي ينقل فقط الحركات الحرة للمؤلف، فشعورك بالاستقلالية هو أساس كرامة الإنسان ومشاعره مثل

الكبرياء والشعور بالذنب.

يميلُ تشوسر الملعب ضدَّ حرية الإنسان من خلال جعل حيوانات الفِناء تناقش إرادتها الحرة. تبدأ الحكاية بأنين الديك النائم جانتكلير، توقظه بيرتلوت، المفضَّلة من بين زوجاته السبع، فيروي كابوسًا تعرَّض فيه للهجوم في الهواء الطلق من قبل مخلوق برتقالي مثل كلاب الصيد يشبه الوحش الذي هاجم والده ووالدته. ويخشى أن يكون الحلم نبوئيًا، فإذا كان حلمه ينبئ بالمستقبل فهل سيكون من الحكمة أن يبقى في قنّ الدجاج اليوم؟

يبدو هذا الاحتياط عديم الجدوى بالنظر إلى الطبيعة الحشوانية المشروطة "إذا كان حلم جانتكلير بالهجوم نبوئيًا فسيتعرَّض للهجوم". بالتعريف، كلُّ الأحلام النبوئية هي أحلام تتحقّق.

يتذكَّر جانتكلير تشخيص بوثيوس بأنَّ هذا الشكل من الحجَّة يخطئ في ضرورة الشرط بأكمله، (p → q)، مع ضرورة ما يترتَّب على ذلك داخل الشرط (q → p)، فيعجبه التمييز. ومع ذلك، فهو دجاجة عمليًا لا يرى بوضوح كيف يحلّ تمييز نطاق بوثيوس المشكلة.

لقد فهم برادواردين كيف يُظهر تمييز بوثيوس مدى توافق المعرفة المسبقة لأمين المكتبة بإعادتك للكتاب مع إعادتك للكتاب بحرية. لكن علم الإله المسبق بإعادتك للكتاب هو أمرٌ آخر، فما يعرفه الإله مسبقًا فهو أيضًا يريده مسبقا. وبما إنَّ الإله كلي القدرة فإنَّ الإله يختلف عن المراقب السلبي الذي يتوقع تصادمًا بين اثنين من المشاة العمي. الإله يشارك بنشاط وحميمية، الإله يملي كلَّ خطوة. وفي الواقع، تضمن قدرة الإله المطلقة أنَّه يأخذ كلَّ خطوة. وخطوات المشاة هي مثل خطوات الدمية، فسيد الدمية يسير المارة. ويختلف المشاة العمي فقط عن كونهم دمى في امتلاك إرادة يمكن أن تخضع للخطوات والاصطدام.

أيَّة محاولة من جانتكلير لتجنُّب مصيره من طريق الاختباء في حظيرة الدجاج

ستكون غير مجدية مثل محاولة لتغيير الماضي. ولا يستطيع إنقاذ نفسه أكثر مِمَّا يستطيع إنقاذ والديه المتوفين.

إذا كانت الإرادة الحرة تتطلَّب عدم وجود علاقة سببية فعندئذٍ فقط الكائنات غير المسببة تكون حرةً. ومثل رعاة المكتبة الآخرين، تشعر وكأنَّك كائن غير مسبب حينما تقرِّر إعادة كتاب مستعار، تشعر أنَّ الفعل قد نشأ معك. ومع ذلك، بحسب براداوردين، فأنت لا تبدأ في العمل أكثر مِمَّا يُنشئ ظلك تحركاته، أنتَ تعتمد كليًّا على الإله.

بالنسبة إلى براداوردين، الحرية هي كمية ثابتة، فالحرية التي يكتسبها أحد الفاعلين يخسرها الفاعلون الآخرون. إذا كنت حرًّا في استعمال النصف الشمالي من المرعى فأنتَ بذلك مقيّد بالنصف الجنوبي. وسيكون أفضل توزيع للحرية بحسب من يتخذ الخيار الأفضل. وبما إنَّ الإله هو أفضل صانع قرار فينبغي أن يتمتَّع بكلِّ الحرية. وتخصيص أيِّ حرية للإنسان يتعدَّى على حرية الإله.

بحسب بيلاجيوس Pelagius، يمكننا أن نتَّبع قانون الإله بحرية، ومن ثَمَّ نستحقُّ الخلاص. وقد نفى بيلاجيوس رواية أوغسطين عن الخطيئة الأصلية. والتمس أوغسطين من البابا إعلان أنَّ بيلاجيوس زنديق، ولكن دون جدوى.

لاهوت براداوردين هو إنكارٌ منهجيٌّ لبيلاجيانيته الفتية، فبراداوردين يحدُّ من حرية الإنسان. وما دامَ الإله يفعل ما يحلو لك فأنتَ حرٌّ مثل البخَّار الذي يركب مركبًا سريعًا، أنت قائد مصيرك، سيد مصيرك، فالحرية هي الانصياع.

يقلِّل الكثير من اللاهوتيين من مشاركة الإله في الخطيئة، ويقودهم القلق على قداسته إلى القول إنَّ الإله ليس سوى سببٍ بعيدٍ للجرائم، إذ يتسبَّب الإله في الجريمة فقط بالطريقة التي يتسبَّب بها العمل الصادق في الجريمة (من خلال ابتكار منتجات يمكن سرقتها).

براداوردين يرفض هذا العزل: الإله هو السبب المباشر لكلِّ حدث، حتى الأفعال الخاطئة.

إنَّ عجز الخاطئ يفشل في تبرئته؛ لأنَّه لا يزال صحيحًا أنَّه كان سيتسبَّب في الشرِّ لو كانت لديه القوَّة. والإله هو المزارع الذي يذبح دجاجة كان من الممكن أن تتعرَّض للموت من دجاجة متنمِّرة. والدجاج المتنمِّر هو الجاني الحقيقي، على الرغم من قيام المزارع بالقتل الفعلي.

على الرغم من تعاطف جانتكلير مع برادواردين فإنَّه يتصرَّف كما لو أنَّه يعتقد أنَّه حرٌّ. هدَّأتْهُ بيرتلوت إلى حدٍّ ما، حيث اقترحت أنَّه يحتاج فقط إلى ملين، فضلًا عن أنَّ خروجه من الحظيرة كان مصدر إلهام له، وهو ما يكرِّره مرارًا وتكرارًا في الفناء.

وأخذ جانتكلير - مرتاحًا وواثقًا - يمشي أبعد من ذلك، ويكتشف حيوانًا برتقاليًّا ينظر إلى فراشة. ومع مُلاحظة الحذر الغريزي لجانتكلير أوضح جامع الفراشات الماكر أنَّ الغرض من زيارته هو مشاهدة صرخة جانتكلير الشهيرة، فيتنفَّس بفخر. وبناءً على الطلب يقف جانتكلير على رؤوس أصابعه مادًّا رقبته وعيناه مغمضتان، للتركيز على صياحه.

فجأة! يخطف الثعلب رينارد جانتكلير من حلقه، ويحمله على كتفه، وينقل الديك المرعوب إلى الغابة، فينبِّه العويلُ المتسربُ حيواناتِ المزرعة الأخرى، فتزمر الاوز، وتصر الخنازير، وتصيح الأبقار، والكلاب تنبح، حتى المزارع ينضم إلى حملة صيد الثعالب.

رينارد لديه طريق آمن. ومع ذلك، فإنَّ الثعلب قد وضع على حافة الهاوية؛ بسبب كلِّ الإساءة اللفظية. ينصح جانتكلير الثعلب: "يا مولاي، إذا كنت مثلك، سأقول: ليساعدني الإله". فينطق الثعلب بذلك، ولام من يلاحقه. وبعد أن تحرَّر من بين فكي الثعلب طار جانتكلير إلى أعلى الشجرة.

يعتذر الثعلب لجانتكلير عن المعاملة القاسية، ويحثُّ صديقه على الطيران لأسفل للتحدُّث عن سوء الفهم، فيرد جانتكلير بإدانةٍ عالميةٍ صادقةٍ للغرور. وبالنظر إلى أنَّ جانتكلير قد تعلم درسه لا يمكن للثعلب إلَّا أن يضاهي أسف جانتكلير بإدانةٍ صادقةٍ للتفاخر.

محنة الفراغ

تمت مقارنة تشوسر مع يوريبيدس Euripides (نحو 480 - 406 قبل الميلاد)؛ لأنَّه يصوّر بحساسية تنوُّع الناس العاديين. ومع ذلك، ينتقد أرسطو يوربيديس بسبب اللجوء المتكرر إلى أداة الحبكة المفاجئة (Poetics 1454a33 - 1454b9). وقد سُمِّي هذا على اسم الرافعة التي تَقلِّل من إله حلِّ المشكلات في المسرحية.

وبحسب أرسطو، يجب أن تتطوَّر الدراما بشكل طبيعي من مقدماتها الأولية، ويجب على الكتَّاب المسرحيين عدم إساءة استعمال حقِّهم في تحديد مسار الأحداث. ويشير أريستوفانيس Aristophanes إلى النقطة نفسها في محاكاة ساخرة له "امرأة في ثيسموفوريا" Thesmophoriazusae، فحينما تتراكم الصعوبات يقوم أريستوفانيس بإسقاط يوريبيديس Euripides في المسرحية.

كان أرسطو سيشعر بالاستياء أكثر من أداة الحبكة المفاجئة التي نظمها أسقف باريس عام 1277. بدأ القرن الثالث عشر بالفراغ الذي كاد ينقرض في أوروبا في العصور الوسطى، وقد حافظ المسلمون على فيزياء أرسطو وكتبوا شروحًا ثاقبةً. وسقطت هذه المنحة في أيدي المسيحيين خلال استعادتهم إسبانيا. وقد دعمت الكنيسة دراسةً مكثَّفةً للمخطوطات لتعويض الكفَّار.

العَدَم نافس فيزياء أرسطو، والعَدَم خسر! كانت معارضة أرسطو للفراغ ساحقة. ومستفيدًا من حلفائه الإسلاميين، أقنع أرسطو المفكرين المسيحيين بأنَّ الكون كان عبارةً عن جلسة مكتملة النصاب، كلُّ شيء ممتلئ. لذلك؛ لا توجد فراغات صغيرة، ولا توجد فراغات متوسطة الحجم، ولا يمكن إنشاء مثل هذه الفراغات بشكلٍ مصطنع.

إذا كان البؤس يحبُّ الرفقة فيمكن للفراغ أن يجدَ راحةً قاتمةً في محنة هدف أرسطو الآخر: اللانهاية، إذ تتجسَّد المصائر المرتبطة بالفراغ واللانهاية في تجربة فكرية للنجارة، فيختار ألبرت ساكسونيا شعاعًا طويلًا بلا حدود من الخشب بمقطعٍ عرضيٍ مربَّعٍ يبلغ بوصةً واحدةً في بوصةٍ واحدةٍ، وقطع مكعب طوله بوصة واحدة،

مِمَّا يترك القدر نفسه من الخشب. ونشر ألبرت ثمانية مكعبات أخرى ليحزمها حول المكعب الأول. الآن لديه مكعَّب 3 × 3 × 3 (شكل 16.3). باكتساب الزخم، رأى ألبرت المزيد من المكعَّبات لإحاطة هذا المكعب، مِمَّا أسفر عن مكعَّب 5 × 5 × 5. مرارًا وتكراراً، رأى. في النهاية، يشكل ألبرت مكعَّبًا عملاقًا يملأ الكون بأسره. الدرس: الأشياء اللانهائية تنتهك حفظ المادة.

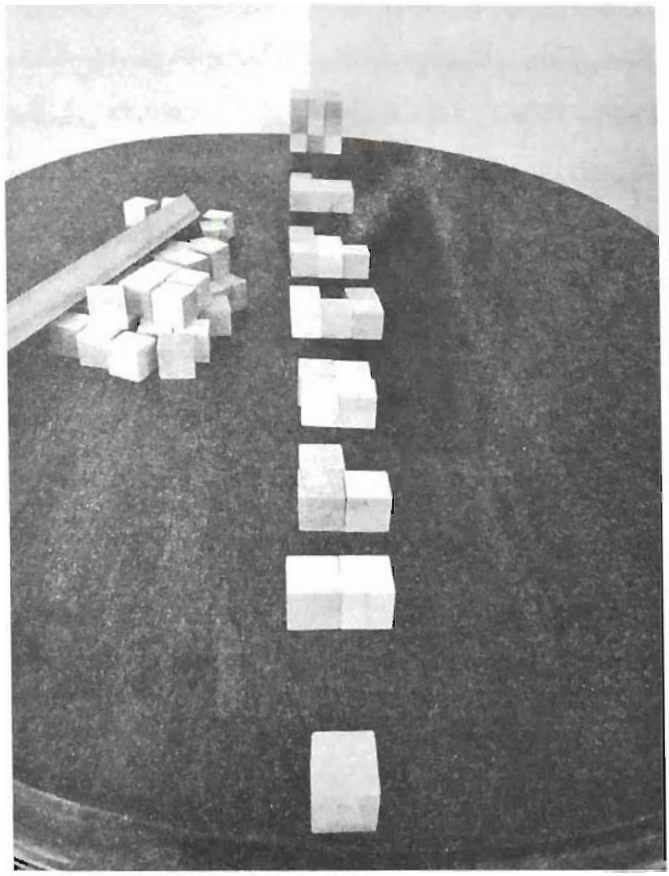

الشكل 16. 3 ملء مكان بمكعب مقطوع من عمود طويل لا نهائي.

الفراغ اللانهائي الفعلي

إذا أُجبر المسيحي على الاختيار بين اللانهاية والفراغ فقد يفضِّل الفراغ على أساس أنَّ لديه دعمًا كتابيًّا مباشرًا. تذكر فريدوجيسوس! لم يوصف الإله في كلٍّ من العهد القديم والجديد بأنَّه غير محدود. ومع ذلك، تم ذكر الفراغ لأوَّل مرة في سفر التكوين. تذكر كيف استغلَّ فريدوجيسوس في القرن الثامن هذه الإشارات المتعدِّدة إلى الغياب في نظريَّة الظلال والعدم.

ينسب الكتاب المقدَّس إلى الإله قوى تفترض مسبقًا وجود مكان فارغ للمناورة. يبدأ سفر التكوين باختيار الإله بحرية خلق العالم، وكان من الممكن أن يختار الإله أن يخلق العالم في مكان مختلف، وكان بإمكانه جعل الفراغ أكبر أو أصغر.

في الواقع، كان بإمكان الإله أن يختار أن يجعل الكون شكلًا مختلفًا، وإذا كان هذا الشكل غير متماثل فقد اختار الإله اتجاهًا مختلفًا. ويمكن أن يكون الكون على شكل الحرف b قد انعكس من اليسار إلى اليمين كما هو d.

تمكَّن الغزالي من رؤية إمكانية حدوث تحوُّلات في الاتجاه، على الرغم من افتراض أنَّ الكون كروي، إذ يكون الاتجاه مناسبًا فقط للكرة المتحركة، كما هو الحال حينما نميِّز بين الحركة في اتجاه عقارب الساعة وعكس اتجاه عقارب الساعة. ويطرح هذا السؤال ببراعة عند الغزالي؛ لأنَّ كونه عبارة عن نظام من المجالات الدوَّارة، فيلاحظ الغزالي أنَّ أعلى كرة تتحرَّك من الشرق إلى الغرب. وبدلًا من ذلك، كان من الممكن أن تتحرَّك أعلى كرةٍ من الغرب إلى الشرق، فإذا تحرَّكت الكرات السفلية في الاتجاه المعاكس فستحدث تشكيلات الأجرام السماوية نفسها. لكن يجب أن يكون تغيير التوجُّه مرتبطًا بشيء آخر. لذلك؛ إذا كان بإمكان جميع الهيئات تغيير توجُّهها بشكل جماعي فلا بدَّ أن يكون هناك شيء ما وراء الهيئات يوفِّر الإطار المرجعي.

صاغ إيمانويل كانت Immanuel Kant لاحقًا انعكاس الغزالي بين الشرق والغرب بوصفه حجَّة لوجود المكان المطلق: إذا كان الكون لا يحتوي إلَّا على يد فستكون إمَّا

يدًا يمينًا أو يسارًا. لذلك؛ يجب أن يوفّر المكان نفسه الإطار المرجعي الذي يجعل اليد الوحيدة هي اليد اليسرى بدلًا من اليد اليمنى، أو العكس. لذلك؛ يجب أن يوجد المكان بشكلٍ مستقلٍ عن الأشياء التي يحتوي عليها.

اعتقد أرسطو أنَّ الأرض تنجذب إلى نقطةٍ فريدةٍ في المكان، مركز الكون. وتشرح نقطة الجذب الفريدة هذه سبب وجود الأرض في مركز الكون، ويشرح مركز الجذب سبب عدم وجود أكثر من أرض واحدة، إذا كان هناك الكثير من الكواكب الأرضية فإنَّها ستصطدم.

كان بإمكان الإله أن يمتنع عن الخلق ويترك الكون فارغًا، وكان حرًّا في خلق العالم في أيّ وقت يشاء، وهذا يعني أنَّه كان هناك فراغ عام قبل الخلق. وبالنظر إلى أنَّ الوقت ليس له بداية يجب أن يكون هذا الفراغ قديمًا إلى ما لا نهاية. ويتطلَّب الالتزام المسيحي بالقدرة المطلقة ألَّا يكون الفراغ ممكنًا فحسب، بل يكون أيضًا واقعيًّا، وسيكون الفراغ المسبق والفراغ خارج الكون فراغات فعلية كانت أيضًا لا نهائية، وهو انتهاكٌ مزدوجٌ للعقيدة الأرسطية.

إدانة 1277

حاولت سلطات الكنيسة منخفضة المستوى فرضَ الأرثوذكسية المسيحية على الفلاسفة الأرسطيين، وتم تأكيد فشلهم من خلال تأثير توما الأكويني في المدارس اللاهوتية الرئيسة في باريس.

رأى أسقف باريس، ستيفن تيمبير Stephen Tempier، فرصةً حينما أصبح بطرس ملك إسبانيا البابا يوحنا الحادي والعشرين Pope John XXI. كان بطرس منطقيًّا فضَّل أفلاطون على أرسطو، وبالنتيجة فضَّل أوغسطين على الأكويني. وتلقَّى الأسقف تيمبير على الفور لجنةً للتحقيق في مدارس باريس. تجاوز تيمبير أوامره من خلال الحظر الضخم لـ 219 مقالةً مرتبطةً بالفيلسوف الأرسطي العربي ابن رشد، وفُهم التدخُّل على

أنَّه إدانةٌ مستترةٌ للأكويني.

مات البابا يوحنا الحادي والعشرون ميتة عالم: بعد شهر من انتخابه انهار عليه مكتبه المخصَّص له.

بقي حظره، فاضطرَّ العلماء في باريس إلى إفساح المجال للفراغ.

حسد الكثير ضيفهم المُعيَّن، وحصر العلماء الفراغ في عالم الاحتمال فقط، فيمكن للإله أن يبيد جسدًا لكنَّه لا يفعل ذلك في الواقع، لن يكون هناك جدوى من التدخُّل في خلقه!

كان هناك خطٌّ أكثر إيجازًا هو التمييز بين ما هو خارق للطبيعة وما هو طبيعي. والمبادئ الأرسطية قائمة بشكل افتراضي إلَّا في حالة المعجزات (التي عزلها بعض اللاهوتيين عن عصر أقدم من المعجزات).

ولكن كانت هناك حاجة إلى تنازل أكبر بكثير. أظهر الفراغ المسبق والفراغ خارج الكون أنَّ الفراغ لا يعتمد على الأجسام في وجوده، والمرشَّح الوحيد هو الإله نفسه. وبطريقةٍ ما، يجب أن يختلط الشيء الأكثر سلبية مع الشيء الأكثر إيجابية.

العناق الأوغسطيني للفراغ

بحسب أوغسطين فإنَّ الإله يعانق العالم: في كلِّ جزءٍ ومنفذ، ولكن يبقى في كلِّ مكانٍ لا نهائي. كان مثل البحر، في كلِّ مكان وفي كلِّ الاتجاهات منتشرًا، على الرغم من المكان الهائل، مجرد بحر لا نهائي، وكان بداخله إسفنجة كبيرة، كانت محدودة، وكانت هذه الإسفنجة ممتلئة، بالطبع، في كلِّ جزء بالبحر الهائل. (2010a, 168)

ربَّما تكون استعارة أوغسطين مستوحاة من أعمال الرسل 18: 27 - 28: "لأنَّنا فيه نحيا ونتحرَّك، وفيه نُوجد".

المكان - إذا جاز التعبير - هو جسد الإله. كلُّ جسد مضمن في هذا الوسط نصف الجسدي ونصف الروحي. وحتى لو ملأت هذه الأجسام الفراغ فلن يكون الإله مطابقًا

لها، إذ تفتح رؤية أوغسطين الاحتمال الآسر بأنَّ الإله كائنٌ غير محدود، كلي الوجود، ثلاثي الأبعاد ومتميز من أيِّ جسمٍ معيَّن أو مجموع كلِّ الأجسام.

قلَّةٌ من المفكرين كانوا على استعدادٍ لأخذ تأليه المكان إلى هذا الحدِّ، فبدلًا من القول إنَّ الإله هو المكان بالمعنى القوي للهُويَّة، فضَّلَ معظم الناس القول إنَّ المكان هو صفة من صفات الإله، أو تأثير من آثار الإله.

هذا الفراغ كلي الوجود يعتمد على الإله، وإذا تم تدمير الفراغ حينما يدخله شيء ما فإنَّ المطابقة بين الإله والمكان ستنكسر في النهاية؛ بسبب الخلق. ومع ذلك، أورث أوغسطين مفهومًا للمكان على أنَّه قادرٌ على الاختراق الكامل بواسطة جسم مادي. وفي ظلِّ مفهوم أوغسطين المتكيِّف، يتطابق الإله والمكان تمامًا. ومثلما يطابق التمثال الطين الذي يتكوَّن منه يمكن أن يتزامن الإله مع المكان، ويمكن أن يتزامن المكان مع الأشياء التي احتلته.

يفسِّر تصوُّر أوغسطين للمكان حرية الإله، إذ كان بإمكان الإله أن يخلق العالم أينما شاء، ويمكن أن يكون الكون كلّه ذراعًا إلى يسار مكانه الحالي. وليست كلُّ المواقع ذات صلة بأجسام أخرى، فضلًا عن ذلك، يمكن للإله أن ينقل الكون كلّه إلى هذا المكان. لذلك؛ هناك أيضًا حركة مطلقة.

بدلًا من صنع كوننا، كان بإمكان الإله أن يصنع كونًا آخر بعيدًا، أو كان بإمكان الإله أن يصنع أكوانًا أو المزيد من الأكوان، وفقط من خلال الوحي نعرف أنَّ الإله خلق كونًا واحدًا.

اللوازم الخمس لبرادواردين

كان برادواردين منطقيًّا وعالمًا في الرياضيات، وفي "في سبيل الله ضد بيلاجيوس" De causa Dei contra Pelagium أعاد برادواردين بعقلانيةٍ بناء إسفنجة أوغسطين بوصفها نظامًا من خمس لوازم من نظريَّة أنَّ الإله لا يتغيَّر:

C1: الإله موجود في كلِّ مكانٍ في العالم.

C2: وأيضًا ما وراء "في مكان أو فراغ لا نهائي خيالي".

C3: وبالنتيجة يمكن تسميته هائلًا وغير محدود.

C4: ومن هنا يمكننا الردُّ على السؤال: أين كان الإله قبل الخلق؟

C5: ثم يمكن أن يوجد الفراغ من دون جسد، ولكن ليس من دون الإله. (Grant 1981, 41 - 135).

النتيجة الطبيعية C1 تأتي من ثبات الإله، فإذا كان في مكان ما وليس في مكان آخر لكان على الإله أن يسافر لممارسة قوَّته، والسفر يعني التغيير، ويفترض برادواردين أنَّه لا يوجد عمل عن بعد، إذ لا يستطيع حتى الإله أن يتصرَّف من خلال حاجز العدم (العازل العظيم).

اعترض بعضهم على وضع الإله في أماكن حقيرة مثل المراحيض. وبشكل أكثر تجريدًا، يُفترض أنَّ الخطاة في الجحيم (في مركز الأرض) منفصلون عن الإله، وبهذا المنطق الجغرافي لا يمكن أن يكون الإله في الجحيم، فإذا كان الإله في أيِّ مكان فلا بدَّ أنَّه في أفضل مكان، في السماء، ويتصرَّف عن بعد بأمرٍ وليس من طريق الاتصال المباشر.

ورثت العصور الوسطى حدس أرسطو بأنَّ بعض الاتجاهات أفضل من غيرها، فأعلى أفضل من أسفل، والحق أفضل من اليسار.

يلمح C2 إلى المكان الذي تحدّده كلية الخيال لدينا، إذ تم الاعتراف بهذا المكان من الأرسطيين ولكنَّه وُصف بأنَّه خيالي (شكل 16.4). ويتم تصوير القوس الأوسط بشكل غير متَّسق. (يعود تاريخ المنمنمة إلى ما قبل عام 1025.

وهي مأخوذة من كتاب هنري الثاني المحفوظة في مكتبة ميونيخ) وقد لاحظ قلَّة من المشاهدين عدم الاتساق، وربَّما يكون الفنَّان قد تحمَّل الاستحالة البصرية بصفتها تقنية تافهة.

الشكل 16.4 القوس المستحيل.

نحن قادرون على تمثيل المشاهد غير المترابطة مَكانيًّا بصريًّا. ولا يوجد مرشَّح تناسق شامل للإدراك والخيال، فنظرًا لأنَّ الواقع متسق والمكان التخيلي ليس كذلك فقد ميَّز الأرسطيون المكان التخيلي عن المكان الموضوعي.

يمكن أن يكون المكان التخيلي مفيدًا لأغراض معيَّنة، إذ يتنقل الناس حول مدنهم بخرائطهم الذهنية (التي تكون غير متسقة من خلال التطبيقات المتكرِّرة للإشارة إلى أنَّ زوايا الشوارع تشكِّلُ زوايا قائمة). ولم يُدِنْ الأرسطيون رسَّامي الخرائط الذين رسموا خرائط مسطَّحة يسافر فيها المرء من الحافَّة اليمنى فقط لتظهر مرةً أخرى في أقصى الجانب الأيسر.

فرضت إدانة عام 1277 على المسيحيين عَدَّ بعضِ أشكال المكان التخيلي ممكنًا منطقيًّا على الأقلِّ. ويمكن إثبات هذا الالتزام باتساق بعض أشكال المكان الخيالي من خلال المنفعة الرياضية لبعض أشكال المكان المشوّه. تخيَّل ملاكًا على صندوق مكعَّب يرغب في السير إلى الجانب الآخر (شكل 16.5).

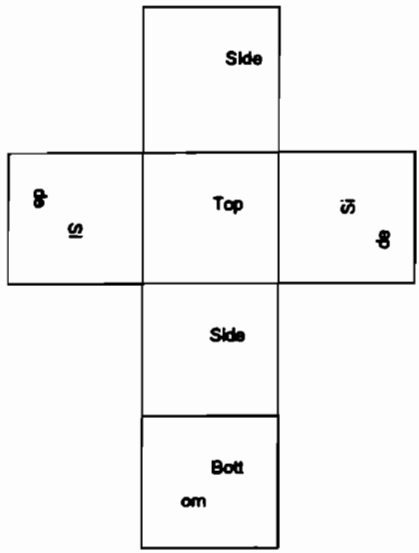

الشكل 16.5 مكعَّب مكشوف.

يمكن حساب أقصر مسار للملاك من طريق فتح المكعب في مستوى ثنائي الأبعاد يحتوي على وجوه المكعَّبات بصفتها خلايا، وبمجرَّد أن نتعلَّم حيلة ضغط المكان ثلاثي الأبعاد في مكان ثنائي الأبعاد فإنَّنا على استعدادٍ للتوسُّع من المكان ثلاثي الأبعاد إلى المكان ذي الأبعاد الأربعة. وفي القرن التاسع عشر أنجز القس إدوين أبوت Edwin Abbott (1838 - 1926) قصةً منبثقةً عن الأرض المسطَّحة. ومثلما تجد المخلوقات ثنائية الأبعاد صعوبةً في تخيُّل الواقع ثلاثي الأبعاد، نجد نحن المخلوقات ثلاثية الأبعاد

صعوبةً في استيعاب حقيقة رباعية الأبعاد. ومع ذلك، حتى لو لم نتمكَّن من تصوُّر ذلك يمكننا أن نفهم بالطرق الجبرية، يمكن الوصول إلى عالمٍ ثنائي الأبعاد باستعمال نظام إحداثيات يستعمل (x، y)، وعالم ثلاثي الأبعاد مع (x، y، z)، ونظام رباعي الأبعاد به .... الجنة! لقد وصلت إلى الحدِّ المفاهيمي لأبجديتي!

يعتقد بعض معاصري أبوت أنَّ الجنَّة كانت في البعد الرابع. وادَّعى الروحانيون من بينهم أنَّ المقيمين في هذا البعد الرابع أشاروا إلى وجودهم من خلال مآثر، مثل: تحويل الحذاء الأيمن إلى حذاء يسار من طريق قلبه عبر البعد الرابع، تمامًا كما يمكننا نحن الكائنات ثلاثية الأبعاد أن نُذهلَ المتخلفين ثنائيي الأبعاد من خلال قلب b إلى d. وتحتوي رسالة القديس بولس إلى أهل أفسس على المقطع رباعي الأبعاد التالي: "أنت، إذ تكون متجذِّرًا ومتأصِّلًا في الحبِّ، قد تكون قادرًا على أن تفهم مع جميع القديسين ما هو العرض والطول والعمق والارتفاع" (Ephesians 3:17 – 18).

اتفقت جميع الأطراف على أنَّ هذا المكان التخيلي يستبعد الحدود. وC2، أنَّ الإله يسكن أيضًا في فراغ خيالي لا نهائي، يلمح إلى المكان الذي لا يسمح بنهاية، وبالنتيجة هو لا نهائي. ويؤكد برادواردين إمكانية وجود فراغ خارج الكون (على عكس أرسطو).

كان جان بوريدان Jean Buridan قد أكَّد أنَّ المكان يعتمد على الأجسام؛ لأنَّه ليس سوى بُعد من أبعاد الجسم، وإذا كنتَ في حدود المكان ومددتَ ذراعك فإنَّ ذراعك ستغيِّر حدود المكان، تمامًا كما توفر يدك مكانًا حينما تمدُّها بين وسائد الأريكة، فإنَّ يدك توفِّر مكانًا حينما تمدها إلى ما بعد حدود المكان (السابقة).

إذا صنع الإله حبة في مكان فارغة فإنَّ تلك الحبة ستحمل مساحتها الخاصة، وستكون المسافة بين الحبة المعزولة وكلِّ شيء آخر غير قابلة للقياس.

وبحسب نظريَّة بوريدان عن "المكان الداخلي"، يمكن أن تكون هناك مسافة بين الكائنات فقط إذا كانت هناك كائنات وسيطة لاستضافة ذلك المكان. وبالنظر إلى أنَّ المكان هو جسم جانبي فإنَّ المكان الفارغ ليس ممكنًا أكثر من جبل من دون وادٍ.

وبرادواردين يعارض بوريدان.

وC3، أن الإله هائل وغير محدود، مستوحى من كتاب القرن الثاني عشر للفلاسفة الرابع والعشرين Book of the XXIV Philosophers: "الإله هو كرةٌ لا نهائية مركزها في كلِّ مكان ومحيطها في أيِّ مكان". وفي حين أنَّ الذريين يستنتجون أنَّ المكان اللامتناهي ليس له مركز استنتجَ المسيحيون أنَّ المركز موجودٌ في كلِّ مكان.

بفضل الفراغ الكوني اللامتناهي فإنَّ مقدار المكان في أيِّ اتجاه هو نفسه، إذن للمكان سمة كروية أساسية. ويتم الحفاظ على هذه المساواة بغضِّ النظر عن نقطة الأصل للفرد. ونظرًا لأنَّ المركز يمكن أن يكون في أيِّ مكان فهو موجودٌ في كلِّ مكان. وأخيرًا، لا توجد حدودٌ خارجيةٌ للمكان اللامتناهي، لذا؛ فإنَّ الكرة اللانهائية تفتقر إلى المحيط.

وC4 تجيب عن "أين كان الإله قبل الخلق؟" بالفراغ المسبق، فالإله في كلِّ مكانٍ وكلِّ زمان. لذلك؛ كان موجودًا قبل الخلق. وبما إنَّ الفراغ يعتمد على الإله فقط فإنَّ الفراغ أقدم من أيِّ جسم آخر.

الفراغ التخيلي ليس لا نهائيًا فعليًا مخلوقًا، إنَّه جانب من وجوه الكائن الوحيد الذي هو بالفعل لا نهائي: الإله.

للوهلة الأولى، فإنَّ C5 هي إحياء للذريَّة؛ لأنَّ الفراغ لم يعد يعتمد على الأجسام، فيمكن طرح الأجساد ولكن لا يمكن طرح الفراغ، ومع ذلك، فإنَّ برادواردين يجعل الفراغ مرتبطًا بالإله. وسيشرح سبينوزا Spinoza لاحقًا هذا الاعتماد على أنَّ المكان هو المكان الداخلي للإله، مِمَّا يسمح بأن يكون للإله شكل ثلاثي الأبعاد. وفي المقابل، إله برادواردين ليس له أبعاد، وبالنتيجة، المكان الذي يوجد فيه الإله ليس له بعد بالتساوي.

الإله يأتي أولًا، حريَّته لها الأسبقية على حرية الإنسان، وحريَّته تستعبد المكان والزمان، ويظهر الفراغ كمستفيد، ولكنَّ الفراغ يجب أن يتلوَّى ليناسب سيده، ويجب أن يمتدَّ الفراغ إلى ما بعد ثلاثة أبعاد؛ لاستيعاب إمكانية تحويل الكائنات ذات الاتجاه

الأيسر إلى كائنات موجهة نحو اليمين، ويجب أن يتقلَّص لاستيعاب إمكانية الأرض المسطحة، أو الأرض الخطية، وحتى يصبح بلا أبعاد لإيواء الإله نفسه.

17. نيوتن: المكان الآمن للغياب

لدى المسيحيين علاقة حبّ - كراهية مع النزعة الذرية. يكرهون الذرات، ويحبُّون الفراغ.

جاءت الكراهية أولًا. وكما أكد أبيقور Epicurus، فإنَّ التفسيرات الاندماجية اختزالية. الجيوش ليست سوى جنود، والجنود ليسوا سوى ذرات، والذرّات ليست سوى أجزاء من المادة غير قابلة للتجزئة. لا تترك الذرات شيئًا لتفعله الآلهة. وبما إنَّنا يجب أن نفترض فقط ما يفسر فإنَّ الذريين يفرغون ما هو خارق للطبيعة. ومع ذلك - وكما تبلور في إدانة عام 1277 - اضطر المسيحيون إلى التغلُّب على اعتراضات أرسطو حول إمكانية حدوث فراغ. وبشكل محرج، فقط الذرة هي التي تمنح المكان الفارغ دورًا توضيحيًّا.

المكان بصفته كائنًا دينيًّا

الأمكنة الشاسعة رائعة. في آسيا، انتشرت هذه المشاعر بالرحابة الفخمة في عبادة السماء، فالمغول يتحدَّثون بحماسة عن كيف أنَّ السماء منتشرة في كلِّ مكان وتغلف كلّ شيء. ومع ذلك، تختلف السماء عن أيّ شيء من الأشياء الموجودة في السماء، التي يمكن إزالتها جميعًا دون إزالة السماء، السماء غير قابلة للتدمير، ولا يمكن للسماء أن تسقط، السماء أبدية.

أرسل أرغون خان Arghun Khan رسائلَ إلى معرض فيليب في عام 1289، احتوت الوثائق على جاذبية طقسية للسماء الزرقاء الإلهية. وتبع ذلك الخان العظيم Great Khan برسالة سياسية في عام 1290 موجَّهة إلى البابا نيكولاس الرابع Nicholas IV، تنقل التعدُّدية الدينية والتسامح مع للمغول.

على الرغم من أنَّ المسيحيين لا يعبدون السماء ولا المكان، فإنَّ توماس برادواردين أوضح كيف أنَّ للمكان علاقةً حميمةً بالإله، ففقط المكان اللامتناهي يعطي الإله ساحةً رحبةً بما فيه الكفاية للعمل. والدافع ذو الصلة للمكان اللامتناهي هو الوجود

الكلي للإله، فإذا كان المكان محدودًا فإنَّ الإله سيرث هذا القيد.

إذا خلق الإله كلّ شيء، فهل خلق أيضًا مكانًا فارغًا؟ هناك تقاليد تصف العدم صراحةً بأنَّه قطعةٌ أثريةٌ إلهيةٌ. وبحسب لكابالا اليهودية Jewish Kabbalah بدأ الإله بنفسه فقط، وأفرغ نفسه لإفساح المجال للآخر.

ويشيد أتباع الكابالا المعاصرون بعلم كونيات الانفجار العظيم بعدِّهِ كشفًا لمذهبهم الصوفي، إذ يتعاقد الإله مع نفسه إلى حدٍّ ما، وفي فعل حر من التضحية بالنفس ينفجر في المكان الذي خلقه إخلاؤه.

تعمل الذرات على إجلاء شاغليها بطريقة أكثر منهجية، إذ يرشد مبدأ الاقتصاد parsimony الذريين إلى جعل الذرات بدلًا من الفراغ حيثما أمكن ذلك. والاكتشافات الجديدة حول كيفية تبديل الفراغ بالذرات تؤدِّي إلى كونٍ أقلَّ كثافة سكانية.

إذا كان من الممكن إثبات أنَّ المكان يكون روحانيًّا ومهيمنًا بشكل مناسب، على غرار الخطوط التي وضعها توماس برادواردين؛ فيمكن التوفيق بين المسيحية والنزعة الذرية، وربَّما يمكن جعل الذرات نفسها أقلَّ ميكانيكيةً من خلال جعلها تعمل بالقوى، فحتى الذرات قد تكون روحانيةً.

وبدلًا من النظر إليها بصفتها شركاء متساوين في ثنائية المادة/ الفراغ، يمكن للمرء أن يختزل الذرات إلى الفراغ. وربَّما تكون الصخور مجرَّد مناطق من المكان تتمتَّع بخصائص مثل عدم الاختراق واللون والصوت.

إذا أوضحت هذه الذرات الروحية كلَّ شيء فيمكن للمسيحيين أن يحتفلوا بشمولية المكان. وإذا بقيت الألغاز فيمكن عدُّها دليلًا على التدخُّل الإلهي، وفي كلتا الحالتين تفوز المسيحية.

كان المذهب الذري يستحقُّ نظرةً ثانيةً. وبشكل غير ملائم، فإنَّ الاضطهاد المسيحي للذريين قد ترك الذرية اليونانية في قبرٍ غير مميز، نسيها حتى حفَّارو القبور.

الانبعاث القاري للذريَّة

في عام 1417، استخرجَ محبُّ الكتب بوجيو براتشيوليني Poggio Bracciolini نسخةً من كتاب لوكريتيوس Lucretius "حول طبيعة الأشياء" On the Nature of Things من دير ألماني. وكان بوجيو السكرتير الرسولي السابق للكثير من الباباوات. وتم نقل هذه التركة الأدبية ببطءٍ من محبّي الكتب الأثريين إلى فلاسفة الطبيعة الجدد، وظهرت القصيدة في كتابٍ عام 1474.

في فرنسا، قاد الأب بيير جاسندي (Pierre Gassendi 1592 - 1655) البعث النظري للنزعة الذرية، فادَّعى أنَّ الإله قد خلق الذرات.

التجارب الفكرية التي تلت عام 1277 والتي حاولت فقط إظهار إمكانية الفراغ أفسحت المجال لتجارب تستعمل مضخات لتفريغ الهواء. فـ ماذا لو أصبح ما هو. فصمَّم المتدين بليز باسكال (Blaise Pascal 1623 - 1662) أكثر التجارب التي تستند إلى أسسٍ جيدةٍ من الناحية النظريَّة على الفراغ، وأدَّى هذا إلى بارومتر توريشيلي Tor-ricelli's barometer.

نحن نعيش في قاع محيط من الهواء، يُدفع بالون لأعلى؛ لأنَّ وسادته الهوائية تزيح كمية كبيرة من الهواء، والغاز في البالون له وزن، وهذا يقلِّل من قوَّة الرفع. ولزيادة الرفع، اصنع بالونًا صلبًا وأزِل المحتويات. وفي عام 1670، اقترح الراهب الإيطالي فرانشيسكو لانا دي تيرزي Francesco Lana de Terzi أن يتم ربط جندول بهذه البالونات ذات الكفاءة القصوى (شكل 17.1).

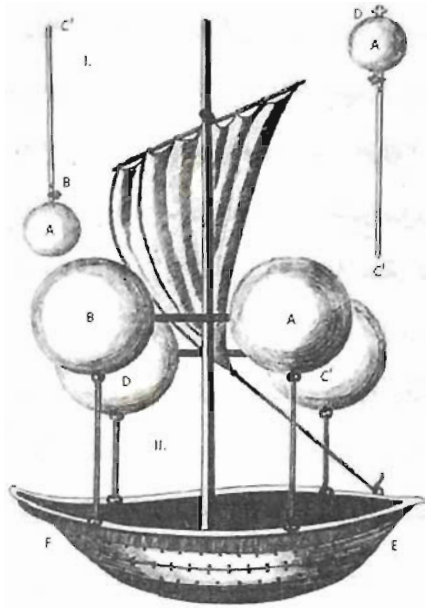

الشكل 17.1 الزورق الفراغي.

للأسف، كان عمَّال السفن في القرن السابع عشر يفتقرون إلى موادِّ البناء اللازمة للقشرة التي تحتوي على الفراغ. وإذا كانت القشرة قويةً بما يكفي لتفادي الانهيار فإنَّ وزنها سيغرق الرفع الإضافي.

بدءًا من عام 2021، لا يزال العلم يفتقر إلى هذه المادَّة القوية للقشرة، إذ يمتلك الخيال العلمي الجوهر منذ عام 1930: هاربينيت[1] Harbenite. وفي طرزان في قلب الأرض Tarzan at the Earth's Core، يسافر ملك الغابة إلى بيلوسيدار في منطاد فراغ مصنوع من هذه المادَّة غير القابلة للاختراق.

(1) معدن موجود في جبال ويراموازي بإفريقيا، قوي كالفولاذ وخفيف كالفلين. (المُترجم)

ربما يتعيَّن على الكيميائيين تحويل تركيزهم من القوَّة إلى التجانس، فإذا كانت القشرة كرويةً بشكل موحَّد فعندئذٍ حتى بالون رقيق عشوائي سيعمل، ولن يكون هناك المزيد من الأسباب لانفجار البالون في نقطة ما دون أخرى، وغياب المادة سيحميه غياب السبب!

شخصَنَة العدم

بعد تجربة صوفية عام 1654، تطوَّر اهتمام بليز باسكال بالعدم من أهميته للفيزياء إلى أهميته للناس، فالبشر لديهم منظور فريد عن نهايتهم. وأفكار Pensées باسكال هي رحلة أفعوانية تستكشف الكثير عن البشر. يرفعنا باسكال إلى مستوى الملائكة من خلال تمجيد قبضتنا على اللامحدود، ثمَّ يغرقنا تحت الوحوش لاختيار الشرِّ على الخير. ومن هذا الوادي المليء بالفساد، يسحبنا باسكال للأعلى مرةً أخرى من خلال الإعجاب بكيفية تحليق البشر فوق المملكة المجهرية، فقط ليغرقنا في التافه من خلال جعلنا نتأمَّل في اتساع المكان وضخامة الأبدية.

من ينظر إلى نفسه في هذا الضوء سيخاف من نفسه، ويراقب نفسه في الجسد الذي أعطته الطبيعة له بين هاتين الهاويتين: اللانهاية والعدم، وسيرتجف عند رؤية هذه الأعاجيب؛ وأعتقد أنَّه مع تحوُّل فضوله إلى إعجاب سيكون أكثر ميلًا إلى التفكير فيها بصمت بدلًا من فحصها بافتراض مسبق.

لأنَّه في الحقيقة ما هو الإنسان في الطبيعة؟ العَدَم بالمقارنة مع اللانهائي، الكلُّ بالمقارنة مع العدم، الوسيط بين العَدَم وكلِّ شيء. ونظرًا لأنَّه بعيد تمامًا عن فهم التطرُّف يتم إخفاء نهاية الأشياء وبدايتها بشكلٍ ميؤوسٍ منه في سرٍّ لا يمكن اختراقه؛ إنَّه غير قادر بالقدر نفسه على رؤية العدم الذي خُلِق منه، واللانهائي الذي ابتلع فيه. ([1669] 1910، 72).

يطرح ارتباط باسكال بين العدم والتفاهة واللامعنى موضوعات قد وضعها الوجوديون في القرنين التاسع عشر والعشرين.

تم إسقاط الفراغ من خلال التمظهرات الرائعة. ففي العام 1654، ربطَ أوتو فون جويريك (Otto von Guericke 1601 - 1686) نصفي كرة نحاسية بإطار رقيق، وفرَّغ الهواء، وحاولَ فريقٌ مكوَّنٌ من 30 حصانًا تفكيك نصفي الكرة دون جدوى. وحينما فتح أوتو صمَّاما للسماح بدخول الهواء انفصلت الكرتان دون أيِّ سحب. (تُعرض المضخَّة والأشكال الكروية في المتحف الألماني بميونيخ بألمانيا. وواصل أوتو فون جويريك إظهار مرونة الهواء وضغط الهواء، وقوَّض مبدأ أنَّ الطبيعة تمقت الفراغ).

احتفل فريدوجيسوس بالعدم بوصفه مادة البناء النهائية. ويقترب أوتو فون جويريك من عدم تحديد أيِّ شيء مع بويلدر Builder:

كلُّ شيء في العَدَم، وإذا كان على الإله أن يختزل نسيج العالم الذي خلقه إلى العَدَم، فلن يبقى شيء من مكانه سوى العَدَم (كما كان قبل خلق العالم)، أي غير المخلوق. ولأنَّ غير المخلوق هو الذي لا توجد بدايته فالعَدَم يحتوي على كلِّ الأشياء، وهو أغلى من الذهب، من دون بداية ونهاية، أكثر بهجة من إدراك النور الغزير، أشرف من دماء الملوك، يضاهي السماوات، أعلى من النجوم، أقوى من ضربة البرق، كامل ومبارك. بكلِّ الطرق. فالعَدَم يلهم دائمًا. وإذا لم يكن هناك شيء فإنَّه يبطل اختصاص كلّ الملوك. والعَدَم من دون أيِّ ضرر. وبحسب أيوب فإنَّ الأرض معلَّقة على العَدَم، والعَدَم خارج العالم، والعَدَم في كلِّ مكان. يقولون الفراغ العَدَم. ويقولون إنَّ المكان التخيلي - والمكان نفسه - العَدَم. (Guericke 1672, 63, as translated by Grant 1982, 216).

الانبعاث البريطاني للذريَّة

في إنجلترا، كان لإحياء النظريَّة الذرية بداية خاطئة، ففي أواخر القرن السادس عشر دعم نبيل نورثمبرلاند التاسع هنري بيرسي (Henry Percy 1564 - 1632)، مجموعةً من الفلاسفة الطبيعيين الذين كانوا جميعًا من الذريين الأبيقوريين باستثناء واحدٍ هو ناثانيال توبورلي Nathaniel Toporley. وفي خطاب يصف البحث في البصريات دعا

توماس هاريوت Thomas Hariot يوهانس كيبلر Johannes Kepler ليصبح ذريًّا:

لقد قدتك الآن إلى أبواب منزل الطبيعة، حيث تكمن ألغازها. وإذا لم تتمكَّن من الدخول لأنَّ الأبواب ضيقة جدًّا فجرِّدْ نفسك وقلِّصها في ذرة، وستدخل بسهولة. وحينما تخرج مرَّةً أخرى لاحقًا أخبرني ما هي العجائب التي رأيتها. (Hariot to Kepler, in Kepler, Werke, 15:368).

كانت المجموعة سرية؛ بسبب عداء الملحدين، لكنَّ المتآمرين لم يكونوا سريين بما فيه الكفاية. وبصفتهم ملحدين مشهورين فقد أصبحوا نقطة جذب للأخلاقيَّات المتخيلة، وأبرزها مؤامرة لاغتيال الملك. وتم تغريم "إيرل الساحر" بيرسي، وسُجن، وحُلَّت مجموعته.

توحي هذه النكسة المدمِّرة بالحاجة إلى فصل المذهب الذري عن أبيقور، وهذه الجهود الرامية إلى تنصير النزعة الذرية كانت معقَّدةً من قبل الذريين غير السياسيين مثل توماس هوبز Thomas Hobbes (قبل أن يصبح امتلائيًّا) مع لاهوته المادي. وأثارت "الدوقة المجنونة" ليدي مارغريت كافنديش Margaret Cavendish انزعاج هذا الجيل الثاني من باعثي الذرة.

تحوَّل الذريون إلى الدعاية التنصيرية، فأنشأ أستاذ اللغة العبرية رالف كودوورث Ralph Cudworth (1617 - 1688) سلالةً توراتيةً للنظريَّة الذرية. واقتفى أثر الذرات إلى فينيقي، اتَّضح أنَّه موسى! أمَّا أبيقور؛ فقد كان منتحلًا. وقد شوَّه ميتافيزيقيا العهد القديم وجعلها مقدِّمةً للإلحاد، ويجب على المسيحيين أن يستعيدوا ملكية المذهب الذري!

قاد الفلاسفة الطبيعيون البريطانيون المنظر والتر شارلتون Walter Charleton (1619 - 1707)). ففي حين تصور أبيقور الذرات على أنَّها دوَّامة بلا هدفٍ من الذرات تتجمَّع مصادفة في طيور ونحل؛ رأى تشارلتون أنَّ تعقيد الأشياء دليلٌ إضافيٌّ على الحجَّة من التصميم. فمن غير الإله يستطيع توجيه الذرات المتعدِّدة إلى كائناتٍ

حيَّةٍ تعمل بشكل رائع؟

في الجانب التجريبي، كان روبرت بويل (Robert Boyle 1627 - 1691) هو القائد، ففضلًا عن إجراء تجاربه الخاصَّة، دعم بويل التطوُّرات التقنية لروبرت هوك Robert Hooke باستعمال مضخَّة التفريغ.

الذهن الغائب

هناك الكثير من الحكايات حول انغماس إسحاق نيوتن Isaac Newton في عمله، فقد رصدته خادمته في مطبخه وهو يحمل بيضةً ويغلي ساعته. ويقول ابن اخته: "في بعض الأوقات نادرًا حينما كان يعتزم تناول العشاء في القاعة، كان يستدير إلى يده اليسرى [بدلًا من السير بشكل مستقيم]، ويخرج إلى الشارع، حيث يتوقَّف، وحينما يجد خطأه سيعود على عجلٍ إلى الوراء، ثمَّ في بعض الأحيان بدلًا من الذهاب إلى القاعة يعود إلى غرفته مرَّةً أخرى" (Brewster 1855, 96).

تتحدَّث مذكرات توماس مور Thomas Moore عن: "حكاية لنيوتن، تُظهر غيابه الشديد، حيث دعا صديق إلى العشاء ونساه، فوصل الصديق، ووجد الفيلسوف في نوبةٍ من التجريد، العشاء أُعدَّ لفردٍ واحدٍ، فجلس الصديق (دون إزعاج نيوتن) وتناوله، ونيوتن، بعد الاستفاقة من حلمه، نظر إلى الأطباق الفارغة وقال: "حسنًا، إذا لم يكن الدليل أمام عيني كان بإمكاني أن أقسم أنَّني لم أتناول العشاء بعد" (Moore et. al. 1983, vol. 3, 1104).

بصفتي من محبّي الغياب فإنَّ الحكايةَ المفضَّلة لديَّ هي عن حفرة نيوتن الصغيرة، فقطَّته لديها بالفعل ثقبٌ في الباب يمكن أن تمرَّ من خلاله، وبعد ولادة القطة عمل نيوتن حفرةً أصغر للقطط الصغيرة.

كان شرود الذهن لدى نيوتن أحد الآثار الجانبية لذهنه الفريد، فحينما تحوَّل انتباهه إلى جني الأموال - بصفته سيد دار سك العملة الملكية - كان يكسب حرفيًّا

أموالًا أفضل. واقترن نجاح نيوتن في إعادة سكِّ العملة عام 1690 بمقاضاة متحمسة للمزورين. ولزيادة كمية هذه الأموال ذات الجودة الأفضل أصبح سيد دار سك العملة مستثمرًا مضاربًا. وما يهمُّ هو السعر الذي سيكون المستثمرون اللاحقون على استعداد لدفعه مقابل الأصل، وليس القيمة الموضوعية. وما دام كان هناك أحمق أكبر على استعدادٍ لدفع سعر أعلى فإنَّ الأصل المفرط في السعر بشكلٍ موضوعيٍ كان استثمارًا مربحًا. فقط لا تكن آخر أحمق! هذا السوق من التوقُّعات المتكررة جعل نيوتن ثريًّا جدًّا، وظلَّ ثريًّا حتى بعد أن فقد ثروةً في فقاعة بحر الجنوب[1] South Sea Bubble عام 1720. ويُقال على نطاق واسع عن نيوتن إنَّه استنتج للأسف أنَّه "يمكنه حساب حركات الأجرام السماوية، ولكن ليس جنون الناس" (Odlyzko 2018, 29).

زيادة حصَّة المكان الفارغ

بينما كان نيوتن (1642 - 1727) طالبًا في جامعة كامبريدج، احتفظ بدفتر ملاحظات "فلسفي" ويُظهر أنَّه تعرَّض لأول مرة للذرية الأبيقورية نحو عام 1664 من خلال والتر تشارلتون Walter Charleton في 1654 فيزيولوجيا إبيقورو جاسيندوس وتشارلتون: نسج العلوم الطبيعية بناءً على فرضية الذرات التي أسَّسها إبيقور، وأصلحها بيتروس جاسيندوس، وزادها والتر تشارلتون. فبعد باعث الجيل الأول بيير جاسندي Pierre Gassendi، أعطى نيوتن الإله الأولوية على الذرات، ففي البداية هناك مكانٌ فارغٌ لا نهائي له ماضٍ لا نهائي. ثمَّ منذ نحو ستة آلاف سنة خلق الإله الذرَّات ووجَّه حركاتها من أجل غاياته. وبدلًا من التفاعل بطريقة ميكانيكية بحتة - بحكم الأشكال والأحجام - يقدِّم نيوتن قوى، إذ تعمل بقايا الخيمياء هذه بين الذرات بطريقة متماثلة. وبالنظر إلى

(1) أزمة اقتصاديَّة حدثت لشركة بحر الجنوب البريطانية، حيث شرع قانون يحظر تكوين شركات مساهمة دون ميثاق ملكي، فدمر انهيار أسعار الأسهم الكثير من المستثمرين، ونتيجة لذلك تراجع الاقتصاد الوطني بشكل كبير. (المُترجم)

هذا التناظر وغياب التفاعلات الميكانيكية يميل نيوتن إلى افتراض أنَّ الذرات هي كرات موحَّدة.

فضلًا عن القوى المحلية، يضيف نيوتن بخجلٍ القوَّة الخيميائية الشاملة للجاذبية. ولاحقًا، فإنَّ المنظرين الذين أضفوا الطابع المادي على الذرَّة من خلال جعل القوى تقوم بالمزيد والمزيد من العمل المخصَّص سابقًا للسمات الميكانيكية للذرات.

طالما رحَّب الذريون بالحجج التي تزيد من نسبة المكان الفارغ إلى المادة. في البصريات Optics، يسهم نيوتن في حجَّة هرمية. تاريخيًّا، تم الكشف عن وحدات المادة على مراحل مع تحسُّن قدرتنا على الانقسام. وفي كلِّ مرحلةٍ من هذه المراحل تبيَّن أنَّ ما يبدو صلبًا كان مساميًّا. وفي النهاية، يجب أن تكون هناك مرحلةٌ نهائيةٌ تكون فيها جميع الجسيمات بلا مسامٍ حقًّا. ولكن إذا كانت هناك n مراحل وسيطة فإنَّ مقدار المكان الفارغ قد زاد بمقدار n أضعاف، وهو معدَّل نموّ أسي. لذلك؛ فإنَّ الأشياء المألوفة من حولنا هي في الغالب مكان فارغ.

تم تبرير منطق نيوتن، فإذا تم مسح كلِّ المواد التي يتكوَّن منها جسمك معًا فستكون بقعة. وقد يتعجَّب الآخرون من أنَّك في الغالب ماء، ويتعجَّب نيوتن من أنَّ الماء هو في الغالب مكان فارغ.

أوليَّة المكان

يأخذ رينيه ديكارت René Descartes الامتداد ليكون جوهر الأجساد، ومن ثَمَّ يمنع الفراغات بحكم التعريف. ويرى نيوتن في كتابه "الجاذبية" De Gravitatione أنَّ عدم القابلية للاختراق أمرٌ بالغ الأهمية لمفهوم الجسد.

يؤكِّد نيوتن ذلك بوصفة إلهية، ففي حالة وجود أيِّ جسد يمكن أن يخلق الإله نسخةً مكرَّرةً تتكوَّن من مناطق تتمتَّع بخصائص خاصة. ولعمل "باب"، يحدِّد الإله بعض حجم الباب، ثمَّ يمنح هذه المنطقة خاصية عدم القابلية للاختراق (نوع من

القوَّة البغيضة). ولا يمكنك أن تمشي من خلال "الباب"، و"الباب" لا يمكن اختراقه من الضوء، وهكذا يمكنك رؤيته بحكم الضوء الذي يعكسه، و"الباب" أيضًا لا يمكن اختراقه من الصوت. لذا؛ يمكنك سماعه بفضل الصوت الذي يعكسه، وأخيرًا "الباب" متحرِّك، فيمكنه السفر عبر المكان مثل الموجة. وترث المناطق المجاورة عدم قابلية الباب للاختراق بطريقة قانونية (على وجه التحديد قوانين نيوتن للحركة)، فـ"الباب" ظل صلب. افتح "الباب"، قل لي ما العجائب التي تراها. قد يأخذ المرء هذا "الباب" كشبح، المدخل مفتوح على الرغم من حقيقة أنَّه شيء يشبه الباب، ويبدو وكأنَّه باب ويمنعك مثل الباب، أو قد يزيل المرء اقتباسات التخويف ويستنتج أنَّ الباب ليس سوى مناطق من المكان مليئة بالخصائص.

ألوهية المكان

بالنسبة إلى نيوتن، المكان هو حجر الأساس للواقع. ويجب أن يكون أيُّ شيء حقيقي، إمَّا مكان أو أن يكون مرتبطًا بالمكان. وكتب نيوتن في أطروحته غير المنشورة، الجاذبية، ما يلي:

المكان هو تعلُّق للكائن فقط بوصفه كائنًا. لا يوجد كائنٌ أو يمكن أن يوجد لا علاقة له بالمكان بطريقة ما. فالإله في كلِّ مكان، والعقول المخلوقة في مكان ما، والجسد في المكان الذي يشغله، وكلُّ ما هو ليس في كلِّ مكان ولا في أيِّ مكان لا وجود له. ومن ثَمَّ فإنَّ ذلك يترتَّب على أنَّ المكان هو تأثير انبعاث للكائن الموجود الأول؛ لأنَّه إذا تم طرح أيِّ كائنٍ على الإطلاق فسيتم وضع المكان إذا لم يكن هناك مكان على الإطلاق، فلن يكون الإله في ذلك الوقت في أيِّ مكان. (2004، 25).

بما إنَّ الإله حقيقي يجب أن يرتبط بالمكان. ولا يمكن أن يكون الإله خارج المكان؛ لأنَّه كلي الوجود. ولا يمكن أن يكون في المكان؛ لأنَّ المكان سيحدُّه. لذلك؛ يجب أن يكون المكان أثرًا انبعاثيًّا للإله.

وبشكل أكثر تحديدًا، المكان هو ضخامة الإله تمامًا، كما أن الوقت هو خلود الإله. وهل هذا يعني أنَّ الإله له أجزاء؟ هذا من شأنه أن يهدِّد وحدة الإله وبساطته.

الأشياء ذات الأجزاء قابلة للقسمة، لكن أجزاء المكان موحَّدة بحيث لا يمكن فصلها عن بعضها الآخر. ويرتبط كلُّ جزءٍ من الفراغ بالأماكن المتبقية حيث ترتبط الأرقام بأرقامٍ أخرى على خطِّ الأعداد.

المكان هو أيضًا حسيَّة الإله، جهاز حسي يعرف الإله من خلاله كلَّ شيء. وبما إنَّ كلَّ شيء موجود في المكان فإنَّ الإله يدركه على الفور. والإله "الذي نعيش ونتحرَّك ونوجد فيه" (أعمال الرسل 17:28) يعرف الجميع وكلَّ شيء بمعنى التعرُّف المباشر عليه. وإذا كان لدى زوجتك توأم متطابق لم تقابله من قبل فأنتَ تعرف جسد زوجتك "بالمعنى الكتابي" المباشر بينما تعرف جسد توأمها بشكل غير مباشر فقط، والإله يعرفنا جميعًا بشكل مباشر بالمعنى الكتابي.

ربما يكون إسحاق نيوتن قد تأثَّر بنظريَّة صديقه في الخاصيَّة. فبحسب جون لوك John Locke، يمكنك امتلاك الأشياء من طريق مزج عملك معها. فحينما تحوِّل عودًا إلى عصا تصبح العصا ملكك، وحينما تصطاد حمارًا بريًّا وتروِّضه فإنَّ الأسر والترويض يحوِّلان المخلوق إلى حمارك. وبالمثل، تصبح ساقك اليمنى ساقك من طريق خلط الأحاسيس معها. ويُحسِّن إسقاط الساق الوهمية في الطرف الاصطناعي من قدرتك على التجوُّل بها، وتصبح "الساق" جزءًا من جسمك. وإذا تمكَّنت من التحكُّم في الذراع المتَّصلة بكتفي بالطريقة نفسها فستكون تلك الذراع جزءًا من جسمك، وليست منّي، وإذا لمست تلك الأصابع أذني فسأعترض بحقّ على لمسك غير المناسب.

عرف نيوتن أنَّ جون لوك حلَّل الهُويَّة الشخصيَّة على أنَّها استمرارية للوعي، فإذا كان وعي الأمير يسيطر على جسد الإسكافي فإنَّ ذلك الجسد يصبح بدلةً كاملةً لجسد الأمير، والشيء نفسه ينطبق على الإسكافي. ويمكن للزوجين تبديل الأجساد بالطريقة نفسها التي يمكن بها لمزارعين تبديل المراعي.

تحت هذا الحساب المثير لملكية الجسد فإنَّ حسَّاسية الإله المنتشرة في كلِّ مكانٍ تجعل كلَّ المكان جسده، وهذه الحساسية اللمسية تجعل جسد الإله مختلفًا عن حيوان أفلاطون المثالي، ففي تيماوس يصف أفلاطون العالم بأنَّه كائنٌ حيٌّ (دائري مثل السمكة المنتفخة ولكن بسطح أملس تمامًا). والكائنات الموجودة في هذا الحيوان المثالي لها أعضاء حسية؛ لأنَّها تحتاج إلى التعرُّف على بيئتها، لكنَّ الحيوان المثالي شامل للجميع. ونظرًا لعدم وجود بيئة ليست هناك حاجة للأعضاء للإحساس (أو التزاوج أو الإخراج)، فالأعضاء الزائدة عن الحاجة ستكون اضطرابًا، والحيوان المثالي خالٍ من الاضطرابات، الحيوان المثالي يفكِّرُ ولا يدرك.

قد يعترض نيوتن على أنَّ الحواس لا تقتصر على استشعار ما هو في الخارج، فحينما تدور تشعر بقوَّة الجاذبية. ونظرًا لأنَّ الحيوان المثالي لأفلاطون هو كرة دوَّارة فقد يكون لديه إحساسٌ بالتوازن يكتشف معدَّل دورانه. وحينما تنقبض عضلاتك تشعر بهذا التغيير الداخلي. ويحتوي حيوان أفلاطون على الكثير من الأجزاء الداخلية التي يمكن مراقبتها من الناحية الحركية.

بما إنَّ الإله كائن ضروري يجب أن يكون المكان أيضًا كائنًا ضروريًّا. ومع ذلك، لا يزال المكان يعتمد على الإله. تأمَّل علاقة الإله بمجموعته الفردية: {الإله}. فعلى الرغم من أنَّ هذه المجموعة موجودة بالضرورة، فإنَّ الإله هو الكيان الأساسي، تمامًا كما تعتمد {الشمس} على الشمس وليس العكس.

ازدواجية نيوتن

هل المكان مادَّة أم خاصيَّة؟ يعتقد نيوتن أنَّ أيًّا من الجوابين مناسب تمامًا، على الرغم من أنَّ المكان يقترب من التأهل بوصفه مادةً أكثر من كونه خاصية.

يجب أن تكون المادَّة قادرة على التأثير في أيَّة مادة. والمكان لا يسبِّب أيَّ شيء، ولا يمكن أن يفسر مجرّد الاختلاف في الموقع المكاني أيَّ اختلاف بين كائنين، فنحن

نتحدَّث عن الجبال التي تتآكل مع مرور الوقت. ولكن عند الضغط علينا نقل المسؤولية إلى العمليَّات التي تعمل في الوقت المناسب، ولا يمكن للوقت نفسه أن يضعف جبلًا، أو يفعل أيَّ شيء.

لا يمكن أن يكون المكان خاصية؛ لأنَّ الخصائص تعتمد على المواد، لكنَّ المكان الفارغ ممكن.

ومع ذلك، يضيف نيوتن بحذرٍ: "لا يمكن أن يقال عن [المكان] أنَّه العَدَم؛ لأنَّه شيء أكثر من مجرَّد حادث، ويقترب أكثر من طبيعة المادة" (2004، 22).

في البداية، كان مكان إسحاق نيوتن فارغًا بشكل مهيب، وهذا يُفرح اللاهوتيين. تذكروا استعارة أوغسطين عن العالم المادي كونه إسفنجًا في البحر. واتفق نيوتن مع اللاهوتيين على أنَّ المكان لا يفي بالمعيار الإيلي Eleatic للواقع: القوَّة السببية، لذا فإنَّ المكان ليس حالةً واضحةً لمادة ما، والمكان بالتأكيد ليس خاصيةً، إذ تعتمد جميع الخصائص على المواد، والمكان موجود قبل وجود أيَّة كائنات، لكنَّ نيوتن يرفض استنتاج أنَّ المكان عَدَم. ففي النهاية، أحبط نيوتن اللاهوتيين بملء الفراغ بالأثير (للتعويض عن الخمول السببي للمكان). وكان نيوتن متردِّدًا بشأن الإضافة، كان يخشى أن يؤدِّي الاحتكاك مع الأثير إلى إبطاء مدار الكواكب، مِمَّا يؤدِّي في النهاية إلى توقُّف كلِّ شيء.

18. لايبنيز: غياب التناقض

يرفض جوتفريد لايبنيز(Gottfried Leibniz (1646 - 1716 انبعاث الفراغ المسيحي. الإله نقيض العدم، فالوجود يجري من الإله كالماء من ينبوع، فيملأ الماء الحوض ويملأ الكون.

ممكن ∴ فعلي

الإله يجذب نفسه إلى الوجود عبر طبيعته (شكل 18.1)

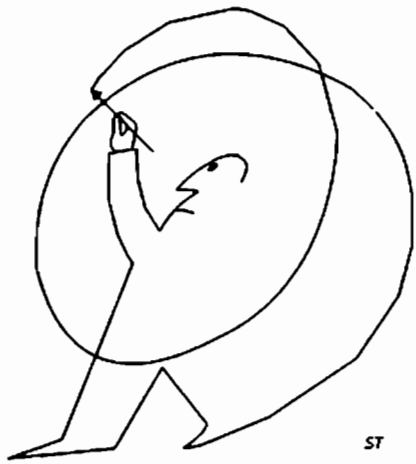

الشكل 18.1 خلق الذات لشاول شتاينبرغ Saul Steinberg.

لمعرفة كيف، فكر في تعريف سينيكا Seneca لـ "الإله": الذي لا شيء أعظم يمكن التفكير فيه that which nothing greater can be thought. كانت وحدة قياس سينيكا هي المقدار المادي. ويلاحظ القدِّيس أنسيلم Anselm أنَّ مقياس العظمة الأساسي هو الخير. وعليه، فإنَّ الإله هو أفضل كائن يمكن تصوره. ويجيب هذا التعريف بأناقة عن التعليم المسيحي عن طبيعة الإله: ما الذي يعرفه أفضل كائن يمكن تصوره؟ كل شيء. ما مدى قوة الكائن المثالي؟ قوة كلية. كيف هو؟ كامل. بعد تحديد طبيعة الإله بإيجاز

يُطبِّق أنسيلم تعريف سينيكا على مسألة وجود الإله. أيُّهما سيكون الكائن الأعظم، الموجود أم الذي لا يوجد؟ كونه يتفوَّق على اللاموجود! يخلص أنسيلم إلى أنَّه يجب علينا التفكير في أعظم كائن يمكن تصوُّره على أنَّه موجود.

جوتفريد لايبنيز متفائلٌ بشأن إثبات وجود الإله: "تقريبًا جميع الأساليب التي تمَّ استعمالها لإثبات وجود الإله سليمة، ويمكن أن تخدم الغرض إذا تم إكمالها" (1996، 9). ويواصل ملء الفجوات في براهين رادم فجوة الألوهية Divine Gap - Filler.

مفتاح عدم اكتمال الحجَّة الأنطولوجية هو غياب دليل التعريف المتسق. ويمكن توضيح الحاجة إلى مثل هذا الدليل من خلال "إثبات" أوسكار بيرون Oskar Perron أنَّ الرقم 1 هو أكبر عدد طبيعي. فأولًا، حدِّد N على أنَّه أكبر عدد طبيعي، ولا يمكن أن يكون N2 أكبر من N لأنَّ N عُرِّفَ على أنَّه أكبر رقم. لذلك؛ N2 - N = N (N - 1) ليست موجبة. لذلك؛ 1 - N ليست موجبة. وبحسب ذلك، لا يمكن لـ N أن يتجاوز 1، ولكن N يساوي 1 على الأقل. ويتبع ذلك أنَّ N = 1 . ونظرًا لأنَّ N عُرِّفَ على أنَّه أكبر رقم فإنَّ 1 هو أكبر رقم. وإثبات بيرون صادق، المبنى يستلزم الاستنتاج، لكنَّ الدليل له مقدِّمة خاطئة؛ لأنَّ "أكبر عدد طبيعي" هو وصف غير متسق. إذ يتطلب مفهوم العدد الطبيعي أن يكون لكل رقم خلف. وكل خطوة من خطوات خصم بيرون صادقة. ومع ذلك، فإنَّ الدليل كلَّه تافه، فنحن فقط نستخلص النتائج من التناقض، وأيُّ شيء يأتي من التناقض، لذا فإنَّ القلق هو أنَّ الحجَّة الأنطولوجية تشترك في صدق تافه: الإله ليس الإله؛ لذلك الإله موجود.

إنَّ إثبات الإمكانية في الرياضيات هو نتيجة أقوى بكثير من إثبات الإمكانية في الفيزياء، لأنَّه في الرياضيات لا يوجد فرقٌ بين إثبات أنَّ شيئًا ما ممكن وإثبات أنَّه حقيقي، فإذا كان من الممكن أن يكون هناك رقم فردي تام فهناك مثل هذا الرقم، وإذا كان هذا الرقم موجودًا بالفعل فهو موجود بالضرورة. (في الرياضيات، تتلاقى الإمكانية والواقعية والضرورة: كلُّ ما هو ممكن يكون فعليًّا، وأيُّ شيء فعلي ضروري، لذا فإنَّ كلَّ

ما هو ممكن ضروري).

الرقم التام هو أيّ رقم يساوي مجموع قواسمه الصحيحة: 6 هو أول رقم مثالي لأنَّ 1 + 2 + 3 = 6. الرقم المثالي الثاني هو 28 = 1 + 2 + 4 + 7 + 14. وفي الرسالة 1638 من رينيه ديكارت إلى مارين ميرسين Marin Mersenne، يخمن ديكارت أنَّه يمكن توليد كلِّ الأرقام التامَّة من الصيغة التي قدَّمها إقليدس Euclid. ثمَّ أضاف ديكارت أنَّه لا يعرف أيَّ شيء يمنع وجود عدد تام فردي، فإذا لم يكن هناك أيُّ شيء يوقفه فهل يجب أن نتوقَّع رقمًا تامًّا فرديًّا في مكان ما على طول التسلسل اللانهائي للأرقام؟

لا يزال علماء الرياضيات لا يعرفون ما إذا كانت هناك أيَّة أعداد تامة فردية. يعرفون أنَّ أيَّ رقم يجب أن يكون أكبر من 101500. ويجب أن يتجاوز أكبر عامل أولي له 108. وهم يعرفون أنَّ أيَّ عددٍ تام فردي يجب أن يكون عددًا يقبل القسمة على 15. وقد أعطت قرون من التنميط لعلماء الرياضيات معرفة مشروطة كثيرة عن الأعداد التامة الفردية.

قرون من اللاهوت فعلت الشيء نفسه مع الإله، وهذا يفسِّر سبب مجاهدة لايبنتز لإثبات أنَّ تعريف "الإله" لا يحمل أيَّ تناقض خفي. ونظرًا لأنَّ لايبنيز اعتقد أنَّ إثبات الاتساق قد نجح فقد انتقل إلى المرحلة التالية من الميتافيزيقيا.

لماذا هناك شيء بدلًا من العَدَم؟

الرقم 1 لا يمكن أن يوجد بمعزل عن غيره، فلكي يكون عددًا طبيعيًّا يجب أن يكون للعدد رقم خلف. ونظرًا لأنَّ أيَّ خلف لأيِّ رقم هو في حدِّ ذاته رقم، يجب أن يكون هناك عدد لا نهائي من الأرقام.

لن يكون الإله المنفرد عظيمًا مثل الإله الذي جلب أشياء أخرى إلى الوجود. ومن الأفضل أن تأتي بالأفضل، على الأرجح إله آخر.

ومع ذلك، فإنَّ هذا المسار الإبداعي من التوحيد إلى الشرك يعيقه زوج من المبادئ المنطقية. أولًا، ينصُّ قانون التناقض على أنَّه لا يمكن أن يوجد أيُّ شيء ينطوي على

تناقض. فإذا كان هناك كائنان بقدرة كلية يمكن أن يكون أحدهما ثابتًا بينما الآخر لا يمكنه المقاومة. ولكن هذا من شأنه أن يؤدِّي إلى تناقضٍ بين الثابت المتحرك وغير المتحرك. فالكائن الثابت ممكن والقوَّة غير القابلة للمقاومة ممكنة، لكنهما غير ممكنين معًا، فيجب أن يكون أي خلق مطابقًا لبقية ما هو موجود.

ثانيًا، يحظر مبدأ السبب الكافي sufficient reason ازدواجية الآلهة (أو أي شيء آخر)، فإذا كان هناك كائنان كاملين فلن يكون هناك سببٌ لتمييز إله واحد عن الآخر، ويجب أن يكون هناك سبب كافٍ لكلِّ حقيقة.

قد أحاول شرح محتويات كتاب الهندسة بحقيقة أنَّه نسخة من كتاب هندسة سابق، وأشرح الكتاب السابق بأنَّه نسخة من كتاب سابق، فالأسباب غير الكافية ليست كافية، حتى حينما يكون هناك عدد لا نهائي منها.

يمتدُّ مبدأ السبب الكافي إلى الحقائق حول ما هو غير موجود، فإذا لم يكن هناك وحيد القرن الأسطوري unicorn فيجب أن يكون هناك سبب لغيابه. ونظرًا لعدم وجود مثل هذا السبب توقَّع لايبنيز وجوده (والكائنات المجهرية أحادية القطب). وبالطبع، الدليل الإيجابي أقوى من مجرَّد افتراض وجود، وكان لدى لايبنيز: أفاد العمدة أوتو فون جويريك أنَّه تم شراء عظام وحيد القرن الأسطوري بالقرب من مدينته ماغديبورغ. وفي عام 1686، تتبع لايبنيز منطقة وحيد القرن الأسطوري إلى كهف في جبال هارتس (يطلق عليها الآن منظِّمو الرحلات السياحية "كهف يونيكورن"). وأعادَ بناء الحفريات على أساس بقايا الهياكل العظمية (شكل 18.2).

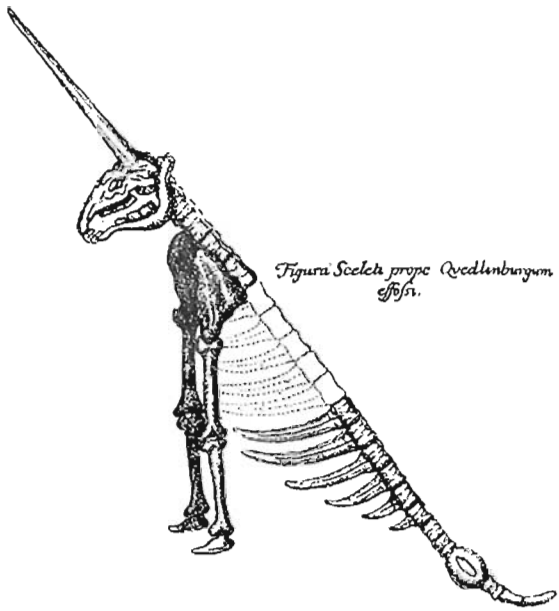

الشكل 18.2 إعادة البناء الأحفوري للايبنيز لحيوان وحيد القرن الأسطوري في بروتاجيا.

ربَّما يعيد لايبنيز أيضًا بناء حكاية. وبحسب ديوجين لايرتيوس Diogenes Laertius، عرَّف أفلاطون الإنسان على أنَّه ذو قدمين بلا ريشٍ. فنتف ديوجين دجاجة وأحضرها إلى أكاديمية أفلاطون: "انظروا! لقد أحضرت لكم إنسانًا!" نالت روح الدعابة لدى لايبنيز مجاملة من دوقة أورليانز: "من النادر جدًّا أن يرتدي المثقَّفون ملابس أنيقة وألَّا يشموا ويفهموا النكات". كان لايبنيز سيسعد حينما علم أنَّ القدمين الأصلية الخالية من الريش في كهف وحيد القرن الأسطوري كانت من إنسان نياندرتال الذي وصل قبل الإنسان العاقل: "العظم المنقوش الذي يبلغ عمره 51 ألف عام يكشف عن قدرة الإنسان البدائي على السلوك الرمزي" (Leder et. al. 2021).

على الرغم من أنَّ العقلانيين السابقين لديهم شعارات تبدو وكأنَّها مبدأ السبب الكافي، فإنَّهم عادةً ما يحدون من نطاق التفسير. وفي تيماوس أفلاطون، "كلُّ ما يأتي

يجب أن يكون بالضرورة بواسطة قدرة سبب ما؛ لأنَّه من المستحيل أن يكون أيُّ شيء بلا سبب" (5 - 28a4). ولكن في قصَّة الخلق عند أفلاطون نكتشف أنَّ هناك أشياء ليست من بين الأشياء التي "تتحقَّق". إذ تفرض القوَّة الخلَّاقة النظام على الفوضى الموجودة مسبقًا، وهذا الاضطراب غير مسبب، وهذا النوع من البداية الوحشيَّة مفترض مسبقًا في جميع قصص الخلق تقريبًا.

بالنظر إلى أنَّ كلَّ شيء له سبب يجب أن يكون هناك سبب لكلِّ شيء. ولأنَّ اقتران كلِّ الحقائق هو بحدِّ ذاته حقيقة، فيجب أن يكون هناك سبب لوجود العالم الفعلي بدلًا من عالم آخر ممكن، والمرشَّح الوحيد لمثل هذا التفسير الكامل هو الإله. لذا؛ فإنَّ مبدأ السبب الكافي يوفِّر دليلًا منطقيًّا آخر على وجود الإله.

لمعرفة طبيعة العالم الحقيقي، نحتاج إلى فهم أساس اتخاذ القرارات عند الإله. وبما إنَّ الإله يتصرَّف دائمًا بطريقة مبدئية فلدينا دليلٌ قويٌّ حول ما يمكن أن يبنيه الإله. فثلما قانون التناقض يمنع الإله من تكوين كرة مكعَّبة فإنَّ مبدأ السبب الكافي يمنع الإله من تكوين مجال منفرد. ولن يكون هناك سبب آخر لجعل هذا المجال بحجم واحد بدلًا من حجم آخر. (على النقيض من ذلك، يمكن للإله أن يربط النقطة أ بالنقطة ب بخطٍّ؛ هناك حلٌّ فعَّال جدًّا: ارسم خطًّا مستقيمًا بين أ وب).

نستخدم باستمرار مبدأ السبب الكافي في استنتاجاتنا، ضع بحسبانك منطق أرخميدس Archimedes: يجب أن يكون الميزان ذو الأوزان المتساوية متوازنًا؛ لأنَّه لا يوجد سبب آخر يدفع أحد الأطراف إلى الصعود بدلًا من الآخر.

إذا كان هناك توأمان متماثلان فلن يكون لدى الإله سبب آخر لوضع أحد التوأمين على اليسار بدلًا من يمين التوأم الآخر، وسيكون هذا التعسُّف غير متوافق مع ألوهية الإله، ومن ثَمَّ يجب أن تختلف الأشياء المتميزة في خصائصها الجوهرية. وبشكلٍ أكثر إيجابية، إذا كان لكلٍّ من x و y الخصائص نفسها، فإنَّ x = y ، وهذا هو مبدأ لايبنيز عن الهُويَّة غير القابلة للتمايز indiscernibles.

يشكو لايبنيز من أنَّ التجريبية أُقيمت على انتهاك للمبدأ، فبحسب مؤسِّس التجريبية، جون لوك، نبدأ بوصفنا عقولًا فارغةً، وبهذا المعنى كلُّ البشر خُلقوا متساوين: 0 = 0 = 0. لكن الطبيعة المتدهورة لهذه المساواة تتجلَّى من خلال مبدأ غير القابل للتمايز، فإذا لم يكن هناك اختلاف في العقول فهناك عقل واحد فقط.

يجب على كلِّ شخص أن يبدأ بالأفكار، فضلًا عن ذلك، يجب أن تكون مجموعة الأفكار الفطرية فريدةً لهذا الفرد، وأن تكون هو أن تفكر، والتفكير هو التفكير بشكل مختلف.

تمامًا كما إنَّه من الجيِّد للخالق زيادة عدد الموادِّ إلى الحدِّ الأقصى، فمن الجيِّد أيضًا زيادة عدد الخصائص التي تم خلق مثيل لها. ونظرًا لأنَّه لا يمكن خلق مثيل للخصائص إلا بواسطة الموادِّ فإنَّ تعظيم المواد يعزِّز تعظيم الخصائص.

الكمال هو الانسجام، فالانسجام هو الوحدة داخل التنوُّع. لذلك؛ يحتوي العالم الفعلي على أغنى الظواهر التي تحكمها أبسط القوانين، ويجب أن يتم تنسيق خلق كلِّ كائن مع خلق كلِّ كائن آخر. وإذا كانت هناك رابطة لأقصى مزيجٍ من البساطة والتنوُّع فلن يكون الإله قد خلق أيَّ عالم. ونظرًا لوجود عالم فهناك مجموعةٌ من القوانين التي تنتج أكثر الظواهر ثراءً بكفاءة.

من منظور الإله، يمتلك العالم كمال خطِّ الأعداد، وبما إنَّ الإله لا يستطيع عمل نسخ مكرَّرة فإنَّه سيصنع ثاني أفضل واحد، وثلث أفضل واحد ... لا يمكن أن تكون هناك فجوات في سلسلة الوجود، فكلُّ رابط هو في الأساس وريث لسابقه.

تأكيد المسيحية من الصين

كان لايبنيز من بين أوَّل من طوَّر التدوين الثنائي، وهو أبسط نظام، إذ لا يتطلَّب سوى ازدواجية رمزين. وفي عام 1701، أرسل المبشِّر اليسوعي يواكيم بوفيت Joachim Bouvet رسمًا تخطيطيًّا يشير إلى أنَّ الصينيين القدماء استعملوا تدوينًا ثنائيًّا (شكل 18.3).

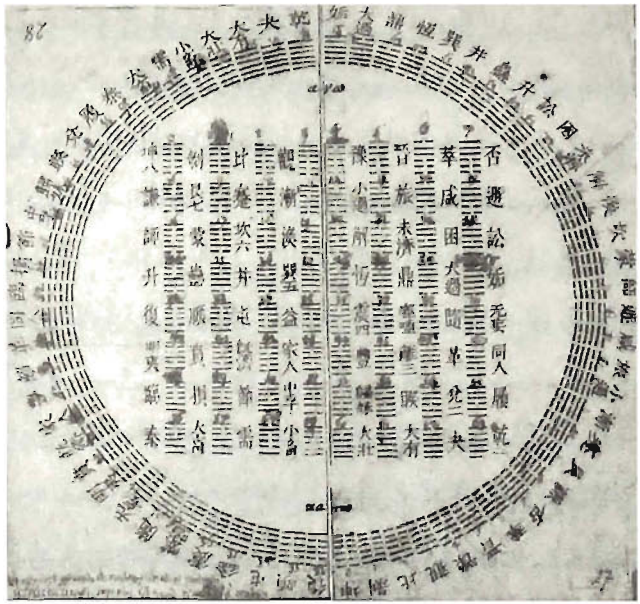

الشكل 18.3 رسم تخطيطي أرسله بوفيت Bouvet إلى لايبنيز.

تتوافق الأشكال السداسية من كتاب التغييرات Book of Changes مع التدوين الثنائي (شكل 18.4)

000	0	
001	1	1
010	10	
011	11	3
100	100	4
101	101	
110	110	
111	111	

الشكل 18.4 شكل كوفا Cova الثماني.

نظرًا لعدم العثور على أي سجلَّات للحساب الثنائي، خلص لايبنيز إلى أنَّ "الصينيين فقدوا معنى كوفا أو تشكيلة الخطوط الثُمانية، ربَّما منذ أكثر من ألف عام، وقد كتبوا تعليقات على الموضوع الذي سعوا فيه، ولا أعرف ما هي المعاني البعيدة، حتى إنَّ تفسيرهم الحقيقي الآن يجب أن يأتي من الأوروبيين" ([1703] 1859، 223). وأخذ لايبنيز اكتشافه ليوضِّح التكامل بين أوروبا والصين، إذ كان الصينيون أكثر حكمةً في الأمور العملية، وقد نشأت جميع الاختراعات تقريبًا في الصين، وبفضل هندستها الاجتماعية كانت الصين أكثر سلامًا وانسجامًا من أوروبا (التي عانت للتوِ من حرب الثلاثين عامًا)، وكان الصينيون أيضًا بارزين في المجالات التطبيقية مثل الجغرافيا وعلم الفلك الرصدي. وعلى الرغم من هذا التفوُّق في التفكير العملي كان الصينيون أقلَّ شأنًا في فنون التأمُّل والتفكير النظري (الهندسة المجرَّدة لإقليدس، والفيزياء، والميتافيزيقا). وقد تراجعت الحضارة الصينية من العصر الذهبي كما أخبر عنهم بشكل أفضل الأنبياء التوراتيون، مثل "الملك والفيلسوف القديم المسمَّى فوكسي Fuxi، الذي يعتقد أنَّه عاش قبل أكثر من 4000 عام، والذي يعدُّه الصينيون المؤسِّس لإمبراطوريَّتهم وعلومهم". (فوكسي هو في الواقع شخصيَّة أسطوريَّة، قيل إنَّه عاش في الألفية الثالثة قبل الميلاد).

يمكن للمبشِّرين المسيحيين المساعدة في حلِّ رموز الحقائق الأصلية لكونفوشيوس Confucius، إذ لم يحاول المبشِّرون اليسوعيون تحويل الصينيين؛ كان اليسوعيون يساعدونهم على استعادة معتقداتهم الحقيقية.

أحد الدوافع وراء هذا الموضوع الإصلاحي هو خوف لايبنيز من أن يطرد إمبراطور الصين اليسوعيين، تمامًا كما استبعد إمبراطور اليابان اليسوعيين بعد عام 1596. وقد رحَّب اليابانيون في البداية باليسوعيين الإسبان لتبادل الأفكار، وسُمح للإسبان بالتبشير، لكن بعد ذلك تباهى قبطان بحري إسباني بأنَّ مواطنه غزا الأجانب بتحويلهم أولًا. وعالج مرسوم الاستبعاد الياباني لعام 1639 هذا التهديد بدين مسلَّح، وتم حظر المسيحية، وتقييد التعامل مع الأجانب بشدَّة. ونظرًا للانعكاس الياباني، لم يرغب

اليسوعيون في الصين في أن يُنظر إليهم على أنَّهم طليعة الغزو الأوروبي، وقد جادلوا بأنَّ الكونفوشيوسية متوافقة مع المسيحية. مثلًا: ما يبدو أنَّه عبادة الأسلاف هو مجرَّد طقس اجتماعي لا يحتوي على المزيد من المحتوى الديني، بخلاف ما هو موجود في وصية العهد القديم "أكرم أباك وأمَّك".

افتتح هذا تقليدًا من أوجه التشابه بين الشرق والغرب، في كتابه طاويَّة الفيزياءThe Tao of Physics، يتعامل فريتجوف كابرا Fritjof Capra مع أوجه التشابه بين الدين الشرقي وميكانيكا الكم الغربية على أنَّها مؤيدة بشكل متبادل، فالشرق القديم والغرب الحديث هما شاهدان مستقلَّان يمكن تفسير استجابتهما بشكلٍ أفضل من خلال إدراكهما لواقع مشترك (بالطريقة التي يقدم بها المستعر الأعظم supernova في درب التبانة 1572 أفضل تفسير للتقارير المتزامنة عن "نجم جديد" لتايكو براهي Tycho Brahe وفلكيو سلالة مينج Ming).

على عكس كابرا، يفترض لايبنيز أصلًا مشتركًا للشهود. والكونفوشيوسية تشبه المسيحية؛ لأنَّ سلسلة شهاداتهم تتبع المصدر نفسه. وكلُّ البشر ينحدرون من آدم. لذلك؛ لديهم جميعًا القدرة نفسها على اكتشاف الحقيقة الدينية من خلال التفكير: علم اللاهوت الطبيعي. وقد يكون هناك أيضًا - منذ زمن بعيد - بعض اللاهوت الموحى من أتباع موسى. ومن المسلَّم به أنَّ الصينيين لم يحفظوا أيَّ شهادة من الأنبياء، ويمكن تمييز الفجوات المؤسفة في سجلَّاتهم من فشلهم في تسجيل الطوفان أو وقوف الشمس في مكانها ليوم كامل (يشوع 10: 1 - 14). وكان علماء الفلك الصينيون مذنبين أيضًا بارتكاب أخطاء في التكليف، فقد أبلغوا عن "نجم ضيف" كان من الممكن أن يكون مرئيًّا للأوروبيين من 4 يوليو 1054 إلى 6 أبريل 1056. لكن لم تكن هناك سجلَّات أوروبية لهذا الأنموذج المضاد لبقاء النجوم .

في حالة السداسية hexagrams، اعتقد لايبنيز أنَّ هناك فرصةً لتعزيز الذكريات الصينية لقصَّة الخلق، وقد تعاطف مع المقاومة الصينية لتفسير سفر التكوين على

أنَّه خلق حرفي من العَدَم، ولكن لايبنيز يعتقد أنَّ أحد جوانب العقيدة له قيمة؛ الكون مصمَّم بإتقان. وهذا التركيز على البناء الهادف يتعارض مع الرؤية المانوية للكون كأنقاض من الحرب بين الخير والشر، فالتصميم الإلهي هو أيضًا تحسين للفكرة الطاوية عن كونٍ ينشأ من توتُّر طائش بين يين ويانغ.

لحسن الحظِّ، يعطي الشعر الطاوي بدايةً مستمرَّةً لمفهوم التقدُّم الإبداعي: "الطاو يولِّد واحدا، والأحد يولِّد اثنين، والاثنان يولِّد ثلاثة، والثلاثة يولِّد كلَّ الأشياء". ويعتقد لايبنيز أنَّ التدوين الثنائي يمنح هذا التقدُّم مع الجاذبية الرياضية: "الآن يمكن للمرء أن يقول إنَّه لا يوجد شيء في العالم يمكن أن يقدم ويظهر هذه القوَّة بشكل أفضل من أصل الأرقام، حيث يتم تقديمه هنا من خلال العرض التقديمي البسيط وغير المزخرف للواحد والصفر أو العَدَم". وهذا من رسالة لايبنيز إلى دوق برونزويك التي تقترح ضرب عملة بهذه الصورة.

ردًّا على بوفيت، صاغ لايبنيز القياس حسابيًّا، فالفراغ يتوافق مع 0 و1 مع الإله. والبداية هي 0، ثمَّ تأتي 1، الإله، الذي يصنع السماء والأرض، 10. وبحلول اليوم السابع، 111، يفتقر العالم إلى الصفر، الفراغ. وبما إنَّ كلَّ شيء قد امتلأ فقد استقرَّ الإله، وهذا هو السبب في إعلان اليوم السابع يوم السبت. وهذا يكمل شرح القدِّيس أوغسطين لسبب استغراق الخلق ستة أيام؛ الستة هو أول رقم تام (City of God, Part XI, Chapter 30).

الميتافيزيقيا بوصفها هندسةً عكسيةً

حينما فكَّك المصريون القدماء عربةً آشوريةً تم أسرها تعلَّموا هيكلها ووظيفة أجزائها وطرق عملها. وكان على المصريين أن يضعوا بحسبانهم أنَّ العربة قد تتضرَّر، وكان عليهم أن يضعوا بحسبانهم أنَّه قد تكون هناك عيوب في التصميم. ولا توجد مثل هذه التحذيرات تطارد الميتافيزيقيا عند عكس هندسة خليقة الإله، فبالنسبة إلى العالم ككلٍّ يتطابق المثالي والواقعي تمامًا.

عادةً، يتمتَّع المهندس العكسي بالقوى العقلية نفسها التي يتمتَّع بها المهندس الأصلي، فحينما يصمِّم الرجل عربةً فإنَّه يقلِّل من عدد الأجزاء وأنواع الأجزاء وكميَّة العمالة اللازمة للتجميع.

إنَّ بقاء المباني الرومانية القديمة هو شهادة على الجهل الروماني، فمهندسوهم أخطأوا في جانب السلامة، فالمباني المعاصرة أخفُّ وزنًا وأقلُّ متانةً؛ لأنَّ المهندسين لديهم دقَّة أكبر في فهم مقدار ما هو مطلوب لمبنى يتحمَّل عددًا معيَّنًا من السنوات، فالإفراط في البناء هو إهدار. وفي عام 1945، تحطَّمت قاذفة B - 25 Mitchell في الطابق 79 من مبنى إمباير ستيت، مِمَّا تسبَّب في أضرار طفيفة. واستجاب المهندسون المحرجون بشكل مقتصد ببناء ناطحات سحاب أخفّ وزنًا وأكثر ضعفًا.

الإله ليس تحت أيِّ قيود بخصوص الموارد والعمل، إذ يمكن أن يتأكَّد الإله من كلِّ شيء عن الشيء بمجرَّد تحليل طبيعته. وقد تبدو مخطَّطات الإله محفوفة بالمخاطر ومعقَّدة. مثلًا: هناك طريقة بسيطة يمكن للإنسان أن يستعملها في بلاط الأرضية وهي استعمال مربَّعات ملوَّنة بشكل موحد، وهذا هو النهج الأكثر تسامحًا، وتناسق كلِّ بلاطة يجعلها قابلةً للتبديل. ولا يحتاج الإله إلى التبسيط، لديه ذاكرة وانتباه وبصيرة غير محدودة. وسيؤدِّي تفضيل الإله للتنوُّع إلى استعمال بلاطات فريدة من نوعها في كلِّ من الشكل ونمط الألوان، فبمجرَّد تجميع البلاط سيكشف البلاط عن أنماطٍ جديدةٍ بمقاييس أكبر. وهكذا، فإنَّ التبليط غير الدوري لروجر بنروز Roger Penrose أقرب إلى التبليط الإلهي من التبليط المربع (الشكل 18.5)، فالبلاط المربّع له تناظر متعدٍّ؛ يمكن العثور على نسخة من كلِّ منطقة من طريق تحريك مسافة ثابتة. وعند وضعها في حقلٍ من المربَّعات المتجانسة التي تمتدُّ إلى الأفق، لا يمكنك معرفة مكانك. لا شيء يتغيَّر وأنت تمشي. وفي التبليط غير الدوري، تعثر على أنماط جديدة في أثناء سفرك. ومع ذلك، فإنَّ التبليط غير الدوري له أيضًا تشابه ذاتي ممتع؛ تتكرَّر الأنماط بمقاييس أكبر وأكبر، وهذا ينقل فكرة أن كلَّ منطقة هي عالم مصغر.

الشكل 18.5 البلاط غير الدوري في معهد ميتشل للفيزياء الأساسية وعلم الفلك، جامعة تكساس.

لا فجوات مكانية

إذا اقتصر الإله على عدد محدود من البلاط فلن يتمكَّن من ملء الفراغ بالبلاط المستدير. ولكن إذا كان لدى الإله مخزون غير محدود من البلاط المستدير فيمكنه ملء الفجوات بدوائر أصغر، وفجواتها الأصغر بدوائر أصغر. وهذا المخطَّط سوف يرضي تفضيل الإله لامتلاك الكثير من الأشياء اللانهائية.

ومع ذلك، فإنَّ الاستراتيجية الأكثر فاعليةً تتمثَّل في تعبئة عددٍ لا نهائي من المربَّعات الفرعية في كلِّ بلاطة. وما قد يبدو لنا على أنَّه بلاطة كبيرة سيكون في الواقع مركَّبًا من بلاطات أصغر، وسيكشف الفحص المجهري للبلاط أنَّ مبدأ التركيب هذا ساري المفعول دائمًا: تتكوَّن كلُّ بلاطة من بلاطة فرعية.

بالطبع، هناك حدٌّ بشري للتكبير، ولا يمكن للتجرِبة المحدودة أن تكشف عن تداخل لا نهائي للبلاط. لكنَّ الميتافيزيقيا يمكنها توفير المعلومات الناقصة. ويجب أن يتكوَّن الكون من موادَّ غير لزجة؛ الكيانات التي تحتوي أجزاؤها دائمًا على

أجزاء مناسبة.

هل يعني الدافع الإلهي للتنوُّع أنَّ هناك أيضًا بعض الذرات مختلطة في المادَّة اللزجة gunk من أجل التنوُّع؟ لا، الذرات تعني وجود تناقض، وكلُّ ذرة لها حجم وشكل محدَّدان. ونظرًا لأنَّ الذرات محدودة المكان فيجب أن يكون لها محيط دقيق. ومع ذلك، فإنَّ محيط الجسم يزداد مع درجة الدقَّة، فإذا قاست دولتان حدودهما المشتركة بدرجات مختلفة من الدقَّة فسيقومان بتعيين أطوال مختلفة للحدود المشتركة. ونظرًا لعدم وجود معيار فريد لا يمكن أن تكون للذرَّات محيطات محدَّدة، وهي ميزة أساسية لوجودها.

فضلًا عن الإيمان بالمادَّة اللزجة، يؤمن لايبنيز بعكس المادة اللزجة kung المعروفة جيدًا، فمع knug، كلُّ شيء هو جزءٌ مناسبٌ من شيء آخر، ولا يوجد جسم أكبر. لذا؛ فإنَّ أولئك الذين يعرِّفون "العالم" على أنَّه أكبر كائن يشتكون من أنَّ نظريَّة knug تشير إلى عدم وجود عالم حقيقي، واستنتجوا أنَّ "الخردة" junk اسم أفضل من "knug"!

لتعظيم عدد الكائنات وتنوُّعها يجب أن يكون الكون أكثر من مستوى ثنائي الأبعاد، يجب أن يكون هناك أكبر عددٍ ممكنٍ من الأبعاد. وعلى الرغم من أنَّ الكون يبدو لنا ثلاثيَ الأبعاد فإنَّ هناك أبعادًا أخرى غير مرئية لنا.

عالج حلفاء نيوتن المخاوف بشأن المكان الضائع بالفيزياء بدلًا من الميتافيزيقيا. وبحسب إدموند هالي Edmond Halley فإنَّ الاختلافات في المجال المغناطيسي للأرض هي تأثيرات الأرض المجوفة، ففي الأسفل تدور ثلاث قذائف متحدة المركز تذكرنا بحلقات زحل، وتتناسب مقاديرها مع كوكب الزهرة والمرّيخ وعطارد، وقد كانت الاستكشافات في القطبين مدفوعة جزئيًّا بالبحث عن الذكاء داخل كوكب الأرض، وكان النجاح بمنزلة عودة هنود الخليج Creek Indians إلى الأصل، إذ نشأ أسلافهم من الكهوف بالقرب من النهر الأحمر، وتطالب القبائل في جميع أنحاء العالم بولادة مماثلة.

لا فجوات زمانية

يصوِّر إسحاق نيوتن الإله على أنَّه انتظر فترة غير محدودة قبل أن يخلق العالم. ولايبنيز يرفض هذا؛ لأنَّه يراه مضيعةً للوقت. كذلك يعترض لايبنيز على النسيان المستقبلي الذي يخرج فيه كلّ شيء من الوجود. وفي المقابل، آمن نيوتن بيوم القيامة الذي تنبَّأ به سفر الرؤيا.

تم تعزيز هذا الحظر الغائي على الزمان والمكان الخاليين بشكل ميتافيزيقي من خلال نظريَّة لايبنيز العلائقية للمكان والزمان. ففي حين يعتقد نيوتن أنَّ المكان والزمان موجودان بشكل مستقلٍ عن الأشياء، يعرِّف لايبنيز المكان والزمان بأنَّهما علاقات بين الأشياء، ويصوِّر المكان على أنَّه تجريد من العلاقات بين الأشياء. ومن ثَمَّ، يمكن وصف المكان بالاستعارات نفسها التي نستخدمها لشجرة العائلة. ويمكن أن ينمو المكان، ويمكن للمكان أن ينحني أو يلتوي أو به ثقوب، وهناك مجال كبير للتساؤل عن سبب وجود خصائص للمكان. ونظرًا لأنَّ المكان هو تجريد من الكائنات فإنَّ الإجابات عن أيَّة ألغاز حول المكان تختزل الحقائق حول الكائنات. ويمكن للمرء أن يتساءل لماذا هناك مكان، لكن هذا فقط للتساؤل عن سبب وجود أشياء.

يرحِّب لايبنيز بالتغيير بوصفه فرصةً لمزيدٍ من التنوُّع. لكنَّ التنوُّع يتطلَّب أيضًا أن يكون التغيير مستمرًّا، وهذا يوفِّر دليلًا آخر على استحالة مواجهة الذرات، إذ تتطلَّب بساطة الذرات أن تتصرَّف بحذرٍ في أثناء الاصطدامات، ويجب أن يكون أيُّ تغيير ذري في الاتجاه لحظيًّا، ومن ثَمَّ، فإنَّ الذرة التي تتَّجه جنوبًا قبل الاصطدام يجب أن تتَّجه شمالًا في لحظة الاصطدام. لكنَّ العَدَم يمكن أن يسير في اتجاهين متعاكسين في الوقت نفسه.

ولماذا تعتقد أنَّ الذرات تتصادم بدلًا من مجرد المرور عبر بعضها الآخر؟ ضع بحسبانك التداخل السلبي للموجات، فحينما تصادف القمَّة المتجهة شمالًا حوضًا متجهًا إلى الجنوب يصبح مستوى الماء. لماذا لا نقول الشيء نفسه عن الذرات؟ نظرًا

لعدم وجود سبب آخر لوصف الموقف بأنَّه تصادم بدلًا من تداخل، فلا يمكن أن يكون أيٌّ من الوصفين صحيحًا.

لا يستبعد ديموقريطوس Democritus أن تكون الذرات بحجم الثور، لكنَّه يتحدَّث وكأنَّها أصغر من أن تُرى، وهذا يحجب خصوصياتها. وبحسب لايبنيز فإنَّ الذرات ليست صغيرةً بما فيه الكفاية. وعلى الرغم من صغر حجمها كان من الممكن أن تكون أصغر حجمًا، ومن ثَمَّ تؤدِّي العمل نفسه وتشغل مكانًا أقلَّ. ولتجنُّب الهدر، يجب أن يكون التسلسل الهرمي للجزئيَّة لا أساس له من الصحَّة.

إنَّ المادة اللزجة عند لايبنيز عضوية أكثر، وهي أكثر صينية من مادَّة ناجارجونا أو أنكساجوراس اللزجة. وفي الواقع، كلُّ الموادِّ اللزجة اللايبنيزية هي موادُّ حيَّة، فنحن نتكوَّن من كائنات حيَّة تتكوَّن نفسها من كائنات حيَّة، وهذه الكائنات الحَّية الفرعية هي عناصر تابعة للأعضاء. وتنظِّم الكائنات الحيَّة الخارقة التسلسل الهرمي للكائنات الحيَّة الفرعية، وهي نفسها منظَّمة بواسطة كائنٍ حيٍّ ذي مستوى أعلى.

يصوِّر علماء الأحياء حاليًّا جسم الإنسان كنظام بيئي تعيش فيه الخلايا البكتيرية الغريبة (نحو مئة تريليون) بطريقة تعاونية في الغالب مع الخلايا الأصلية (نحو عشرة تريليونات)، فالبكتيريا صغيرة ولكن هناك حدّ أدنى. وبالنسبة إلى لايبنيز لا يوجد حدٌّ أدنى.

ولا توجد حدود لدرجة الحرارة أو الكيمياء، إذ يتوقَّع عالم الأحياء اللايبنيزي كائنات حيَّة شديدة الحساسية، ويبحث عن الحياة في كلِّ مكان وزمان، فالعَدَم عقيم.

فضلًا عن الاعتقاد في الحياة خارج كوكب الأرض، آمن لايبنيز بالحياة الذكية خارج كوكب الأرض، فجميع الكائنات الحيَّة لديها درجة من العقلية، وكلُّ درجة عقلية لديها بعض الكائنات الحية.

إذا كان النجار القاهر يرغب ببساطة في ملء الفراغ فيمكنه تعبئة العالم بمكعَّبات ألبرت ساكسونيا Albert of Saxony. ولكن لتحقيق أقصى قدر من التنوُّع يجب أن

يمتنع الإله عن التكرارات.

قد يحتوي أيُّ فراغ على فراغات أصغر لا تختلف في أجزائها الجوهرية. لذلك؛ لا يمكن أن يكون هناك فراغ إلَّا إذا كانت هناك فراغات مكررة. وبما إنَّ مبدأ السبب الكافي يستبعد التكرارات فإنَّ الفراغ مستحيل كالذرة.

معايير اختيار الإله للعالم تمنع أيَّ عنصر تعسفي داخل العالم، وقد اختار الإله عالمًا أبسط في القوانين وأغنى بالظواهر، وكان مهتمًّا بشكل أساسي بسعادة العقول، العقول التي تقدِّم أقصى قدرٍ من وجهات النظر حول الكون. لذا؛ فإنَّ العالم عبارة عن قاعة مليئة بالعقول التي يعبِّر كلٌّ منها عن العالم من وجهة نظره الخاصَّة. وأيَّة فجوات وهمية مثل "الفجوة" بين 1 و0.999 ... (وهي مجرَّد أرقام مميزة للرقم نفسه).

تصوَّر لايبنيز الأشياء المحتملة على أنَّها تتنافس لتصبح حقيقة، وكلَّما تنافس الشيء مع أشياء أخرى زاد احتمال وجود شيء يمنعه من أن يصبح واقعيًّا. ويخسر المنافسون في هذا التقارب من أجل الوجود. والفائزون يناسبون بدقَّة الافتتاحية التي شكلتها أشياء أخرى، وهذه الكوة هي ثقب مفتاح في وجود كلِّ الأشياء الأخرى. والقليل الذي لا يخبرنا عن كلِّ ما هو موجود.

العالم الحقيقي هو الأفضل كعالم، لكن هل هو الأفضل لنا؟ ربَّما يكون العالم الأفضل بالنسبة إلينا هو عالمٌ أدنى، لنفترض أنَّه عالم أقلُّ تنوُّعًا (من دون بعوض). والشرُّ الضروري للعالم ليكون أفضل لا يجب أن يكون ضروريًّا لرفاهيتنا.

قد نميل إلى استنتاج أنَّ أفضل ما في العوالم الممكنة - بالنسبة إلينا - هو كارثة وليس نعمة. ولقمع الإغراء، يؤكِّد لنا لايبنيز أنَّ الظلم الذي نعاني منه في هذه الحياة سيتم تعويضه في الحياة الآخرة، فيقبل اقتراح أوغسطين بأنَّ الشرَّ هو حرمان، وبالنتيجة هو ليس فعليًّا. والعالم الحقيقي هو "الأكثر كمالًا من الناحية الأخلاقية"، وهذا الكمال الأخلاقي يجعل هذا العالم الأفضل بالنسبة إلينا.

سابعًا: العَدَم العلمانيُّ

سابعًا: العَدَم العلمانيُّ

19. شوبنهاور: غياب المعنى

سدَّ تفاؤل جوتفريد لايبنتز الفجوة الضرورية في الميتافيزيقيا، وقلب آرثر شوبنهاور Arthur Schopenhauer (1788 – 1860) مذهب لايبنيز لاستعادة تلك الفجوة.

مضادَّة الثيوديسية المراهقة

في عام 1737، قدمت المجلَّة اليسوعية مذكرات تريفوكس Memoires des Trevoux التفاؤل لوصف عقيدة لايبنتز في الثيوديسية Theodicy بأنَّ العالم الفعلي هو أفضل العوالم الممكنة على الإطلاق.

وبأسلوب محاكاة فولتير Voltaire الساخرة عن ثيوديسية لايبنيز في كانديد Can-dide، قلب شوبنهاور التفاؤل رأسًا على عقب (شكل 19.1).

الشكل 19.1 لايبنيز السعيد (عكس لرؤية شوبنهاور).

عالمُنا هو أسوأ ما في العوالم الممكنة، معاناة ناتجة من الفوضى، إذ ينجح العالم الفعلي في أن يكون منظَّمًا بدرجةٍ كافيةٍ لتحقيق المزيد من البؤس أكثر من أيِّ عالم آخر محتمل.

تمامًا كما حاول لايبنيز أن يشرح الشرَّ الظاهر بوصفه ضروريًّا للخير الخفي، أوضح شوبنهاور أنَّ الخير الظاهر ضروري للشرِّ الخفي، فالمتعة الجنسية موجودةٌ فقط لجذب المزيد من البائسين إلى الوجود. وتوفر قطرة الجمال التباين في مشهد القبح، وهناك حاجة إلى رشَّات من الحظِّ السعيد لإطالة اليأس وتعميقه.

قد يكون فاوست Faust لغوته Goethe شيطن انقلاب شوبنهاور المبكر على لايبنيز. مع "روح النفي الدائم" سيكون معنى الحياة هو المعاناة.

مع بعض التعديلات الشيطانية تمت إعادة برمجة بقيَّة جنَّة لايبنيز في جحيم شوبنهاور، إذ يضمن مبدأ العقل الكافي الآن عدم إهدار أيِّ شيء في تعظيم البؤس، والروحية الشاملة Panpsychism الآن تجعل السوط يعاني مع جلده.

التفاؤل بحدِّ ذاته أداة للمعاناة، إذ يحول المتفائلون الانتباه عن الشرور التي يمكن القضاء عليها والمخاطر التي يمكن تقليلها، فالمتفائلون يبالغون في ما هو جيد، ويبررون ما هو سيئ، ويغامرون بما لدينا من القليل في المشاريع التي تتركنا بأقلَّ من ذلك. وترتفع التوقُّعات لتعظيم السقوط الحتمي، ويقدم شوبنهاور خدمةً للإنسانية من خلال كشف قسوة التفاؤل الخفية.

في حين أنَّ لايبنيز يتبع أوغسطين في التقليل من شأن الشرِّ بصفته غياب الخير، فإنَّ شوبنهاور يقلِّل من شأن الخير على أنَّه غياب للشرِّ: "لا أعرف عبثية أعظم من تلك التي تطرحها معظم أنظمة الفلسَفَة في إعلان أنَّ الشرَّ سلبيٌّ في طبيعته. الشرُّ فقط ما هو إيجابي؛ يجعل وجوده محسوسًا" (1851، 5)، إذ يشير الألم إلى تلف الأنسجة، ومن ثَمَّ يستدعي الاهتمام الأساسي من المريض. والمتعة هي مجرَّد عدم وجود الألم، كما يحدث حينما يهدأ وجع الأسنان، والصحَّة هي غياب المرض، والسلام هو غياب

الحرب، والعقلانية هي غياب اللاعقلانية.

الصواب ليس إلَّا غياب الخطأ. وفي حين أنَّ لايبنيز هو ناشطٌ يتسابق في جميع أنحاء أوروبا في بعثات دبلوماسية فإنَّ شوبنهاور يهتمُّ بشؤونه الخاصَّة، فالإغفالات هي أخلاقيًّا أكثر أمانًا من الأفعال، إذ يقال إنَّ غير الناخبين ليس لديهم الحقُّ في الشكوى حينما يسيء المسؤول المنتخب إلى الحكم. لكنَّ شوبنهاور يردُّ على ذلك بالقول إنَّه إذا فقد أيُّ شخص الحقَّ في الشكوى فهو الناخب. وقد فعلوا شيئًا سيِّئًا، لقد ترك غير الناخبين شيئًا سيِّئًا يحدث.

يفضِّل شوبنهاور أن يحكمه أسدٌ على أن يحكمه نيص زميل:

في أحد أيَّام الشتاء الباردة، اجتمعت مجموعةٌ من النيصان معًا للتدفئة والابتعاد عن التجمُّد، ولكن سرعان ما شعر كلٌّ منهم بالريشات الواخزة وتباعدوا عن بعضهم الآخر. وحينما قرَّبتهم الحاجة إلى الدفء من بعضهم الآخر مرَّةً أخرى أجبرتهم ريشاتهم على الانفصال مرَّةً أخرى، لقد دفعهتم ذهابًا وإيابًا بمضايقاتها حتى وجدوا المسافة بين بعضهم الآخر، التي وفَّرت لهم أقصى درجات الدفء وأقل قدر من الألم. وفي البشر، ينتج من الفراغ ورتابة الذات المنعزلة حاجة للمجتمع. وهذا يجمع الناس معًا، لكنَّ صفاتهم الهجومية المتعدِّدة وأخطاءهم التي لا تطاق تفرِّقهم مرَّةً أخرى، فالمسافة المثلى التي يجدونها في النهاية تسمح لهم بالتعايش تتجسَّد في الأدب والأخلاق الحميدة. وبسبب هذه المسافة بيننا، لا يمكننا إلَّا تلبية حاجتنا للدفء جزئيًّا، ولكن في الوقت نفسه، نجتنَّب وخز ريش بعضنا الآخر. (1851، 651 - 652)

كان شوبنهاور يفتخر بجهله بالسياسة، فغزوته الوحيدة في المجال العام هي الأدبية. وبدلًا من إجبار أيِّ شخصٍ على فعل أيِّ شيء، فإنَّه يفضح الحقيقة المروعة للقلَّة الواعية بما يكفي للانتباه لها.

لايبنيز "يثبت" الإيمان بالإله من خلال تعريف الإله بأنَّه "أفضل كائنٍ يمكن تصوُّره". ويرى شوبنهاور أنَّ المتشائم يمكنه بالقدر نفسه أن "يثبت" أنَّ الشيطان

موجودٌ بتعريف "أسوأ كائن يمكن تصوُّره" "الليل يسقط: عند الغسق، يجب أن يكون لديك بصرٌ جيّدٌ لتتمكَّن من تمييز الربِّ الصالح من الشيطان" (- Jean Paul Sartre The Devil and the Good Lord Act 10, sc. 2). وتستند حجَّة لايبنيز الأنطولوجية إلى المبدأ القائل بأنَّ الوجود أفضل من عدم الوجود. ويردُّ شوبنهاور بأنَّ الوجود أسوأ من عدم الوجود.

نظرًا لأنَّ الوجود دائمًا عرضي، فإنَّ كلَّ كيان هو شرٌّ لا مبرر له. وبحسب شوبنهاور، هذه هي البصيرة الكامنة وراء العقيدة المسيحية للخطيئة الأصلية. وفي كتاب جان بول سارتر Jean - Paul Sartre الغثيان Nausea عام 1938، تعمَّم عيد الظهور epiphany هذا إلى ما هو أبعد من الناس ليشمل أشجار الكستناء والأشياء الجامدة. فالشخصيَّة الرئيسة تختبر الوجود على أنَّه كثير de trop: كثير جدًّا، مفرط، مبالغ فيه. الواقع مكتظٌّ مثل سفينة نوح.

الكون، كمجموع كلِّ ما هو موجود، هو الخطأ الأكبر، ولا توجد شرورٌ ضروريةٌ، كلُّ الشرور لا مبرِّر لها.

يمدح لايبنيز الديمومة (استمرارًا للتقاليد المصرية، التي تمَّ ترشيدها من أفلاطون). وشوبنهاور بطل الزوال. ففي النهاية، إذا كان الوجود سيِّئًا فإنَّ الإيجاز فضيلة. ومن الأفضل أن تكون ذبابة مايو من أن تكون سمكة غوبي الصغيرة dwarf pygmy goby (تعيش شهرين بدلًا من يوم واحد). ومن الأفضل أن تكون سمكة غوبي الصغيرة من قرش جرينلاند (الذي يمكن أن يستمرَّ لأربعة قرون). لم تكن أفضل كلّ شيء.

نظرًا لأنَّ شوبنهاور يقلب نظام لايبنيز، فإنَّ هذين المفكرين المتعاكسين مرتبطان بالافتراضات المسبقة الإشكالية نفسها. إذا كان الوجود أفضل من عدم الوجود فيجب أن نقارن ما هو موجود بما هو غير موجود، لكن ما هو غير موجود ليس متاحًا للمقارنة، فكلٌّ من المتفائل والمتشائم عالقون في مقارنةٍ مستحيلةٍ على ما يبدو بين الوجود والعدم.

شغل الحياة

كان شوبنهاور الناضج شكسبيريًّا لدرجة أنَّه لم يمنح حياتنا أهمية كونية.

الحياة مجرَّد ظلٍّ يمشي، ممثل رديء،

يتمايل - بزهو - ساعته على خشبة المسرح.

ثمَّ يختفي إلى الأبد. إنَّها حكاية

يرويها أحمق، مليئة بالصخب والغضب،

لا تدلُّ على شيء. (Macbeth, act 5, scene 5, ll. 17 - 28).

إنَّ النفي الصحيح للإيمان بالإله هو الإلحاد الكئيب، وليس الشيطانية الملوَّنة.

لكي يخرج الإلحاد من جسم لايبنيز، كان شوبنهاور بحاجةٍ لطرد الشيطان، فنشأت هذه الطريقة من لعنة سنوات تكوين شوبنهاور: الاقتصاد.

"القسُّ البروتستانتي هو جدُّ الفلسَفَة الألمانية" (The Anti - Christ, sec. 10). هكذا قال ابن أحد القساوسة البروتستانت، فريدريك نيتشه Friedrich Nietzsche (عند ذكر كانت Kant، فيشته Fichte، شيلينغ Schelling، وهيجل Hegel). كان الاستثناء هو الفيلسوف الأكثر تأثيرًا على نيتشه: شوبنهاور.

كان هاينريش Heinrich - والد آرثر شوبنهاور - رائد أعمال ناجحًا. وفي سنِّ 38 تزوَّج هاينريش من جوانا تروزينر Johanna Trosiener البالغة من العمر 18 عامًا. وأصبحت لاحقًا أشهر مؤلّفة في ألمانيا، وأوَّل من لم يستعمل اسمًا مستعارًا. وربَّى الزوجان ابنهما وابنتهما في بيئةٍ برجوازيةٍ متقنةٍ، ولعب الدين دورًا تقليديًّا فقط، وغرس السيد والسيدة شوبنهاور تقدير الفنِّ والأدب والعلوم.

كان هناك معنى لحياة آرثر، كطفل مخطّط بدقة، تم تصوُّره بنيَّة أن يتولَّى أعمال العائلة. وقد تم اختيار اسمه بسبب فضائله العالمية والتجارية، إذ يتم نطق "آرثر" وكتابته بالطريقة نفسها في الألمانية، والفرنسية، والإنجليزية.

خنق آرثر شغفه بـالأدب، ودرس في مدرسة أعمال بريطانية، وعـزَّزت المؤسَّسة

المهارات التجارية بالطقوس الدينية، إذ تعلَّم الشاب شوبنهاور أيضًا التفاصيل العملية للتجارة من خلال التدريب مع كبار التجَّار. ورسائل والده تؤكِّد أهمية المظهر: آرثر، لا تترنَّح! آرثر، تدرَّب على فنِّ الخط!

تحوَّل تبجيل آرثر لوالده المستبد إلى إعجابٍ متناقضٍ بالسمات التي يسخر منها تشارلز ديكنز Charles Dickens بشخصيَّته إيبينيزر سكروج، إذ يسعى التاجر بصراحةٍ وصدقٍ إلى ما يسعى إليه الآخرون خلسةً فقط: الربح. التاجر يفي بالتزاماته ويصرُّ على أن يفي الآخرون بالتزاماتهم، لا يتألَّم للحمقى، ويراهم طفيليات في مظاهرهم المقدَّسة (مثل الموظفين الذين يعتقدون أنَّ العدالة تتطلَّب منهم الحصول على شيء مقابل لا شيء، كالإجازات المدفوعة). التاجر لا ينخدع بالخيالات، كتاب دفتر الأستاذ يتفوَّق على جميع أشكال الأدب الأخرى، فكلُّ شيء يختزل إلى المحصَّلة النهائية.

في 20 أبريل 1805، سقط هاينريش شوبنهاور من مبنى شاهق، ذُهل آرثر البالغ من العمر سبعة عشر عامًا بما اعتقده هو ووالدته سرًّا أنَّه انتحار، أعاد تقييم حياته ... والحياة. استاء آرثر من فشل والدته الاجتماعية في رعاية زوجها؛ بسبب مرضه العقلي والجسدي، واستاء أيضًا من اهتمامها بإبقاء ابنها في العمل حتى تتمكَّن هي وابنتها من مواصلة أسلوب حياتهما الفخم. ولمدة عامين امتثل آرثر بعد الوفاة لرغبة والده المهنية، كانت اليد الميتة للماضي تخنق مستقبله، وأخيرًا كسر آرثر التزامه تجاه شركة العائلة، حيث باعَهَا؛ حتى يتمكَّن من التقاعد بصفة عالم مستقل.

الرغبة الكاذبة

قرار الخروج من العمل هو أقرب إلى قرار قتل نفسك، فالتاجر يصنف الأعمار المحتملة للشركة، ونادرًا ما يكون أطول عمر هو الأكثر ربحية.

يقوم الاقتصاديون بنمذجة المتدرب بوصفه وكيلًا يقوم بحساب الشركة التي سينضمُّ إليها. ويفضِّل شوبنهاور منظورًا أنثروبولوجيًّا بدرجة أكبر، فغالبًا ما يكون المتدرِّبون غير

ناضجين وغير مدركين لاتخاذ خيار مستنير، وأفراد الأسرة والتقاليد والظروف تحثُّهم على الانضمام إلى الشركة، والمتدربون يخسرون بالمصادرة أكثر من المسابقة التشطة.

علم الاقتصاد هو علم الوسائل وليس الغايات، إذ يتمُّ تقييم الرغبات الآليَّة فقط، ودائمًا من خلال معايير الكفاءة. لكنَّ شوبنهاور اقتنع بوجود رغبات خاطئة، إذ تُظهرُ الدوافع الجنونية وضعف الإرادة والإدمان وغسيل الأدمغة أنَّه يمكن أن تكون هناك رغبات لا ينبغي التصرُّف بناءً عليها. "الثروة مثل مياه البحر، فكلَّما شربنا زاد عطشنا" (1851, vol. I, 347). ويمكن إزاحة الرغبة: "المال هو سعادة الإنسان المجرَّد. هو، إذن، الذي لم يعد قادرًا على التمتُّع بالسعادة البشرية على أرض الواقع يكرِّس نفسه بالكامل للمال" (vol. 2, § 320 1912). وتظهر الرغبات الكاذبة أيضًا في الحيوانات، إذ تعيد الطفيليَّات برمجة نفسية مضيفها لتناسب اهتماماتها الخاصَّة. ويخدع المعلنون العملاء ليريدوا ما هو غير ضروري أو حتى ضار.

نفترض عمومًا أنَّ المتدرِّب يمكنه الانتقال إلى شركةٍ خاليةٍ من الرغبات المرضية، ويتحدَّى شوبنهاور هذا الافتراض، إذ يضمن منطق الرغبة نفسه أنَّ "الحياة عمل لا يمكن أن تغطي تكلفته"، وهذا أكثر صحَّة في المعاملات بين الأطراف المختلفة. ويواصل شوبنهاور:

المتعة ليست ممتعة أبدًا كما توقَّعناها، والألم دائمًا أكثر إيلامًا، فالألم في العالم يفوق اللذة دائمًا، وإذا كنت لا تصدِّق ذلك قارن بين المشاعر الخاصَّة بحيوانين، أحدهما يأكل الآخر. (1851، 5 - 6).

تشكِّل رغباتنا طابورًا: ماء، طعام، جنس، نوم ... الرغبة التي لا مقابل لها أمر محزن، فالراحة المتحقِّقة لحظة قليلة، وإرضاء رغبة واحدة يكشف فقط عن خليفتها الملحَّة، والطابور غير منظم، فالأُمنية تدفع ما تُريد، والنزوة تقع قبل الحاجة.

هناك مناسباتٌ لا تظهر فيها رغبة جديدة، وإذا عُدَّ هذا الغياب استراحةً فالخادِم قد يرعى من طريق التصميم ما حدث في البداية من طريق الصدفة. وعلى وفق ذلك، يبنى

الخادم لمعايشة فراغ الشهية على أنَّه أمر مزعج: مثل الملل.

طابور الرغبة تجميع، مزيج .غير أنيق ولكنَّه مناسب كفاية، مرصوف بما هو متاح. وحينما يتم تعديل القلعة إلى سجن، قد يكتشف النزلاء فترات الاستراحة، والإعفاءات، وحتى وسائل الهروب. وعلى الرغم من أنَّ قذائف الملل تشكِّل مخرجًا واعدًا فإنَّ هناك بعض الفتحات التي قدمها الفنُّ والتأمُّل العلمي، ففي فترات الراحة القصيرة نختبر الأشياء دون رؤية فائدتها العملية، فالعباقرةُ يشبهون المجانين في قدرتهم على تحمُّل هذا الانفصال لفترات طويلة.

القدِّيسون والفقراء يخفِّفون البؤس بقمع الشهوة، إذ يقتلعون مصدر المعاناة: الرغبة نفسها. ويرى شوبنهاور أنَّ هذا هو الحلّ الأكثر إثارةً للإعجاب (على الرغم من أنَّه اعتمد فقط الاستراتيجيَّات الأكثر اعتدالًا التي تمَّت مناقشتها في الفقرة السابقة).

يقدِّر الاقتصاديون نظريَّات الاستحالة impossibility theorems التي يظهر فيها استحالة تحقيق مجموعة من الرغبات. ويستند تشاؤم شوبنهاور إلى نظريَّة الاستحالة: كلُّ مجموعة من الرغبات مَرَضيَّة. ويكشف الفحص المحايد لدفاتر الحياة عن وجود عجز بنيوي.

المثمِّنون الذاتيون المحايدون لا يتكاثرون. وفي الواقع، الواقعيون يطرحون أنفسهم من المجتمع. والبقية تطبخ الكتب. ويستعمل شوبنهاور تقنيَّات أدبية لإجراء مراجعة مفاجئة لدفتر الأستاذ في الحياة.

شوبنهاور متناقضٌ بشأن العقل، فمن ناحية، متفائل بشأن قوَّة الحقيقة للتغلُّب على الخطأ. ولتصحيح الاستنتاجات الخاطئة، يقتبس شوبنهاور بعض المغالطات. وكمحاضر مبتدئ، حدَّد شوبنهاور نفسه ضدَّ المحاضر الأكثر شعبية، جورج هيجل، الذي رفضه شوبنهاور لكونه دجَّالًا. ومع ميزة المقارنة المريحة، سيتعرَّف الطلَّاب على شوبنهاور كأكثر منطقية، إذ حاضر شوبنهاور في غرف شبه فارغة. وفي وقتٍ لاحقٍ، تنبَّأ شوبنهاور بأنَّ البوذية سوف تسود على الأديان الأخرى؛ بسبب نسبتها المفضَّلة

من الحقيقة إلى الأسطورة. وأخيرًا، تنبَّأ شوبنهاور بأنَّ فلسفته الخاصَّة ستصبح شائعةً على المدى الطويل. ولاحظ معلقه المثير للإعجاب سورين كيركيغارد Søren Kierkegaard المفارقة؛ فشل شوبنهاور في رؤية أنَّ التشاؤم يحول دون الإيمان بالتقدُّم والاستحقاق العادل.

على الرغم من هذا الاحترام الفعلي لقوَّة الحقيقة، نفى شوبنهاور أنَّ للمنطق أيَّة قيمة عملية، فالصدق مشروط، والاستنتاج صحيح إذا كانت المقدِّمات صحيحة. "العقل أنثوي بطبيعته؛ لا يعطي إلَّا بعد أن يتسلَّم. وفي حدِّ ذاته ليس لديه سوى الأشكال الفارغة من عمله" (Schopenhauer 1958, 2:50)، إذ تعمل أدمغتنا على الدم بدلًا من القياس المنطقي، واستنتاجاتنا الفعلية هي بمنزلة خطوات: تلقائيَّة وسياقيَّة وموجَّهة نحو أهداف بيولوجية. ومن ثَمَّ، فإنَّ المنطق - على الرغم من إتقانه على يد أرسطو منذ زمن بعيد - له أهمية نظريَّة فقط.

تأثَّر شوبنهاور بالشعر الرومانسي الألماني (Millán 2017)، إذ لا يحتاج الناس إلى المنطق المنطقي، تمامًا كما لا يحتاج الموسيقيون إلى الهياج الملحوظ للعزف على الجيتار، فالمنطق يلخِّص فقط التقييمات البديهية للاستدلال الصحيح. وحينما يكون هناك أيُّ تعارضٍ بين النظريَّة والحدس فإنَّ علماء المنطق يراجعون النظريَّة بدلًا من الحدس. والبراهين مثل مصائد الفئران. تُغري خطوة بخطوة بجوائز وهمية. وحينما ينفتح الفخ يتمُّ تثبيتنا في الوضع المذهل لآسرنا، ولكن من دون أيَّة استنارة.

رفضنا الاعتماد على المنطق أمر صحي، فالمنطق يشوِّه الواقع، إذ يتطلَّب قانون الوسط المستبعد أن يتمَّ حشو الظواهر المستمرَّة في فئات منفصلة. ولم يكن الدماغ مصمَّمًا للقيام بالفلسَفَة أكثر من المعدة، كلاهما خدم للغدد التناسلية. وعلى وفق ذلك، توقَّعات شوبنهاور للأوساط الأكاديمية منخفضة، إذ تسبح نوافير البحر - sea squirts الصغيرة بحثًا عن مكان للراحة الدائمة. وبعد النجاح، تمتصُّ أدمغتها، مثل الأساتذة الدائمين.

اليد الخفية للمعاناة

في الضفادع The Frogs، يأسف أريستوفانيسAristophanes لتدهور أثينا من العصر الذهبي، فينزل زوج من المواطنين المهتمين إلى الجحيم لإحياء القيادة القديمة، وقد طرد السياسيون السيئون كلَّ رجال الدولة الطيبين كما تطرد العملات السيئة العملات جيّدة.

ما مدى سوء طرد الجيدة؟ استفسرت الملكة إليزابيث Elizabeth بعد أن أمرت بسكِّ عملاتٍ معدنيةٍ جديدةٍ بأقلَّ من الذهب، فهدأ الممول الإنجليزي توماس جريشام Thomas Gresham (1519 - 1579) الفضول الملكي: تم استعمال العملات المعدنيَّة المكوّنة من المعدن الأرخص للطرد. وتم تخزين العملات المعدنية المصنوعة من المعدن الأكثر قيمة.

ليست هناك حاجة إلى شيطان مالي لشرح كيف يفسد الرعي الجائر المراعي العامَّة، فكلُّ راعٍ يعمل فقط من أجل المصلحة الذاتيَّة وليس للمكر. وحينما يفهم الراعي سبب تدهور المراعي يكون ردُّ فعله هو رعي أغنامه بشكل مكثف: الإسراع قبل استهلاك كلّ العشب. فتميل جميع السلع العامة إلى التآكل. وقد يقوم عمدة بمراقبة المرعى، لكنَّ تطبيق القانون هو مجرَّد منفعة عامَّة أخرى لها الاتجاه نفسه نحو التدهور (من قبل أولئك الذين يريدون خدمة العمدة لكنَّهم لا يريدون المساهمة في راتبه).

السياسيون الجيّدون يعانون بشكل غير متكافئ من الخيانة والتشهير وآثار الرشاوى والوعود الكاذبة للجمهور، والسياسيون الفاسدون يزيحون السياسيين الفاضلين.

يُفسَّر انتشار عدم الكفاءة في الشركات من خلال ميل الموظفين إلى الترقية حتى يظهروا عدم الكفاءة. ونظرًا لأنَّه من الصعب فصل الموظفين غير الأكْفَاء ولا يمكنهم العثور على عمل بديل على المستوى نفسه فإنَّهم يظلون في وظائفهم، ويؤدُّون أداءً ضعيفًا حتى التقاعد.

تنبَّأ توماس مالتوس Thomas Malthus بأنَّ عدد السكان سوف يتوسَّع حتى نفاد

الموارد، إذ يزيد النموُّ السكاني هندسيًّا، ويزيد الغذاء من الناحية الحسابية فقط. لذا؛ فإنَّ النموَّ السكاني غير المضبوط سيؤدّي إلى المجاعة والصراع.

عمَّمَ تشارلز داروين Charles Darwin التفكير المالتوسي، إذ تتكاثر الكائنات الحيَّة، وتزاحم بعضها الآخر إلى حافَّة عدم الوجود.

شوبنهاور يسبق داروين من خلال تصوُّر عتبة مماثلة، إذ تتنافس الكائنات الحيَّة إلى أقصى حدود قدرتها على التحمُّل. والتأثير غير المقصود لإرادة الحياة هو تعظيم البؤس، فيبدو الأمر كما لو أنَّ الكون كلَّه قد تمَّ تغريمه؛ من أجل الخلاف والتنافر.

وكما لاحظ سوفوكليس Sophocles، فإنَّ بهجة الحياة وإشباعها يتمُّ جمعها لتعزيز المعاناة طويلة الأمد: "لذَّة الإنسان هي نبع الحزن" (Antigone, l. 621). فحتى الدعابة هي مجرَّد وسيلة لزيادة قدرتنا على تحمُّل المعاناة. وقد نُقش على شاهد قبر طبيب: "هنا يرقد مثل البطل، والذين قتلهم يرقدون حوله" (Schopenhauer 1819, 2:273). ومنطقيًّا، يجب أن نشعر بالإحباط بسبب عدم كفاءة الطبيب، لكنَّنا بدلًا من ذلك نجد استمتاعًا شاذًّا بالمعاناة. وتحظى النكتة القاتمة Gallows humor بإعجابٍ أكبر حينما تعبر عنها الضحية. وبينما كان أوسكار وايلد Oscar Wilde يحتضر في غرفة فندقٍ ربَّ كانت كلماته الأخيرة: "إمَّا أن ورق الحائط يذهب أو أفعل". أو هكذا يقول المعجبون الذين يفضِّلون تلاوته صلاة كاثوليكية مغمغمة.

يعلِّق إيمانويل كانت Immanuel Kant - الذي كان شوبنهاور يحترمه - على آليات النكات: نشعر بالارتياح الكوميدي حينما "يتحوَّل توقُّع متوتر إلى العَدَم" وتؤكد عينته الطبيعة الهيدروليكية للفكاهة. "هندي على مائدة رجل إنكليزي في سورات، رأى زجاجة جعة تُفتح وكل البيرة، تحوَّلت إلى رغوة، انسكبت، وأظهر دهشته الكبيرة بالكثير من علامات التعجب، وردًّا على سؤال الإنجليزي: ما المدهش هنا؟ أجاب: لست مندهشًا من انسكابه، ولكن كيف جمعته في الداخل" ([1790] 1911, First Part, sec. 54).

يوفِّر الفنُّ عين كانتية مفتوحة أخرى، فبدلًا من إدراك الكائن من حيث خدمته المحتملة، فإنَّك تتبنَّى منظورًا محايدًا. أنتَ غائب مؤقَّتًا عن السعي وراء الغايات. وفي حالة الموسيقى الآلية فإنَّ الطبيعة غير التمثيلية للتجربة دفعت شوبنهاور إلى اقتراح أنَّ المرء يختبر الواقع بشكل مباشر، أي إرادة الحياة.

جحيم الحياة أكثر جشعًا من النار، فبينما تحرق النار نفسها، تتغذَّى الحياة على الحياة، ويتم تمثيل جانب الاستهلاك الذاتي للحياة أحيانًا داخل كائنٍ حيٍّ واحدٍ.

يقدِّم لنا نمل البلدغ bulldog - ant في أستراليا المثال الأكثر استثنائيةً من هذا النوع؛ لأنَّه إذا قطعته إلى قسمين تبدأ معركة بين الرأس والذيل، إذ يمسك الرأس بالذيل بين أسنانه، والذيل يدافع عن نفسه بشجاعة من طريق لدغ الرأس: قد تستمرُّ المعركة لمدَّة نصف ساعة، حتى يموتا أو يجرّهما النمل الآخر. (1819، 1: 147).

سيلدغ ذيل نملة البلدغ أي شيء بشكل انعكاسي، ليس لديه إرادة حرة، والرأس ليس أكثر حرية من الذيل. وحقيقة أنَّ الرأس كان سيفعل بشكل مختلف ليس لها أهمية أكبر من حقيقة أنَّ الذيل ما كان سيلدغ الرأس لو كان هناك منبه مختلف.

تجسّد أجهزتك الهضمية الدافع نحو الحفاظ على حياتك. وللحفاظ على حياتك يجب عليك تدمير الحياة الأخرى. وفي عام 1911، قدَّم قاموس الشيطان The Devil's Dictionary لأمبروز بيرس Ambrose Bierce التعريف الشوبنهاوري لمصطلح "صالح للأكل" edible: "جيِّد للأكل، وصحِّي للهضم، مثل دودة لضفدع، وضفدع لأفعى، وأفعى لخنزير، وخنزير لرجل، ورجل لدودة"

الغرض الطبيعي من التفسير غير المرئي لنتيجة سيئة هو تبرئة المشاركين؛ مجرَّد مصالح ذاتيَّة، وليسوا ضارين. ومع ذلك، يلومُنا شوبنهاور على إحباط إرادة الآخرين. فمن حيث المبدأ، يمكننا تجنُّب الوقوع في الخطأ من خلال عدم التصرُّف. العيش يعني القتل. ومن ثَمَّ، فإنَّ دورة الدمار هي عدالة قاسية. ويرى شوبنهاور هذا على أنَّه إثبات للعقيدة المسيحية للخطيئة الأصلية، فنحن نستحقُّ المعاناة.

القضاء على الانقسامات

المعاناة تتطلَّب من يعاني. ويجب أن يكون هناك تباين: الذات/ الآخر، الفاعل/ العميل، الذات/ البيئة، وما إلى ذلك. ويؤدّي محو جانبي الانقسام إلى تخفيف المعاناة.

الأنانية هي القوّة الغالبة في الشؤون الإنسانية، وهناك ارتياحٌ في وجهة النظر اللاأنانية للأخلاق.

في المُلاحظة المنفصلة، يهرب العالم من الصراع مع بيئته من خلال الانغماس فيها. والشيء نفسه بالنسبة إلى الفنَّان الذي يتعامل مع الموضوع الفني بوصفه متفرجًا غير مهتمٍ. وعلى وفق ذلك، يحذِّر شوبنهاور من تصوير الطعام؛ لأنَّه قد يحفّز الجوع، فالعري يثير الشهوة، ويدفع نحو الموادِّ الإباحية، فأسلم هدفٍ للتأمُّل هو الموسيقى الآلية.

السامي ينطوي على إبادة متبادلة، فحينما يرى متسلِّق الجبال عاصفةً تقترب فإنَّ الحجم الهائل يقلِّل من الأهمية. وبالنظر إلى المعادلة المثالية "أن تكون هو أن تُدرَك" سيكون متسلِّق الجبال على درايةٍ في الوقتِ نفسه بكيفية اعتماد العاصفة عليه. فمن دون تمثيله فإنَّ العاصفة عَدَم.

غياب الذات

دافع لايبنيز عن الحرية بتصوير كلِّ فرد على أنَّه يتبع برنامجه الخاص. وبدلًا من أن تكون ناجمة من أحداث خارجية، تتم مزامنة كلِّ فرد مع كلِّ فردٍ آخر في الأوركسترا. فكلُّ واحد منَّا هو ذاتيُّ السببية، بمعنى أنَّنا نتصرَّف من طبيعتنا الداخلية. لكلٍّ منَّا مصيرٌ ينسجم مع أقدار كلِّ شيء آخر، ونحن نتكيَّف مع الكون دون أن يخضعنا له.

وبحسب شوبنهاور، يتم تجريد حياتك من الكتلة العظيمة للحياة، فالنحَّاتون يتخيَّلون الشكل في كتلة من الحجر ثمَّ يبعدون كلَّ شيء آخر. وحياتك منحوتة عقليًّا من الحياة، لكن لا يوجد نحات يفصلك.

هناك تماثيل تصوّر نحّاتا قويًّا ينحت نفسه إلى الوجود من كتلة حجرية (شكل 19.2). وهذا التمثال لرجلٍ عصاميٍ هو موازٍ لإله لايبنيز الذي يجتذب نفسه إلى الوجود. والصورتان غير مترابطتين بشكل متساوٍ، فيجب أن يكون الخالق موجودًا قبل الخلق، ولا شيء يمكن أن يسبق نفسه.

الشكل 19.2 رجل عصامي لبوبي كارلايل Bobbie Carlyle في مركز لاي، جامعة سانت لويس.

نظرًا لعدم وجود ذات، فلا توجد إمكانية لتدمير الذات، فحينما يصبح الشكل خلفيَّة فإنَّك تصبح مجرَّد جزءٍ أقلَّ جاذبية من الحياة. ويفسِّر شوبنهاور الظواهر الخارقة على أنَّها أصداء من الحياة العقلية للموتى. لقد استمرَّت في نشاز جهنمي، وأصبحت أقلَّ

نميُّزًا من أيّ وقتٍ مضى. أنتَ لا تنتهي بصمت، أنتَ تستمرُّ كضوضاء بيضاء.

بدلًا من أن يكون الانتحار إنكارًا حقيقيًّا للحياة فإنَّ الانتحار هو تأكيدٌ غير متماسك للحياة. يحاول المُعاني اليائس الفرارَ من الوجود إلى اللاوجود، لكن لا توجد وجهة لهذه الرحلة. يمنح شوبنهاور شكلًا غير شخصي من الخلود: للحياة بعد "حياتك"

الإنسان أسوأ كائن

يتمتَّع الإنسان العاقل بمكانةٍ معرفيةٍ، حيث يستغلُّ المزايا التي تتحقَّق من التنبُّؤ بالظواهر والتحكُّم فيها. وبينما تعيش الكائنات الحيَّة الأخرى في الوقت الحاضر فإنَّ الناس يفكِّرون في المستقبل. وبما إنَّ الماضي هو دليل للمستقبل فإنَّ البشر يوسّعون أفقهم الزمني في كلا الاتجاهين.

يقارن شوبنهاور بين الحاضر البشري والسحابة الجوَّالة التي تخفي موقع الشخص الحالي، وتكثف جميع الأوقات الأخرى بالمقابل. تتحرَّك السحابة مع اتجاه الزمن: نحو الموت.

ما مضى لم يعد موجودًا، وكلُّ شيء سيصبح عَدَمًا، تبدأ لحظاتنا في قمَّة ساعةٍ رمليةٍ بلا قاع، وكلُّ لحظةٍ تسقط من المستقبل عبر عنق زجاجة الحاضر إلى هاوية الماضي.

الحاجة إلى الميتافيزيقا

التفاؤل هو الموقف الأكثر ملاءمةً للتكاثر، إذ يعتقد الناس بالفطرة أنَّ الغرض من الحياة هو السعادة. وحينما تنتهك المعاناة هذا الحق المكتسب يتساءل الناس عن السبب.

أحد التفسيرات، المألوف منذ الطفولة، هو أنَّ العذاب استجابة مستحقَّة لبعض المخالفات، إذ يتطلَّب الخلاص تحديد مَن تعرَّض للإهانة، وفهم طبيعة الإهانة، والتكفير.

ومع ذلك، فإنَّ كلَّ الجهود المبذولة للعثور على المعاقبين المخفيين تفشل، لا أحد هناك. تبدأُ الميتافيزيقيا حينما نتفادى هذا التفنيد التجريبي، ويصبح المعاقون غير ملموسين وغير مسموعين وغير مرئيين ... نظرًا لأنَّنا ننسب المزيد من الصلاحيات إلى هؤلاء العملاء المخفيين، فإنَّنا نحتاج إلى عددٍ أقلَّ منهم لتفسير مصائبنا، وهذا يسمح بالتكامل الرأسي لابتهالاتنا، فالآلهة الدنيا أصبحت زائدةً عن الحاجة من قبل الآلهة المتفوّقة. وفي النهاية، يخرج إلهٌ واحدٌ كليُّ القدرة من بين الحشود قادرٌ على القيام بأيِّ عملٍ فذٍّ.

أديان متفائلة مقابل متشائمة

إنَّ الأديان المتفائلة - مثل الوثنية - تقضي على تحيزاتنا من خلال طمأنتنا بأنَّ الحياة جيدة، إذ يدَّعي الوثنيون أنَّ نصيبنا الأرضي سوف يتحسَّن من خلال استرضاء الحكام الخارقين.

لا توجد مثل هذه الكائنات. ونتيجة لذلك، فإنَّ توحيد اليهود أقرب إلى الحقيقة من الشرك بالإله. ("إله واحد فقط!" هو مجاملة الملحد). وثمن هذا التطور الوجودي غير المكتمل هو التعصُّب الديني.

اليهودية تحتفظ بتفاؤل الوثنيين، فإلههم خلق العالم بنزوة. ويصفق الإله لعمله.

انتصرت المسيحية على اليهودية من خلال مواجهة حقيقة أنَّ الحياة مروعة، إذ يفضح الرافضون المسيحيون للعالم التحيّزات المتفائلة التي تثبط المشتتات.

فضلًا عن مكاسب الحياد، يشخّص المسيحيون بشكلٍ صحيحٍ المصدر الأساسي للمعاناة. بدلًا من أن تكون مصادفةً فإنَّ معاناتنا منهجية، ويمكن التنبُّؤ بها، وحتى قانونية وعادلة. لدينا رغباتٌ لا حصرَ لها ولكن فقط وسائل محدودة. والإحباط الدنيوي أمرٌ لا مفرَّ منه.

يخمّن شوبنهاور أنَّ التحليل المسيحي للمعاناة مأخوذ من التشخيص الأعمق

الذي حققته الديانات المتفوِّقة في الهند (ربَّما بواسطة قساوسة مصريين)، فالبراهمانية والبوذية تتعمَّق في لا واقعية الذات والأشياء. ونظرًا لأنَّ الهنود أقرب إلى الحقيقة لم يتفاجأ شوبنهاور بفشل المبشرين في الهند. لماذا يتحوَّل الهنود إلى الديانة المسيحية الأكثر بدائية؟ بدلًا من تحويل الغرب للشرق، فإنَّ الشرق سوف يحول الغرب. ستكون النهضة الشرقية عميقةً مثل عصر النهضة القائم على إعادة اكتشاف الحكمة اليونانية القديمة.

يعترف شوبنهاور بأنَّ المسلمين أجروا تحوُّلات في الهند: بحدِّ السيف، وهذا تراجعٌ؛ لأنَّ الإسلام أكثر تخلُّفًا من اليهودية (التي على الأقلِّ لا تبشِّر لغير اليهود):

الهياكل والكنائس والمعابد والمساجد في جميع البلدان والعصور، في روعتها واتساعها، تشهد على حاجة الإنسان إلى الميتافيزيقيا، وهي حاجةٌ قويةٌ لا يمكن تجاوزها، قريبة من المادية. يمكن للرجل ذي الإطار الذهني الساخر بالطبع أن يضيف أنَّ هذه الحاجة إلى الميتافيزيقا هي محتوى تابع متواضع مع أجرة هزيلة. وفي بعض الأحيان يسمح لنفسه بالرضا عن الخرافات الخرقاء والقصص الخيالية السخيفة. وإذا تم طبعها في وقتٍ مبكِّرٍ بما فيه الكفاية، فهي بالنسبة إلى الإنسان تفسيراتٌ كافيةٌ لوجوده وتدعم أخلاقه. تأمل القرآن مثلًا؛ كان هذا الكتاب الرهيب كافيًا لبدء دين عالمي، لإشباع الحاجة الميتافيزيقية لملايين لا حصرَ لها على مدى اثنتي عشرة قرنًا، ليصبح أساس أخلاقهم واحتقارهم الرائع للموت، وأيضًا لإلهامهم لحروبٍ داميةٍ ومعظم الفتوحات واسعة النطاق. وفي هذا الكتاب نجد الشكل الأكثر حزنًا وفقرًا من الإيمان بالإله. قد يضيع الكثير في الترجمة، لكنَّني لم أتمكَّن من اكتشاف فكرةٍ واحدةٍ عن القيمة فيه. تظهر مثل هذه الأشياء أنَّ القدرة على الميتافيزيقيا لا تسير جنبًا إلى جنب مع الحاجة إليها. (1819، 2:162).

تواطؤ العقلانية

العقلانية هي محاولةٌ لإنقاذ عزاءات الدين. فلمواجهة الأدلَّة التجريبية يذكرنا العقلاني بالمناسبات التي يتجاوز فيها العقل الحواس، وتخبرنا أعيننا أنَّ الأرض مسطَّحة وثابتة.

فيكشف العقل أنَّها مستديرةٌ ومتحرِّكةٌ.

تظهر المعاناة الهائلة لاحقًا أنَّه لا يوجد إلهٌ قويٌّ كليُّ المعرفة وخير. لكنَّ الحجَّة الأنطولوجية للعقلاني للأدلة المضادة للإله توضح بداهة أنَّ وجوده صحيح بالتعريف! وعلى وفق ذلك، يستنتج لايبنيز أنَّ الشرَّ قوَّة خيالية. وفي لعبة دوامة - merry - go around، تشعر أنَّ هناك قوة تدفعك بعيدًا عن المركز، لكنَّ "قوَّة" الطرد المركزي هي وهمٌ ناتجٌ من وجهة نظرك المحدودة. والمراقب الذي يقف خارج الإطار المرجعي الخاص بك سوف يكتشف فقط قوَّة الجاذبية اللازمة لمنعك من السفر في خطٍّ مستقيم.

وبحسب لايبنيز، نحن نعتمد على الخبرة فقط؛ لأنَّنا نمتلك قوَّةً حوسبيةً غير كافية. والتجربة هي مجرد ظل للعقل، سلسلة من الارتباطات التي تربطنا بالحيوانات. وبالنسبة إلى الإله، كلُّ عبارة هي حقيقة تحليلية. وبدلًا من أن تكون مصدرًا إيجابيًّا للمعرفة فإنَّ التجرِبة هي انعكاسٌ مذلٌّ لحدودنا.

احتواء السبب

في حين استعمل لايبنيز مبدأ السبب الكافي لتوسيع مجال ما يمكن تفسيره، كتب شوبنهاور أطروحته "الجذر الرباعي لمبدأ السبب الكافيThe Fourfold Root of the Principle of Sufficient Reason لإثبات النطاق المحدود للعقل. يتَّفق مع لايبنيز على أنَّ هناك سببًا لكلِّ شيء. ومع ذلك، يصرُّ شوبنهاور على أنَّ كلَّ تفسير يجب أن يبدأ بشيء معيَّن. ومن ثَمَّ لا يمكن للعقل أن يجيب "لماذا يوجد شيء بدلًا من العَدَم؟" ولا يمكن أيُّ شيء آخر، فوجود إرادة الحياة حقيقة قاسية.

تحدد فئة الشيء المعني أي نوع من التفسير ممكن. وكلُّ التفسيرات تتم من خلال الكشف عن الروابط الضرورية، فـ"يحب" يرتبط فقط بالإعجاب، ويجب أن ترتكز الأشياء المادية على كلِّ شيء آخر في المكان والزمان ولكن لا يمكن ربطها إلَّا بأشياء مادية أخرى. ويمكن للمفاهيم المجردة فقط الارتباط بالمفاهيم المجردة الأخرى (كما

في تفسيرات التعريف). وينطبق الفصل نفسه على الإنشاءات الرياضية والقوى المحفزة نفسيًّا، إذ لا يوجد سوى اتصالات طارئة بين الفئات. ومثلما يتم إنتاج النسل فقط من آباء من النوع نفسه فإنَّ الاستنتاجات يتمُّ إنتاجها فقط من مقدمات ضمن فئة الأشياء نفسها. وينتهك المثاليون الألمان في عصره (فيشته وشيلينج وهيجل) هذه الحدود.

ازدواجية الطموح

العلاقة الصحيحة بين الشيء في ذاته وبين أحاسيسنا هي علاقة مشابهة للعلاقة بين الأسطح المحدبة والمقعرة للوعاء. كلُّ جانب هو جانب من الشيء نفسه، والشيء نفسه ينطبق على جسمك، أنتَ على علمٍ به من الخارج ككائنٍ ماديٍّ. لكنَّك تدرك ذلك أيضًا من الداخل، من خلال ما تشعر به، كما تشاء. وحينما تضع يدك على يدك، لا تكون على دراية بتكوين النية أولًا ثمَّ تتلاقى الأيدي. بدلًا من ذلك، تشعر بالنية والحركة في وقتٍ واحدٍ كوجهين لشيء واحد. وإذا أهملت الجانب الذاتي فالنتيجة هي المادية، "فلسَفَة الذات التي تنسى أن تأخذ بالحسبان نفسها" (Schopenhauer 1958, 2:13).

وصولك المباشر إلى أشخاصٍ آخرين كأشياء مادية، لكن من حالتك الخاصَّة تدرك أنَّ أجسادهم لها جانب شخصي.

معظم الناس يعرضون علم النفس فقط في جزء من سلسلة الوجود، يتوقفون عند الثدييات، أو الأسماك، أو ربما الحشرات. وبما إنَّ الحياة مستمرة فإنَّ هذه الترسيم تعسفي. ويوسع شوبنهاور علم النفس عالميًّا:

يقول سبينوزا إنَّه إذا تم قذف الحجر في الهواء، لديه وعي؛ كان يعتقد أنَّه كان يتحرَّك بمحض إرادته. أضيف هذا فقط، أنَّ الحجر سيكون على حقٍّ، فالدافع المعطى للحجر هو الدافع بالنسبة إليَّ، وما يظهر في حالة الحجر على أنَّه تماسك وجاذبية وصلابة هو في طبيعته الداخلية الشيء نفسه الذي أدركه في نفسي على أنَّه إرادة، وما الحجر أيضًا لو أُعطي له علم لأدركه على أنَّه إرادة. (1819، 1: 126).

بصفته خبيرًا في علم النفس العمومي، لا يواجه شوبنهاور أيَّة مشكلة في شرح كيفية تفاعل العقل والجسد. ما لم ينقطع أبدًا لا داعي لإعادة ربطه. ولا يواجه عالم النفس العمومي أيَّة مشكلة في معرفة أنَّ هناك عقولًا أخرى، فالجسدية من دون عقلية أمر مستحيل. وبالضرورة، هناك عقولٌ أخرى.

من المسلَّم به أنَّ الجانب النفسي، الإرادة، لا يمكن الوصول إليه مباشرة، باستثناء جسد الفرد الخاص. ويمكن لكلِّ واحدٍ منَّا أن يعمم هذه النقطة. وكلُّ واحد منَّا هو مركز كرة لا نهائية وشاملة، وكلُّ واحد منَّا هو عالم مصغر.

التجريبية والعلم

العقلانيون متفائلون، يعدُّون الواقع كما يحكمه العقل والعقل مستجيب للاستحقاق. إذن ما يوجد جيد، وسيتحسن.

التجريبيون متشائمون، "كلُّ ما نعرفه عن العالم يعتمد على الخبرة" يلزمهم بكشف زيف مواسات ما وراء التجريبية. وأيُّ مصدر للقيمة يتجاوز إشباع الرغبة ممنوع. ونظرًا لأنَّ التجريبيين يقبلون حيادية الطبيعة ويعدُّونها أيضًا غير مبالية بالرغبة فإنَّهم يتوقَّعون الكثير من المعاناة التي لا طائل من ورائها.

تاريخيًّا، العقلانيون يسبقون التجريبيين، وهكذا يدخل التجريبيون إلى الحوار بشكل تفاعلي، مستجيبين لمحادثة احتكرها العقلانيون سابقًا. ونظرًا لأنَّ التجريبي يرفض افتراضات مسبقة تركيبية فإنَّهم يزيلون الكثير من العزاءات التقليدية التي اختلقها العقلانيون.

تبقى بعض العزاءات. وقد التقط ألبرت أينشتاين صورةً لشوبنهاور في دراسته في برلين عام 1918:

أعتقد مع شوبنهاور أنَّ أحد أقوى الدوافع التي تقود الرجال إلى الفنِّ والعلم هو الهروب من الحياة اليومية بوقاحة مؤلمة وكآبة يائسة، من قيود رغبات المرء المتغيرة باستمرار،

إذ تتوق الطبيعة المتقنة إلى الهروب من الحياة الشخصيَّة إلى عالم الإدراك والفكر الموضوعيين، يمكن مقارنة هذه الرغبة مع شوق سكان المدينة الذي لا يُقاوم للهروب من المحيط الصاخب والمكتظِّ إلى صمت الجبال العالية، حيث تتنقل العين بحريةٍ عبر الهواء النقي الهادئ وتتتبع باعتزاز الخطوط المريحة التي يبدو أنَّها بُنيت للأبد. (Einstein [1918] 2002).

اكتسب أينشتاين الصبر من حتمية شوبنهاور.

كان شوبنهاور سيشعر بالفزع؛ بسبب هفوات أينشتاين اللاحقة إلى العقلانية. أصبح أينشتاين متعاطفًا مع تعريف سبينوزا للإله بالطبيعة. ووحدة وجود Pantheism مراوغة: "لأنَّه من وجهة نظر أولية وغير متحيزة لن يخطر ببال أيِّ شخص أن يعدَّ هذا العالم إلهًا. ومن الواضح أنَّه يجب أن يكون إلهًا غير حكيم لا يفكِّر في تسلية أفضل من تحويل نفسه إلى عالم مثل العالم الحالي" (1851, 41).

التجريبية هي أكثر ملاءمةً للعلم وأقلُّ قدرةً على التهرُّب من تحديات الحسِّ السليم للدين، فكما يوضِّح الدليل المنطقي أنَّ الكون لا يبالي بنا، أظهر علماء الفلك أنَّ الأرض ليست في أيِّ موقع مفضَّل في النظام الشمسي أو المجرة.

نظرًا لأنَّ العلم يستعمل مفاهيم منفصلة لتصنيف واقعٍ مستمرٍ، فهو مشوَّه بطبيعته. ومع ذلك، لا يزال بإمكان العلم دعم الأطروحات الفلسَفيَّة. وقد جمع شوبنهاور أمثلة من العلماء الذين أثبتوا مبادئ نظامه.

في عام 1852 قدَّم لورد كلفن Lord Kelvin مفهوم الموت الحراري heat death، إذ يقترح قانون الديناميكا الحرارية التدمير التامَّ النهائي لكلِّ ما نهتمُّ به. ومع مرور الطاقة في التسلسل الهرمي للمستويات يتَّجه كلُّ شيء نحو حساء غير متمايز من الجسيمات. ونظرًا لأنَّه يمكن استعمال "العَدَم" للإشارة إلى غياب التمايز فإنَّ الاتجاه هو نحو العدم الكوني، "الموت الحراري"، حيث لا يوجد تمايز مهم.

قبل 10 أشهر فقط من وفاة شوبنهاور، نشر تشارلز داروين Charles Darwin كتاب أصل

الأنواع The Origin of Species. ووضع هذا الكتاب الكثير من أطروحات شوبنهاور على أسسٍ علميةٍ مهنيةٍ، إذ ينعكس عمى إرادة الحياة في مبدأ داروين القائل بأنَّ الانتقاء الطبيعي ليس له بصيرة. ولا يمكن للطبيعة أن تتراجع خطوة واحدة لتتقدّم خطوتين إلى الأمام. ومع ذلك، فإنَّ شوبنهاور يفتقد مبدأ الانتقاء الطبيعي، لديه تصوُّر أفلاطوني للأنواع بوصفها نماذج أولية، وهذا يجعل الفروق الفردية بين أعضاء النوع نفسه غير ذات صلة.

داروين أكثر تفاؤلًا من شوبنهاور، إذ يعتقد داروين أنَّ الأنواع تميل إلى التقدُّم، ويسمح بوراثة بعض الخصائص المكتسبة. لذا؛ فإنَّ فوائد العمل الجاد، مثل تمديد الزرافة رقبتها للوصول إلى أوراق أطول، يمكن أن تنتقل إلى الأجيال القادمة. وتصبح التلميحات الختامية إلى الخالق أكثر وضوحًا في الطبعات اللاحقة من أصل الأنواع.

يعتقد شوبنهاور أنَّ التجارب الشخصيَّة تؤكِّد تشاؤمه الرائع. وحينما كتب له أصدقاؤه عن مشكلاتهم، عزَّاهم شوبنهاور بقيمة تجاربهم تأكيدًا لفلسفته: "يمكن مقارنة الحياة بقطعةٍ من مادَّة مطرزة، يأتي كلُّ شخص في النصف الأوَّل من وقته لرؤية الجانب العلوي، ولكن في الشوط الثاني، الجانب الخلفي. وهذا الأخير ليس جميلًا جدًّا، ولكنَّه أكثر إفادة؛ لأنَّه يمكِّن المرء من رؤية كيفية ربط الخيوط معًا" ([1890] 2007، 102).

20. بيرغسون: تطوُّر الغياب

عَدَّ كتاب تشارلز داروين (1809 - 1882) أصل الأنواع في البداية تأكيدًا محبطًا لتشاؤم شوبنهاور الإلحادي. وقد اكتشف هربرت سبنسر (1820 - 1903 Herbert Spencer) جانبًا فضيًّا في هذه السحابة المظلمة، إذ تتحسَّن الحياة لأنَّ هناك "البقاء للأصلح"، وهذا التحسين يعوِّض عن المعاناة. فإذا تركنا الطبيعة تأخذ مسارها فإنَّ الجنسَ البشري سيحقِّق مصيره تدريجيًّا، وإذا تدخَّلنا في الاتجاه الصحيح فإنَّ التقدُّم يتسارع. ولذلك؛ يجب أن يكون أيُّ تجديف من الإصلاحيين الاجتماعيين في اتجاه مجرى النهر، والتجديف ضدَّ التيَّار التطوُّري من شأنه أن يزيد البؤس على المدى الطويل.

تبنَّى المفكِّرون الفرنسيون هذا التفسير التقدُّمي لنظريَّة التطوُّر. وحاول هنري بيرغسون (1859 - 1941 Henri Bergson) التوفيق بين الكاثوليك وداروين من خلال اقتراح أنَّ الإله يعمل من خلال اليد الخفية للانتقاء الطبيعي. والمتصوِّفة فقط هم من يشعرون بلمسة اليد مباشرة، والبقيَّة منَا لا يشعر إلَّا باليد الثانوية الإلهية. "الدين للتصوُّف مماثل لما يعنيه التبسيط للعلم" ([1932] 1977, 204). فتمَّت ترجمة "ستعيش" Wille zum Leben لشوبنهاور إلى "جادل بقوَّة" élan vital عند بيرغسون.

وضعت الكنيسة الكاثوليكية غير المرخصة الزمنَ والإرادة الحرة، والمادة والذاكرة والتطور الإبداعي في فهرس الكتب المحظورة (مرسوم 1 يونيو 1914). وبيرغسون هو ديناميكيّ وحدة الوجود، فالإله يفيض إلى ما لا نهاية من عملية خلقه. واستمرَّ بيرغسون في مغازلة الكنيسة من خلال التلميح إلى أنَّه قد يتحوَّل إلى الكاثوليكية.

يؤكِّد الدافع الإبداعي لبيرغسون الطبيعةَ الإيجابيةَ للواقع، وكان ليوكيبوس Leu-cippus رائدًا في الفلسَفَة السلبية بافتراض الفراغ. وتغلَّب إسحاق نيوتن على المقاومة المسيحية، وأدَّى نجاح الفيزياء إلى ظهور فلسَفَةٍ ميكانيكيةٍ للتغييرات المنفصلة من الذرَّات المحدَّدة بدقَّة. وتم تعريف البرد بأنَّه غياب الحرارة، والظلام كغياب الضوء، والصمت كغياب الصوت. وبعد انحسار تأليه نيوتن للمكان بقي تقشُّف المكان

فقط: بارد، مظلم، صامت، لا يعتمد بأيِّ حالٍ على الأشياء في المكان. وكان الفراغ هو الحالة الافتراضية. وعبر الحدود في ألمانيا تلاقت المثالية مع المادية الذرية من خلال التعامل مع الكينونة واللامبالغة على أنَّها حقيقيةٌ على حدٍّ سواء، التوتُّر بينهما يؤدِّي إلى الصيرورة.

إدراك العَدَم؟

الإدراك هو إدراك شيء ما، يجب أن يكون هذا الشيء سببًا للتجرِبة الإدراكية. لذلك؛ لا يمكننا إدراك العَدَم، هذا من شأنه أن ينتهك كلًّا من قصد الإدراك (الإدراك هو إدراك شيء ما) والمتطلّب السببي (لا يمكن للمرء أن يدرك X إلَّا إذا كان X هو سبب إدراكه الخاص). ومع ذلك، فإنَّنا نرى الظلال (غياب الضوء)، ونسمع الصمت (غياب الصوت)، ونشعر بالثقوب (غياب المادة).

حاول الفيلسوف الألماني الرائد جورج هيجل (1770 - 1831) Georg Hegel حلَّ مأزقنا بالمساواة الميتافيزيقية، إذ يشير هيجل إلى عالم الذرة اليوناني القديم ديموقريطس Democritus، فيصنِّف الوجود وعدم الوجود على أنَّهما حقيقيَّان على حدٍّ سواء. هناك شيء يمكن رؤيته في كهف بلا ضوءٍ: العَدَم، وهناك شيء يُسمع في غرفة صامتة: العَدَم.

عَدَّ الفرنسيون - تحت قيادة بيرغسون - أنَّ الواقع إيجابيٌّ بالأساس أمر بديهي، وكان لا بدَّ من إبعاد تفسير إدراكات الغياب.

الغياب كمشاهد

حينما سُرقت لوحة الموناليزا Mona Lisa في 21 أغسطس 1911، مرَّ غيابها دون أن يلاحظه أحدٌ من المسؤولين في متحف اللوفر. وفي 22 أغسطس، اشتكى فنَّان قام برحلة خاصَّة لنسخ الموناليزا إلى أحد الحرَّاس. وتم البحث والتفتيش والفحص في متحف اللوفر. لا شيء! وأغلقت الشرطة متحف اللوفر لمدَّة أسبوعٍ لإجراء تحقيق مع العاملين.

وحينما أُعيد فتحه تشكَّلت قائمة انتظار طويلة لغياب الموناليزا. وجاء غيابها بالباريسيين أكثر من حضورها (شكل 20.1). ووصفت صحيفة لي فيغارو Le Figaro الصباحية اليومية، التي أُسِّست عام 1826 وما زالت تنشر، المشهد بأنَّه "فراغ هائل ومروع ومتَّسع". وبحسب مراسلها فإنَّ "الحشود لم تنظر إلى اللوحات الأخرى، لقد تأمَّلوا بإسهاب في المكان المغبر حيث كانت الموناليزا الإلهية تبتسم في الأسبوع السابق".

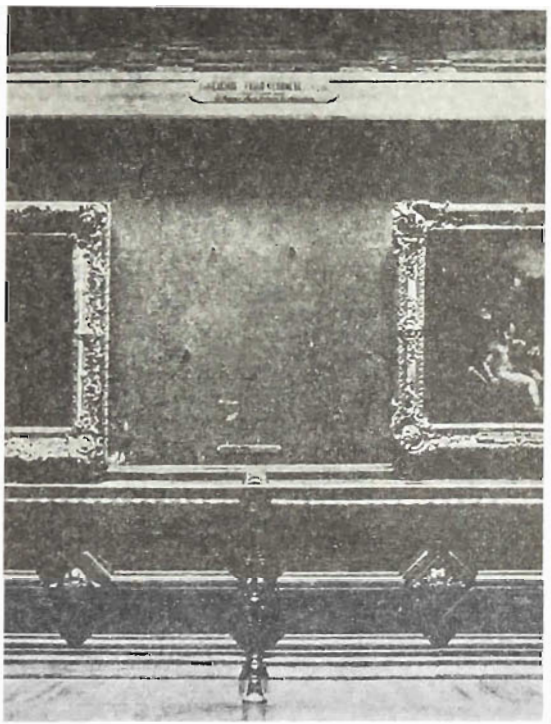

الشكل 20.1 جدار شاغر في صالون كاريه في متحف اللوفر

بعد سرقة لوحة الموناليزا في عام 1911.

وبقي "جدار العار" شاغرًا لأسابيع لتلبية الطلب. وسمح هذا بمشاركة السيَّاح الأجانب، مثل فرانز كافكا Franz Kafka وصديقه ماكس برود Max Brod. وواصل الثنائي

حجَّهما في المساء التالي من خلال حضور السينما لمشاهدة محاكاة ساخرة: نيك وينتر وسرقة الموناليزا.

طُبعت بطاقاتٌ بريديةٌ حتى يتمكَّن المتدينون من الصلاة إلى القديس أنتوني Anthony، شفيع الأشياء المفقودة (شكل 20.2). وحينما يتم وضع البطاقة البريدية في ضوء الشموع فإنَّ الحرارة تجعل لوحة الموناليزا تظهر.

الشكل 20.2 بطاقة بريدية للقديس أنتوني.

يُصلي الكاثوليك للقدّيس أنتوني؛ لاستعادة المفاتيح والمحافظ وكلاب البودل. لكنَّهم لا يستطيعون الصلاة لاستعادة إيمانهم المفقود، فإذا كنت تؤمن أنَّ الإله غير موجود فلا أحد يصلي إليه. وعبارة "الملحدون لا يعبدون شيئًا" Atheists worship

nothing تُقرأ بشكل صحيح وصفًا لغير المؤمنين بأنَّهم غير عابدين nonworshipers بدلًا من عابدين للعَدَم worshipers of nothing. وقد نقدِّم الاستجابة نفسها لأولئك الذين يزعمون أنَّ الباريسيين الفضوليين جاؤوا لإدراك العَدَم. ففي ظلِّ هذه الفرضية غير الإدراكية جاء الباريسيون إلى متحف اللوفر لعدم رؤية الموناليزا.

الغرابة: لماذا يسافر الباريسيون إلى متحف اللوفر بغرض عدم الرؤية؟ الملحدون لا يذهبون للكنيسة؛ لكي لا يصلوا!

على عكس الملحدين، كان الباريسيون يعتزمون الحصول على نوعٍ معيَّنٍ من الخبرة المرئية المقترنة بموقع معين. ظل مصمَت في المكان.

ومع ذلك، بدا أنَّ الباريسيين الفضوليين يقرون بأنَّه لا يوجد شيء للنظر إليه، وإذا كان الباريسيون الفضوليون قد شاهدوا الموناليزا في متحف اللوفر لكانوا قد فُوجئوا بغياب غياب الموناليزا.

رؤية بلا هدف؟

هل كان الباريسيون الفضوليون يحاولون الدخول في علاقة إدراكية لا تتطلَّب أيَّ شيء للنظر إليه؟ على الرغم من قراءة "رؤية" بشكل عام على أنَّها فعل متعدٍ فإنَّ بعض أنواع التجارب المرئية لا تتطلَّب أيَّ شيء خارجي يمكن رؤيته.

يسأل ليوناردو دافنشي Leonardo da Vinci: "لماذا ترى العين الشيء أكثر وضوحًا في الأحلام مِمَّا في التخيل خلال اليقظة؟" الجواب الضمني هو أنَّ بعض التجارب البصرية تستمرُّ مباشرة، ولا يحتاج الحالم إلى التأقلم مع المسافة أو الضباب أو قصر النظر.

ومع ذلك، كان الباريسيون الفضوليون مهتمين برؤية شيء عام، رؤية الأحلام خاصَّة، كان غياب الموناليزا في العالم المشترك، وبشكلٍ أكثر دقَّة، في صالون كاريه.

يمكن تقديم الإيقونة المرئية على أنَّها كائن في مكان عام ويمكن أن تتضمَّن عمليَّات مثل التعرف. انظر إلى الصورة الفوتوغرافية السلبية في الشكل (20.3).

الشكل 20.3 معكوس سالب.

أعد توجيه نظرك إلى صفحة فارغة، سوف تواجه صورة سلبية، وقد تتعرَّف على صورة الموناليزا، فعلى الرغم من عرضها في مكان عام فإنَّ الصورة خاصَّة.

تتضمَّن الصور البعدية السلبية إرهاقًا للعين. وهناك أنواعٌ اجتماعيةٌ من التصوُّر تتضمَّن تغييرات أعمق في النظام البصري. لكنَّ الباريسيين لم يكونوا في سعي وراء الرؤية، لم يكونوا يزرعون هلوسة جماعية، ولم يحاولوا إدراك الكائنات الروحية كما لو كانوا يحضرون جلسات تحضير الأرواح séances. ذهب الباريسيون إلى متحف اللوفر متيقظين وصالحين، كانوا يشاركون في مراقبة ظاهرة عامَّة جيِّدة الإضاءة.

عَدَّ الباريسيون غياب الموناليزا شيئًا يمكن تصويره، وقد صوروها بالفعل!

هزيمة رومانسية؟

يستمرُّ الأشخاص المصابون بالعمى في الحلم بصريًّا، وحينما يستيقظون يتخيَّل الكثيرون المشهد أمامهم، ويختلفون عن الأشخاص المكفوفين خلقيًّا الذين يفوتون فرصة تطوير النظام البصري. وبهذا المعنى، يختلف الأشخاص المصابون بالعمى تمامًا في قدرتهم على الرؤية، فالكلُّ لا يرون، ولكن بعضهم يرى بشكلٍ تقريبيٍّ أكثر من الآخرين. أولئك الذين زاروا متحف اللوفر اقتربوا من رؤية الموناليزا أكثر من أولئك الذين بقوا في المنزل، ربَّما كانوا يرغبون فقط في رؤية الموناليزا بشكل تقريبي، دون أن يروها في الواقع.

في فيلم فرانك كابرا Frank Capra عام 1946 إنَّها حياة رائعةIt's a Wonderful Life، تهمس الفتاة ماري هاتش في أذن الصبي المغامر جورج بيلي: "هل هذه هي الأذن التي لا يمكنك السماع بها؟"، جورج بيلي، سأحبّك حتى يوم مماتي. تعبّر ماري عن محبَّتها بالاقتراب للسماح له بسماع إعلانها عن الحبِّ، وقد يكون زوَّار المتحف الفرنسي قد شاركوا في رمزية مماثلة، احتجَّ الجمهور على حقيقة أنَّه لم يعد بالإمكان مشاهدة لوحة الموناليزا في متحف اللوفر.

لكن الكثير من الباريسيين الفضوليين عدُّوا رحلتهم إلى متحف اللوفر نجاحًا وليست إخفاقًا نبيلًا، لقد تدافعوا لإلقاء نظرة فاحصة على غياب الموناليزا، واشتكى الباريسيون القصيرون في النهاية البعيدة من قائمة الانتظار من أنَّهم لا يستطيعون رؤية أيِّ شيء، وانتظر الجميع في الطابور لإتاحة الفرصة لعرض غياب الموناليزا، وحينما جاء دورهم تبنوا زاوية الرؤية المثلى (بالنسبة إلى مستوى عين الراصد والمسافة إلى اللوحة).

باختصار، وضعنا الباريسيون الفضوليون في معضلة، لا يمكننا العثور على شيءٍ إدراكيٍّ لزيارتهم لمتحف اللوفر. ومع ذلك، لا يمكننا تفسيرهم بطريقةٍ خيريةٍ على أنَّهم يسعون إلى عدم رؤية الموناليزا.

ما وراء المعرفة لبيرغسون

قبل ثلاث سنوات فقط من سرقة الموناليزا، ادَّعى الفيلسوف الفرنسي الأكثر شهرة في ذلك العصر هنري بيرغسون Henri Bergson أنَّه دحض إمكانية إدراك الغيابات. وفي الفصل الأخير من التطوُّر الإبداعي كتب بيرغسون:

حينما أقول: "هذه الطاولة سوداء"، فأنا أتحدَّث عن الطاولة، لقد رأيتها سوداء، وحكمي يعبِّر عمَّا رأيته. لكن إذا قلت: "هذه الطاولة ليست بيضاء"، فأنا بالتأكيد لا أعبِّر عن شيء ما أدركته؛ لأنَّني رأيت الأسود وليس غياب الأبيض. لذلك؛ في العمق، ليس على المنضدة نفسها أصدر هذا الحكم، بل على الحكم الذي سيعلن أنَّ الطاولة بيضاء، أنا أحكم على الحكم وليس على الطاولة. (1911، 303 - 4).

من الناحية المنطقية، تعدُّ التقارير "الإدراكية" السلبية شكلًا من أشكال ما وراء المعرفة metacognition التي يتمُّ الخلط بينها وبين الإدراك على مستوى الكائن.

النفي ليس أبدًا "فعلًا كاملًا للعقل" (Bergson 1911, 287). وبدلًا من تسجيل كيف تسير الأمور، تتحوَّل الأحكام السلبية إلى عالم الاحتمال.

لقد صقل علماء المنطق المثاليون بالفعل عقيدة كانت القائلة بأنَّ الأحكام السلبية هي أحكام أعلى مرتبة: "المهمَّة الخاصَّة بالأحكام السلبية هي رفض الخطأ" ([1781] 1965, A709/B737). ويبدع بيرغسون من خلال الجمع بين ما وراء المعرفة واللا معرفية noncognitivism، فبدلًا من التركيز على القيمة الحقيقية لتقارير الإدراك الحسي السلبية يؤكد بيرغسون دورَها في التعبير عن المشاعر وإثباتها.

وبحسب بيرغسون، يتمُّ تنفيذ فعل كلام تذكيري admonitory بعبارة: "الطاولة ليست بيضاء". والرفض هو القيام بشيء ما؛ للتحذير من خطأ محتمل.

النفي أيضًا يعبِّر عن المشاعر، يركز بيرغسون على الندم (1911، 311)، فعروس تتنهد قائلةً: "الطاولة ليست بيضاء"؛ لأنَّها طلبت طاولةً بيضاء. يشير هذا إلى أنَّ إدراك الغياب يختلف باختلاف العوامل التي تزيد الندم، ويكون الندم أكثر حدَّةً بالنسبة

إلى الخيارات غير العادية التي كان من الممكن بسهولة تحديدها بالطريقة الأخرى. ويرتبط الندم بالمعاناة، والإيحاءات بالوفاة، والتفرُّغ للتأمُّل، وقرب الحدوث، وعدم رجوع النتيجة.

يشكُّ ريتشارد جيل (Richard Gale 1976، 59) في أنَّ بيرغسون قد خلط بين النفي والإنكار، فإنكار p هو فعل كلام مستقل منطقيًّا عن قيمة الحقيقة لp ، ففضلًا عن ذلك، يستلزم الإنكار وجود شخصٍ ما (المنكِر)، والقوانين المنطقية التي يمكن قبولها للنفي (النفي المزدوج، استبعاد الوسط) غير محتملة للإنكار.

منذ أن كتب بيرغسون قبل تمييز أوستن (J. L. Austin 1975) بين الأفعال التنبيهية illocutionary والنواتج التأثيرية perlocutionary ظلَّت الشحنة ثابتة. ومع ذلك، يمكننا إنقاذ المزيد مِمَّا يقوله من خلال رؤيته بوصفه معبرًا مبكرًا عن الغياب، إذ يقول الشخصاني إنَّ "X غائب" تعني "هناك توقُّع محبط لـX ". وينكر التعبيري أنَّ " Xغائب" يبلغ عن أيِّ شيء. وبدلًا من ذلك، ما هي إلَّا تنفيس عن خيبة أمل بـX . في حين أن التقرير يمكن أن يكون صحيحاً أو خاطئاً، فإن التنهدات ليس لها قيمة حقيقية.

القواعد هي دليل غير كامل عند فصل التقارير الإدراكية الحقيقية عن التقارير الحسية الزائفة للأشياء السلبية، إذ يعلن قائد القطار: "انتبه للفجوة عند خروجك من القطار". يبدو هذا مشابهًا لـ "راقب الحزام عند خروجك من القطار". لكن لا يوجد شيءٌ اسمه فجوة.

وبحسب بيرغسون، فإنَّ الفجوات مستحيلة، الحقيقة هي كلّ شيء هناك، والواقع لا يشمل ما هو ليس كذلك.

وبينما المخلوقات المنعزلة التي تعيش في الحاضر يمكن أن تصدر أحكامًا إيجابية فإنَّ الأحكام السلبية مخصَّصة للمخلوقات الاجتماعية التي تتذكر الماضي ولديها توقُّعات بشأن المستقبل، فالتقارير السلبية "الإدراكية" تعتمد على الذاكرة والاستدلال أو المهارات الاجتماعية، ولا تعتمد فقط على أعضاء الحسّ.

لا يستطيع المصاب بفقدان الذاكرة إصدار أحكامٍ سلبيةٍ (1911، 297)، إذ يفتقر إلى المقدّمات المنطقية حول الماضي اللازمة لتأسيس التوقعات. الذاكرة غائبة، فليس هناك غيابات.

التقارير السلبية "الإدراكية" تستفيد بشكل أساسي من قدرة اللغة لدينا (1911، 308)، فوظيفة الحكم السلبي هي التواصل، وفاقد القدرة على الكلام بالكامل لن يكون قادرًا على إصدار أحكام سلبية.

الإدراك الحقيقي يعتمد فقط على الحواس، وهذا هو السبب في أنَّ فقدان الذاكرة، والتفكير، واللغة، والمهارات الاجتماعية ليست معوّقات بصرية. ومن ثَمَّ، فإنَّ إدراكنا الواضح للأشياء السلبية لا يمكن أن يكون تصوُّرات حقيقية.

لم يرَ الباريسيون الفضوليون سوى حقيقة إيجابية، مثل الأوتاد على الحائط المترب. وحينما قالوا: "أرى غياب الموناليزا" أعربوا عن أسفهم.

قد يسمح أحد التعبيريين المعاصرين بأنَّ بعض الباريسيين على الأقلِّ كانوا ينتحبون ببساطة على غياب الموناليزا ولم يكونوا يهدفون إلى أيِّ عملٍ في المستقبل، فـ "لمَّا بكى سليمان على موت ابنه فقال له شخص: البكاء لن يفيد. أجاب: واسفاه، ولذلك أبكي؛ لأنَّ البكاء لا يفيد" (Bacon 1859, 113). وستكون أخبار نهاية العالم مؤسفة على الرغم من أنَّ الرثاء لن يهدف إلى تحسين المستقبل.

على الرغم من أنَّني صنفت بيرغسون على أنَّه تعبيري، فإنَّه يشبه البراغماتيين الأمريكيين في ميله إلى التطلُّع إلى النتيجة العملية لما نقوله، فالرثاء بشأن الموناليزا ضغط بالفعل على الشرطة لإجراء تحقيق جادٍّ. فضلًا عن المشتبه بهم المعتادين، ألقى المحقِّقون نظرةً فضوليةً على حركة الفنِّ الحديث، وكانت تلك الحركة الأيقونية مدعومةً بفلسَفَة بيرغسون في الإبداع، وكان الفنُّ الكلاسيكي - الذي تجسّده الموناليزا - ثابتًا وتجاوزه التصوير الفوتوغرافي، فالحياة الحقيقية هي في الواقع ديناميكيةٌ ومنظوريةٌ وغير ميكانيكية.

افترض المحقِّقون أنَّ سرقة جوهرة تاج متحف اللوفر كانت مزحةً انتقاميةً تهدف إلى إذلال القيمين على المعرض المعارضين للفنِّ الحديث. كان العداء ضدَّ المؤسَّسة الفنية شديدًا. ووقع متعهد بابلو بيكاسو Pablo Picasso، غيوم أبولينير Guillaume Apollinaire، بيانًا يهدِّد بحرق متحف اللوفر. وامتلك أبولينير تمثالين مسروقين من متحف اللوفر، كان بيكاسو قد درسهما؛ من أجل سيدات افينيون Demoiselles d'Av-ignon، وهي لوحة مميزة للفنِّ الحديث. وبعد أن تخلَّى الثوَّار عن خطَّة لإلقاء التماثيل في نهر السين، سلَّم أبولينير التماثيل إلى محرر صحيفة خوفًا من القبض عليه لسرقة الموناليزا. وجاء هذا الحلُّ الوسط بنتائج عكسية، إذ تم القبض عليه والضغط عليه لتوريط بيكاسو. وتجنّب بيكاسو السجن من خلال إنكار العلاقة مع أبولينير، فخلَّصته كذبة بيكاسو من كونه مشتبهًا به، وساعدت بالنتيجة في إعادة توجيه الشرطة نحو الجاني الحقيقي. وفي مقابلة عام 1923 مع آرت نيوز، عرَّف بيكاسو الفنَّ بأنَّه كذبة تقول الحقيقة.

يتَّفق بيرغسون مع البراغماتيين الأمريكيين على أنَّ العمل له الأولوية على التفكير، ومع ذلك، لا يربط بيرغسون الحقيقة بالفائدة، فالمنفعة بدلًا من ذلك هي مصدر الوهم.

وبحسب بيرغسون، نفكِّر لنتصرف. وقد تمَّ تصميم الفعل لسدِّ الفجوة بين الرغبة والواقع، ويضيق انتباهنا على هذه الفجوة، ونهمل الخلفية الإيجابية اللازمة لاستيعاب الفجوة، ويصبح هذا الفراغ لوحةً فارغةً يجب أن نطرز عليها حقيقة إيجابية، وهذه العادة المتمثلة في التركيز على الفجوات تجعل العدم يبدو وكأنَّه الحالة الافتراضية، ويصبح الواقع الإيجابي هو الشيء الذي يحتاج إلى تفسير.

ومن أين سيأتي التفسير؟ من عالم الحقائق الضرورية. وهكذا فإنَّ الافتراض المسبق بأنَّ العالم الفارغ ممكن أن يشجع مفهوم أفلاطون للواقع حيث تكون علامة الحقيقة هي الدوام. ونظرًا لأنَّ بيرغسون يعدُّ الواقع ديناميكيًّا فإنَّه يحتاج إلى تحدي الافتراض القائل بأنَّ العدم المحض ممكن.

اللغة هي خادم الفكر، ومن ثَمَّ، هناك سلسلة أوامر تنزل من الفعل إلى الفكر، ومن الفكر إلى اللغة، وينعكس انشغال الفعل بالفجوات في لغة النفي والعدم.

ظاهريًّا، يبدو أنَّ "طروادة غير موجودة" هو تأكيد لواقع سلبي، تمامًا كما إنَّ "طروادة موجود" هو تأكيد لواقع إيجابي (1911، 312). لكنَّ السلبية الوجودية "طروادة غير موجود" هي في الواقع بيان علائقي، يلمح إلى حقيقة إيجابية تمنع حقيقة "وجود طروادة"، و"طروادة غير موجود" هو في الواقع تأكيد مزدوج: التأكيد الأول هو النص التحذيري: "أي حكم على وجود طروادة سيكون خاطئًا"، والتأكيد الثاني هو التعميم غير المحدد بوجود حالة إيجابية تمنع طروادة من الوجود.

يهدف هجوم بيرغسون على تصوُّر الأشياء إلى تقويض أيِّ أساسٍ تجريبيٍّ للإيمان بالأشياء السلبية. لكنَّه ليس بأيِّ حالٍ من الأحوال ملحدًا بشأنها على المستوى الميتافيزيقي. يعتقد بيرغسون أنَّ الأشياء السلبية مستحيلة.

يمكن إعادة صياغة الحديث عن الغياب النسبي في ملاحظات ما وراء المعرفية، لكنَّ الميتافيزيقيين يقعون في حالة من عدم الاتساق من خلال إساءة تفسير هذا الغياب النسبي على أنَّه غيابات مطلقة. ولا يمكننا تكوين صورة ذهنية عن العدم المطلق، فنظرًا لأنَّ الحديث عن العدم لا تدعمه الأفكار فإنَّ "لماذا يوجد شيء بدلًا من العَدَم؟" هو سؤال لا معنى له.

يمكننا تجربة الإبادة المحلية، لكن هذه مجرد استبدالات لشيء إيجابي بآخر. إذا تم حرق لوحة الموناليزا ستتحوَّل الصورة إلى رماد وحرارة وغازات. وكلُّ ذلك شيء، فقط شيء أقلُّ تفضيلًا.

الإبادة ليست عملًا يزول. أي وعي بعدم وجود شيء سيكون هزيمة للذات: "في اللحظة التي ينطفئ فيها وعيي، يضيء وعي آخر ... لقد نشأت في اللحظة السابقة لتشهد انقراض الأولى" (Bergson 1998, 278).

حينما يكون هناك حديث عن الإبادة يجب أن نبحث عن المترابطات الخفية.

وعلى وجه التحديد، تتطلَّب الإبادة دائمًا مبيدًا وبديلًا لما كان موجودًا من قبل.

"لماذا يوجد شيء بدلًا من العَدَم؟" يفترض بشكل خاطئ إمكانية العدم التام، ويتم الدفاع عن الافتراض المسبق أحيانًا بحجَّة الطرح: تخيَّلْ أولًا عالمًا به ثلاثة أشياء، ثمَّ عالمًا به كائنان، ثمَّ واحد، ثمَّ صفر كائنات. ها هوا الكون الفارغ.

يعترض بيرغسون على أنَّ هذه الوصفة ترتكب مغالطة التقسيم، ففرضية أنَّه يمكن طرح أي شيء لا يعني ذلك أنَّه يمكن طرح الكل. ويمكن أن تبقى الكسرولة[1] casserole من دون مكوّن معيّن، لكن لا يمكن أن تبقى من دون أيّ مكون.

العدم التام يتطلَّب غياب الزمن، لكنَّ الوعي بالغياب يتطلَّب الإيمان بوجود الزمن: "هناك غياب فقط بالنسبة إلى كائن قادر على التذكر والتوقُّع. لقد تذكَّر شيئًا ما، وربَّما توقَّع أن يصادفه مرةً أخرى؛ يجد آخر، ويعبّر عن خيبة أمله من توقعه ... بقول ذلك ... صادف "العَدَم" (Bergson 1911, 281). الواقعية لها الأسبقية على الاحتمال، والاعتقاد بأنَّ شيئًا ما ممكن هو مجرَّد التفكير في أنَّ شيئًا آخر يمنعه من الظهور. والعالم الفارغ مستحيل؛ لأنَّه لن يكون هناك ما يمنع الأشياء من الظهور، كلُّ شيء لديه قصور ذاتي[2] inertia نحو الوجود.

حدس بيرغسون الأساسي هو أنَّ الواقع إيجابي، وأيُّ حقيقة سلبية يجب أن تكون حقيقةً إيجابيةً غير مباشرة. مثلًا: يجب تفسير رؤية الثقوب في الصفحة على أنَّها رؤية صفحة مثقبة، حيث يُفهم ذلك على أنَّه شكل معيَّن.

التوازي الشكي بين الغيابات والأسباب

هناك تشابه بين شكوك بيرغسون حول إدراك الغياب وشكوك ديفيد هيوم David Hume في إدراك السببية. فبحسب هيوم، كلُّ ما نشهده هو سلسلة من الأحداث،

---

(1) أكلة تتألف من مكونات عِدَّة. (المُترجِم)

(2) استمرار الكائن بحركته الحالية حتى تتسبَّب قوَّة معيَّنة في تغيير سرعته أو اتجاهه. (المُترجم)

ويُستدلُّ على السببية بوصفها قوَّةً تعمل خلف الكواليس.

درس ألبرت ميتشوت (Albert Michotte 1946) الظروف التي ستظهر فيها إحدى الكرات وكأنَّها تطارد كرةً أخرى أو تقودها أو تجبرها على التحرك، وصنع علماء النفس اللاحقون مقاطع فيديو تثير الإسناد السببي، وقدَّموا الأفلام دليلًا على أنَّ السببية يمكن إدراكها. لكنَّ هيوم سيستشهد بالأفلام دليلًا صارخ ضد وجود علاقة سببية في العالم. يرى المشاهد فقط إطارات فيلم، لا علاقة سببية تربط أيٌّ منها بخلفه. وكلُّ ما قدمه علماء النفس هو دليلٌ إضافيٌّ على أنَّ الإسناد السببي يمكن أن يتم تشغيله دون أيِّ سبب أساسي.

بدلًا من تبرير الثقة في حدث مستقبلي، فإنَّ إسناد السببية يعبِّر عن الثقة، ويحاول إثارة تلك الثقة في الآخرين. فضلًا عن ذلك، فإنَّه يضع الأساس للثناء واللوم والعلاج. ونظرًا لأنَّ لدينا أدوارًا مختلفة سيختلف البحث عن "السبب". ويرشح كلٌّ من الشرطة ورجل الطقس ومهندس الطرق أسبابًا مختلفةً لحادث السيارة. وكما يتَّضح من مناقشة الإغفالات، ستؤثر هذه العوامل أيضًا في الأحكام السلبي. ويتخذ هيوم الخطوة الإضافية المتمثلة في إنكار وجود أيِّ سبب أساسي، إذ تولد الارتباطات استجابة معتادة، في هذه الحالة التنبُّؤ بحدوث النوع نفسه من الأحداث كما حدث. ويُسقط المُدرك قوَّة العادة هذه على الظواهر الخارجية. وبالمثل، يمكن أن يجادل بيرغسون بأنَّنا نلقي بمشاعر الإحباط السلبية على العالم الخارجي. ولاعب الجولف الغاضب يركل الحفرة التي أفسدت لعبته.

وبحسب بيرغسون، فإنَّ الوعي مصمَّم لرؤية الكأس على أنَّه نصف فارغ بدلًا من نصفه الممتلئ؛ لأنَّ الوعي يخدم الرغبة ولا يمكن خدمة الرغبة إلَّا من خلال إصلاح الخطأ، وليس تذوق ما هو صواب.

إذن من سرق الموناليزا؟ اعترف الموظف الإيطالي في متحف اللوفر، فينتشنزو بيروجيا Vincenzo Peruggia، في النهاية أنَّه أزال اللوحة الصغيرة حينما كان الصالون

فارغًا، أنزل اللوحة من الحائط، وخلع ثوبه الأبيض وخرج عبر بئر السلم، وبعد تخزين الموناليزا في شقته لمدة عامين عاد إلى فلورنسا. وبحسب بيروجيا، كان اللصُّ الحقيقي نابليون، إذ أراد بيروجيا ببساطة مكافأةً من معرض أوفيزي لإعادة الممتلكات المسروقة، ووافق مدير معرض فلورنسا، وسرًّا نبَّه الشرطة، فتم القبض على بيروجيا حينما حاول جمع أمواله، واتفقت المحكمة مع الجمهور الإيطالي على أنَّ دافع بيروجيا كان حبّ الوطن، وحكم القاضي بتساهل على بيروجيا بالسجن لمدةِ عامٍ و15 يومًا، وأطلق سراحه بعد سبعة أشهر.

منذ إدانة بيروجيا بالسرقة، هناك إجابةٌ قانونيةٌ عن سؤال "من سرق الموناليزا؟" لكن المحكمة أقرَّت بأنَّ بيروجيا كان ينوي أن يكون عمله استعادة الممتلكات المسروقة، وليس السرقة. هل كان نابليون هو اللصّ الحقيقي؟ لا. لم تكن الموناليزا من بين الغنائم التي جمعها الجنرال خلال فتوحاته في إيطاليا، ففي القرن السادس عشر تمنَّى ليوناردو دافنشيLeonardo da Vinci أن يصبح رسام البلاط، وأخذ الموناليزا إلى فرنسا هديةً للملك فرانسيس الأول.

لم تكن "أعظم سرقة فنية في القرن العشرين" سرقة تقنية كبيرة، كذلك لم تكن رائعة من حيث الشيء المسروق. وقبل عام 1911، تم تصنيف الموناليزا بصفتها صورةً رائعةً من عبقري رائع، لكنَّها كانت صورة رائعة من بين مئة صورة رائعة. فقط بعد غيابها اكتسبت الموناليزا حضورها الحالي.

21. سارتر: الغياب المُدرَك

يبدأ كُتَّاب السير الذاتيَّة عادةً قبل بدايتهم. لكن في كتابة الكلمات Words يتجاهل سارتر Sartre شجرة عائلته لكونها غير ذات صلة. ومثل إله جون سكوت إريوجينا John Scotus Eriugena، ينفي سارتر نفسه خارج العَدَم: "لم أرَ نفسي قطُّ المالك السعيد لموهبة: كان شاغلي الوحيد هو إنقاذ نفسي - لا شيء في يدي، ولا شيء في جيبي - من خلال العمل والإيمان" (1964، 158). ومثل إله برادواردين Bradwardine، فإنَّ غياب الحتميَّة يحرِّر سارتر. ومثل إله موسى بن ميمون Maimonides، ليس لسارتر جوهر.

كلُّ واحد منَّا يخرج من ماضٍ لا نهائي من العدم، يعيش ويموت، لمواجهة النسيان اللامتناهي الذي أرعب المصريين. وينفصل سارتر عن مارتن هايدجر Martin Heidegger، الذي يؤكِّد عدم التماثل الزمني للولادة والموت. فبالنسبة إلى هايدجر، نحن نعيش إلى الأمام منذ الولادة. لم يكن بإمكاني أن أولد قبل ذلك، لكن كان من الممكن أن أموت لاحقًا. وبالنسبة إلى هايدجر، فإنَّ فشلي في أن أكون قد وُلدت في وقتٍ مبكرٍ ليس حرمانًا، لكنَّ موتي المبكِّر هو حرمان.

تختلف السيرة الذاتيَّة autobiography عن الترجمة الذاتيَّة biography في عدم تضمينها وفاة الشخص. ومجرَّد موت سارتر يزيل معنى من حياته من طريق تقويض كلِّ مشاريعه. وحينما يكمل المؤلف قصَّته، يكون هناك لمشاهدة القصَّة بأثر رجعي، فكاتب السيرة الذاتيَّة غير موجود، الموت حدٌّ لتجربته، وليس حدثًا، كما هو الحال بالنسبة إلى كاتب ترجمته الذاتيَّة.

اللاأبوة تسبق اللاإلهية

نحلُ العسل له أجداد ولكن ليس له آباء، إذ يُنتَج الذكور من ملكة النحل التي تمتنع عن تخصيب البويضة، فالذكر هو استنساخ للملكة باستثناء الجنس.

بدأ انشغال سارتر بالغياب بوفاة والده الضابط البحري جان بابتيست Jean - Bap-tiste. حدث هذا حينما كان الطفل جان بول Jean - Paul يبلغ من العمر 15 شهرًا فقط، ووصف لاحقًا غياب والده بأنَّه تحرري: "موت جان بابتيست كان الحدث العظيم في حياتي: لقد أعاد والدتي إلى أغلالها ومنحتني حريتي" (1964، 15). بالنسبة إلى سارتر، يتدخَّل الآباء بالضرورة في حرية أطفالهم في النمو. والآباء الطيبون مستحيلون: "ليس الرجال المخطئون ولكن الرابطة الأبوية فاسدة، العَدَم أفضل من إنجاب الأطفال، ولكن يا لها من خطيئة أن يكون لنا بعض! لو كان قد عاش، لكان والدي قد استلقى علي وسحقني" (1964، 14 - 15).

فلسفيًا، أصبح الأب الغائب أنموذجًا للإله الغائب، وأصبح سارتر من الملحدين الذين اختبروا غياب الإله على أنَّه فجوة ميتافيزيقية، وسارتر يضع الحفرة في المقدس.

تأثير بيرغسون

من الناحية الفكرية، يعدُّ هنري بيرغسون شخصيَّة الأب لسارتر الشاب، لكن بدلًا من ملء الفراغ، يستبعد بيرغسون الفراغ، فالواقع هو ما هو موجود وليس ما هو ليس كذلك. وبالنظر إلى صيغة بيرغسون التعبيريَّة فإنَّ الغيابات تصرخ لكنَّها لا تفسر أبدًا.

وراء كلِّ سلبيٍّ إيجابيٌّ، "لا توجد أنثى بابا" تم تحقيقه من خلال حقيقة إيجابية مثل لائحة الكنيسة الكاثوليكية التي تنصُّ على أن يكون جميع الكهنة رجالًا، وممارسة سحب الباباوات من الكهنوت. وبمجرد أن نحصل على الحقائق الإيجابية ومفهوم النفي يمكننا اشتقاق كلِّ الحقائق السلبية. "لا يوجد شيء" يمكن أن يكون حقيقةً عرضيةً سلبيةً. ولكن بعد ذلك يجب أن يرتكز على بعض الواقع الإيجابي، وهذا الواقع الإيجابي سيضمن وجود شيء بدلًا من العَدَم.

في كتابه المبكر التخيل1940) The Imaginary) يدعم سارتر بيرغسون بمبدأ أنَّ كلَّ فكرة تتطلَّب شيئًا للتفكير فيه، ولا يمكن للمرء أن يفكِّر ببساطة، يجب على المرء أن

يفكِّر في شيء ما.

لا يمكن أن يكون هناك حدس للعَدَم، على وجه التحديد لأنَّ العَدَم ليس شيئًا، ولأنَّ كلَّ وعي - حدسي أم لا - هو وعي بشيء ما. ولا يمكن إعطاء العَدَم إلا كبنية تحتية لشيء ما. وتجربة العدم ليست - بالمعنى الدقيق للكلمة - تجربة غير مباشرة، ولكنَّها تجربة تُعطى، من حيث المبدأ، "مع" و"في". وتظلُّ تحليلات بيرغسون صالحة هنا: محاولة تصوُّر الموت أو العدم في الوجود مباشرة بطبيعتها محكوم عليها بالفشل. (Sartre 2004, 187).

يوافق سارتر على أنَّه يمكن تصوُّر جسد المرء كجثة. ولكن من أجل تصوُّر الموت بشكل مباشر يجب على المرء أن يتخيَّل عدم وجود أيِّ وعي على الإطلاق، وهذا مستحيل، فموتك لا يمكن تصوُّره.

مزيد من الدراسة لإدموند هوسرل Edmund Husserl أعطت سارتر أفكارًا ثانيةً حول ما إذا كان مبدأ القصدية يستبعد حقًّا الأفكار حول العَدَم. وفي الوجود والعدمBeing and Nothingness، يستهدف سارتر ضمنيًّا تقييد بيرغسون للنفي على الحكم البعدي metajudgment: فضلًا عن ذلك، لا يبدو أنَّ التجربة العادية المختزلة إلى ذاتها تكشف لنا عن أيِّ عدم وجود. أعتقد أنَّ في محفظتي 1500 وأنا أجد 1300 فرنك فقط، هذا لا يعني - كما سيخبرنا أحدهم - أنَّ التجربة اكتشفت بالنسبة إليَّ عدم وجود 1500 فرنك ولكنِّي ببساطة حسبت 1300 فرنك. النفي الصحيح (قيل لنا) لا يمكن تصوُّره؛ يمكن أن يظهر فقط على مستوى الحكم الذي يجب أن أُجري من خلاله مقارنةً بين النتيجة المتوقعة والنتيجة التي تم الحصول عليها. (1969، 6)

يواصل سارتر القول بأنَّ الغياب يمكن أن يكون موضوع أحكام (وليس مجرد فرضيات)، إذ يمكن للفيزيائي أن يفكِّر في أحاديات القطب بينما يكون جاهلًا تمامًا بوجود أحاديات القطب. يمكنه بسهولة أن يفترض أنَّ أحادي القطب غير موجود ونفترض أنَّه موجود بالفعل.

من المسلَّم به أنَّ الإدراك هو حالة عقلية مشايعة أكثر من كونه اتجاهات طبيعية للافتراض، إذ يمكن للمرء أن يرى فقط ما هو موجود. لذا؛ حتى لو أظهر هوسرل أنَّه يمكننا أن نفترض ما هو غير موجود فلن يكون هذا كافيًا لإظهار أنَّنا نستطيع إدراك ما هو غير موجود.

سارتر مخلص دائمًا لمبدأ بيرغسون القائل بأنَّ الواقع الإيجابي هو الركيزة الأساسية لكلِّ شيء. وأحد دوافع سارتر هي أخلاقياته الناشطة، إذ تتَّفق الأخلاق الشعبية والقانون على أنَّ هناك فرقًا وثيق الصلة أخلاقيًّا بين الأفعال والإغفالات، فترك شخص يموت أقلُّ خطورة من القتل، على الرغم من أنَّ العواقب هي نفسها. ويرفض سارتر عدم التناسق هذا، فعدم التصرف هو فعل، يتضمَّن الإغفال دائمًا بعض الإجراءات البديلة. وحينما يختار أحد المارَّة عدم المشاركة فإنَّه يمشي، ويحوِّل نظره، ويشتِّت انتباهه.

من الناحية الميتافيزيقية، يختلف سارتر عن بيرغسون في الاعتقاد بأنَّ كلَّ شيء يفكر فيه الناس تقريبًا يتعلَّق بالحقائق المؤسسية، إذ يتطلَّب تصوُّر قطعة أثرية بناء واسع النطاق. ولرؤية الموناليزا، يجب على المرء تنظيم فسيفساء بقع الألوان في كلٍّ متماسك، ويجب فصل الشكل البشري عن المناظر الطبيعية، وصنع الفرق السلبي - الشكل المختلف عن الخلفيَّة - هو مقدمة للبناء الإيجابي.

تشرح الشمولية الإدراكية للشكل - الخلفيَّة سبب وجود مسافة مشاهدة مثالية للوحات، كما تشرح أهمية التوجُّه، إذ تمرُّ تشوُّهات لوحة الموناليزا دون أن يلاحظها أحد حينما يتم عرض الصورة بالمقلوب (شكل 21.1).

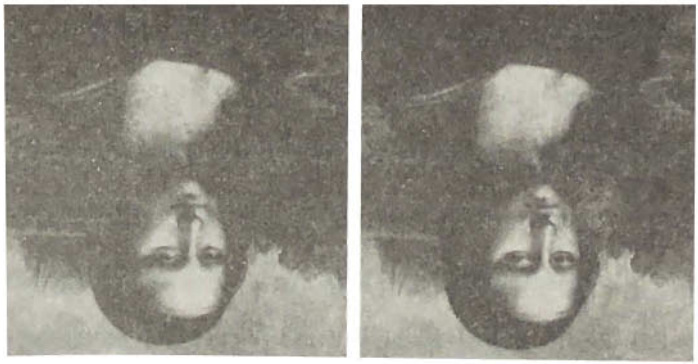

الشكل 21.1 الموناليزا المقلوبة.

في مبادئ الجشطالت gestalt، تكون المنبهات ثابتة لكن الإدراك يختلف (شكل 21.2).

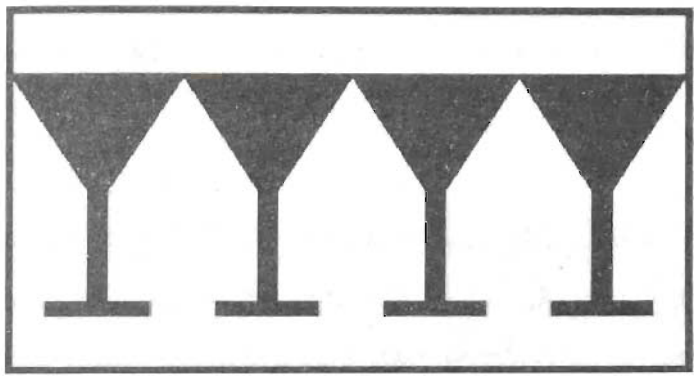

الشكل 21.2 مجموعة زجاج نبيذ المنزل.

فضلًا عن توضيح الاختلاف بين المراقبين، تكشف مبادئ الجشطالت عن تباين بمرور الوقت عن المراقب نفسه. فهناك نوعان من الأشياء المقصودة ولكن هناك منبّه واحد فقط.

تثبت مبادئ الجشطلت الاختلاف الفينومينولوجي بين رؤية مشهد بطريقةٍ إيجابيةٍ بحتةٍ ورؤيته على أنَّه غائب. وفي كتابه الوجود والعدم، يصف سارتر وصوله المتأخّر إلى موعد مع بيير. سارتر يتطلَّع إلى كلِّ زبون في المقهى: هل أنت بيير؟ ويُستبعَد كلُّ مرشح لكونه في طليعة انتباه سارتر، وهذه الموجة الأولى من النفي تشكِّل الأساس. وإذا تم رصد بيير فسوف يخرج من الحشد.

لكن الآن بيير ليس هنا. هذا لا يعني أنَّني اكتشفت غيابه في مكان محدَّد في المؤسَّسة. والحقيقة أنَّ بيير غائبٌ عن المقهى كلِّه. وغيابه يثبت المقهى في زواله، فالمقهى لا يزال أرضيَّة، يستمرُّ في تقديم نفسه ككامل غير متمايز إلى اهتمامي الهامشي الوحيد؛ ينزلق في الخلفية. ويتابع تغليف ذاته باللاوجود. فقط يجعل نفسه خلفيَّة لشكل محدد، يحمل الشكل في كلِّ مكان أمامه، ويعرض لي الشكل في كلِّ مكان. وهذا الشكل الذي ينزلق باستمرار بين مظهري والأشياء الصلبة والحقيقية للمقهى هو على وجه التحديد اختفاء دائم، إنَّه بيير يرفع نفسه على أنَّه العَدَم على خلفيَّة إبادة المقهى. لذا؛ فإنَّ ما يُعرض على الحدس هو وميض من العدم، إنَّه العَدَم للخلفيَّة، الذي يستدعي القضاء عليه ويطلب ظهور الشكل، العدم الذي ينزلق كعَدَم على سطح الخلفيَّة، إنَّه بمنزلة أساس للحكم: "بيير ليس هنا". (1969، 42).

يرى سارتر غياب بيير في المقهى، فالعدم ينبثق من الوجود، لكنَّ هذه الحفرة الجوفاء تتشكَّل دائمًا وتوجد بالترقب. وإذا لم تتوقع سيمون، رفيقة سارتر، بيير، فسيتم تقديمها مع مشهد المقهى نفسه تمامًا. ومع ذلك ستراها بشكل مختلف. لماذا لم يقابل سارتر دوق ولينغتون أيضًا؟ لأنَّ سارتر لم يكن يتوقَّع موعدًا مع الدوق. ويعطي هذا التفسير النفسي الأمل في الإجابة عن تحدِّي التكاثر عند أرسطو: إذا كان هناك غياب واحد، فلماذا ليس هناك ملايين من الغيابات؟

لو توقعت سيمون دوق ويلينغتون لكانت قد رأت غياب الدوق. ويقول المؤيد للنسبية عن الغيابات إنَّ الدوق غائبٌ لسيمون لكنَّه ليس غائبًا لسارتر. وبالنسبة إلى

النسبي، كلُّ حالات الغياب هي غيابات لشخصٍ ما.

لم يعد سارتر نسبيًّا بشأن الغياب أكثر من كونه نسبيًّا بشأن الآلام. يعتمد الصداع على الذين يعانون منه ولكنَّه ليس نسبيًّا عندهم. وحينما يزور سارتر فصلًا دراسيًّا غير مألوف فهو يعلم أنَّ المعلم يعرف الغائب، على الرغم من أنَّ سارتر لا يعرف من الغائب، فالطلَّاب ليسوا مجرَّد غائبين عن المعلم.

الغياب يتبع المنظور الأكثر استنارة. تأمَّل النكتة: جان بول سارتر يجلس في المقهى، يكتب الوجود والعدم، حينما اقتربت منه نادلة: "هل لي أن أحضر لك شيئًا تشربه، سيدي سارتر؟" يجيب الوجودي الفرنسي: "نعم، فنجان قهوة مع سكر، لكن من دون قشطة، من فضلك". بعد بضع دقائق، اعتذرت النادلة: "أنا آسفة، سيد سارتر، لقد نفدت القشطة جميعًا، ما رأيك بعدم وجود حليب؟"

يكتب سارتر بأسلوبٍ ثنائي ديكارتي، يقارن بشدَّة خمول الأشياء ("الوجود في حدِّ ذاته") مع الوعي ("الوجود لذاته"). الميسكالين[1] Mescaline يكسر التباين، فالكائنات مستيقظة، وحينما تكون التجربة إيجابيةً تكون الطاولات والمكانس ودودةً، وتدعو إلى علاقة أنا - أنت I - thou بدلًا من أنا - هو I - It. وحينما تكون سلبيةً تصبح خطرةً، مثل الكلب الذي ينقلب عليك ويصبح السيد كلب.

كان سارتر يمزح حول كيف أنَّ التجربة السيئة مع الميسكالين دفعته إلى الارتداد عن الحياة الخاملة التي تزحف باتجاه المدينة. وتكمن الفكاهة في تناقض الروحية الشاملة مع الواقع. على عكس شوبنهاور، تتأثَّر الأشياء بشكل سلبي بالوعي فقط، بالطريقة التي تصبح بها قطع الأوراق تذاكر قطار من خلال أمر بشري. ويجب أن يكون قاطع التذاكر حذرًا من عدم تعريفه بالطريقة نفسها.

---

(1) مخدر طبيعي من فئة الفينيثيلامين المستبدلة، معروف بتأثيراته المهلوسة. (المُترجم).

يقول سارتر إنَّ كلَّ الاحتمال وكلَّ الدمار يعتمدان على الوعي. لكن هذا ليس تعبيرًا عن اللامادية. نية سارتر، كما ورد في نقد للعقل الديالكتيكي Critique of Dialectical Reason، هو أن يكون ماديًّا أحاديًّا، وهو ما يعزِّزه تعاطفه مع كارل ماركس. سارتر لا يعدُّ نفسه ثنائيًّا أكثر من الذريين القدماء. يقول ليوكيبوس إنَّ الوجود (الذرات) وعدم الوجود (الفراغ) حقيقيَّان بالقدر نفسه. ولكن مثلما يؤدِّي العدم أدوارًا غير مادية في الذرية (شرح الحركات غير الطبيعية مثل ارتفاع الماء فوق الهواء من خلال سيفون)، فإنَّ العَدَم يؤدِّي أدوارًا غير مادية في ميتافيزيقيا سارتر (منع السلاسل السببية الفرويدية التي تهدد الحرية، وتمييز الناس عن مجرد أشياء).

يمكن إبراز الفرق بين سارتر والذريين من خلال تمييز جيمس ماك تاغارتJames McTaggart بين نظامين زمنيين. تم تنظيم السلسلة "A" (أمس، اليوم، غدًا) من منظور وهي ضرورية للفعل. والسلسلة B موضوعية؛ تقوم فقط بتعيين إحداثيَّات في المكان والزمان: باريس (خط العرض 48 ° 52′0″ شمالًا، خط الطول 2 ° 20′0″ شرقًا)، 18 أغسطس، 1903. وكان الذريون مهتمِّين بالعدم كما تم تحليله في أسلوب السلسلةB. وسارتر مهتم بالعدم كما تم تحليله في الأسلوب المنظوري للسلسلة A.

نسبية المراقب للغياب

بحسب بيير دوهيم Pierre Duhem فإنَّ النظريَّات تستلزم تنبؤات فقط حينما تقترن بافتراضات مساعدة، وهذا يفسِّر سبب إزاحة اللوم عن التنبؤ الفاشل من النظريَّة إلى الافتراضات الخلفيَّة. وإذا دحضت الغياب التنبؤات فيجب أن نتوقَّع منها أن تعتمد على النظريَّة والافتراضات الخلفيَّة، ويجب أن يختلف الأشخاص الذين لديهم نظريات مختلفة ومعتقدات خلفيَّة في حالات الغياب التي يدركونها.

يركِّز مؤرِّخو الفنِّ على الغياب التامِّ للمجوهرات في لوحة الموناليزا، ليس لديها حلقات ولا أساور ولا قلادة، ويعرف المؤرِّخون أنَّ القاعدة السائدة في ذلك العصر كانت

رسم الموضوعات بزخارف باهظة الثمن.

على الرغم من أنَّ الموناليزا تفتقر أيضًا إلى أيِّ تمثيل للرموش، فإنَّ بعض مؤرِّخي الفنِّ ينكرون أنَّ ليوناردو صوَّرها من دون رموش. وبحسب رأيهم فإنَّ تصوير الغيابات يتطلَّب توقُّعًا ينبثق حول الوجود. مثلًا: رسم العين اليمنى فقط بالرموش كان سيشكِّل تصويرًا لعينها اليسرى خالية من الرموش. وتختلف توقُّعات التفاصيل باختلاف النوع. وشكل البشر المرسومين بطريقة الخطوط Stick men سطحية جدًّا، بحيث لا يوجد مجالٌ كبيرٌ لتصوير الغياب.

الحاجبان إلزاميَّان للصور الرسمية. ونظرًا لعدم وجود ضربات مرئية لحواجب الموناليزا، خلص بعض المؤرِّخين إلى أنَّها ممثلة بلا حواجب، لكنَّ الأدلَّة الحديثة تدعم النظريَّة المحافظة القائلة بأنَّ الضربات أصبحت غير مرئية بمرور الوقت (تُظهر الصور عالية الدقَّة آثارًا لخطوط الحاجب الطفيفة).

يمكن أيضًا التلاعب بالتوقُّعات ضدَّ إرادتنا. خرَّبَ مارسيل دوشامب Marcel Duchamp (1919) الموناليزا لأول مرة بطريقة واضحة من طريق رسم شارب (شكل 21.3).

ثمَّ انخرط في كتابات غير مرئية من خلال تقديم بطاقة بريدية غير مستعملة بعنوان "حلق الموناليزا" وشعار دوشامب: "المشاهد يصنع الصورة" (Judovitz 1987, 187) حتى ضد إرادة المرء! من الصعب عدم رؤية شارب الموناليزا.

الشكل 21.3 لوحة الموناليزا المخربة لدوشامب Duchamp.

التوقُّعات مبنية على المقترحات، والاقتراحات مبنية على المفاهيم، فإذا كان الحمام يفتقر إلى مفهوم الشارب فلن يتمكَّن دوشامب من جعل الحمام يرى الموناليزا على أنَّها ذات شارب. لذلك؛ لا يستطيع دوشامب جعل الحمام يرى غياب الشارب للموناليزا.

من المسلَّم به أنَّ الحمام سيواجه صعوبةً في التعرُّف على غياب الشارب حتى لو كان لديه مفهوم الشارب، فالحمام بطيء جدًّا في تعلُّم حلِّ أيَّة مشكلة تتعلَّق بالاعتراف بالغياب. ويكاد يكون الأطفال في سنِّ الرابعة بهذا السوء(Sainsbury 1973) . والبالغون

أيضًا يظهرون "التأثير الإيجابي للميزة": هناك حاجة إلى مزيد من التجارب للتعرُّف على غياب سمة على أنَّها اختلاف رئيس.

ما ينطبق على التعلُّم التمييزي يذهب للذاكرة والإدراك. وهذا التباين الإيجابي - السلبي تنبَّأت به أطروحة هنري بيرغسون أنَّ الأحكام السلبية ما وراء معرفية، إذ يتمتَّع البشر بقدرات ما وراء معرفية أقوى بكثيرٍ من الحيوانات الأخرى. وتنضج ما وراء المعرفة تدريجيًّا، وتظهر تباينًا كبيرًا بين الأشخاص، وهي مرهقة معرفيًّا.

الغياب المعتمد على المفهوم

دفعت الطبيعة الروحية للهواء الفيلسوف الرياضي فيثاغورس Pythagoras إلى حظر الفاصوليا (لمنع التناسخ اللاحق). ويستنتج شيشرون Cicero (58، 1923) "بطريقة أو بأخرى عدم وجود عبارة سخيفة جدًّا بالنسبة إلى بعض الفلاسفة."

لكنَّ هناك حدًّا تاريخيًّا للمصداقية، أولئك الذين سبقو ليوناردو لم يتمكَّنوا من التأكيد أنَّ لوحة الموناليزا تصوّر امرأة بشارب، لم يستطع من سبق ليوناردو تصديق العبثية؛ لأنَّهم افتقروا إلى الوصول إلى المفردات اللازمة للتعبير عن الاقتراح. ولفهم الاسم، يجب أن يكون للمرء علاقة سببية مع حامله. ولم يكن هذا ممكنًا لأسلاف ليوناردو؛ لأنَّ "الموناليزا" تسمّي شيئًا لم يكن موجودًا بعد.

يمتدُّ الحدُّ التاريخيُّ إلى المسندات مثل "الهليكوبتر"، فقدماء المصريين لديهم رسومات تشبه طائرات الهليكوبتر، لكنَّها لا يمكن أن تكون تصويرًا لطائرة هليكوبتر، إذ افتقر المصريون القدماء إلى أيَّة صلةٍ مناسبةٍ بهذه المصنوعات.

لا يجب أن تكون هذه الروابط سببية، كان لدى مخترعي المروحية مفهوم المروحية قبل وجود أيِّ طائرات هليكوبتر، وكلُّ ما يحتاجونه هو وصفٌ تفصيليٌّ كافٍ لطائرة هليكوبتر.

هناك غموض بخصوص ما يشكل تفاصيل كافية، فأحيانًا يُوصف تصميم ليوناردو

دافنشي للمسمار الهوائي الحلزوني بأنَّه اختراع المروحية. وتجسّد تصاميمه في أطالسه Codice Atlantico رؤى ثاقبة للمبادئ ذات الصلة برحلة الهليكوبتر: "لقد اكتشفت أنَّ جهازًا على شكل لولبي مثل هذا، إذا كان مصنوعًا جيدًا من الكتَّان المنشى، سيرتفع في الهواء إذا تم قلبه بسرعة" (Leonardo 1978, folio 83v of manuscript B). ولكن ستكون هناك حاجة إلى المزيد من الأفكار والتقدُّم التكنولوجي لتتمكَّن طائرة هليكوبتر من الطيران بالفعل.

"الرؤية كـ" seeing as تتطلَّب فقط الكفاءة المفاهيمية، وليس الإيمان. وحينما تعلم أنَّ بعض الرومان كانوا يعتقدون أنَّ النجوم كانت ثقوبًا في الكرة السماوية يمكنك رؤية النجوم على أنَّها ثقوب، تمامًا مثل الرومان. ولكنَّ الرومان لا يستطيعون رؤية النجوم كما ترى: كأجسام عملاقة تخضع لتفاعلات نووية، أنتَ رئيسهم المفاهيمي، وفي المقابل سيكون أحفادك هم رؤساءَك المفاهيميين. سوف يرصدون حالات الغياب في المناظر الطبيعية الخاصَّة بك، التي تكون غير مرئية لك بالضرورة.

يمكن أن تكون هذه الأفكار حول "الرؤية كـ" ملاذًا مفيدًا لسارتر، إذ يدَّعي أنَّ تصوُّر الغياب يتطلَّب إيمانًا محبطًا. لكنَّ هذا مبالغ فيه، فيمكن لعالم الفلك المنفصل رؤية الظلِّ أثناء تعليق الحكم بشأن ما إذا كان يرى ظلًّا أم ثقبًا أم صخرة سوداء. وبدلًا من أن يكون نسبيًّا مع معتقد ما يجب على سارتر أن يقول إنَّ الغياب نسبي لسؤال ما، ويقترب من هذا الأساس الأفضل للغياب في بداية الوجود والعدم، لكنَّ مزاج الاستفهام لا يتناسب مع شخصيَّة سارتر الحازمة.

التخيليَّة حول الغياب

يقول التخيلي إنَّ سارتر يتظاهر فقط برؤية غياب بيير. وحينما يتظاهر شخص ما برؤية شبح فإنَّه يمرُّ بحركات الشهادة، لكن لا توجد مُلاحظة حقيقية.

يرفض سارتر التخيليَّة على أساس أنَّها فشلت في توفير الراحة من مفارقات الإدراك

السلبي: "إنَّ تسمية هذا السلوك خيالًا خالصًا هو إخفاء النفي دون القضاء عليه. والخيال الخالص "هنا يعادل" أن تكون مجرد خيال" (1969، 5).

يحلِّل بيرغسون البيانات السلبية على أنَّها تأكيدٌ إيجابيٌّ على وجود شيء ما يستبعد حقيقة البيان المنفي، فـ"الاستبعاد" هو نفي مقنع.

يمكن استكمال اعتراض سارتر المنطقي عن التخيليَّة بعلم النفس النمائي، فحتى الأطفال الصغار يميزون بين رؤية الغياب والتظاهر برؤية الغياب. وقد ضيَّفَ عالمُ النفس آلان ليزلي (Alan Leslie، 1994، 223) أشهرَ حفلِ شايٍ في علم النفس التجريبي، وتم تشجيع الأطفال على "ملء" كوبين من الألعاب بالشاي الخيالي، ثم يقول المجرب: "شاهد هذا!" ويتظاهر بسكب الشاي من أحد الأكواب بقلبه ورجِّه بقوّة، وسُئل الطفل عن الكوب الممتلئ، فأشار عشرة من اثني عشر إلى الكوب الذي لم يلمسه المجرب.

عرف الأطفال أنَّ كلا الكوبين كان فارغًا حقًّا. لذلك؛ لا يمكن أن يكون الغياب مسألة ذريعة. ويتطابق التظاهر بالفراغ مع التظاهر بالإفلاس في لعبة مونوبولي، فالمال هو التظاهر بالمال وإفلاس الخاسر هو التظاهر بغياب المال، وكلُّ هذا يتوافق مع كون المال مخلوقًا متوقّعًا. ما يجعل شيئًا ما نقودًا هو قدرته على التبادل، القوَّة التي يجب تحليلها من حيث توقعات صرافي العملات.

يشبه سارتر التخيلي؛ لأنَّه يربط الغياب بالنفي، لكنَّ التظاهر يرتبط تقريبًا بالنفي بالمعنى المنطقي، فصحيح، عادةً ما يتظاهر المرء بـ p مع الاعتقاد بـ لا p (كما هو الحال حينما يتظاهر الطفل بأنَّ الكوب ممتلئ، بينما يعتقد أنَّه ليس ممتلئًا)، ولكن يمكن للطفل أيضًا أن يتظاهر بـ p مع الاعتقاد بـ p (كما هو الحال حينما يتظاهر الطفل أنَّ الكأس المقلوب فارغ ويعتقد أنَّه فارغ).

تعدُّد أماكن الغياب

بعد أن سُرقت لوحة الموناليزا، أُفيد أنَّ الباريسيين كانوا يشاهدون المكان الفارغ حيث كانت الموناليزا. هل كانت الموناليزا الغائبة مطابقة لهذه المنطقة الفارغة؟ الاعتراض القياسي لتحديد حالات الغياب مع مناطق المكان هو أنَّ الغياب يمكن أن يتحرك، ومناطق المكان هي بالضرورة أين كان، وأين الآن، وأين سيكون إلى الأبد.

يقترح نهج سارتر النفسي اعتراضًا ثانيًا لتحديد حالات الغياب مع مناطق المكان، فعلى عكس المنطقة الفارغة يمكن أن تكون لوحة الموناليزا غائبةً في مكانين في الوقت نفسه. لنفترض أنَّ اللوحة قد حُجزت أكثر من اللازم في معرضين ولم تظهر في أيٍّ من المتحفين، على عكس الجسم المادي وعلى عكس المنطقة الفارغة من المكان، يمكن أن يكون الغياب متعدِّد المواقع.

يمكن تقسيم ما يمكن تقسيمه إلى ثلاثة أقسام (فقط أضف أمينًا ثالثًا، متوقعًا). ومن حيث المبدأ، يمكن مضاعفة التوقُّعات بحيث يصبح غياب الموناليزا حاضرًا في كلِّ مكان. وأقلُّ افتراضًا، يفترض سارتر الشاب أنَّ الإله كلي الوجود، وعند التحوُّل إلى الإلحاد يختبر سارتر غيابًا كليًّا.

كمخلوقات توقع، يعتمد الغياب علينا في وجوده. وهذا التطفُّل لا يسلبه الأهمية، فحقيقة أنَّ الألم يعتمد على المريض لا يقلِّل من أهميته. وإظهار أنَّ المال يعتمد على التوقعات لم يعزِّ إسحاق نيوتن حينما انفجرت أزمة بحر الجنوب، فالتحليل النفسي للغيابات لا يقلِّل من أهميتها. في الواقع، بمجرد أن يدرك المرء أنَّ معظم ما نهتمُّ به هو جانب نفسي فإنَّ تحليل سارتر يميل إلى تحصينه من المهاجمة كمجرد عَدَم.

تسوية سارتر

يتفق سارتر مع بيرغسون على أنَّ الوجود له الأولوية على العدم، والغياب هو دائمًا غيابات خاصَّة بينما يمكن أن يكون التواجد عامًّا. "باختصار: يجب أن نتذكَّر هنا ضدّ

هيجل أنَّ الوجود موجود وأنَّ العدم ليس كذلك" (1969، 15).

ضد بيرغسون، يقول سارتر: إنَّ التقارير الإدراكية السلبية هي أكثر مِمَّا تظهر. ووفقًا له فإنَّ "الطاولة ليست بيضاء" تقريرٌ حقيقيٌّ ومدروسٌ.

ومع ذلك، يتفق سارتر مع بيرغسون على أنَّ التقارير الإدراكية السلبية تستند إلى توقعات محبطة، فالواقع الإيجابي هو ما يؤدِّي إلى نشوء الإدراك، ومن ثَمَّ فهو أكثر جوهرية من الواقع السلبي. والشعار "أن توجَد هو أن تُدرَك" هو شعار خاطئ، لكن تباينه السلبي: "أن تغيب يعني أن يُنظر إليك على أنَّك غائب"، صحيح.

أخيرًا، يقبل سارتر المركزية البشرية لبيرغسون حول الغياب: "يظهر اللاوجود دائمًا ضمن حدود التوقُّع البشري" (1969، 7). ومركزية الإنسان هذه أمر طبيعي بالنسبة إلى بيرغسون؛ لأنَّه يفسِّر الإنكار على أنَّه أفعال اجتماعية معقَّدة وذات مستوى أعلى تتطلَّب لغة. وقد خفض سارتر مستوى إدراك الغياب، ومن ثَمَّ، فإنَّ نزعته الإنسانية أكثر إحراجًا من استمرارنا مع الحيوانات.

الرؤية الابستيميَّة مقابل الرؤية غير الابستيميَّة

تسوية سارتر تُترجَم إلى فلسَفَة تحليلية تقترح طريقةً مبدئيةً لفصل الإدراك البشري عن إدراك الحيوان. وتمت كتابة المُسوَّدة الأولى لهذه الترجمة مع التمييز بين الرؤية الابستيميَّة وغير الابستيميَّة. الرؤية الابستيميَّة، "رؤية ذلك" seeing that تعتمد على الإيمان. وهذا يعدُّ نوعًا حسيًّا من التقاط المعتقدات. وهناك دائمًا اقتراحٌ كاملٌ يتماشى مع الرؤية الابستيميَّة.

لا تنطوي الرؤية غير الابستيميَّة على الإيمان بأيَّة طريقة مميزة، إذ يرى الكلب صنبور إطفاء الحريق دون أن يعتقد أنَّه صنبور إطفاء الحرائق. وعلى الرغم من أنَّنا غالبًا ما نحير بشأن المعتقدات التي يجب أن ننسبها إلى الحيوانات؛ فإنَّنا ننسب الرؤية إليها بثقة. حتى النحل يرى، لكنَّنا لسنا واثقين من أنَّ النحل يعتقد، ويشبه النحل الخلايا

العصبية، إذ تسجِّل الخلايا العصبية المعلومات التي قد تُسهم في الاعتقاد. لكن العصبون نفسه غير معتقد، ويجب أن يكون هناك إحساس معرفي أقل تطلبًا من "الرؤية" ولا يستلزم الإيمان.

الرؤية غير الابستيميَّة هي مسألة النظر في اتجاه معلوماتي كافٍ مع نظام بصري فعَّال وامتصاص كافٍ من النظام الحسي (امتصاص يمكن أن يقصر عن الوعي)، فالرؤية غير الابستيميَّة تلقائية، ومقدمة ضرورية لرؤية ذلك على هذا النحو. وقد رأى القدماء أشياء تخضع لتفاعلات نوويَّة في سماء الليل، لكنَّهم لم يروا أنَّ هذه الأجسام تخضع لتفاعلات نوويَّة.

إذا كانت المُلاحظة تعتمد تمامًا على النظريَّة، فستكون التجارب دائرية وخاصَّة، فما تراه سيكون خاضعًا لما تعتقد أنَّك تراه. وعلى الرغم من أنَّ تاريخ العلم يحتوي على الكثير من الحلقات التي سيطرت فيها النظريَّة على ما يُعدُّ مُلاحظة؛ فإنَّ هناك أيضًا أمثلة مطمئنة لتغلب المُلاحظة على النظريَّة.

في مصطلحات الفلسَفَة التحليليَّة، كانت تسوية سارتر هي أنَّ كلَّ رؤية للغياب هي رؤية ابستيميَّة. وفي حين أنَّ بيرغسون ينفي وجود أيّة مُلاحظة للغياب، يؤكد سارتر أنَّ هناك رؤية محدودة للغيابات، فكلُّ تصوُّرات الغياب هي على مستوى الرؤية الابستيميَّة. وهذا بأي حالٍ من الأحوال يحطُّ من قدرها. ويعتقد سارتر أنَّ معظم الأشياء المثيرة للاهتمام من الناحية الإدراكية تعتمد على الوعي.

موضوعية ريتشارد تايلور

حاول ريتشارد تيلور (Richard Taylor 1952) إثبات أنَّ هناك رؤية غير ابستيميَّة للغياب مع الرسم التخطيطي في الشكل 21.4.

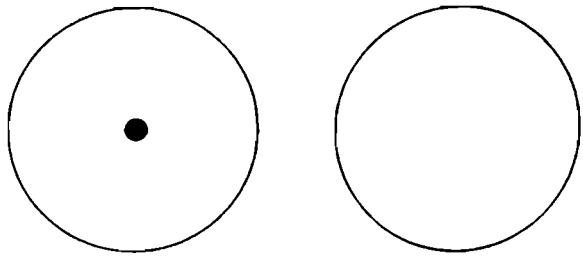

الشكل 21.4 دائرتا تايلور Taylor.

ترى عدم وجود نقطة في الدائرة الثانية، ولذلك يستنتج تايلور أنَّ الأشياء السلبية موجودة،

لكنَّ الدائرة اليمنى لا تحتوي على فاصلات وعلامات مد. وبحسب سارتر، فإنَّنا نستنتج حالات الغياب هذه مِمَّا نراه (وهو أمر إيجابي تمامًا)، فنحن نرى الغياب بشكل غير مباشر فقط، كما نرى الرياح. ومثلما نستنتج الريح من شراع متصاعد فإنَّنا نستنتج عدم وجود نقطة من رؤية سمة إيجابية للمنطقة المطوقة، فالغياب عبارة عن كيانات نظريَّة تتطلَّب نوعًا من التطوُّر الفكري الذي أظهره لويس باستير Louis Pasteur عند استنتاج وجود الجراثيم. والطريقة الوحيدة التي يمكننا من خلالها الاعتقاد بشكل مبرر أنَّ هناك غيابات هي من خلال قوَّتها التفسيرية.

وبحسب السارتريين التحليليين، كان الباريسيون الفضوليون يرغبون في رؤية أنَّ لوحة الموناليزا كانت غائبةً عن متحف اللوفر، وكان عليهم السفر إلى متحف اللوفر لهذه التجربة.

ويرد الموضوعي على أنَّ غياب الموناليزا لا يعتمد على التوقُّع. كانت الموناليزا غائبة بالفعل قبل أن يفوتها أحد. وحينما اصطفَّ الباريسيون الفضوليون في طابور لرؤية الموناليزا الغائبة كانوا يعرفون بالفعل أنَّ الموناليزا كانت غائبةً عن متحف اللوفر، وكانوا يبحثون عن الإثارة الأثرية المتمثِّلة في إدراك الغياب بشكل مباشر، التشويق الأثري نفسه الذي يحصل عليه المرء من خلال رؤية الموناليزا حينما تكون موجودة.

كانت هناك شائعة بأنَّ الموناليزا قد اختفت منذ فترة طويلة من متحف اللوفر وأنَّ نسخة منها قد سُرقت بالفعل، وإذا كانت هذه الإشاعة صحيحة لكان الحشد قد لاحظ غياب نسخة الموناليزا، وليس غياب الموناليزا؛ لأنَّ الغياب يعتمد على الكائن المضيف، وليس المعتقدات حول الكائن المضيف.

هُويَّة الغياب تتحكَّم فيها السببية وليس التشابه، فحينما يفقد توأم واحد من الفصل ترى المعلمة غياب واحد فقط من التوائم. ومثلما لا تحتاج إلى أن تكون قادرة على التمييز بين التوأم لرؤية أحد التوأمين بدلًا من الآخر، لا تحتاج المعلّمة إلى أن تكون قادرةً على التمييز بين غياباتهما لترى غياب التوأم المفقود.

بالنسبة إلى الموضوعي، فإنَّ رؤية الموناليزا تشبه إمساك فرشاة رسم ليوناردو. يمنحنا الاتصال المباشر المعرفة من طريق المعرفة الشخصيَّة acquaintance. ولا يوجد قدر من المعرفة الافتراضية (الشعور بأنَّ الكائن الذي تمسكه هو فرشاة رسم ليوناردو) يمنحنا معرفة المعرفة الشخصيَّة .

كيف يمكن للمرء أن يكون على اتصال مباشر مع الغياب؟ يجيب الموضوعي من طريق الاحتكام إلى معايير الاتصال العادية، إذ يشعر توماس المتشكك بالثقب الذي حدث في جسد يسوع من طريق غرز إصبعه في الجرح، وتمرير إصبع على بطانة الثقب يمثِّل الشعور بالثقب (حتى لو لم يكن ملتفًّا على شكل نتوء).

على عكس الظلال والصمت، يمكن إدراك الثقوب بأكثر من حاسَّة واحدة، ويمكن الشعور بالثقوب ورؤيتها، ويمكن القول إنَّ الثقوب مسموعة أيضًا، فمن السهل سماع الثقوب في الأنابيب الداخلية للدراجات أكثر من رؤيتها.

إذا تم نفخ الأنبوب المثقوب بشكل غير مرئي ثمَّ غمره بالماء فإنَّ الفقاعات ستسمح للمصلح برؤية الفتحة بشكل غير مباشر. وحينما يركز على البقعة، يمكن للمصلح رؤية الفتحة نفسها. هناك تباين طبيعي بين رؤية الغيابات بشكل غير مباشر ورؤيتها بشكل مباشر.

مُنعكِس الإجفال

استراتيجية الموضوعي هي تخفيف الغيابات. حينما تنزل حجرة الغوص diving bell، يصبح الضغط أكبر من أن يتبعه الذاتي. تأمَّل ردَّ فعلنا البدائي للغياب. يتم تحفيز منعكس مورو Moro reflex عند الرضع بفقدان الدعم المفاجئ، إذ تمتدُّ أذرع الطفل ثمَّ تنقبض، وفي النهاية يبكي الطفل بصوت عالٍ. ومثل ردود الفعل الأخرى، لا يتطلَّب أيَّ تعلُّم ولا يتم إطفاؤه من طريق التعود على المنبه.

الأسماك المُفتَرَسَة لها ردُّ فعل مفاجئ تجاه الظلال التي تلوح في الأفق (كما هو الحال حينما يتم تمرير الورق المقوى الأسود على سطح حوض السمك)، فالبلطي النيلي Nile tilapia يتعرَّض لسكتة قلبية، وتتعرَّض هذه الأسماك للحيوانات المفترسة الطائرة، فالغياب المفاجئ للضوء هو علامة على وجود خطر مميت، فتتفاعل السمكة بسرعة كبيرة بحيث لا يلعب الاستدلال دورًا.

الإجفال هو استجابة ثابتة، استجابة كل أو لا شيء تحدث بسرعة كبيرة جدًّا لا تنتظر الوعي (Robinson 1995). (تجعل السرعة استجابات الإجفال أسرع من أن تزيف بدقَّة). لذا؛ فإنَّ حالات الغياب المرتبطة بالردود الإجفالية لا يمكن أن تعتمد على الحكم.

الشذوذ الخارجي

تشكل الجوانب الموضوعية للإدراك ألغازًا لا يمكن الردُّ عليها بالتراجع من الاعتقاد إلى "الرؤية ك"

أولًا، تصوُّرات الغياب قابلة للإصلاح، إذ يمكن أن يكون بيير وراء عمود، ولن يستحضر أي قدر من الفوارق النفسية غياب بيير إلى الوجود؛ نظرًا لوجود بيير في المقهى، ولا انفراج بين بيير وغيابه.

ثانيًا، الغيابات ليست ذاتيَّة التصريح، فإذا رأى سارتر توأم بيير المتماثل في المقهى فلن يشعر سارتر بأيّ خيبة أمل.

ومع ذلك، فإنَّ توقُّعات سارتر لن تتحقَّق، سيغيب بيير لكنَّه لن يكون غائبًا. وعادة ما يفشل مبتورو الأطراف في اكتشاف أطرافهم المفقودة، فهلوسة الطرف الوهمية تحجب الغياب.

قد يعقد المرء نظريَّة سارتر من خلال اشتراط وجود تطابق بين تمثيل الغياب والواقع، وسيكون الجانب الدنيوي من هذه المباراة مشكلة؛ لأنَّ النداء العام للنظريَّة النفسية هو أنَّها تتجنَّب الالتزام بالحالات السلبية للأمور.

النظر إلى الغيابات دون ملاحظتها

يمكن أن ينشأ غياب X دون أن يطرح أيُّ شخص سؤالًا حولX . ضع بحسبانك ظاهرة الغياب غير الملحوظ. في صيف عام 1911 كان لويس بيرود Louis Béroud ينسخ الموناليزا في صالون كاريه، وفي 22 أغسطس وصل في الصباح لاستكمال نسخته، واكتشف بيرود على الفور غياب لوحة الموناليزا، سأل الحارس أين هي؟ ولم يكن الحارس قد لاحظ غياب الموناليزا.

اعتقد الحارس - بعد استعادة رباطة جأشه - أنَّ الموناليزا أُخِذَت للتصوير، لكنَّ الحارس لم يجدها في قسم التصوير، ولم يتم العثور عليها في أيِّ مكانٍ آخر في متحف اللوفر، الموناليزا كانت قد سُرقت بالفعل في اليوم السابق.

كانت الشرطة تشتبه في الحارس، إذ يجب أن يكون الحارس قد نظر إلى الحائط حيث تعلّق لوحة الموناليزا، كيف يمكن أن يكون قد فاته ملاحظة غيابها؟

تشير التجارب على تغير العمى إلى أنَّ الحارس كان ببساطة غافلًا، فحتى لو نظر مباشرة إلى المكان فقد يفشل في رؤية أنَّ اللوحة كانت غائبة.

في حالات العمى غير المقصود، ينظر الناسُ إلى الشيء بطريقةٍ مناسبةٍ لكنَّهم يفشلون في تسجيله. وغالبًا ما يتذكر سائقو الدراجات النارية الذين صدمتهم السيارات أنَّ السائق نظر إليهم بشكل صحيح ولكنَّه استمرَّ في القيادة، فالمشكلة هي الانتباه

وليس الرؤية. وإذا كان السائق يبحث عن سيارات أخرى فهو أقلُّ استعدادًا لمُلاحظة سائق دراجة نارية. ويزداد احتمال حدوث خطأ الانتباه هذا حينما تكون هناك مطالب متنافسة لجذب انتباه السائق.

يختلف تغيّر العمى change blindness عن العمى غير المقصود inattentional blindness في كونه فشل في التحديث، فبعد أن يرى الأشخاص المختبرون صورةً لطائرة على متنها جنود، يفترضون أنَّ المحرك سيكون هناك حينما ينظرون إلى الصورة في المرة التالية. وقلة منهم لاحظوا أنَّه حينما استُبدِلَت الصورة تم التلاعب بها، وهي صورة تفتقر لمحركات الطائرة.

ركزت دراسة أخرى على نوع أخطاء الاستمرارية المألوفة في السينما، إذ صنعَ الباحثون فيلمًا قصيرًا خاصًّا بهم يختفي فيه وشاح الممثلة، وقلَّة من المشاهدين لاحظوا الاختفاء.

الدرس الذي يستخلصه علماء النفس هو أنَّ الرؤية تتطلَّب الانتباه، ولا يوجد سوى كمية محدودة مِمَّا يمكن الاشتغال عليه، فالناس عرضة "للعمى" من طريق التشتُّت، وإذا تم إرهاق انتباههم فسوف يتأثر أداؤهم البصري.

قد يكون تغير العمى أحد أعراض مشكلة التأطير، فحينما يتغيَّر الموقف لا يمكن للمرء أن يتحمَّل مراجعة كلِّ تشعب محتمل، ويجب على المرء أن يعمل بمبدأ افتراضي يترك "الكلاب نائمة"

حتى البحث اليقظ لا يضمن التعرف على ما ينظر إليه المرء، ويمكن لصائد الحفريات المبتدئ أن ينظر مباشرة إلى السنِّ الأحفورية ولا يميزه من فوضى الحصى والرمل.

البالغون أفضل في البحث البصري من الأطفال، على الرغم من ضعف العيون. ويلاحظ الأجداد ذلك عند قراءة كتب الألغاز "اعثر عليه" مع أحفادهم. وتتطلَّب هذه الألغاز من الطفل أن يكتشف كائنًا في حقل الكائنات المزدحم. والأجداد يخترقون التمويه أسرع من أحفادهم.

الإدراكات غير الموحدة

تستند حجَّة موضوعيَّة أخرى لإدراك الغياب على الإدراك غير الموحد، إذ يمكن لأيِّ شخصٍ أن يرى الغياب بعين واحدة ويخطئ في فهمه على أنَّه موجود بالعين الأخرى. وإذا حدث إدراك الغياب على مستوى الوعي فإنَّ وحدة الوعي ستمنع التصوُّرات المتشعبة للغياب.

ناشدت عالمة الأعصاب مارغريت ليفينغستون Margaret Livingstone انقسامًا آخر لشرح لغز ابتسامة الموناليزا، فحينما تنظر إلى عيني الموناليزا يبدو أنَّها تبتسم، وحينما تتحقَّق من شفتيها يبدو أنها لا تبتسم، ويعتمد تفسير ليفينغستون على التمييز بين الرؤية النُقَريَّة foveal والرؤية المحيطيَّة peripheral، الرؤية النُقَريَّة بارعة في تمييز التفاصيل وأقل ملاءمة لاكتشاف الظلال، والرؤية المحيطية لها نقاط قوَّة وضعف تكميلية، فهي بارعة في التقاط الظلال. وحينما ننظر إلى عيون الموناليزا يتم الكشف عن الظلال من خلال الرؤية المحيطية وتستعمل لبناء ابتسامة، وحينما ننظر مباشرة إلى شفتيها لا يمكن اكتشاف الظلال بالرؤية النُقَريَّة، ولا تقدم الإشارات اللازمة لإدراك الابتسامة.

الغياب غير المحسوس

إذا كانت رؤية حالات الغياب تتعلَّق برؤية ذلك على هذا النحو فيجب أن يكون المرء قادرًا على رؤية نقطة التلاشي خلف رأس الموناليزا. ويمكن للفنَّان المُتدرِّب أن يرى أنَّ رأسها يغطي نقطة التلاشي، لكنَّه لا يرى نقطة التلاشي، ولن يساعد إزالة الرأس.

إنَّ تصوُّر الغياب مشروط بنظيره الإيجابي. وبشكل أكثر تحديدًا، يتشكَّل تصوُّر الغياب من خلال الحقائق المضادة (التي بدورها تشكِّل التاريخ، وقوانين الطبيعة، والتشابهات). فتفاصيل الغياب هي ما كان يمكن إدراكه. وللحفاظ على "جدار العار" لم يحرك القيمون على متحف اللوفر اللوحات التي رسمها تيتيان Titian وكوريجيو

Correggio التي كانت بمنزلة حواشي لوحة الموناليزا. وحينما تضاءل الفضول أنهوا المشهد بوضع كاستيجليون Castiglione لرافاييل Raphael في مكان الموناليزا وخلط ترتيب الصور المحيطة.

يشرح هذا المبدأ المضاد سبب عدم إدراكنا لغياب البكتيريا في فرن الضغط، ويوضِّح أيضًا أنَّه لا يمكن للمرء أن يرى الغيابات الرياضية والغيابات النفسية مثل الفجوات المعجمية، إذ يتم تحديد نطاق ما يمكن إدراكه سلبًا من خلال ما يمكن إدراكه بشكل إيجابي.

ملخص

بدأ سارتر بصفته تلميذًا لوجهة نظر بيرغسون ما وراء المعرفية للغياب، فما يبدو أنَّه تصوُّرات عن حالات الغياب هي تقارير معقَّدة وغير مباشرة لما يمكن إدراكه بشكل إيجابي. لكنَّ مزيجًا من فينومينولوجيا إدموند هوسرل وعلم نفس الجشطالت دفع سارتر إلى عَدِّ التصوُّرات الإيجابية على أنَّها شديدة البناء. والنفي هو سمة مركزية في هذا البناء، لدرجة أنَّ سارتر خلص إلى أنَّ التصوُّرات السلبية تختلف بشكلٍ متواضعٍ فقط عن التصوُّرات الإيجابية. وعلى الرغم من أنَّ التصوُّرات السلبية يتم تصفيتها من خلال التوقعات البشرية فإنَّها تصوُّرات حقيقية. وركيزة الواقع إيجابية بالكامل، لكنَّ الوعي البشري يبني عالمًا أكثر تفصيلًا من الكيانات المشيدة. وهذا يحدِّد إمكانية تصوُّر الغياب.

الموقف الثالث، الموضوعية، هو ردُّ فعلٍ على تسوية سارتر، فبمجرَّد أن تُترجم تسويته إلى المصطلح التحليلي للرؤية الابستيميَّة مقابل الرؤية غير الابستيميَّة، يظهر سارتر على أنَّه دماغي ومتمحور حول الإنسان. ويستعمل الموضوعي علم النفس التجريبي لإلغاء عقلانية تصوُّر الغياب. ولحلِّ التناقض، يسمح بالسببية عبر الغياب. ولدرء الاعتراضات الميتافيزيقية، يرفض تقديم حالات الغياب على جانبي انقسام الكائن

مقابل اللاكائن، ويتعامل مع الغياب على أنَّه خاصية محرجة، مثل المكان والزمان. ومن الأفضل أن نقول إنَّها موجودة بدلًا من غير موجودة، لكنَّ نتيجة تأكيد واقعها تبدو باهتةً بشكلٍ خاصّ، فينظر الموضوعي إلى الأسفَل بحرج ثمَّ ينظر بعيدًا، على أمل أن تنقذه الأجيال المقبلة.

22. برتراند راسل: غياب المراجع

تُبرِز الشهادة الإسلامية في التوحيد "لا إله إلا الله" التمييز بين المُسنَد "إله" والاسم "الله". فأن تكون ملحدًا اسناديًا يعني الاعتقاد بأنَّه لا يوجد x الذي من أجله "x هو إله" يعبّر عن اقتراح حقيقي. وأن تكون ملحدًا اسميًا يعني أن تؤمن بأنَّ الاسم المزعوم "الله" ليس له حامل.

كان النقَّاد الرومان القدماء للمسيحية ملحدين اسميين لا ملحدين اسناديين، فقد اعتقدوا أنَّ الإله الواحد غير موجود ولكنَّهم آمنوا بوجود آلهة. وكانت الآلهة الحقيقية هي الآلهة المحلية التي أسهمت عبادتها في الحياة المدنية. وكانت الآلهة القديمة شبيهة بمَلَكيَّة المنطقة، التي فضَّل الغزاة الرومان أن يختاروها بدلًا من إخمادها.

يمكن أيضًا أن يكون هناك إلحادٌ إسناديٌّ من دون إلحاد اسمي. تخيَّل أنَّ عالمة الآثار كريبشي Kripshe التي استنبطت كلمة "الإله" الذي كان اسم زعيم قبلي عُدَّ لاحقًا إلهًا، وهي تعتقد أنَّ الله ليس إلهًا.

نظرًا لأنَّ الفرد الواحد قد يحمل أكثر من اسم واحد، يجب ربط الإلحاد الاسمي بمجموعة من الأسماء. وبحسب المسيحيين، الملحد الذي ينكر وجود الإله ولكنَّه يؤكد أنَّ يسوع موجود هو ملحد اسمي بالنسبة إلى "الإله" ولكنَّه مؤمن بالنسبة إلى "يسوع"

يقبل المشرك الهندوسي مئات الآلهة. وستنتقل مهمَّة حفظ أسمائهم من الصعب إلى المستحيل إذا قام الفيثاغوريون بتأليه كلِّ رقم طبيعي. وسوف يتضاءل مجمع الآلهة الصفري من الفيثاغوريين الأكثر إنتاجًا، والذي يعدُّ كلَّ رقمٍ حقيقي بمنزلة إله. وحينما يكون عدد الآلهة غير محدود يجب أن يكون هناك عددٌ لا نهائي من الآلهة المجهولة الاسم. وبصفتنا كائنات محدودة، لا يمكننا إلَّا أن نتعلَّم عددًا محدودًا من المصطلحات البدائية.

الأسماء بوصفها عناوين

أكد جون ستيوارت ميل John Stuart Mill أنَّ الأسماء هي علامات وليست أوصافًا، ليس لها معنى يتجاوز العنصر الذي تعلَّق به. "سو" Sue مخصّصة للإناث، لكن لا تناقض في تسمية الصبي سو. ونظرًا لأنَّ الأسماء تفتقر إلى أيِّ معنى باستثناء حامليها فإنَّنا لا نحلّل المصطلحات المصنفة بصفتها أسماء، فالأسماء هي مصطلحات بدائية.

يفترض المتحدِّثون أنَّ الأسماء تحمل حامليها، وهذا الافتراض فضلًا عن البدائية يلخِّصان الهلوسة الدلالية، وأفضل ما لديَّ هو عام 1936. كان الديمقراطيون قد سيطروا على الهيئة التشريعية لولاية رود آيلاند وبدأوا في منح مكافآت قدرها 100 دولار للمحاربين القدامى. وندب معظم الجمهوريين بصوتٍ عالٍ سخاء منافسيهم، لكنَّ أحد الجمهوريين بخنوع اقترح مكافأة قدرها 100 دولار للرقيب إفيل تينسبا Evael O.W Tnesba من كتيبة الرشاشات الثانية عشرة. وأيد ديمقراطي مسرور الاقتراح. وعندما أقر المجلس التشريعي هذا الإجراء، فانطلق الجمهوريون ضاحكين. وانزعج الديموقراطيون حينما علموا أنَّ عكس أحرف Evael O. W. Tnesba يكون "الغائب W. O. المغادِر" .Absent W. O. Leave

يسمح عدم وجود أيِّ معنى وصفي للاسم بأن تنجح الإشارة دون الحاجة إلى وصف الكائن بدقَّة، وهذا يجعل الإشارة مباشرةً مثل الإدراك، شكل سحري تقريبًا لقوَّة الكلمات.

إذا كان "الإله" اسمًا فإنَّ "الإله" هو تأثيرٌ مناسبٌ من تأثير الإله. وعلى وجه التحديد، لكي يكون "الإله" اسمًا يجب أن يكون الإله سببًا بعيدًا لـ "الإله" كما هو مُستعمل في هذه الجملة بالذات. كيف يمكن أن تبدأ هذه السلسلة السببية؟ تذكر كيف قدمت الحيوانات نفسها لآدم لتسميته (تكوين 2:20). ربَّما انضم الإله إلى قائمة الانتظار، وكان بإمكان آدم أن يطلق على خالقه "الإله" وبذلك قدم اسمًا يمكن أن تستعمله حواء لاحقًا، وتنقل "الإله" إلى أبنائها، وينقلون الاسم إلى أطفالهم، وفي النهاية والدتك تهمس "الإله" في أذنك.

سيختار الاسم الهامس الإله بغض النظر عمَّا إذا كنت تعتقد أنَّ كلمة "الإله" تشير إلى أيِّ شيء. وحينما يلفظ الألمان كلمة "كانت" Kant بشكل صحيح (التي تتناغم مع نطحَة "bunt")، يعتقد الطلَّاب الأمريكيون المندهشون أنَّ هذا اسم هفوة. ويحاول الأمريكيون الانضمام إلى الهراء البذيء قائلين: "أستاذي معجب بكانت". وما يعدُّونه هراء صحيحٌ حرفيًّا، فالمحتال الذي يعتقد أنَّه يمرّر عملة مزيفة قد ينفق في الواقع عملة أصلية، ثمَّ يشارك في معاملة قانونية بشكلٍ غير متوقع.

وبحسب ميل، "كلُّ الأسماء هي أسماء لشيء ما، حقيقي أو وهمي" ([1882] 1979، 33). وهذا يعني أنَّ "اسم" الإله "ليس له حامل" تناقض. والجدل الواضح حول وجود الإله هو في الواقع نقاش حول طبيعة الإله، ويعتقد بعضهم أنَّ الإله كائن مستقلّ عن العقل. ويعتقد بعضهم أنَّ الإله فكرة، ويتفق الجميع على وجود الإله.

هذه العقلية تحوّل الإلحاد إلى دين، لكنَّ هذا يشبه تصنيف العفة نوعًا من الجنس، فالملحد ينفي أنَّ "للإله" حاملًا. لذلك؛ إذا كان لا بدَّ من أن يكون للاسم حامل، كما هو الحال في المنطق الكلاسيكي المعاصر (المنطق الأصلي من الدرجة الأولى مع الهوية)؛ يجب على الملحد أن ينكر أنَّ "الإله" هو اسم. وبدلًا من ذلك اسم مستعار مثل سان أبابيس "Saint Ababís" في الفلبين. فبعد أن غزا الجيش الأمريكي المستعمرة الإسبانية البالغة من العمر 333 عامًا، كان الفلبينيون يسمعون الجنود الأمريكيين يهتفون "القديس أبابيس!" في لحظات التوتر. (تشير كلمة سان San إلى قديس ذكر بالإسبانية كما في "سان فرانسيسكو" San Francisco و"سان دييغو" San Diego) فاعتقد السكان الأصليون الكاثوليك أنَّ الجنود كانوا يستدعون القدّيس الراعي للولايات المتحدة.

في رواية جزيرة البطريق Penguin Island لأناتول فرانس Anatole France، يخطئ المبشر قصير النظر فيظن طيور الأوك auks كالناس، فيعمدهها. ويصحح الرب الخطأ بتحويل الطيور إلى بشر، وربما يمكن أن تجعل شفاعة أخرى القديس أبابيس شفيع الأشياء غير الموجودة.

حينما يقول المُزيّف "سان أبابيس غير موجود" فإنَّه ينوي مرجعيته المجهضة للإشارة إلى وجود عقبة في السلسلة السببية(Donnellan 1974) . وبدلًا من الاستمرار في حملها، تنتهي السلسلة بشكل غير لائق بسوء سمع أو سوء فهم أو خطأ (كما هو الحال في الأسماء المستعارة التي اختلقها الكاذبون)، ويعاني "الإله" من هذا النوع من الإشارات الوهمية.

كان ميل عرَّاب برتراند راسل، وضمنت مشاركة ميل في سك "برتراند راسل" أن "برتراند راسل" لم يكن اسمًا مزيفًا، ومراسم التعميد هي أحداث عامة مهيبة مصممة لربط الاسم بشكل موثوق به مع حامله المقصود ولتشجيع الشهود على تمرير الاسم من متحدث إلى متحدث ومن جيل إلى جيل. وبفضل المعمودية في عام 1872 أثَّر برتراند راسل في إدراكك للكلام بفضل استعمال اسمه في هذه الجملة، فاسم راسل Russell هو ضوء النجوم، يمكن إدراكه حتى لو تم إخماد النجم منذ فترة طويلة.

كم سيكون اسم الإله أكثر إشراقا سماع اسمه سيكون صدى إلهي. وقول "الإله" هو مرجعيَّة مباشرة إلى الإله تعالى دون وصف.

ستتعرَّض هذه المرجعيَّة المباشرة للخطر؛ بسبب الاستعمال المشوَّه الذي أدَّى إلى "مدغشقر" Madagascar، حينما اشتبه ماركو بولو Marco Polo فحوَّل مرجعيتها من جزء من القارة الإفريقية إلى أكبر جزيرة قبالة الساحل الإفريقي، ويمكن فهم حظر التجديف جزئيًّا على أنَّه حماية لقناة اتصال إلهية.

لا يشجع الوسطاء الذين يعلنون عن خبرة في التعامل مع الإله التواصل المباشر، وغالبًا ما ينصح هؤلاء السماسرة بمنع كامل للتلفظ باسم الإله. ويمتثل بعض الطلَّاب من طريق استبدال "الإله" God بـ "G_d" في مقالاتهم.

وجد رجال الدين - الأكثر بعد نظر - أديانًا مع الحرص على أن يكون إلههم بلا اسم، وتوجد في بالميا Palmya مذابح كثيرة لإله مجهول، فأيُّ اسمٍ مألوف جدًّا إشارة إلى الإله، وتمنحك معرفة اسم شخص ما سلطة عليه، ومن غير الأخلاقي السعي وراء

السلطة على الإله.

غالبًا ما ترث أسماء الأنبياء الذين أدركوا الإله بشكل مباشر النواهي الإلهية، ويحذر القسم 295C من قانون العقوبات الباكستاني، "من يدنس الاسم المقدس للنبي محمَّد (صلى الإله عليه وسلم) بالكلمات، سواء المنطوقة أو المكتوبة، أو التمثيل المرئي، أو بأيِّ اتهام أو تعريض أو غمز، بشكل مباشر أو غير مباشر، يعاقب بعقوبة الإعدام أو السجن مدى الحياة، وبالغرامة".

على عكس المسندات، تنتشر الأسماء بين اللغات دون الحاجة إلى الترجمة، وهذه العلامات المحمولة جدًّا ليس لها أي معنى للترجمة، لذلك لم يتم تضمين الأسماء في القواميس. وحينما تتعلَّم اسم الفرعون التوحيدي أخناتون فأنتَ لا تتعلَّم أيَّ مصري.

نظرًا لأنَّ الاسم يشير مباشرة إلى حامله فإنَّ الاسم يفرد الشخص نفسه في جميع الأوقات. لا يزال "برتراند راسل" يعين برتراند راسل على الرغم من وفاته في عام 1970. ويشير "برتراند راسل" بشكل صارم إلى الشخص نفسه في جميع العوالم الممكنة. ضع بحسبانك كيف نقيم الشرط الشرطي "إذا كان برتراند راسل قد جلس في قسم غير المدخنين في 2 أكتوبر 1948، في رحلته بطائرة القارب الطائر، لكان قد مات في ذلك اليوم في المضيق النرويجي". نحن نعدُّ العالم المحتمل الذي يشبه العالم الحقيقي إلى حدٍّ كبيرٍ باستثناء برتراند راسل الذي يجلس في قسم غير المدخنين. إذا مات في ذلك العالم في ذلك اليوم فإنَّ الواقع المقابل هو الصحيح.

على عكس التعيين الصارم للأسماء فإنَّ وصفًا مثل أصغر مؤلف مشارك لـ "مبادئ الرياضيات" Principia Mathematica يختار أفرادًا مختلفين في عوالم محتملة مختلفة، ففي بعض العوالم الممكنة يعدُّ فرانك رامزي Frank Ramsey المعاصر لرسل أصغر مؤلف مشارك.

التاريخ السببي يزيل الغموض عن الأسماء، فقد كان هناك الكثير من السادة الذين يحملون اسم "لورد راسل"، وهذا يشمل برتراند راسل بعد وفاة شقيقه الأكبر فرانك.

وفي عام 1959، كتب برتراند راسل واللورد راسل من ليفربول رسالةً مشتركةً إلى صحيفة التايمز: "سيدي، من أجل تثبيط الالتباسات التي كانت تحدث باستمرار نطلب ربطًا أن نعلن أنَّه كل واحد منَّا ليس الآخر"

هل وُلدنا ملحدين؟

لا يمكن معرفة أي اسم بالفطرة، لا يمكن معرفة الأسماء إلَّا من خلال الاتصال الإدراكي أو الشهادة. نبدأ مع أيٍّ منهما، ومن ثَمَّ، فإنَّ الإيمان الفطري يتعلَّق بالمسند "الإله". وقد تم إرسال المرسلين لإنقاذ أولئك الذين لم يسمعوا باسم الإله. وأقرَّ اللاهوتيون أنَّ الوثنيين المنعزلين يمتلكون بالفعل "الإله" الأصلي. وفي النهاية، كان المتوحشون يعبدون آلهة باطلة. ونقل اسم الإله الحقيقي إلى الضالين سيصحح هدفهم الروحي.

أظهر فلاسفة ما قبل المسيحية، مثل أفلاطون، أنَّ دراسة المسند "الإله" يمكن أن تؤدّي إلى تحسين مفهوم الإله. ويعتقد بعض اللاهوتيين أنَّ هذا اللاهوت المدفوع بالإسناد يمكن أن يكون كافيًا للتعرف على الإله الوحيد. ويمكن للمفكر الذي لم يسمع أبدًا باسم "الإله" أن يتوصَّل إلى أنَّ مصطلح "الإله" ينطبق فقط على كائن كامل. ويجب أن تتمتَّع الكائنات المثالية بأفضل الخصائص. وبما إنَّ الوجود خاصية أفضل من عدم الوجود فإنَّ جميع الكائنات الكاملة موجودة. ولكن بما إنَّ خاصية القوَّة الكاملة يمكن أن يمتلكها كائنٌ واحدٌ على الأكثر فهناك إلهٌ واحدٌ بالضبط.

يعترف العقلانيون بأنَّ المعتقدات المسبقة تتطلَّب بنيةً تحتيةً لا تنضج إلَّا بعد أن تكون لدينا خبرة كبيرة. وقد تتطلَّب المعتقدات الفطرية بشكل عام خبرات لإثارة مظاهرها (تمامًا كما إنَّ تجربة الشمس ضرورية لتحفيز الاستجابة غير المكتسبة للتسمير). وسبب الاعتقاد هذا لا يحتاج إلى تبرير الاعتقاد. فمثلًا: غالبًا ما يتسبَّب مرض شبه قاتل في اعتقاد الناجي بوجود إله، ومع ذلك، فإنَّ التعافي ليس سببًا للاعتقاد بوجود إله.

بدأت التجريبية بإنكار الأفكار الفطرية. وبحسب مؤسس التجريبية البريطانية جون لوك John Locke فإنَّنا ندخل العالم كألواح فارغة. وإذا لم يتم التحدُّث للأطفال عن الأشباح ومخلوقات الظلام الأخرى فلن يخافوا الظلام، فيجب اكتساب مفهوم الإله من خلال التجربة. مثلًا: قد تبدأ الفتاة بفكرة والدها، وعدَّلت الفكرة بطرح الحدود وتطعيم الميزات الرائعة من الأفكار الأخرى.

ومع ذلك، لم يعتقد جون لوك أنَّنا وُلدنا ملحدين. يتطلَّب الإلحاد الإيمان بغياب الآلهة، وليس مجرَّد غياب الإيمان بوجود آلهة. والقائمة الفارغة هي غياب التمثيل، وليس تمثيلًا للغياب.

الإلحاد مستحيل من دون مفهوم الإله، وأفضل أمل للتجريبي في منع أطفاله من أن يصبحوا ملحدين هو منعهم من السماع عن الآلهة.

تحويلات راسل

كان والدا برتراند راسل عضوين متطرفين في الطبقة الأرستقراطية البريطانية، وقد كتب والده، جون راسل John Russell، فيسكونت آمبرلي Viscount Amberley، نقدًا مثقفًا للمسيحية، تحليل الدين An Analysis of Religion. وكان هو وزوجته كاثرين Katherine ناشطين أيضًا في حقِّ المرأة في التصويت. وحينما علم جون راسل أنَّ مرض السلِّ جعل معلم الأسرة غير صالح للزواج سُمح لفيسكونت آمبرلي بممارسة الجنس معه.

كجزءٍ من خطَّةٍ لتربية أطفاله الثلاثة على أنَّهم ملحدون، طلب اللورد أمبرلي من صديقه جون ستيوارت ميل John Stuart Mill أن يكون الأب الروحي لابنه الثاني، برتراند. وكان ميل أبرز فيلسوف في عصره، وغالبًا ما يُصنَّف على أنَّه رابع أكبر تجريبي (انضمَّ إلى آلهة جون لوك John Locke، وجورج بيركلي George Berkeley، وديفيد هيوم David Hume). وعلى الرغم من وفاة ميل في العام التالي فقد أثَّرت آرائه الفلسَفيَّة في

ربيبه. وحينما كان مراهقًا تم إقناع راسل بالحجَّة الكونية لكائن ضروري. و"في سنِّ 18، قرأت السيرة الذاتيَّة لميل، حيث وجدت جملة مفادها أنَّ والده علَّمه أنَّ السؤال "من صنعني؟" لا يمكن الإجابة عنه؛ لأنَّه يقترح على الفور السؤال الإضافي "من صنعَ الإله؟"، هذا دفعني إلى التخلي عن حجَّة السبب الأول، وأصبح ملحدًا" (1968، 36).

ولكن بعد بضع سنوات، تحوَّل راسل من تجريبية ميل إلى المثالية: "لمدة عامين أو ثلاثة أعوام ... كنت هيجليًا. أتذكر اللحظة بالضبط خلال عامي الرابع [كطالب جامعي في 1894] حينما أصبحت كذلك. كنت قد خرجت لشراء علبة من التبغ، وكنت عائدًا معها على امتداد شارع ترينيتي لان Trinity Lane، حينما رميتها فجأةً في الهواء وصرخت: "الإله العظيم في الأحذية! الحجَّة الأنطولوجية سليمة!" (1959, 60).

حثَّ ألفريد نورث وايتهيد Alfred North Whitehead راسل على قراءة كتابات هيجل الرياضية، على أمل تثبيط مثالية تلميذه. وهذا التحوُّل من المصادر الثانوية المتعلمة رياضيًا إلى المصدر الأولي غير الكفء كشف هيجل على أنَّه دجال. أو هكذا استنتج راسل بخجل. واختبر المرتد انتقاله للولاء لفلسَفَة الحس السليم لدى جي إي مور G. E. Moore:

كتحرير عظيم، كما لو كنت قد هربت من بيت ساخن إلى مرتفع مفتوح تجتاحه الرياح. كرهت الاحتقان الذي ينطوي عليه افتراض أنَّ المكان والزمان كانا فقط في ذهني. لقد أحببت السماوات المرصَّعة بالنجوم بشكل أفضل من القانون الأخلاقي، ولم أستطع تحمّل وجهة نظر كانت بأنَّ أفضل ما أعجبني كان مجرد نسج ذاتي. في أوَّل وفرة من التحرُّر، أصبحت واقعيًا ساذجًا، وابتهج بفكرة أنَّ العشب أخضر حقًّا، على الرغم من الآراء السلبية لجميع الفلاسفة من لوك وما بعده. (Russell 1959, 61 - 62).

يسجل راسل تجارب تحويل أخرى. سياسيًا، تحوَّل راسل من المحافظة إلى الليبرالية بعد أن شاهد زوجة وايتهيد تتعذَّب. وبالنسبة إلى الزواج، أدرك راسل - في أثناء ركوب الدراجة - أنَّه لم يعد يحبُّ زوجته، فنحو حياة راسل تتخله أخطاء نحوية عاطفية.

من الناحية الفلسَفيَّة، اتبع راسل تحوُّله إلى الواقعية الساذجة بالانغماس في العقلانية الأفلاطونية. ثمَّ استقرَّ مرَّةً أخرى في التجريبية التي كانت متعاطفةً مع رغبة جون ستيوارت ميل لإزالة الغموض عن الرياضيات. وفي حين سعى ميل إلى هذا الهدف من خلال وصف الحقائق الرياضية على أنَّها تعميمات تجريبية مؤكَّدة جدًّا، اختصر راسل الحقائق الرياضية إلى حشو: 97 + 98 = 195 يعني فقط أنَّك إذا بدأت في الموضع 97 من خطِّ الأعداد وتقدَّمت 98 وحدة أخرى، فإنَّك تصل إلى المركز 195 على خطِّ الأعداد.

وجهة نظر راسل الناضجة هي أنَّ اسم الإلحاد متناقض مع نفسه، ففقط الاسم الذي يحمل حاملًا هو "اسم مناسب منطقيًّا"، في اقتباس مخيف؛ لأنَّ برتراند راسل لم يستعمل هذه العبارة الملائمة أبدًا (Proops 2001, 152 fn 2). والكلمات التي تعدُّ عادةً أسماء هي في الواقع مسندات تنطبق على شيءٍ واحدٍ بالضبط إذا كانت تنطبق على أيِّ شيء على الإطلاق. ويعرِّف أنسيلم Anselm "الإله" بأنَّه "أفضل كائن يمكن تصوُّره" وحينما ينكر راسل وجود الإله فإنَّ إنكاره يعني إمَّا أنَّه لا يوجد أفضل ما يمكن تصوُّره أو أنَّ هناك أكثر من واحد.

بحسب أحاديث المسلمين، هناك 99 اسمًا من أسماء الإله الحسنى، ويبدأ كلٌّ منهم تقريبًا بـ "the"، مِمَّا يشير إلى أنَّ الأسماء أوصاف محدَّدة أكثر من كونها الأسماء: القدير، القهار، العليم، وهكذا دواليك ... في الواقع لأكثر من 99 اسمًا (إذا حسبت كلّ شكل من أشكال العنوان الإلهي في القرآن).

وبحسب رسل، لا يوجد اسم مناسب منطقيًّا للإله، لا يوجد سوى "إله" إسنادي كما في "الآلهة تسكن على جبل أوليمبوس". ولا توجد آلهة مثلما لا توجد أشباح. وهذا الادِّعاء السلبي نحويًّا يعادل الافتراض العام الإيجابي بأنَّ كلَّ شيء ليس إلهًا (تمامًا كما إنَّ كلَّ شيء ليس شبحًا). كان الإله كلي القدرة والعلم والخير قد جعل وجوده واضحًا. وبالنسبة إلى هذا الإله فإنَّ عدم وجود دليل هو دليل على الغياب. ولا ينطبق هذا على الآلهة التي تخفي نفسها بنفسها والتي تستعمل قوَّتها لجعل العالم يبدو غير مؤمن.

التعليم الديني

صاغ توماس هكسلي Thomas Huxley مصطلح "اللاأدري" Agnostic في عام 1869، و"بلدغ داروين" Darwin's Bulldog للإشارة إلى الاعتقاد بأنَّ البشر ليس لديهم أدلة كافية للتأكُّد من وجود الإله.

إذا كانت كلمة "ممكن" تعني ممكنًا منطقيًّا فإنَّ "الإله ممكن" يستلزم أن يكون الإله فعليًّا بحكم الحجَّة الأنطولوجية (تذكر اهتمام لايبنيز بإثبات صحَّة الدليل الأنطولوجي لوجود الإله من خلال إثبات أنَّ "وجود الإله" ليس تناقضًا). لذلك؛ يحتاج هكسلي إلى تفسير الاحتمال على أنَّه كلّ ما يتوافق مع ما هو معروف. وبالفعل، يتحدَّث هكسلي كما لو أنَّ المشكلة تكمن في أنَّ أدمغة القردة لدينا تُطابق السؤال. ولا يشرح هكسلي كيف نتطابق مع السؤال الأعلى مستوى المتمثِّل في التأكُّد من الأسئلة التي يمكننا الإجابة عنها والأسئلة التي لا يمكننا الإجابة عنها.

معرفة ما إذا كان الاسم ينطبق أم لا أسهل من معرفة ما إذا كان المسند ينطبق. فمثلًا: كان راسل محايدًا بشأن ما إذا كان المسيح موجودًا، ولكن كان بإمكانه بسهولة تصوُّر الأدلَّة الأثرية التي من شأنها أن تمنحه معرفة بوجود المسيح. ويمكن للمرء أن يعرف أنَّ الاسم له حامل دون معرفة طبيعة ذلك الحامل. ولم يستطع راسل أن يرى كيف يحلّ لا أدريته حول ما إذا كان هناك إله، ومعظم اللاأدرية هي اللاأدرية الإسناديَّة بدلًا من اللاأدرية الاسميَّة.

إذا كان الإيمان يعتمد على الدليل فإنَّ عدم وجود دليل على وجود إله يعني عدم وجود الإيمان بالإله، ولكن إذا كان الإيمان لا يعتمد على الدليل فيمكن أن يكون المؤمن أيضًا ملحدًا. وفي الواقع، ادَّعى بعض اللاهوتيين أنَّهم ملحدون. وقد اقتبسوا من مقدِّمة كتاب "نقد العقل المحض" Critique of Pure Reason لإيمانويل كانت: "كان عليَّ أن أنكر المعرفة من أجل إفساح المجال للإيمان" ([1781] 1965, Bxxx).

كان التمييز بين الإثبات والاعتقاد مهمًّا أيضًا لبعض الملحدين. وقد زعموا أنَّه

بالنسبة إلى الافتراضات المتعلقة بالوجود فإنَّ الاعتقاد بأنَّ x غير موجود هو الافتراض المنهجي، فالأقلُّ هو الأفضل.

ينكر فلاسفة آخرون وجود أيِّ عدم تماثل منهجي في مسائل الوجود، ولا يؤمنون بوجود أشباح إلَّا إذا كان هناك دليلٌ ضدَّ الأشباح. وإذا لم يكن هناك دليل مع أو ضدَّ وجود الأشباح فيجب علينا تعليق الحكم حول وجود الأشباح، فالشكُّ المحايد وليس الشكّ المُشايع هو الافتراضي.

وبحسب سبينوزا Spinoza فإنَّ إهمالنا النفسي هو الإيمان وليس عدم التصديق، فنحن عرضة للبدايات الخاطئة بقدر ما يكون العدائون على استعداد عند خطِّ البداية.

فضلًا عن موافقته على أطروحة سبينوزا النفسية، وافق راسل على أطروحة كليفورد W. K. Clifford المعيارية. يجب علينا تعليق الحكم في حالة عدم وجود أدلة، وحينما يكون هناك دليل يجب أن نناسب الإيمان مع هذا الدليل. فاعتقد راسل أنَّه من الواضح أنَّ بنيتنا الضعيفة تجعلنا نقصر عن تحقيق هذه العقلانية المثالية.

إذا سئمنا من قمعنا للإيمان فقد ينشأ الاقتناع الكامن. وتحت الضغط، يعود الكثير من اللاأدريين إلى الإيمان الطفولي (على الرغم من إصرار الراسليين، ليس بقدر ما يدّعي هواة تحول لحظة الموت)، إذ يتطلَّب عكس المعتقد أيضًا جهدًا، فبدلًا من محو الاعتقاد السابق، يعقد الكفر الإيمان بإضافة الرفض. وكلَّما كذب الملحد المحتضر تبسّطت حالته العقلية، فـ"الإيمان" هو الكلمة الأخيرة في "الإلحاد"

بالنظر إلى نظريَّة الاعتقاد الافتراضية هذه، يجب أن يكون هناك تأثير أسبقية قوي للإقناع، فالكلمة الأولى في الانتماء الديني تميل إلى أن تكون الكلمة الأخيرة.

لمنع البصمة غير المنطقية، يدين المفكّرون الأحرار التلقين الديني بوصفه إساءةَ معاملة للأطفال، إذ يجب أن يقرّر الأطفال الأمور المهمة لأنفسهم بعد أن يكبروا بما يكفي لتقييم الأدلة.

إذا كان للوالدين الحقّ في التحكم في التعليم الديني للأطفال، فهل يمتدُّ هذا إلى

المفكرين الأحرار المعارضين للتعليم الديني؟ وهل هذا الحقُّ باقٍ بعد وفاتهم؟ في عام 1874، تُوفيت والدة برتراند راسل وأخته بسبب الدفتيريا، ولإرهاقه بالحزن وألم المرض عدَّلَ فيسكونت آمبرلي إرادته، موضحًا أنَّه لا يريد تربية أطفاله الباقين كمسيحيين، وعين الأرمل المريض صديقين لا أدريين كأوصياء. ومع ذلك، عند وفاته، نجح والدا فيسكونت في تقديم التماس إلى المحكمة العليا لإلغاء هذا الحكم المناهض للمسيحية، فحوّلت وصاية الأطفال إلى اللورد جون راسل، رئيس الوزراء السابق لبريطانيا العظمى، والسيدة راسل.

تطابقت وجهات نظرهم حول التدريب الديني مع رأي صامويل تايلور كوليردج Samuel Taylor Coleridge، فاستمع إلى اعتراضات المفكر الحرِّ على فرض الدين على الأدمغة غير الناضجة. ثمَّ أريته حديقتي وأخبرته أنَّها كانت حديقتي النباتيَّة. فقال: وكيف ذلك! إنَّها مغطاة بالأعشاب". وأجبته: "أوه، هذا فقط لأنَّها لم تصل بعد إلى عصر التعقُّل والاختيار. لقد أخذت الأعشاب، كما ترون، الحرية في النمو، واعتقدت أنَّه من غير العدل التعصُّب للتربة تجاه الورود والفراولة" (2019، 310).

الإيمان الطفولي والاعتقاد الخالي من الموضوعية

أصبح الطفل برتراند راسل فتى تقيًّا. وذكريات إيمانه الغامض في طفولته جعلته يتقبَّل نظريَّة ويليام جيمس William James العاطفية في الإيمان. فمثلما توجد مشاعر غير موضوعية مثل القلق العائم هناك اعتقادٌ حرٌّ. "الكلُّ يعرف الفرق بين تخيل الشيء والإيمان بوجوده، بين افتراض قضية والقبول بحقيقتها بطبيعته الداخلية، فإنَّ المعتقد أو الإحساس بالواقع هو نوع من الشعور متحالف مع المشاعر أكثر من أي شيء آخر" (James [1890] 1981, 2:283). والعقاقير التي تثير المشاعر، مثل الكحول، تزيد من القناعة على حساب الوضوح.

يتكهَّن راسل بأنَّ "الشعور بالإيمان يقودنا للبحث عن محتوى نرفقه به، ومن المحتمل

أن يأتي الكثير مِمَّا يُعبِّر عن الوحي أو البصيرة الصوفية على هذا النحو: يربط شعور الإيمان - بقوَّة غير طبيعية - نفسه بشكل أو بآخر - بشكل عرضي - ببعض المحتوى الذي تصادف أن نفكر فيه في اللحظة المناسبة" (1921، 252).

وسَّع ويليام جيمس حسابه العاطفي ليشمل فلسفات الوحدانية. وعند استنشاق أكسيد النيتروز اقتنع ويليام جيمس بشدة. لكن بماذا؟ حينما تمت إزالة أكسيد النيتروز تراجعت الأفكار إلى طرف لسانه. وأقرب تعبير استطاع أن يجده هو تلك الممرَّات لهيجل التي تذكرنا بشلالات أنجيل في فنزويلا، حيث يتبخر الماء قبل أن يلامس الأرض، إذ تلجم هذه الكتابات على القانون القائل بأنَّ كلَّ شيء متطابق مع نفسه وأنَّه لا يوجد أيُّ افتراض صحيح أو خاطئ. فيتوقع جيمس المخمور أنَّ تدويناته ستبدو غير متماسكة لأولئك الذين يرشحون الواقع من خلال مبادئ مثل أن كلَّ شيء مطابق لنفسه:

ألا ترى الفرق، ألا ترى الهُويَّة؟ موحَّدة متعارضة باستمرار! مثل ما أقول لك أن تكتب ولا تكتب! متطرّف، متطرّف، متطرّف! ضمن الامتداد الذي يحتويه "المتطرّف" يتم احتواء "أقصى" شدّة شيء ما، وغير ذلك الشيء ...!

بواسطة جورج، العَدَم سوى العَدَم! هذا يبدو وكأنَّه هراء، لكنَّه محض غباء! الفكر أعمق بكثير من الكلام ...! كلية الطبِّ؛ مدرسة اللاهوت، المدرسة! المدرسة! اللهم ارحمني. يا إلهي! (James 1882, 207)

قدمت الطبيعة المحيطية oceanic للتجربة الدعم للتفسير القائل بأنَّ الواقع يتجاوز التحليل اللفظي.

في النهاية، فسَّر جيمس هذه التجارب الدوائية الهيجلية دليلًا ضدَّ هيجل، إذ تشير تجارب جيمس الذاتيَّة إلى أنَّ هيجل كان عرضةً بشكل طبيعي للتمجيد الذي يختبره جيمس فقط من خلال تسمم أكسيد النيتروز.

يفسّر الناس العاديون التجربة المحيطية بلغة أديانهم، فغير تعليم هيجل

المفردات وأصبح بديلًا من الدين، وفسَّر راسل الهيجلية المبكرة على أنَّها بديل فكري عصري للدين.

تحت قلب كارل ماركس Karl Marx للنظام الهيغلي، أصبحت الشيوعية الإلحادية دينًا متسامحًا، ويقدِّم راسل قاموسًا لقرَّاء البيان الشيوعي Communist Manifesto ورأس المال Das Kapital:

يهوه = المادية الديالكتيكية

المسيح = ماركس

المُختارون = البروليتاريا

الكنيسة = للحزب الشيوعي

المجيء الثاني = ثورة

الجحيم = عقاب الرأسماليين

الألفية = الكومنولث الشيوعي

كان السوفييت يأملون أن يخرج راسل من الهيجلية إلى الماركسية، لكنَّ زيارة لموسكو في عام 1920 أدَّت إلى تجميد شيوعية راسل الناشئة، إذ سمع رفاقه ضجيج السيارات الذي يأتي بنتائج عكسية في الليل، وسمع فرق الإعدام.

أصبح دافع راسل للاعتقاد في النهاية دافعًا للكفر. وفي السياسة، عرَّف نفسه بشكل معارض (مناهض للحرب، مناهض للفصل العنصري، مناهض وما إلى ذلك). واستُؤنفت معارضته للحرب، التي خفت حدّتها فقط للحرب العالمية الثانية، بشكل دائم في سنِّ الشيخوخة. وفي عام 1969، نظَّم راسل لجان تحقيق دولية. وانضمَّ جان بول سارتر أيضًا، على الرغم من أنَّ سارتر رفض النظر في الادِّعاءات القائلة بأنَّ الشيوعيين ارتكبوا جرائم حرب.

أزمة راسل الوجودية

تتجلَّى قابلية الإيحاء المضادة في إلحاد آرثر شوبنهاور الصريح، إذ أراد برتراند راسل الاتفاق مع شوبنهاور. ومع ذلك، أصبح راسل في حيرةٍ من أمره بشأن ما سيوافق عليه.

وأصبح ربيب جون ستيوارت ميل في حيرة من عدم الإيمان بالإله، أو أيِّ شيء آخر يحمل اسمًا. وفي المنطق الكلاسيكي، يجب أن يكون للاسم حامل، وإذا كان "الإله" اسمًا منطقيًّا مناسبًا فعندئذٍ "الإله موجود" حشو، اسم الإلحاد متناقض.

لاأدرية الاسم ستكون أيضًا متناقضة مع نفسها، فإذا كان "الإله" اسمًا منطقيًّا مناسبًا فإنَّ عبارة "قد يكون الإله موجودًا أو غير موجود" يعني وجود الإله. وبما إنَّ الحشو يمكن معرفته واللاأدرية تستلزم أنَّ الإله غير معروف فإنَّ اللاأدرية في الاسم خاطئة بالضرورة.

إذا لم يكن "الإله" اسمًا فإنَّ "الإله غير موجود" يكون غير نحوي مثل "سان أبابيس غير موجود". وباختصار، عبارة "الإله موجود" لا يمكن أن تكون خاطئة، إنَّها إمَّا حشوٌ أو لا معنى لها.

بالنسبة إلى راسل، يشبه الاسم مصطلحًا توضيحيًّا مثل "هذا" و"ذاك". (في الواقع، حينما كان راسل ظاهريًّا أصرَّ على أنَّ "هذا" و"ذاك" هما الاسمان المنطقيان الوحيدان المناسبان). وقول "هذا غير موجود" إمَّا أنَّه صحيح تمامًا أو غير محدد. ولكي يكون ذا مغزى، يجب أن يتطابق "هذا" المتحدّث مع ما يشير إليه. وإذا لم يكن هناك شيء، فشلت إيماءته في تأمين موضوع للتعليق عليه. وبدلًا من أن يكون خاطئًا يخطئ البرهان.

ورغب راسل أيضًا في إنكار وجود الشيطان. ولكن ما الفرق بين "الإله غير موجود" و"الشيطان غير موجود"؟ إذا كان معنى الاسم هو حامله فإنَّ عدم وجود حامل يحول دون الاختلاف في المعنى بين "الإله" و"الشيطان"

اللاأدري لديه معضلة مماثلة، يودُّ أن يعترف بأنَّه لا يعرف ما إذا كان "الإله غير موجود" صحيح. ولكن إذا كان يعرف ما يشير إليه فعليه أن يعرف أنَّ الإله موجود.

حتى المؤمن لديه مشكلة؛ لأنَّه لا يريد أن يؤكد وجود كلِّ الآلهة.

هل الإله موجود؟

استدعت آراء راسل المنشورة الأولى حول الوجود السلبي تمييزًا بين الوجود exist-ence والعيش subsistence، وهو ما ينسبه إلى أليكسيوس مينونج Alexius Meinong[1]، فزيوس غير موجود ولكنَّه عائش subsist بالفعل. يكفي العيش لجعل "زيوس غير موجود" عن زيوس، واستكشف مينونج عالم العيش بطموح الفاتح.

أصبح راسل في النهاية متحررًا من نهج مينونج، إذ يجب أن يتمتَّع الفلاسفة بمثلِ الإحساس القوي بالواقع الذي أظهره تشارلز داروين حينما حاول الأولاد خداعه بعينة مدمجة معًا من عدَّة أجزاء من الحشرات. وبعد الضغط عليه لتحديد حشرة فرانكشتاين صنَّفها داروين على أنَّها هراء.

يقدِّم راسل في "عن الإشارة" On Denoting برنامجًا من ثلاث خطوات لتحليل الوجود السلبي. أولًا، وضح كيف أنَّ كلَّ وصف غير محدد، مثل "شبح"، هو مصطلح عام لا يشير إلى أي شيء معيَّن، إذ أستطيع أن أستنتج أنَّ هناك شبحًا من منزل مسكون دون أن أكون قادرًا على الإجابة "إلى أيِّ شبح تشير؟" فالعبارة "من الخطأ أن الأشباح موجودة"، بكتابتها ~(∃x)Gx، هي معادل للعبارة الشاملة "كلّ شيء هو لا شبح"، (x)~Gx.

راسل هنا يتبع نصيحة هنري بيرغسون للبحث عن البيان الإيجابي وراء البيان السلبي، إذ تنسجم سياسة بيرغسون مع الخطبة التي ألقاها جوني ميرسر Johnny Mer-cer في عام 1944 بعنوان "إبراز الإيجابي" Accentuate the Positive:

عليك أن تبرز الإيجابية

تخلّص من السلبية

---

(1) تمييز مينونج بين الوجود والعيش لم يكن موجودًا أبدًا، فضلاً عنى ذلك، كان مينونج متوقّعًا من ميل، فكلاهما يعامل الأفكار بصفتها مراجع احتياطية. وينفي غوتلب فريج Gottlob Frege أنَّ هذا معقول للغة الطبيعية. ويوصي بتبني لغة مصطنعة يكون فيها شيء ما، مثل القمر، هو المرجع الاحتياطي.

وتمسك بالإيجاب

لا تعبث مع السيد بين - بين In - Between

تتمثَّل الخطوة الرئيسة لرسل في استغلال التمييز بين تعبيرات المرجعية والمتغيرات، المتغير يعمل مثل الفراغ، وملء الفراغ يجعل الجمل كاملة. وحينما يجب إضافة إدخالات مختلفة يتم حجز الأحرف x و y و z لعمل قيود الاختيار:x تقع بين y وz ، والحروف هي مجرد عناصر نائبة.

تتمثَّل الخطوة الثانية لرسل في إظهار كيف يمكن تحليل الأوصاف المحدّدة (الشبح) من حيث الأوصاف غير المحددة (شبح): "من الخطأ أنَّ الأشباح موجودة" ~(∃x = y)(Gy ⊃ (y)(Gx & (x))، تعادل الانفصال "إمَّا أنَّه لا توجد أشباح أو هناك شبحان على الأقل": (∃z)(Gy & Gz & ~(y = z)) (∃y) v ~Gx (x)). ويشدّد راسل على التضمين الفريد لـ "ال"

تتمثَّل الخطوة الأخيرة والأكثر إثارة للجدل في تحليل برتراند راسل بالكشف عن "الأسماء" العادية بصفتها أوصافًا محدَّدةً مقنَّعةً. وهذا يوسِّع الحل إلى الوجود السلبي الذي يتضمَّن أسماء (مثل "كاسبر غير موجود")، نفى راسل أن تكون الأسماء العادية أسماء علم منطقيًّا. وفي المنطق الرسمي، تتصرَّف الأسماء تمامًا كما يدَّعي جون ستيوارت ميل. المعنى الوحيد للاسم هو حامله، لكنَّ الأسماء العادية لا تضع علامةً على كائن لإعادة تحديد هُويته في المستقبل، فتكون بروفايل قد يحتوي على شيء واحد.

على وجه التحديد، جادل راسل بأنَّ الأسماء العادية هي أوصاف محدّدة مقنَّعة، فإذا سُئلت: "من تقصد بـ" كاسبر"؟ فأجبت: "الشبح الودود". يمكن أن يلجأ راسل أيضًا إلى الاستعمالات الوصفية للأسماء: "الفارس بلا رأس ليس كاسبر"، وإذا كانت الأسماء مجرد علامات فلن يتم نقل أيِّ محتوى بمثل هذه الأوصاف.

الآن دعونا نعيد صياغة الوجودي السلبي: "كاسبر غير موجود". إذا كان كاسبر اسمًا

مناسبًا منطقيًّا فإنَّ "كاسبر غير موجود" سيكون بالفعل غير صحيح. وبالنسبة إلى اسم علم منطقي فهو مجرَّد تسمية يكون معناها حاملها، ولا حامل ولا معنى، فلا معنى ولا حقيقة.

ومع ذلك، "كاسبر" تعني الشبح الودود. ومن ثَمَّ فإنَّ "كاسبر غير موجود" يعادل "الشبح الودود غير موجود"، ويمكن أن يكون "كاسبر غير موجود" صحيحًا؛ لأنَّه في الحقيقة وصف عام، وليس مُلاحظة حول شيء معين. ويقول البيان حقًّا إنَّه إمَّا أن يكون هناك أكثر من شبح ودود أو لا توجد أشباح ودودة ~(∃x)(Fx & Gx) v (∃y)(∃z)((Fy) & (Fz & Gz) & ~(y = z) & (Gy)).

يمكن توضيح تطبيق الإلحاد على افتراض أنَّ "الإله" هو وصف محدَّد مثل "الكائن الكامل". إذن، فإنَّ عبارة "الإله غير موجود" تعادل التأكيد المنفصل أنَّه إمَّا أنَّه لا يوجد كائن هو الكائن المثالي أو أنَّ هناك - على الأقلِّ - كائنين من هذا القبيل. والمشرك سيكون ملحدًا بموجب هذا التعريف لـ "الإله". وبالفعل، فقد طبَّق المسيحيون في العصور القديمة المتأخرة مصطلح "الملحد المشرك" على أيِّ شخص يعتقد أنَّ هناك أكثر من إله واحد.

مجادلة في الغياب

تُوفي برتراند راسل عام 1970، بعمر 97 عامًا، وقرأ نعيه قبل نصف قرن. ففي عام 1920 تضخَّم الالتهاب الرئوي المزدوج لديه حتى الموت. وحيث كان راسل يحاضر في الصين واجه صعوبة في تصحيح الشائعات، فأراد الصحفيون اليابانيون المتعطشون للدراما أن يقدم راسل شهادة حية بأنَّه لم يمت. وخوفًا من الانتكاس، تراجع راسل في فترة النقاهة. ورفض الصحفيون اليابانيون المحبطون تصحيح التقارير المتعلِّقة بوفاة راسل. كانوا يأملون أنَّ هذا سيخرج راسل. وبانزعاجٍ، واصل راسل مراوغة المراسلين اليابانيين حتى بعد التعافي بما يكفي لرحلة إلى اليابان، وتدخَّلت سكرتيرته (وزوجته المستقبلية)

دورا بلاك Dora Black في جميع الاتصالات، ووزَّعت الآنسة بلاك لافتاتٍ تقول: "السيد. برتراند راسل، الذي تُوفي بحسب الصحافة اليابانية، غير قادر على إجراء مقابلات مع الصحفيين اليابانيين" (Russell 1975, 144).

على الرغم من أنَّه لم يعد موجودًا سيظلُّ راسل موضوعًا للنقاش والجدل، وهذا يشمل الجدل حول مغزى الجملة السابقة.

ثبت

لفائِدة المستخدمين الرقميين، قد تظهر المصطلحات المفهرسة التي تمتدُّ على صفحتين (على سبيل المثال، 52 - 53)، أحيانًا، في صفحة واحدة فقط من تلك الصفحتين.

تتم الإشارة إلى الأشكال بـ f بعد رقم الصفحة.

آبوت، إدوين،	,Abbott, Edwin
الإجهاض،	,abortion
مفارقة الغياب	,absence paradox
الذهن الغائب	,absent - minded
العدم المطلق	,absolute nothingness
كائنات مجردة،	,abstract objects
حقيقة،	,actuality
أديوديتس	,Adeodatus
إيسوب،	,Aesop
جماليات الغياب	,aesthetics of absence
الصور البعدية،	,afterimages
اللاأدرية،	,agnosticism
هواء،	,air
ألبرت ساكسونيا	,Albert of Saxony
البيروني	,Al - Biruni
كيمياء،	,alchemy
ألكوين يورك،	,Alcuin of York
الإسكندر الأكبر،	,Alexander the Great
الفارابي	,Al - Farabi
الغزالي	,Al - Ghazâlî
رمز الكهف،	,allegory of the cave
الفوضوية،	,anarchism
أناكساجوراس،	,Anaxagoras

أناكسيماندر،	,Anaximander
أناكسيمين،	,Anaximines
الملائكة،	,angels
الوعي الحيواني بالغياب،	,animal awareness of absences
الإبادة،	,annihilation
المجهولية،	,anonymity
أنسكومب، إليزابيث،	,Anscombe, Elizabeth
مركزية الإنسان	,anthropocentricism
تبليط غير دوري،	,aperiodic tiling
الكتابات المشكوكة،	,apocrypha
أبولينير، غيوم،	,Apollinaire, Guillaume
ظهور،	,appearances
الأكويني، توما،	,Aquinas, Thomas
اعتباطية	,arbitrariness
معمارية،	,architecture
أريستوفانيس،	,Aristophanes
أرسطو،	,Aristotle
فن،	,art
الإلحاد،	,atheism
ذرات	,atoms
أوغسطين	,Augustine
أوستن،	,..Austin, J. L
ابن رشد	,Averroës
ابن سينا	,Avicenna
تعميد	,baptism
معادلة باركان	,Barcan formula
بينثام، جيريمي،	,Bentham, Jeremy
بينتون، توماس هارت،	,Benton, Thomas Hart
بيرغسون، هنري،	,Bergson, Henri
بيركلي، جورج،	,Berkeley, George
بيرس، أمبروز،	,Bierce, Ambrose
الانفجار العظيم،	,Big Bang
تدوين ثنائي،	,binary notation
مفارقة التنصيف،	,bisection paradox
صندوق اسود،	,black box

الموت الاسود،	,Black Death
بلاك، دورا،	,Black, Dora
الفراغات،	,blanks
القائمة الفارغة،	,blank slate
تجديف،	,blasphemy
بودهيباكسا،	,Bodhipaksa
بوثيوس،	,Boethius
بور، نيلز،	,Bohr, Neils
ملل،	,boredom
بوسكوفيتش، روبرت جوزيف،	,Boscovich, Robert Joseph
نيكولاس، بوستروم،	,Bostrom, Nicolas
نيكولاس، بورباكي،	,Bourbaki, Nicholas
بوفيت، يواكيم،	,Bouvet, Joachim
روبرت بويل،	,Boyle, Robert
برادواردين، توماس،	,Bradwardine, Thomas
برونر، كاثرين فروست،	,Bruner, Katherine Frost
برونو، جيوردورنو،	,Bruno, Giordorno
بوذا،	,Buddha
البوذية،	,Buddhism
بوردان، جان،	,Buridan, Jean
كامو، ألبرت،	,Camus, Albert
كابرا، فريتجوف،	,Capra, Fritjof
الكنيسة الكاثوليكية،	,Catholic Church
نظرية القرار السببي،	,causal decision theory
السببية،	Causation
كافنديش، مارجريت،	,Cavendish, Margaret
السلتي،	,Celtic
تشالمرز، ديفيد،	,Chalmers, David
تشان، تشارلي،	,Chan, Charlie
تغيير العمى،	,change blindness
شارلمان،	,Charlemagne
تشارلتون، والتر،	,Charleton, Walter
تشارلي تشان،	,Charlie Chan
تشوسر، جيفري،	,Chaucer, Geoffrey
الصين،	,China

المسيحية، ,Christianity
تشوانغ تزو، ,Chuang Tzu
شيشرون، ,Cicero
كلارك، آرثر، ,.Clarke, Arthur C
كلارك، صموئيل، ,Clarke, Samuel
كليفورد، دبليو ك.، ,.Clifford, W. K
كوجيتو، ,Cogito
عدم قابلية الإختراق المعرفية، ,cognitive impenetrability
كولمان نورث، بول، ,Coleman – North, Paul
الحس السليم، ,common sense
شيوعية، ,communism
كمال، ,completeness
تعبير، ,composition
إدانة 1277 condemnation of 1277
الشرطية، ,conditionals
كونفوشيوس، ,Confucius
الوعي، ,consciousness
الضمير، ,consilience
تناقض، ,contradiction
اتفاقية، ,convention
الشركات، ,corporations
الفراغ الكوني ,cosmic void
الدافع الإبداعي، ,Creative Impulse
دالاي لاما، ,Dalai Lama
دانتي، أليغييري، ,Dante, Alighieri
الظلام، ,darkness
دافنشي، ليوناردو، ,Da Vinci, Leonardo
داروين، تشارلز، ,Darwin, Charles
دوكينز، ريتشارد، ,Dawkins, Richard
الموت، ,death
وصف محدد، ,definite description
درجات الواقع، ,degrees of reality
إضفاء الطابع المادي، ,dematerialization
ديموقريطس، ,Democritus
أدلة، ,demonstratives

ديمورغان، أغسطس،	,DeMorgan, Augustus
ديموسثينيس،	,Demosthenes
إنكار،	,denial
اعتماد،	,dependence
ديكارت، رينيه،	,Descartes, Rene
رغبة،	,desire
انفصال،	,detachment
حتمية،	,determinism
ديكنز، تشارلز،	,Dickens, Charles
ديوجين لايرتيوس،	,Diogenes Laertius
إدراك غير موحد،	,disunified perception
تأليه المكان،	,divinization of space
دون، جون،	,Donne, John
دونيلان، كيث،	,Donnellan, Keith
ازدواجية الطموح،	,double - aspectism
نفي مزدوج،	,double negation
التفكير المزدوج،	,doublethink
الأحلام،	,dreams
ثنائية،	,dualism
دوشامب، بيير،	,Duchamp, Pierre
دوهيم، بيير،	,Duhem, Pierre
شركة الهند الشرقية،	,East India Company
اقتصاديات،	,economics
الأنانية،	,egoism
مصر،	,Egypt
الفلسفة المصرية،	,Egyptian philosophy
أينشتاين، ألبرت،	,Einstein, Albert
التجريبية،	,empiricism
الفراغ،	,emptiness
عالم فارغ،	,empty world
أبيقور،	,Epicurus
يوريبيدس،	,Euripides
يوسابيوس	,Eusebius
إبليس،	,evil
وسط مستبعد،	,excluded middle

وجود،	existence,
متقطع،	intermittent,
خاصية،	property,
القصور الوجودي،	existential inertia,
حياة خارج كوكب الأرض،	extra - terrestrial life,
قدرية،	fatalism,
التأثير الإيجابي للميزة،	feature positive effect,
خيال،	fictions,
أشكال،	forms,
فرنسا، أناتول،	France, Anatole,
حرية،	freedom,
فريج، جوتلوب،	Frege, Gottlob,
فريدوجيسوس،	Fridugisus,
فوكسي،	Fuxi,
غيل، ريتشارد،	Gale, Richard,
جاسندي، بيير،	Gassendi, Pierre,
التبديل الجشطالتي،	gestalt switch,
أشباح،	ghosts,
لعبة Go،	Go,
جودارد، روبرت،	Goddard, Robert,
غوته،	Goethe,
خير،	good,
جورجياس،	Gorgias,
نحو،	grammar,
اليونان،	Greece,
جريشام، توماس،	Gresham, Thomas,
التأريض،	grounding,
مادة لزجة،	gunk,
كأس نصف فارغ،	half - empty glass,
هالي، إدموند،	Halley, Edmond,
هول، كاثرين،	Hall, Katherine,
هلوسة	hallucination
هاريوت، توماس،	Hariot, Thomas,
هارمان، جيلبيرت،	Harman, Gilbert,
تناغم،	harmony,

هارتل، جيمس،	,Hartle, James
هارفا، أونو،	,Harva, Uno
هوكينج، ستيفن،	,Hawking, Stephen
الموت الحراري	,heat death
هيجل، جورج،	,Hegel, Georg
هجسياس،	,Hegesias
هايدغر، مارتن،	,Heidegger, Martin
هنري جينت،	,Henry of Ghent
هيرميس تريسمجيتس،	,Hermes Trismegistus
بطل الإسكندرية،	,Hero of Alexandria
هيرودوت،	,Herodotus
السداسية،	,hexagrams
الهندوسية،	,Hinduism
تاريخ،	,history
هوبز، توماس،	,Hobbes, Thomas
ثقوب،	,holes
شمولية،	,holism
الأرض المجوفة،	,hollow earth
أشباه البشر،	,hominids
تفسير تصغيري،	,homuncular explanation
هويمر، مايكل،	,Huemer, Michael
هيوم، ديفيد،	,Hume, David
تواضع،	,humility
دعابة،	,humor
هوسرل، إدموند،	,Husserl, Edmund
هكسلي، توماس،	,Huxley, Thomas
هيباتيا،	,Hypatia
أنا،	,I
المثالية	,idealism
هوية،	,identity
هوية غير القابلة للتمايز،	,identity of indiscernibles
غير محدد،	,ill – defined
وهم،	,illusion
الثبات،	,impermanence
أشياء مستحيلة،	,impossible objects

العمى غير المقصود، ,inattentional blindness
الهند، ,India
لا تمايز، ,indifference
عدم القدرة على الوصف، ,ineffability
انحدار لانهائي، ,infinite regress
عودة لانهائية، ,infinite return
لانهاية، infinity
المعتقد الفطري ,innate belief
حقائق مؤسسية ,institutional facts
ذرائعية، ,instrumentalism
اليد الخفية، ,invisible hand
الاسلام، ,Islam
جيمس، وليام، ,James, William
اليابان، ,Japan
جان ريبا، جيروم، ,Jean of Ripa, Jerome
اليسوعيون، ,Jesuits
عيسى، ,Jesus
جون فيلوبونوس، ,John Philoponus
جون سكوتس إيريوجينا، ,John Scotus Eriugena
جونز، ويليام، ,Jones, William
جوفيت، ميشيل، ,Jouvet, Michel
الكابالا، ,Kabbalah
كافكا، فرانز، ,Kafka, Franz
كانت، إيمانويل، ,Kant, Immanuel
كَرما، ,Karma
كبلر، يوهانس، ,Kepler, Johannes
كيركجارد، سورين، ,Kierkegaard, Soren
مخطط الحركة، ,kineograph
تجميع، ,kludge
عكس المادة اللزجة، ,knug
القرآن، ,Koran
لورنس العرب، ,Lawrence of Arabia
لايبنيز، جوتفريد، ,Leibniz, Gottfried
ليزلي، آلان، ,Leslie, Alan
ليوكيبوس، ,Leucippus

لويس، ديفيد، ,Lewis, David
لويس، ستيفاني، ,Lewis, Stephanie
الليبرتارية ,libertarianism
أكاذيب، ,lies
ضوء، ,light
ليفينغستون، مارجريت، ,Livingstone, Margaret
لوك، جون، ,Locke, John
لونجفيلو، هنري وادزورث، ,Longfellow, Henry Wadsworth
متحف اللوفر، ,Louvre museum
لوسيفر، ,Lucifer
لوكريتيوس، ,Lucretius
ليل، تشارلز، ,Lyell, Charles
التفكير السحري، ,magical thinking
موسى بن ميمون، ,Maimonides
مالثوس، توماس، ,Malthus, Thomas
ماندلبروت، بينوا، ,Mandelbrot, Benoit
المانوية، ,Manichaeism
ماركو بولو، ,Marco Polo
ماركوس، روث، ,Marcus, Ruth
شهداء، ,martyrs
ماركس، كارل، ,Marx, Karl
المادية، ,materialism
ماكسيمينوس، إمبراطور، ,Maximinus, Emperor
ماك تاغارت، جيمس، ,McTaggart, James
اللامعنى، ,meaninglessness
تأمل، ,meditation
مينونغ، أليكسيوس، ,Meinong, Alexius
ميلان، كلود، ,Mellan, Claud
ميرسر، جوني، ,Mercer, Johnny
ميريولوجي، ,mereology
ميرسين، مارين، ,Mersenne, Marin
ميسكالين، ,mescaline
ما وراء المعرفة، ,metacognitivism
استعارة، ,metaphor
الميتافيزيقيا، ,metaphysics

مايكل أنجلو،	Michelangelo,
ميشوت، ألبرت،	Michotte, Albert,
عالم مصغر،	microcosm,
ميل، جيمس،	Mill, James,
ميل، جون ستيوارت،	Mill, John Stuart,
ميلتون، جون،	Milton, John,
صورة معكوسة،	mirror image,
مبشرون،	missionaries,
خليط،	mixture,
تواضع،	modesty,
محمد،	Mohammed,
الموناليزا،	Mona Lisa,
المغول،	Mongols,
الوحدانية،	monism,
التوحيد،	monotheism,
مور، جي إي،	.Moore, G. E,
منعكس مورو،	Moro reflex,
حركة،	motion,
مو تزو،	Mo Tzu,
متعدد المواقع،	multilocation,
مومفورد، ستيفن،	Mumford, Stephen,
موسيقى،	music,
ماسك، إيلون،	Musk, Elon,
التصوف،	mysticism,
صناعة الأساطير،	mythmaking,
أسطورة جايجس،	Myth of Gyges,
أسطورة الشمس،	myth of the sun,
ناجارجونا،	Nagarjuna,
أسماء،	names,
نابليون،	Napoleon,
إنسان نياندرتال،	Neanderthals,
نفي،	negation,
سلبي،	negative
نيوتن، إسحاق،	Newton, Isaac,
منافذ،	Niches,

نيتشه، فريدريك،	,Nietzsche, Friedrich
ليل،	,night
أنموذج الضوء - الظلمة،	,Night - Light model
العدمية،	,nihilism
أكسيد النيتروز،	,nitrous oxide
الاسمية،	,nominalism
غير معرفية	,noncognitivism
رؤية غير إبستيمية،	,non - epistemic seeing
نوس،	,Nous
فرضية صفرية،	,null hypothesis
فرد صفري،	,null individual
مجموعة صفرية،	,null set
أعداد،	,numbers
الموضوعية،	,objectivism
اعتقاد غير موضوعي،	,objectless belief
إدراك غير موضوعي،	,objectless perception
إغفال،	,omission
القدرة المطلقة،	,omnipotence
حجة وجودية،	,ontological argument
تفاؤل،	,optimism
كائن حي،	,organism
الخطيئة الأصلية،	,original sin
الوثنيون،	,pagans
الم،	,pain
لوحة،	,painting
الروحية الشاملة،	,panpsychism
وحدة الوجود،	,pantheism
إعادة الصياغة،	,paraphrase
التخاطر،	,parapsychology
طفيليات،	,parasites
تفسير طفيلي،	,parasitical explanation
الحقيقة الطفيلية،	,parasitical truth
بارمينيدس،	,Parmenides
بارون،	,Paron
بخل،	,parsimony

بارسونز، تيرينس،	,Parsons, Terrence
باسكال، بليز،	,Pascal, Blaise
بيلاجيوس،	,Pelagius
بنروز، روجر،	,Penrose, Roger
إدراك الغياب،	,perception of absences
بيرسي، هنري،	,Percy, Henry
الديمومة،	,perdurantism
حيوان مثالي،	,perfect animal
الحركة الدائبة،	,perpetual motion
الهوية الشخصية،	,personal identity
منظور،	,perspective
بيروجيا، فينسينزو،	,Peruggia, Vincenzo
تشاؤم،	,pessimism
مقالات وهمية،	,phantom articles
تصوير،	,photography
بيكاسو، بابلو،	,Picasso, Pablo
انتحال،	,plagiarism
أفلاطون،	,Plato
المواد الصلبة الأفلاطونية،	,Platonic solids
الأفلاطونية،	,Platonism
مكتمل،	,plenum
بليني الأكبر،	,Pliny the Elder
بليني الأصغر،	,Pliny the Younger
أفلوطين،	,Plotinus
تعدد،	,plurality
الشعر،	,poetry
بوجيو براتشيوليني،	,Poggio Bracciolini
تعدد الآلهة،	,polytheism
عوالم ممكنة،	,possible worlds
إمكانية،	,potentiality
البراغماتية،	,pragmatism
بريست جون،	,Prester John
بريست، جراهام،	,Priest, Graham
المحرك الرئيسي،	,Prime Mover
الإجمالية،	,privacy

الحرمان،	,privation
العمليات،	,processes
تنبؤ،	,projection
بروست، مارسيل،	,Proust, Marcel
التعقل،	,prudence
ديونيسيوسية زائفة،	,Pseudo - Dionysius
مشكلات زائفة،	,Pseudo - problems
عقاب،	,punishment
فيثاغورس،	,Pythagoras
كوين،	,.Quine, W. V
اقتباس،	,quotation
رامسي، فرانك،	,Ramsey, Frank
العقلانية،	,rationalism
الاختزالية،	,reductionism
ندم،	,regret
ريد، توماس،	,Reid, Thomas
تناسخ الأرواح،	,reincarnation
دين،	,religion
التمييز العكسي،	,reverse discrimination
الهندسة العكسية،	,reverse engineering
انتحال عكسي،	,reverse plagiarism
الرومانسية،	,romanticism
مربع مستدير،	round square
راسل، برتراند،	,Russell, Bertrand
راسل، جون،	, ,Russell, John
رايل، جيلبرت،	,Ryle, Gilbert
سانت أبولونيا،	,Saint Apollonia
القديسة كاترين الإسكندرية،	,Saint Katherine of Alexandria
سان أبابيس،	,San Ababis
السنسكريتية،	,Sanskrit
سارتر، جان بول،	,Sartre, Jean - Paul
الشيطان،	,Satan
شيكل، بيتر،	,Schickele, Peter
شوبنهاور، آرثر،	,Schopenhauer, Arthur
شوبرت، فرانز،	,Schubert, Franz

علوم،	,science
سكوت، ديفيد،	,Scott, David
سكروج، إبنيزر،	,Scrooge, Ebenezer
النحت،	,sculpture
الرؤية ك	,seeing as
الذات،	,self
خلق الذات	,self - creation
تدمير الذات،	,self - destruction
المرجع الذاتي،	,self - reference
دلالات "العدم"،	,"semantics of "nothing
سينيكا،	,Seneca
سيكستوس امبريكوس،	,Sextus Empiricus
التظليل،	,shadowing
الظلال،	,shadows
الشامان،	,shaman
سيدجويك، هنري،	,Sidgewick, Henry
الصمت،	,silence
سيمون داسيا،	,Simon of Dacia
البساطة،	,simplicity
فرضية المحاكاة	,simulation hypothesis
سيفون،	,siphon
سماء،	,sky
نائم،	,sleep
سنفرو،	,Snefru
سقراط،	,Socrates
السفسطائيون،	,Sophists
فقاعة بحر جنوب،	,South Sea Bubble
فضاء،	,space
سبنسر، هربرت،	,Spencer, Herbert
سبينوزا،	,Spinoza
منعكس الإجفال،	,startle reflex
نصب ستيفي راي فو التذكاري،	,Stevie Ray Vaugh Memorial
شتراوس، ليو،	,Strauss, Leo
الذاتية،	,subjectivism
سامية،	,sublime

قوام،	,subsistence
مادة،	,substance
حجة الطرح،	,subtraction argument
سبب كاف،	,sufficient reason
انتحار،	,suicide
خارق،	,supernatural
سويفت، جوناثان،	,Swift, Jonathan
الحس المتزامن،	,synesthesia
الطاوية،	,Taoism
حشو	,tautology
تايلور، ريتشارد،	,Taylor, Richard
تعليم،	,teaching
طاليس ميليتس،	,Thales of Miletus
مسرح،	,theater
الزمن،	,time
تسامح،	,tolerance
تناسخ الأرواح،	,transmigration
تروزينر، جوانا،	,Trosiener, Johanna
حقيقة،	,truth
القيمة الحقيقة،	,truth – value
رهاب الثقوب،	,trypophobia
تايسون، نيل ديغراس،	,Tyson, Neil deGrasse
أولام، ستانيسلو،	,.Ulam, Stanislaw M
وحيد القرن الأسطوري،	,unicorn
مذهب المنفعة،	,utilitarianism
خواء،	vacuum
مضخة مفرغة،	,vacuum pump
نقطة التلاشي،	,vanishing point
متغير،	,variable
احتمال،	,verisimilitude
دوار،	,vertigo
الجسيمات الافتراضية،	,virtual particles
فولتير،	,Voltaire
فون جويريك، أوتو،	,Von Guericke, Otto
ويلر، جون،	,Wheeler, John

وايتهيد، ألفريد،	,Whitehead, Alfred
إرادة الحياة،	,Will to Life
فيتجنشتاين، لودفيج،	,Wittgenstein, Ludwig
ييـن يانغ،	,yin yang
زينو،	,Zeno of Elea
صفر،	,zero
زيوس،	,Zeus
زيوكسيس،	,Zeuxis

المراجع

Allen, Joseph P. 1972. "Summary of Scientific Results." In NASA Manned Spacecraft Center, Apollo 15 Preliminary Science Report, 2 - 1 - 2 - 11. Washington, DC: National Aeronautics and Space Administration, Scientific and Technical Information Office.

Anscombe, Elizabeth. 1981. From Parmenides to Wittgenstein. Oxford: Blackwell.

Aristotle. 1941. The Basic Works of Aristotle. Edited by Richard McKeon. New York: Random House.

Augustine. 1872. City of God. Translated by M. Dods. Edinburgh: T. & T. Clark.

Augustine. 1948. "Concerning the Teacher." In Basic Writings of Saint Augustine, vol. 1, edited by Whitney J. Oates, 351 - 95. New York: Random House.

Augustine. 1953. "Of True Religion." In Earlier Writings, edited and translated by John H. S. Burdleigh, 225 - 283. Philadelphia: Westminster Press.

Augustine. 1963. The Trinity. In Fathers of the Church, vol. 45, translated by Stephen McKenna. Washington, DC: Catholic University of America Press.

Augustine. 1982. The Literal Meaning of Genesis vol. 1. Translated by John Hammond Taylor. Vol. 41 of Ancient Christian Writers: The Works of the Fathers in Translation. Edited by Johannes Quastern, Walter J. Burghardt, and Thomas Comerford Lawler. New York: Newman.

Augustine. 2010a. Confessions. Translated by V. J. Bourke. Washington, DC: Catholic University of America Press.

Augustine. 2010b. On the Free Choice of the Will, On Grace and Free Choice, and Other Writings. Edited and translated by Peter King. New York: Cambridge University Press.

Augustine. 2007. Nicene and Post - Nicene Fathers First Series, St. Augustine: Gospel of John, First Epistle of John, Soliliques. Translated by Schaff, Philip. New York: Cosimo Classics, (1888) 2007.

Austin, J. L. 1975. How to Do Things with Words. 2nd ed. Edited by M. Sbisà and J. O. Urmson. Oxford: Oxford University Press.

Bacon, Francis. 1859. Apophthegms. In The Works of Francis Bacon, edited by Basil Montagu. Philadelphia: Parry & McMillan.

Bergson, Henri. (1911) 1944. Creative Evolution. Translated by A. Mitchell. New York: Modern Library.

Bergson, Henri. (1932) 1977. The Two Sources of Morality and Religion. Translated by R. Ashley Audra and Cloudsley Brereton, with the assistance of W. Horsfall Carter. Notre Dame, IN: University of Notre Dame Press.

Bergson, Henri. (1946) 1992. The Creative Mind. Translated by Mabelle L. Andison. New York: Citadel Press.

Berkeley, George. 1948. The Works of George Berkeley, Bishop of Cloyne. Edited by A. A. Luce and T. E. Jessop. 9 vols. London: Thomas Nelson and Sons.

Bostrom, Nick. 2003. "Are We Living in a Computer Simulation?" Philosophical Quarterly 53 (211): 243 - 55.

Brewster, D. 1855. Memoirs of the Life, Writings and Discoveries of Sir Isaac Newton. Vol. 2. Edinburgh: Constable.

Bruner, Katherine Frost. 1942. "Of Psychological Writing: Being Some Valedictory Remarks on Style." Journal of Abnormal and Social Psychology 37 (1): 52 - 70.

Buddha. 1976. The Dhammapada: The Sayings of the Buddha. A new rendering by Thomas Byrom. New York: A. A. Knopf.

Camus, Albert. 1953. The Myth of Sisyphus and Other Essays. Translated by Justin O'Brien. New York: Alfred A. Knopf.

Casati, Roberto. 2018. "Shadows, Objects, and the Lexicon." In Perceptual Ephemera, edited by Thomas Crowther and Clare Mac Cumhaill, 154 - 71. New York: Oxford University Press.

Casati, Roberto, and Patrick Cavenagh. 2019. The Visual World of Shadows. Cambridge, MA: MIT Press.

Casati, Roberto, and Achille Varzi. 1994. Holes and Other Superficialities. Cambridge, MA: MIT Press.

Chalmers, David J. 2022. Reality+: Virtual Worlds and the Problems of Philosophy. New York: Norton.

Cicero.1923. de Divinatione translated by W.A. Falconer vol. XX. Cambridge, Massachusetts: Harvard University Press.

Clarke, Arthur C. 1969. "Beyond the Moon: No End." Time, July 18.

Coleridge, Samuel T. 2019. The Collected Works of Samuel Taylor Coleridge, Vol. 14: Table Talk, Part II. Princeton, New Jersey: Princeton University

Press.

Confucius. 1871. The Great Learning. Translated by James Legge. London: N.Trübner.

Curd, Patricia. 2002. "The Metaphysics of Physics: Mixture and Separation in Empedocles and Anaxagoras." In Presocratic Philosophy: Essays in Honour of Alexander Mourelatos, edited by Victor Caston and Daniel W. Graham, 139 - 58. New York: Routledge.

Da Vinci, Leonardo. 1978. The Codex Atlanticus of Leonardo Da Vinci : a Catalogue of Its Newly Restored Sheets. Edited by Carlo Pedretti. New York: Johnson Reprint Corp.

Dante, Alighieri. 1982. Dante's Cantos: Lines of Inferno. Translated C. Sreechinth. Uintah Basin, Utah: UB Tech.

DeMorgan, Augustus. 1915. A Budget of Paradoxes. 2nd ed. Vol. 2. London: Open Court.

Diels, H., and W. Kranz. 1951. Die Fragmente der Vorsokratiker. 6th ed. Berlin: Weidmann.

Dieter, K. C., B. Hu, D. C. Knill, R. Blake, and D. Tadin. 2014. "Kinesthesis Can Make an Invisible Hand Visible." Psychological Science 25: 66 - 75.

Diogenes Laertius. 1925. Lives of Eminent Philosophers. Translated by R. D. Hicks. 2 vols. Cambridge, MA: Harvard University Press.

Donnellan, Keith. 1974. "Speaking of Nothing." Philosophical Review 83: 3 - 31. Duchamp, Marcel. 1919. L.H.O.O.Q published in 391, n. 12, March 1920.

Einstein, Albert. (1918) 2002. "Motives for Research." Doc. 7 in The Collected

Papers of Albert Einstein, vol. 7, edited by John Stachel et al., 41 - 44. Princeton, NJ: Princeton University Press.

Epictetus. 1916. The Discourses and Manual. Translated by P. E. Matheson. Oxford: Clarendon Press.

Fadiman, Clifton. 1985. The Little, Brown Book of Anecdotes. Boston: Little, Brown.

Fridugsis of Tours. 1995. On the Being of Nothing and Shadows. Translated by Paul Vincent Spade, downloaded from https://scholarworks.iu.edu.

Gale, Richard M. 1976. Negation and Non - Being. London: William Clowes & Sons.

Grant, Edward. 1981. Much Ado about Nothing: Theories of Space and Vacuum from the Middle Ages to the Scientific Revolution. Cambridge: Cambridge University Press.

Guericke, Otto von. 1672. Experimenta Nova (ut vocantur) Magdeburgica de Vacuo Spatio. Amsterdam: Joannes Jansson à Waesberg.

Gray, Jeffrey Allan. 1987. The Psychology of Fear and Stress. Cambridge: Cambridge University Press.

Hall, Katherine. 2019. "Did Alexander the Great Die from Guillain - Barré Syndrome?" Ancient History Bulletin 32: 106 - 128.

Harman, Gilbert. 1963. "Generative Grammars without Transformational Rules: A Defense of Phrase Structure." Language 39: 597 - 616.

Harman, Gilbert. 1988. "The Simplest Hypothesis." Critica 20 (59): 23 - 42.

Hawking, Stephen, and Leonard Mlodinow. 2010. The Grand Design. New

York: Bantam Books.

Hegel, G. W. F. 1929. Science of Logic. Translated by W. H. Johnson and G. L. Slaughter, Vol. 1. London: Allen and Unwin.

Homer. 1911. The Odyssey. Translated by H. B. Cotterill. London: George G. Harrap.

Herodotus. 1920. The Histories. Translated by A. D. Godley. Cambridge, MA: Harvard University Press.

Huemer, Michael. 2021. "Existence Is Evidence of Immortality." Noûs 55 (1): 128 - 51.

James, William. 1882. "On Some Hegelisms." Mind 7: 186 - 208.

James, William. (1890) 1981. The Principles of Psychology. 2 vols. Cambridge, MA: Harvard University Press.

Judovitz, Dalia. 1987. "Rendez - vous with Marcel Duchamp: Given." Dada/ Surrealism 16, 184 - 202. Iowa City, Iowa: University of Iowa.

Kant, Immanuel. (1781) 1965. Critique of Pure Reason. Translated by N. K. Smith. London: Macmillan.

Kant, Immanuel. (1790) 1911. Critique of Judgment. Translated by James Creed Meredith. 2 vols. Oxford: Clarendon Press.

Kant, Immanuel. (1785) 1996. The Metaphysics of Morals. Translated by Mary Gregor. Cambridge, UK: Cambridge University Press.

Kripke, Saul. 1980. Naming and Necessity. Oxford: Basil Blackwell.

Lao - tzu. 1974. Tao Te Ching. Translated by Gia - fu Feng and Jane English. London: Wildwood House.

Leder, D., Hermann, R., Hüls, M., Russo, G., Hoelzmann, P., Nielbock, R., Böhner, U., Lehmann, J., Meier, M., Schwalb, A., Tröller - Reimer, A., Koddenberg, T., and Terberger, T. A. "51,000 - year - old engraved bone reveals Neanderthals' capacity for symbolic behaviour." Nature Ecology and Evolution. 2021 Jul 5. doi: 10.1038/s41559 - 021 - 01487 - z. Epub ahead of print. Erratum in: Nat Ecol Evol. 2021 Jul 20: PMID: 34226702.

Leibniz, Gottfried Wilhelm. (1686) 1966. "General Inquiries about the Analysis of Concepts and of Truths." In Logical Papers, edited by G. H. R. Parkinson, 47 - 87. Oxford: Clarendon Press.

Leibniz, Gottfried Wilhelm. 1703. Die mathematische schriften von Gottfried Wilhelm Leibniz, vol. VII C. I, edited by Gerhardt 1859: 223 - 227. Translated from the French by Lloyd Strickland. Berlin: A. Ascher.

Leibniz, Gottfried Wilhelm. 1966. Logical Papers. Edited by G. H. R. Parkinson. Oxford: Clarendon Press.

Leibniz, Gottfried Wilhelm. 1996. "On the Ultimate Origination of Things." In Leibniz, New Essays on Human Understanding, edited by Roger Ariew. Cambridge: Cambridge University Press.

Leslie, Alan. 1994. "Pretending and Believing: Issues in the Theory of ToMM."Cognition 50: 211 - 38.

Legge, James. 1891. The Writings of Chuang Tzu. Oxford: Oxford University Press.

Lewis, David, and Stephanie R. Lewis. 1970. "Holes." Australasian Journal of Philosophy 48: 206 - 12.

Lewis, Katherine J. 2000. The Cult of St Katherine of Alexandria in Late Medieval England. Woodbridge: Boydell.

Liddell, Henry George, and Robert Scott, rev. Henry Stuart Jones. 1968. A Greek - English Lexicon. Oxford: Oxford University Press.

Liu, JeeLoo. 2014. "Was There Something in Nothingness? The Debate on the Primordial State between Daoism and Neo - Confucianism." In Nothingness in Asian Philosophy, edited by JeeLoo Liu and Douglas Berger, 181 - 96. London: Routledge.

Locke, John. (1690) 1975. An Essay Concerning Human Understanding. edited by P. H. Nidditch. Oxford: Clarendon Press.

Longfellow, Henry Wadsworth. 1922. The Complete Poetical Works of Longfellow. Edited by Horace Elisha Scudder. Boston: Houghton Mifflin.

Lucian. 1901. "A Slip of the Tongue in Greeting." In Dialogues and Stories from Lucian of Samosata, translated by Winthrop Dudley Sheldon. Philadelphia: Drexel Biddle.

Lucretius. 1916. De Rerum Natura. Translated by William Ellery Leonard. New York: E. P. Dutton.

Lundgren, Erick J., et. al. 2021. "Equids Engineer Desert Water Availability." Science 30: 491 - 495.

Maimonides, Moses. 1904. The Guide for the Perplexed. Translated by M. Friedlander. London: George Routledge and Sons.

Mandel, Oscar. 1964. Chi Po and the Sorcerer. United Kingdom: C.E. Tuttle.

Merton, Thomas. 1969. The Way of Chuang Tzu. New York: New Directions.

Meinong, Alexius. 1904. "Über Gegenstandstheorie." Translated as 'The Theory of Objects.' In Realism and the Background of Phenomenology, edited by R. M. Chisholm Glencoe, 76 – 117. IL: Free Press, 1960; re – print: Atascadero, CA: Ridgeview, 1981.

Michotte, Albert. 1946. The Perception of Causality. Translated by T. R. Miles and E. Miles. London: Methuen, 1962.

Mill, John Stuart. (1882) 1979. An Examination of Sir William Hamilton's Philosophy. Edited by J. Robeson. Toronto: University of Toronto Press.

Millán, Elizabeth. 2017. "Aesthetic Humanism: Poetry's Role in the Work of Friedrich Schlegel and Schopenhauer." In The Palgrave Schopenhauer Handbook, edited by S. Shapshay, 179 – 96. London: Palgrave Macmillan.

Moore, G. E. 1903. "The Refutation of Idealism." Mind, new series, 12 (48): 433 – 53.

Moore, T., Bartholomew, B., Linsley, J. L., Dowden, W. S. 1983. The Journal of Thomas Moore. United Kingdom: University of Delaware Press.

Mumford, Stephen. 2021. Nothing Really Matters. Oxford: Oxford University Press.

Newton, Isaac. 2004. Philosophical Writings. Edited by A. Janiak. Cambridge: Cambridge University Press.

Nietzsche, Friedrich. (1889) 1998. Twilight of the Idols. Translated by R. J. Hollingdale. Oxford: Oxford University Press.

Odlyzko, Andrew. 2019. "Newton's financial misadventures in the South Sea Bubble." The Royal Society Journal of the History of Science 7329 – 7359.

Parfit, Derek. 1984. Reasons and Persons. Oxford: Oxford University Press.

Parsons, Terence. 1980. Nonexistent Objects. New Haven: Yale University Press.

Pascal, Blaise. (1669) 1910. Pensées. Translated by W. F. Trotter. New York: P. F. Collier & Sons.

Plato. 1892. The Dialogues of Plato translated into English with Analyses and Introductions by B. Jowett, M.A. in Five Vol. 3rd edition revised and corrected. Oxford University Press.

Plotinus. 1991. The Enneads. Translated by Stephen MacKenna, abridged and edited by John Dillon. London: Penguin.

Plutarch. 1914. Plutarch's Lives and Writings. Edited by A. H. Clough and William W. Goodwin. London: Simpkin, Hamilton, Kent.

Priest, Graham. 2016. Towards Non – Being. Oxford: Oxford University Press.

Proops, Ian. 2001. "Russell on Substitutivity and the Abandonment of Propositions." Philosophical Review 120(2): 151 – 205.

Rée, J. 1999. I See a Voice. London: HarperCollins.

Rekdal, Ole Bjørn. 2014. "Monuments to Academic Carelessness: The Self – Fulfilling Prophecy of Katherine Frost Bruner." Science, Technology, and Human Values 39 (5): 744 – 58.

Robinson, Jenefer. 1995. "Startle." Journal of Philosophy: 92(2): 53 – 74.

Russell, Bertrand. 1903. The Principles of Mathematics. Cambridge: Cambridge University Press.

Russell, Bertrand. 1905. "On Denoting." Mind 14: 479 – 93.

Russell, Bertrand. 1919. Introduction to Mathematical Philosophy. London: George Allen and Unwin.

Russell, Bertrand. 1921. The Analysis of Mind. London: George Allen and Unwin.

Russell, Bertrand. 1940. An Inquiry into Meaning and Truth. London: George Allen and Unwin.

Russell, Bertrand. 1948. Human Knowledge: Its Scope and Limits. London: George Allen and Unwin.

Russell, Bertrand. 1959. My Philosophical Development. London: George Allen and Unwin.

Russell, Bertrand. 1968. Autobiography. London: George Allen and Unwin.

Russell, Bertrand. 1985. The Philosophy of Logical Atomism. La Salle, IL: Open Court.

Russell, Bertrand, and Alfred North Whitehead. 1910 – 13. Principia Mathematica. Cambridge: Cambridge University Press.

Russell, D. W. B. R. 1975. My Quest for Liberty and Love. United States: Putnam.

Sainsbury, Robert. 1973. "Discrimination Learning Utilizing Positive or Negative Cues." Canadian Journal of Psychology 27(1): 46 – 57.

Sartre, Jean Paul. 1964. Words. Translated by Irene Clephone. London: Hamish Hamilton.

Sartre, Jean Paul. 1969. Being and Nothingness. Translated by Hazel E. Barnes. New York: Washington Square Press.

Sartre, Jean Paul. 2004. Imaginary. Translated by Jonathan Webber. New York: Routledge.

Schopenhauer, Arthur. 1819. The World as Will and Representation. Translated by E. F. J. Payne. 2 vols. Indian Hills, CO: Falcon Wing Press, 1958.

Schopenhauer, Arthur. 1851. Parerga and Paralipomena: Short Philosophical Essays. Translated by E. F. J. Payne. (1974). Oxford: Oxford University Press.

Schopenhauer, Arthur. (1890) 2007. Counsels and Maxims. New York: Cosimo.

Schopenhauer, Arthur. 1912. Counsels and Maxims: Being the Second Part of Arthur Schopenhauer's Aphorismen Zur Lebensweisheit. Translated by T. Bailey Saunders, M.A. United Kingdom: S. Sonnenschein & Company.

Sedley, D. N. 1998. Lucretius and the Transformation of Greek Wisdom. Cambridge University Press.

Sidgwick, Henry. 1874. The Methods of Ethics. London: Macmillan. Siderits, Mark. 2021. Buddhism as Philosophy. Hackett.

Sorensen, Roy. 2007. "The Vanishing Point: Modeling the Self as an Absence." The Monist 90(3): 432 - 456.

Sorensen, Roy. 2008. Seeing Dark Things: The Philosophy of Shadows. New York: Oxford University Press.

Sorensen, Roy. 2015. "Perceiving Nothings." In Oxford Handbook of Perception, edited by Mohan Matthen. Oxford University Press.

Strauss, Leo. 1952. Persecution and the Art of Writing. Chicago: University of Chicago Press.

Sze, Mai - mai, and Michael J. Hiscox. 2015. The Mustard Seed Garden Manual

of Painting: Chieh Tzu Yuan Hua Chuan, 1679 – 1701. Princeton, NJ: Princeton University Press.

Taylor, C. C. W. 1999. The Atomists: Leucippus and Democritus. Fragments, a Text and Translation with Commentary. Toronto: University of Toronto Press.

Taylor, Richard. 1952. "Negative Things." Journal of Philosophy 49: 433 – 49.

Ulam, Stanislav. 1976. Adventures of a Mathematician. Berkeley: University of California Press.

Warren, J. 2004. Facing Death: Epicurus and His Critics. New York: Oxford University Press.

Whitehead, Alfred North. (1929) 1978. Process and Reality. New York: Free Press.

الناشيء

149 / 8

س 949 سورنسون، روي

العدم تاريخ فلسفي/ روي سورنسون؛

ط1 - بغداد : دار ومكتبة عدنان، 2023.

ص (426)، سم (17*24)

1- العدمية أ. جبر، لؤي خزعل (مترجم)

م٠و

2023 / 2578

المكتبة الوطنية / الفهرسة أثناء النشر

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (2578) لسنة 2023

الناشئ

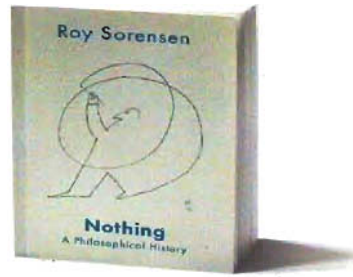

العدم
تأريخٌ فلسفي

" تأريخٌ مُمتِعٌ لفكرَة العَدَم - والغيابات والإغفالات والظِلال - من اليونان القديمَة حتى القرن الحادي والعشرين."

كيفَ يُنتِجُ العَدَمُ الوجودَ؟ قد يُشير غيابُ الشيء إلى صفريَّة أو خلاء، وفراغٍ خامِلٍ كالظِل. ولكنَّ "العَدَم" أحد أقوى الأفكار التي أدركها العقل البشري على الإطلاق. وهذا الكِتاب المُمتِع لروي سورنسن جولَةٌ حيَّة في تأريخ وفلسَفَة العَدَم، وتبيانٌ لكيفيَّة إدراك - ومصارَعَة - كثير مِن المُفكرين عبر التاريخ للقوَّة الغامِضَة للغياب، وكيفَ ساهَمَت هذه الأفكار عن الظِلال والفجوات والثقوب - بإيجابيَّة بالِغَة - في تطوير جملَة من أهم أفكار البشريَّة. بمزيج سورنسن المُمتِع من النوادر والألغاز والإشارات والتخمينات الفلسفيَّة، رُتب هذا الكتاب زمنياً، فانطلَقَ من الطاويين والبوذيين واليونانيين القُدماء، وانتَقَل إلى العصور الوسطى وبدايات العصر الحديث، وصولاً إلى الوجوديين والفلسَفَة المُعاصرة، فكانَت النتيجة جولة مثيرة عبر تاريخ الفكر البشري من منظورٍ جديدٍ واستثنائي.

DESIGNED BY